(٣)

التربية الإسلامية
فى
سورة «آل عمران»

تأليف
الدكتور على عبد الحليم محمود
من علماء الأزهر

رقم الإيداع
٩٨/٧٠٣٨

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٨ ميدان السيدة زينب ت : ٣٦١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢ ص ب ١٦٣٦

التربية الإسلامية

فى

ســـورة «آل عمـــران»

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــــداء

إلى المسلمين الراغبين فى أن يربوا أنفسهم وأبناءهم تربية إسلامية، نابعة من مصدرى الإسلام الرئيسين: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وإلى العاملين فى مجال تربية الأجيال المسلمة.

وإلى رجال الدعوة الإسلامية فى كل مكان.

وإلى الذين يحملون عبء العمل فى الحركة الإسلامية المعاصرة.

وإلى المهتمين بالتربية الإسلامية فى كل مجال.

إليهم أقدم هذه الحلقة الثالثة من سلسلة «التربية فى القرآن الكريم» وهى:

التربية الإسلامية فى سورة «آل عمران».

سائلا الله تبارك وتعالى أن ينفع المسلمين بما جاء فى كتابه الكريم وسنة رسوله ﷺ «فلن يضل من تمسك بهما»، كما أخبر المعصوم ﷺ، والله سبحانه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

علي عبد الحليم محمود

بين يدى هذا الكتاب

نحمد الله تبارك وتعالى ونستعينه ونستهديه، مع إيماننا به وتوكلنا عليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

ونصلى ونسلم على رسله وأنبيائه وعلى خاتمهم محمد وعلى آله وصحبه، وندعو الله تعالى لكل من سار على دربه ﷺ.

وبعد:

فهذه هى الحلقة الثالثة من سلسلة: «التربية فى القرآن الكريم» تحمل اسم: «التربية الإسلامية فى سورة آل عمران».

ولقد كان لنا حديث فى المدخل إلى هذه السلسلة[1] عن عدد من الموضوعات فصلناها هناك، ونحب أن نجملها هنا؛ لكى نذكر بها فهى مدخل إلى كل حلقة من حلقات هذه السلسلة.

وهذه الموضوعات نوجزها هنا فى النقاط التالية:

*** النقطة الأولى:**

تميّز القرآن الكريم عن الكتب السماوية التى نزلت قبله بميزات هى:

– أن القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية وخاتمها، وقد تكفل الله تعالى بحفظه بنفسه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)﴾ [الحجر: ٩].

وأما الكتب السماوية الأخرى فقد استحفظ عليها الربانيين والأحبار: ﴿... يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ (44)﴾ [المائدة: ٤٤].

*** والنقطة الثانية:**

أن الله تعالى جعل القرآن الكريم مهيمنا على سائر الكتب السماوية: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ (48)﴾ [المائدة: ٤٨].

---

(١) كان ذلك فى مدخل الحلقة الأولى: التربية الإسلامية فى سورة المائدة، نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ القاهرة.

* النقطة الثالثة:

أن الله تعالى جعل القرآن الكريم أكمل الكتب وأتمها، وأرضاها له سبحانه وتعالى لتدين به البشرية إلى يوم القيامة: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ③ ﴾ [المائدة: ٣].

* والنقطة الرابعة:

أن الله تبارك وتعالى قد أودع القرآن الكريم كل شيء من أمور الدين - والدنيا كلها بما فيها من نظم وقيم جزء من الدين -: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ㊳ ﴾ [الأنعام: ٣٨]. ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ㊾ ﴾ [النحل: ٨٩].

* والنقطة الخامسة.

أن الله تبارك وتعالى جعل السنة النبوية المطهرة تفصيلا لما اجمل في القرآن الكريم، وشرحا لما أوجز: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ㊹ ﴾ [النحل: ٤٤].

و ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ⑦ ﴾ [الحشر: ٧].

والرسول ﷺ في سنته لاينطق عن الهوى وإنما السنة كلها وحي من الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ ﴾ [النجم: ٣، ٤].

* النقطة السادسة:

أن الله تعالى جعل القرآن الكريم معجزة باقية إلى يوم القيامة وجعل سائر معجزات الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا قبل محمد ﷺ منتهية بانتهاء حياة هؤلاء الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فقد روى البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء، من نبي، إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

ومعنى الحديث الشريف أن معجزات الأنبياء السابقين انقرضت بانقراض أعصارهم، لأنها كانت حسية كناقة صالح وعصا موسى عليهما السلام، فلم يشاهدها إلا من حضرها

من الناس، أما معجزة القرآن الكريم فمستمرة إلى يوم القيامة تشاهدها الأجيال إلى يوم القيامة.

*** والنقطة السابعة:**

فى توضيح مفهوم التربية فى القرآن الكريم، على اعتبار أن القرآن الكريم مادبة الله، وأن المسلمين مطالبون بأن يتعلموا من هذه المادبة، فقد روى الدارمى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن مادبة الله فتعلموا من مادبته ما استطعتم.....» .

وروى البخاري بسنده عن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» .

فالتربية – كما يُفهم من هذين الحديثين الشريفين تعلّم وتعليم، وأهم ما يحتاج الإنسان إلى تعلمه لكى يسعد فى معاشه أمور ثلاثة:

– ما يصحح به عقيدته وينقيها من الشوائب – وذلك هو التوحيد – وما يُلتمس ذلك إلا فى القرآن الكريم ولايُتعلّم إلا منه.

وتوحيد الله تبارك وتعالى يحقق للإنسان الصحة النفسية والعقلية والسلوك الاجتماعى الراشد فى الحياة، لأن من مقتضى التوحيد التلقى عن الله وحده، وكل ما يُتلقى عن الله تعالى ففيه سعادة الإنسان فى دنياه وآخرته.

– وما يعرف به العبادة الصحيحة لله تعالى، ويتعلم ذلك من القرآن الكريم والسنة النبوية التى شرحته.

– وما يعرف منه كيف يتعامل مع الناس، ومع نفسه، ومع خالقه، ومع قوى الشر فى هذه الدنيا وهم شياطين الإنس والجن.

وكل ذلك شرط لتستقيم حياة الإنسان وتؤدى إلى رضا الله عز وجل، وتحقق له ولغيره من الناس الحياة الإنسانية الكريمة .

*** والنقطة الثامنة:**

فى منهج التربية فى القرآن الكريم، قد اشتمل الحديث عن هذا المنهج على توضيح سمات هذا المنهج وهى:

– أنه منهج من صنع الله عز وجل.

– وأنه منهج شامل متكامل.

– وأنه منهج صالح لجميع الناس فى كل زمان ومكان.

– وأنه منهج متوازن يلائم فطرة الإنسان ويتيح لكل طاقاته ان تعبر عن نفسها فى ظل شرعية عادلة ومرنة.

– وأنه منهج إيجابى عملى، أى ليس مجرد نظريات وتجريديات.

– وأنه منهج يعترف بواقع الإنسان الذى يعيشه، ويعالج هذا الواقع أحسن علاج.

– وأنه منهج يستهدف سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة.

*** والنقطة التاسعة:**

هى التعريف بميادين هذا المنهج القرآنى، وهى:

– الإنسان نفسه، وكيف يربّى تربية إسلامية؟

– والعائلة وكل أفرادها، وكيف ينشئون تنشئة إسلامية؟

– والمجتمع المحلى «الوطن» الذى يعيش فيه المسلم، وكيف تكون نظم هذا المجتمع وقيمه وإيقاعاته كلها إسلامية؟

– ومجتمع الأمة الإسلامية «الوطن أو الأوطان الإسلامية»، وكيف تمارس علاقاتها وفق مبادئ الإسلام وقيمه وآدابه؟

– والمجتمع العالمى، وكيف يكون التعامل معه وفق مبادئ الإسلام وآدابه ونظمه؟

*** والنقطة العاشرة**

كانت فى الحديث عن مفردات التربية فى بعض سور القرآن الكريم التى سوف نتناولها فى هذه السلسلة وهى سبع سور كريمة هى:

سورة المائدة، وسورة النور، وسورة آل عمران، وسورة الأحزاب، وسورة الأنفال، وسورة النساء، وسورة التوبة.[1] وقد تناول الحديث عن هذه المفردات نوعين منها وهما:

---

(١) صدر منها كتابان عن التربية الإسلامية فى سورة المائدة، وفى سورة النور، وهذا هو الثالث، ونوالى نشر باقيها إذا أذن الله.

– مفردات الإنسان نفسه: روحه وعقله وبدنه ودينه وحسه الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والجهادى والجمالى.

– ومفردات التربية نفسها: وهى التربية لكل مفردة من مفردات الإنسان.(١)

* كما تحدثت فى هذا المدخل إلى هذه السلسلة بالتفصيل عن منهجى فى هذا التفسير التربوى لبعض سور القرآن الكريم.

– وحددت الهدف من هذا التفسير التربوى لهذه السور القرآنية الكريمة وهو:

استلهام ما تهدى إليه آيات القرآن الكريم من قيم تربوية توجهنا إلى حياة إنسانية كريمة تُحفظ فيها الحقوق وتؤدّى الواجبات، وتقوم على الشورى والعدل، وتستهدف صالح الإنسان فى دنياه وآخرته.

– و أوضحت خطوات هذا المنهج وهى:

* عرض وجيز للموضوعات التى تضمنتها السورة كلها، مع التركيز على أبرز هذه الموضوعات فى حياتنا الإنسانية، ومدى ما نصلح به عيوب أنفسنا ومجتمعاتنا، وما يصلح لنا ديننا ودنيانا.

* وتسجيل الآية أو الآيات موضوع التفسير لتكون أمام القارئ للنظر والتدبر، وليكون على ذكر لها كلما قلنا: هذه الآية أو الآيات تعنى كذا أو تأمر بكذا أو تنهى عن كذا أو تجيز، أو تعد، أو توعد بكذا....

* وإلقاء الضوء على معانى الآيات الكريمة التى استهدفت توضيح مقاصدها، وتأكيد فاعليتها، وتأثيرها فى روح الإنسان وعقله وبدنه وسائر مفرداته التى أشرنا إليها آنفا، وبخاصة: الأمة الإسلامية التى ينتمى إليها، والعالم الإنسانى الذى يحيط به، وكيف يتعامل مع ما يسود فيه من مذاهب وتيارات، ومؤمنين وغير مؤمنين، وكيف يبلغ دعوة الله إلى عباده فى هذا الخضم المضطرب، وكيف يجاهد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

* واستنباط المواقف التربوية العامة التى تستفاد من الآية أو الآيات، فى صورة نقاط ترصد وتُعد لتكون الفائدة أكبر، وأيسر، وليكون المسلم على بينة من أمر نفسه فى كل ما من شأنه أن يُتعلم من هذه الآيات.

---

(١) صدر منها كتابان عن التربية الروحية والتربية الخلقية، وسنوالى إصدار باقيها إذا أعان الله تبارك وتعالى.

مع تأكيد الحقيقة التى تقول: إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هما الهدى والنور والصراط المستقيم والنجاة والفلاح للإنسان فى دنياه وآخرته .

* واستنباط المواقف التربوية التى تُتعلم من الآية الكريمة أو الآيات فى مجال الدعوة إلى الله، ومجال الحركة الإسلامية وما تشتمل عليه من إصلاح وتجديد وحل لمشكلات الإنسان، وكل ذلك من شأنه أن يربى الناس تربية إسلامية .

وربما كان ذلك هو أبرز ما تعمدت أن أوضحه وأن أبذل فيه من الجهد، واحشد له من الأسباب ما وفقنى الله تعالى إليه، بعد معاناة ما يقرب من نصف قرن أو يزيد فى العمل فى مجال الدعوة والحركة، إيمانا منى – بعد هذه التجارب – بأن الدعاة إلى الله والحركيين الإسلاميين فى أشد الحاجة إلى أن يتعلموا من القرآن الكريم ما يكون لهم زادا فى طريق الدعوة إلى الله، وما يؤصلون به عملهم فى مجال الحركة الإسلامية .

* وإنما كان ذلك من أهم خطوات منهجى فى تفسير هذه السور الكريمة، ليقينى بأن طرق الدعوة والحركة مملوءة بالعقبات والعراقيل، والأعداء الصرحاء أو المنافقين، ولإيمانى بأن التغلب على كل ذلك يُلتمس فى القرآن الكريم وما فصلته السنة النبوية مما أُجمل فى القرآن الكريم .

إن التغلب على تلك العقبات أو هؤلاء الأعداء نجده فى القرآن الكريم :

* إما تصريحا فى بعض آياته أو بعض الأحاديث النبوية الشريفة وبخاصة فى الأخبار والقصص وضرب الأمثال، أو فى الأمر والنهى والإلزام .

* وإما نجده فى القرآن الكريم تلميحا وإشارة ورمزاً، عندما يطالبنا فى كثير من آياته بالسير فى الأرض والنظر فى عاقبة المكذبين .

* والعاملون فى مجال الدعوة إلى الله والحركة الإسلامية يعرفون بل يرون ويشاهدون ويعانون مما يبثه لهم أعداء الحق والهدى وأنصار الباطل والهوى من متاعب ومصاعب، وما يعرضونهم له من معاداة ومحاربة، خوفا على أنفسهم من تطبيق منهج الله الذى سوف يحد من تجاوزاتهم ويمنع ظلمهم واعتسافهم بحقوق الناس .

الدعاة والحركيون – وهم يتعرضون لهذا ولغيره – يعلمون علم اليقين أن تلك سنة الله فى المدافعين عن دينه المتواصين بالحق، سنته فيهم أن يمتحنهم بالفتنة بعد الفتنة وأن يبتليهم بالمحنة بعد المحنة، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين .

* وفى موازين الحق ومعايير الدين أن أولئك الذين يختارهم الله تعالى ليمحصهم بالمحنة هم أسعد الناس حظا وأقربهم إلى الله تعالى. وحسبهم - على الرغم من المحن وما تجره من بلاء وعذاب - أنهم ينعمون فى عز الطاعة، وأن أعداءهم يشقون فى ذل معصية الله تبارك وتعالى.

ذلك منهجنا فى تفسير هذه السور القرآنية الكريمة أوجزناه هنا بعد أن فصلناه فى المدخل إلى هذه السلسلة.

ونسأ الله تبارك وتعالى أن ينفع به أولئك الصابرين المحتسبين من رجال الدعوة والحركة فى كل قطر من أقطار العالم الإسلامى إنه على ما يشاء قدير، فمن المسلّم به أن ينصر الله المؤمنين وأن يعزهم ويعز بهم هذا الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

أولا : فى فضل سورة آل عمران

* روى الإمام أحمد بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «اقرءوا القرآن؛ فإنه شافع مشفّع لأهله يوم القيامة، اقرءوا الزهراوين[١]: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان[٢]، أو كأنهما فرقان[٣] من طير صواف[٤] يحاجان على أهلهما يوم القيامة، ثم قال: اقرءوا البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة ولاتستطيعها البطلة»[٥] ورواه مسلم بسنده عن أبى أمامة أيضا.

* وروى الإمام أحمد بسنده عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران، وضرب لهما رسول ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: كأنهما غمامتان، أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما» ورواه مسلم بسنده، والترمذى بسنده.

وفى فضل سورة آل عمران مع السبع الطوال:

* روى الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله ﷺ قال: «من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حبر» والحبر: العالم وجمعه أحبار.

* وروى ابن ماجة بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :«اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب، فى ثلاث سور من القرآن:

فى البقرة وآل عمران وطه، «الله لا إله إلا هو الحى القيوم»، ورواه أبو داود بسنده عن أسماء بنت يزيد.

* وروى الدارمى بسنده عن عثمان بن عفان رضى الله عنه، قال: «من قرأ سورة آل عمران فى ليلة كُتب له قيام ليلة».

* والسبع الطوال هى: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف ويونس، وتسمى: السبع الأُول.

---

(١) الزهراوان: المنيرتان.
(٢) والغياية : ما اظلك من فوقك.
(٣) والفرق: القطعة من الشيء.
(٤) والصواف: المصطفة المتضامة.
(٥) والبطلة: السحرة.

ثانيا: في أسماء السورة

أشهر أسمائها: آل عمران.

وتسمى مع البقرة: الزهراوان.

وتسمى: الأمان، والكنز، والمعينة، والمجادلة.

وتسمى: سورة الاستغفار.

وحكى النقاش أن اسمها في التوراة: طيبة.

ثالثا: في تفسير كلمتي: آل وعمران وبإضافة عمران إلى آل: آل عمران فهو اسم السورة.

* وكلمة آل: أصلها أهل فهي مقلوبة عن أصلها، بدليل أنها تصغر على: «أهيل» والتصغير يرد الكلمة إلى أصلها.

وقد خصصت كلمة آل بالإضافة إلى أعلام الناطقين فيقال:

آل إبراهيم، وآل عمران، وآل محمد... عليهم السلام.

ولا تضاف إلى النكرات: فلا يقال: آل رجل...

ولا تضاف إلى الأزمنة: فلا يقال: آل زمن كذا...

ولا تضاف إلى الأمكنة: فلا يقال: آل موضع كذا...

وتكون إضافتها إلى الأفضل والأشرف والأشهر، لا إلى غيرهم فيقال: آل الله، وآل البيت، وآل السلطان.

وتستعمل كلمة آل فيمن يختص بالإنسان اختصاصاً ذاتياً، إما بقرابة قريبة مثل: آل إبراهيم وآل عمران،

وإما بموالاة مثل: آل فرعون،

وآل الرجل: أتباعه وقومه ومن على دينه،

وآل النبي ﷺ: أقاربه، وقيل هم المختصون به من حيث العلم؛

وذلك أن أهل الدين ضربان:

ضرب مختص بالعلم المتقن والعمل المحكم، فيقال لهم: آل النبي وأمته، ﷺ.

وضرب مختص بالعلم على سبيل التقليد، ويقال لهم: أمة محمد ﷺ، ولا يقال لهم: آل محمد.

فكل آل النبى ﷺ أمته، وليس كل أمته آلاً له.

وقيل لجعفر الصادق رضى الله عنه: الناس يقولون: المسلمون آل النبى ﷺ فقال: كذبوا، وصدقوا، فقيل له ما معنى ذلك؟ فقال:

كذبوا فى أن الأمة كافتهم آله.

وصدقوا فى أنهم آله إذا قاموا بشرائط شريعته.

* وقد وردت كلمة آل فى القرآن الكريم مضافة لأعلام الناطقين على النحو التالى:

وردت آل عمران: مرة واحدة،

وآل موسى: مرة واحدة،

وآل هارون: مرة واحدة،

وآل داود: مرة واحدة،

وآل إبراهيم: مرتين،

وآل يعقوب: مرتين،

وآل لوط: ثلاث مرات،

وآل فرعون أربع عشرة مرة.

* وأما كلمة عمران: فإنها تعنى فى هذه السورة الكريمة والد مريم عليهما السلام التى هى أم عيسى عليهما السلام واسمه: عمران بن ناثان، وامرأته حنّة، وهو من نسل سليمان ابن داود عليهم السلام، فهو من ذرية إبراهيم ﷺ.

– وقيل: هو عمران والد موسى عليه السلام فيكون هو عمران بن يصهر، وبين العمرانيين ما يقرب من ألفى عام كما قال المفسرون.

– والأرجح أنه عمران والد مريم عليها السلام، لأسباب كثيرة من أبرزها ما يلى:

* أن المذكور فى هذه السورة الكريمة هو قصة مريم ابنة عمران عليهما السلام.

* وأن النصارى كانوا يحتجون على إلهية عيسى بالخوارق التى ظهرت على يديه، فالله سبحانه يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ﴾ [آل عمران: ٣٣]. أى إنما ظهرت على يده كرامات، لأن الله اصطفاه على العالمين وخصه بالكرامات

العظيمة. فكان حمل هذا على عمران ابن ناثان والد مريم عليهما السلام أولى من حمله على عمران بن يصهر والد موسى عليه السلام.

* وأن هذا اللفظ: «اصطفى» مطابق لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١)﴾ [الأنبياء: ٩١].

* إلى غير ذلك من أوجه الترجيح التي اعتبرها العلماء وجوهاً ظنية وليست قطعية، ولكنها أرجح من سواها.

* وإضافة السورة الكريمة إلى كلمتي: آل عمران، للدلالة على أن آل عمران قد ذُكروا فيها بما أوضح مقامهم ومكانتهم عند الله من ذرية صالحة بعضها من بعض تنحدر من نسل الأنبياء: إبراهيم وإسحق ويعقوب وداود وسليمان إلى عيسى عليهم السلام.

* وسورة آل عمران سورة مدنية أى نزلت بالمدينة باتفاق العلماء.

والخلاف فى ترتيبها هل هى الثانية أو الثالثة أو الرابعة، لأن هناك أقوالاً خلاصتها أن سورة المطففين هى أول سورة نزلت بالمدينة ثم البقرة ثم آل عمران، أو الأنفال ثم آل عمران. والأرجح لدى العلماء أن البقرة الأولى وآل عمران الثانية.

* وعدد آيات سورة آل عمران مائتان.

رابعا: الأغراض أو الموضوعات التى ذكرت فى السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على الأغراض أو الموضوعات التالية:

١ – التنويه بالقرآن الكريم، وبمحمد ﷺ، وإثبات أن الله تعالى أنزل التوراة والإنجيل والفرقان لهداية الناس، وأنه سبحانه محاسب الذين يكفرون بآياته.

وذلك فى الآيات من: ١ – ٦.

٢ – وتقسيم القرآن إلى محكم ومتشابه،

وتقسيم الناس إلى مؤمنين وكافرين،

وذلك فى الآيات من: ٧ – ١٣.

٣ – وحديث عن طبائع الناس، وصفاتهم، وشرف أهل العلم.

وذلك فى الآيات من: ١٤ – ١٨.

٤ – والتنويه بشأن الإسلام، وأن الله لايقبل من أحد دينا سواه، حتى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وأن من لم يؤمن بالإسلام فهو كافر، مهما ادعى أنه من أولياء الله وأحبائه، وأن النار لن تمسّه.

وذلك فى الآيات من : ١٩ – ٢٥.

٥ – وحديث عن عظيم قدرة الله تعالى وسيطرته على الكون كله، يسيّره كيف يشاء، ويحيى ويميت ويرزق من يشاء بغير حساب.

وذلك فى الآيتين: ٢٦ – ٢٧.

٦ – ونهىٌ عن أن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين إلا لسبب يقبله الشرع، وتأكيد أن الله تعالى مطلع على السرائر، ومحاسب كل إنسان بما عمل.

وذلك فى الآيات من: ٢٨ – ٣٢.

٧ – والثناء على آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران عليهم السلام، وحديث عن أم عيسى بن مريم عليهما السلام من يوم حملت أمها فنذرت لله ما فى بطنها، فكانت مريم عليها السلام فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا، وكفلها زكريا.

وذلك فى الآيات من: ٣٣ – ٣٧.

٨ – وحديث عن زكريا كافل مريم وزوج خالتها، وتبشير الله تعالى إياه بيحيى عليهما السلام.

وذلك فى الآيات من: ٣٨ – ٤١.

٩ – وتبشير الملائكة عليهم السلام لمريم بالمسيح عليه السلام دون أب، وذكر صفات المسيح عليه السلام ومعجزاته ورسالته، ودعوته الناس إلى عبادة الله وحده، وإحساسه منهم بالكفر، وإخبار الله تعالى لعيسى بأنه متوفيه ورافعه إليه، ومجازٍ من كفر به.

وذلك فى الآيات من: ٤٢ – ٥٨.

١٠ – ومحاجّة النصارى لرسول الله محمد ﷺ فى عيسى، ودعوة الرسول ﷺ إياهم إلى المباهلة، ومجادلتهم بالحجج والبراهين، وتوضيح صفات أهل الكتاب وإبطال حججهم فى أنهم أولى بإبراهيم عليه السلام، وأنهم يرغبون فى إضلال المسلمين، وأنهم كافرون

بآيات الله يلبسون الحق بالباطل، ويكتمون الحق وينافقون رسول الله ﷺ والمسلمين، وتناهيهم عن الإيمان بمحمد ﷺ حسدا له على ما أعطاه الله.

وذلك فى الآيات من: ٥٩ - ٧٤.

١١ - وتوضيح لصفات أهل الكتاب من حيث الأمانة والخيانة، واستحلال أموال الأميين، ووصفهم بأنهم بذلك خارجون عن أمر الله تعالى، ضالون مضلون، يقولون على الله الكذب وهم يعلمون.

وذلك فى الآيات من: ٧٥ - ٧٨.

١٢ - ونفى ادعائهم أن المسيح عليه السلام طلب منهم أن يعبدوه أو يعبدوا الملائكة، أو أى معبود غير الله تعالى، إذ ليس للمسيح عليه السلام ولا لأى نبى ممن أرسلهم الله تعالى، لأنه كفر وشرك، حاشا لهم أن يفعلوه.

وحديث عن ميثاق الله الذى أخذه على النبيين بأن يعبدوا الله ويأمروا الناس بعبادته، دون أن يدخلوا فى الإسلام الذى لايقبل الله من أحد دينا سواه.

وذلك فى الآيات من: ٧٩ - ٨٥.

١٣ - وحديث عن الكفر، وعن الكافرين بما أنزل الله على محمد ﷺ وما جاء به من البينات، وبيان لما سوف يجزيهم الله تعالى به على هذا الكفر.

وذلك فى الآيات من: ٨٦ - ٩١.

١٤ - وتصريح وتعريف بوسائل البر، وبأن شريعة الإسلام بنيت على البر، وأن من البر الإنفاق فى سبيل الله.

وذلك فى الآية: ٩٢.

١٥ - وحديث عن بنى إسرائيل فى مجال ما أحل الله لهم، وما حرم عليهم، وتوضيح لكذب اليهود على التوراة، وافترائهم على الله تعالى، ومطالبة أهل الكتاب بأن يؤمنوا بما جاء به محمد ﷺ.

وذلك فى الآيات: ٩٣ - ٩٥.

١٦ - وإخبار من الله تعالى بأنه جعل الكعبة المشرفة أول بيت وضع للناس، وقد أعاد الله

تعالى إلى البيت الحرام الدين الحنيف برسالة محمد ﷺ، كما ابتداه بدين إبراهيم عليه السلام، وأوجب حج هذا البيت على المؤمنين.

وأظهرت الآيات ضلالات اليهود، وسوء ما قالوا، وافتراءهم فى دينهم، وكتمانهم ما أنزل الله إليهم، وعملهم على صد الناس عن سبيل الله، وحذر المسلمين من إطاعة فريق من أهل الكتاب، حتى لاينقلبوا بهذه الطاعة من الإيمان إلى الكفر.

وذلك فى الآيات من: ٩٦ : ١٠١.

١٧ - ومطالبة المسلمين بتقوى الله والاعتصام بحبله، وتذكيرهم بنعمة الإسلام، وما عاد ويعود عليهم تمسكهم بالإسلام من خير، وأمرهم بممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وربط الخيرية بالأمة الإسلامية إنما هو نتيجة لإيمانهم بالله وممارستهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتلك قاعدة عامة في الخيرية للمسلمين ولغيرهم من أهل الأديان السماوية.

وذلك فى الآيات من: ١٠٢ - ١١٠.

١٨ - وطمأنة المسلمين بأن أهل الكتاب لن يضروهم ضررا بالغا وإنما هو مجرد أذى، وأن أهل الكتاب عند قتالهم للمسلمين يولون الأدبار، وهم موضع غضب الله تعالى لكفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق، فتلك صفاتهم، وإن كان ذلك لايمنع أن يكون من بينهم من هو من المؤمنين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وأن يجزيهم بما عملوا.

وذلك فى الآيات من: ١١١ - ١١٥.

١٩ - وحديث عن صفات الكافرين، ونهى للمؤمنين عن اتخاذ الكافرين مساعدين فضلا عن اتخاذهم أولياء، لأنهم يريدون للمسلمين الشر والهلاك، ويعلنون كراهيتهم ويضمرون لهم ما هو أكثر من البغضاء، فهم عند عجزهم وضعفهم ينافقون المسلمين، وإن تمنوا لهم فى الحقيقة كل شر، وتطالب الآيات المسلمين بالصبر والتقوى إزاء كل هذا.

وذلك فى الآيات من: ١١٦ - ١٢٠.

٢٠ - وحديث عما كان فى غزوة أحد، مع تذكير بنعم الله تعالى على المسلمين فى غزوة بدر.

وذلك فى الآيات من: ١٢١ - ١٢٩.

٢١ - ومطالبة المسلمين بعدة أمور تعد من الفضائل منها:

ترك الربا، وتقوى الله، وطاعة الرسول ﷺ وحثهم على التحلى بصفات المؤمنين من: إنفاق فى سبيل الله فى السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، والإحسان، والتوبة، مع الاستغفار عند وقوع الخطأ، إذ التحلى بهذه الصفات جزاؤه مغفرة من الله.

وبيان أن هذا النظام فى الإثابة على التحلى بالفضائل والعقاب للذى يتخلى عنها هو من سنة الله تعالى التى بينها فى هذا القرآن العظيم، والتى يستطيع أن يهتدى إليها كل من سار فى الأرض وتدبر فى أحوال السابقين.

وذلك فى الآيات من ١٣٠ - ١٣٨.

٢٢ - وحديث موسع عما دار فى معركة أحد بين المسلمين من أقوال وأعمال، وما كان من المنافقين من أحداث.

وتوضيح لعدد من الحقائق في الجهاد فى سبيل الله تعالى مثل: ضرورة الصبر على متاعب الجهاد، مع الفرح بأن يتخذ الله تعالى من المؤمنين شهداء.

وأن كل ما يجرى فى الجهاد من عناء وبلاء هو تمحيص من الله واختبار وطريق إلى الجنة.

وبيان أن الرسول الخاتم ﷺ - كبقية الرسل - تجرى عليهم جميعا سنة الله فى الحياة والموت، فما ينبغى أن ينصرف أحد عن الإيمان لموت الرسول ﷺ.

وبيان لصفات المؤمنين المؤيدين للنبى ﷺ وهى: الصبر والقوة والتضحية، الدعاء.

وذلك فى الآيات من: ١٣٩ - ١٤٨.

٢٣- وحديث عن جنود الله الذين يؤيد بهم المؤمنين، وهم جنود لايعلم بهم إلا الله، وأنه سبحانه يلقى بهم الرعب فى قلوب أعداء المسلمين، وأن ذلك وعد الله، وأن ما يجرى على المسلمين من هزائم فى المعارك إنما يكون بتقصيرهم.

وذلك فى الآيات من: ١٤٩ - ١٥٤.

٢٤- وحديث عن سلبيات قد تحدث من المقاتلين، ومطالبة الرسول ﷺ باتخاذ مواقف بعينها مع هؤلاء الذين أخطأوا .

وذلك فى الآيات من: ١٥٥ – ١٦٣.

٢٥ – وتعداد لنعم الله تعالى على المؤمنين ومن أهمها أنه سبحانه بعث فيهم رسولا منهم هو الخاتم ﷺ يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وذلك فى الآية الكريمة ذات الرقم: ١٦٤.

٢٦ – وبيان للصفات والأخلاق التى يجب أن يتحلى بها المجاهد فى سبيل الله تعالى، وبيان لمكانة الشهداء عند الله.

وذلك فى الآيات من: ١٦٥ – ١٧٢.

٢٧ – وحديث عن الحرب النفسية أو حرب التخذيل التى يمارسها الأعداء ضد المسلمين، وبيان لما يجب أن يكون عليه المسلمون من حذر وتعامل مع هذه الحرب النفسية، من ثبات على الإيمان واحتساب عند الله لكل ما يصيبهم فى المعارك بين الحق والباطل.

وذلك فى الآيات من: ١٧٣ – ١٧٥.

٢٨ – وتوضيح وبيان لكيفية التعامل مع الكفار، وتوضيح لصفات الكافرين ليكون المسلمون منها على حذر، مع بيان لما يجب أن يتحلى به المسلمون من صفات كالإيمان والتقوى ونبذ البخل.

وذلك فى الآيات من: ١٧٦ – ١٨٠.

٢٩ – وتنبيه على ما يردده اليهود من مقولات ضالة، وإبطال لها، وذلك فى الآيات من: ١٨١ – ١٨٤.

٣٠ – وتقرير لحقيقة كبرى فى حياة الناس، وهى أن حياتهم منتهية بالموت، وأن هذه الحياة لاتخلو من الابتلاء فى المال والنفس والسمعة، وأن المطلوب إزاء كل هذا هو الصبر والتقوى.

وذلك فى الآيتين: ١٨٥ – ١٨٦.

٣١ – وأخذ الله الميثاق على كل من آتاه كتابا أن يبينه للناس، ولايكتمه، فإن لم يفعل فقد عصى الله تعالى واستحق عقابه.

وذلك فى الآية: ١٨٧.

٣٢ – ودرس فى الأخلاق التى يجب أن يتخلى عنها الإنسان – لأنها راذلة – كالفرح بأقل

عمل يقدمه الإنسان، والرغبة فى أن يُحمد ويُثنى عليه بما لم يفعل، فهذه الصفات ونحوها مما تستوجب عقاب الله تعالى وذلك فى الآيتين: ١٨٨ – ١٨٩.

٣٣ – وحديث عن صفات أولى الألباب التى منها:

ذكر الله تعالى على كل حال، والتفكر والتدبر فى خلق الله، والتجاوب مع نداء الحق، ودعاء الله تعالى وطلب المغفرة منه.

وتوضيح أن الله تعالى يستجيب لهؤلاء ويعطيهم حسن الثواب.

وذلك فى الآيات من: ١٩٠ – ١٩٥.

٣٤ – ومقارنة بين المنافقين والمؤمنين المتقين، وتوضيح لجزاء كل منهما.

وذلك فى الآيات من: ١٩٦ – ١٩٨.

٣٥ – وتنبيه على أن أهل الكتاب ليسوا جميعا من الكفار، وإنما منهم مؤمنون بما أنزل الله على محمد ﷺ، وهؤلاء لهم عند الله أجرهم.

وذلك فى الآية: ١٩٩.

٣٦ – وأمر من الله تعالى للمؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة فى سبيل الله، وتقواه سبحانه وتعالى.

وذلك فى الآية الكريمة ذات الرقم: ٢٠٠.

خامسا : بين يدى هذه السورة

أول ما نقدمه بين يدى هذه السورة الكريمة هو سبب نزولها :

– قال مقاتل بن سليمان(١) : «إن بعض أول هذه السورة نزل فى اليهود . ومن المعروف أن اليهود كانوا يتحدون الرسول ﷺ بعديد من الأسئلة المجحفة، متبعين ما تشابه، لأن فى قلوبهم زيغًا .

– وقال الواحدى فى كتابه أسباب النزول : قال المفسرون : قدم وفد نجران – وكانوا ستين راكبا – على رسول الله ﷺ وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم .

وفى الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يئول أمرهم :

* العاقب : أميرهم وصاحب مشورتهم الذى لايصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح .

* والسيد : إمامهم وصاحب رحلهم، واسمه : الأيهم .

* وحبرهم : وصاحب مدراسهم، واسمه : أبو حارثة بن علقمة .

وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه فى دينهم، وكانت ملوك الروم قد شرفوه وموّلوه وبنوا له الكنائس لعلمه واجتهاده .

فقدموا على رسول الله ﷺ، ودخلوا مسجده حين صلى العصر . . . وقد حانت صلاتهم فقاموا فصلوا فى مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ : دعوهم، فصلوا إلى المشرق .

فكلّم السيد والعاقب رسول الله ﷺ فقال لهما رسول الله ﷺ : أسلما .

فقالا : قد أسلمنا قبلك .

قال : كذبتما، منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير .

قالا : إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعا فى عيسى .

---

(١) هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدى أبو الحسن، توفى سنة ١٥٠ هـ وهو من اعلام المفسرين، أصله من بلخ، ولكنه انتقل إلى البصرة، ودخل بغداد، وحدّث بها، وإن كان بعض علماء الحديث يعدونه متروك الحديث . له من الكتب : التفسير الكبير، ونوادر التفسير، و الرد على القدرية، ومتشابه القرآن، والناسخ والمنسوخ، والقراءات، والوجوه والنظائر .

فقال لهما النبي ﷺ: ألستم تعلمون أنه لايكون ولد إلا ويشبه أباه؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لايموت، وأن عيسى أتى عليه الفناء؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟

قالوا: بلى.

قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟

قالوا: لا.

قال: فإن ربنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لايأكل ولايشرب، ولايحدث؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذى كما يغذى الصبى، ثم كان يطعم ويشرب ويحْدِث؟

قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟

فسكتوا، فأنزل الله عز وجل فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها[1].

وثاني ما نقوله بين يدى هذه السورة الكريمة:

ان أعداء الإسلام كانوا ولايزالون وسوف يستمرون يجتهدون فى شن الحرب على الإسلام والمسلمين بكل ما أوتوا من قوة وحقد، وأن حربهم تلك غالبا ما تكون شاملة تتناول:

الحرب المعنوية بما فيها من افتراءات وتهم وتشويهات.

والحرب العسكرية وما يتبعها من حشود للجنود والعتاد.

وفى هذه السورة الكريمة حديث عن ممارسة الأعداء لهذين النوعين من الحرب.

---

(١) الواحدى النيسابورى: أسباب النزول: ٥٣ ط الحلبى القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م بيسير من التصرف بالاختصار.

وذلك ما نحاول أن نلقى عليه بعض الضوء بين يدى هذه السورة، وقبل أن نتحدث عن تفسير آياتها والدروس المستفادة منها بالتفصيل.

١ – أما فى مجال الحرب المعنوية وما تستهدفه من زعزعة عقيدة المسلمين، فالأعداء لهم فى ذلك خطة تتمثل فيما يلى:

أ – اتهام محمد ﷺ بأنه اكتتب القرآن من أساطير الأولين، وأن القرآن الكريم ليس من عند الله ﴿ **وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٥].

ب – واتهام القرآن الكريم بالمحلية والإقليمية ومحدودية الزمان والمكان، وأنه من عند محمد ﷺ، وأنه يستطيع أن يبدل فيه ويغير: ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴿١٥﴾ **قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس: ١٥، ١٦].

جـ – واتهام الإسلام بأنه دين يقوم على الإيمان بالغيب، أو كما يقولون: الغيبيات والأوهام والظلاميات، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا.

د – واتهام الإسلام بأن حكومته حكومة دينية، لرجال الدين فيها سلطة على الناس مقدسة، لايملكون أمامها إلا أن ينصاعوا، ويخضعوا!!!

هـ – وربطهم بين الإسلام وواقع المسلمين السيئ الممزق الضعيف، حيث يزعمون أن السبب فى كل ذلك هو الإسلام لأنه – كما يزعمون – دين يحارب العقل والعلم!!!

و – واتهام الإسلام بأنه دين يفرضه المسلمون على الناس كرها وينشرونه فى الناس بالسيف، مع أن من نصوصه القرآنية ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ز – واتهام الإسلام بأنه هضم حقوق المرأة، وحرمها من المشاركة فى الحياة السياسية ونحوها، مع أن البشرية كلها – من يوم كان على الأرض حياة إنسانية – لم تعرف نظاما ما كرّم المرأة وأعطاها من الحقوق المادية والمعنوية مثل ما أعطاها الإسلام.

وغير ذلك من الاتهامات والمفتريات التى تزعزع عقيدة المسلم وتفقده الثقة فى دينه ثم فى نفسه، والإسلام من كل تلك المفتريات براء.

* ولأن هؤلاء الذين رددوا هذه التهم وتلك المفتريات من أهل الكتاب اليهود أو النصارى، فإن ما يقرب من ثمانين آية من أول هذه السورة ناقشت هذه المفتريات وركزت على توضيح أهم القضايا التى تتعلق بها، مثل:

- قضية التوحيد وتنقية العقيدة من كل شوائب الشرك.
- وقضية محاجّة أهل الكتاب فيما يفترونه ضد الإسلام ورسوله ﷺ وإبطال مزاعمهم.
- وتفنيد الباطل الذى ألحقه أهل الكتاب بدينهم، والرد على هذه المزاعم بالحجة والبرهان.
- وتقرير أن الإسلام هو دين الحق، وأن الله تعالى لا يقبل من أحد دينا سواه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (85)﴾ [آل عمران: ٨٥].

٢ - أما فى مجال الحرب المادية وحشد الجنود والعتاد لضرب الإسلام والمسلمين والقضاء عليهم، فإن هذه السورة الكريمة تتحدث عن معركة ضارية حشد لها الأعداء ضد الإسلام والمسلمين، هى معركة أحد.

وقد تحدثت آيات السورة الكريمة عن هذه المعركة، وأوضحت كيف حشد الأعداء وكيف تحالف المشركون مع اليهود، وكيف وصل الأخذ بالأسباب فى جانب المسلمين إلى أعلى درجة ممكنة حين استعدوا وأعدوا واعتلت طائفة منهم ظهر الجبل ليحموا ظهور المسلمين، وكيف انشق المنافقون وعادوا أدراجهم، وكيف أبلى بعض المسلمين أحسن البلاء وكيف قصر بعضهم حتى أصبحوا يُصعِدون ولايلوون على شىء، والرسول ﷺ يدعوهم فى أخراهم، وكيف اتخذ الله من المؤمنين شهداء ...؟

وكيف كانت معركة أحد درسا كبيرا للمسلمين تعلموا من خلاله مالم يكونوا يتعلمونه لو لم تكن معركة أُحد!!!

ولقد كانت في أحد أحداث هامة ذات نتائج أكثر أهمية:

* فلقد همّت طائفتان من المسلمين أن تفشلا...

* وفقد بعض المسلمين الصبر على حر المعركة...

* وتأول بعض المسلمين من الرماة على ظهر الجبل، فخالفوا أمر الرسول ﷺ.

* وضعف بعض المسلمين عن الاستمرار في المعركة عندما أشيع أن رسول الله ﷺ قد قتل، فولّوا لا يلوون على شيء واستزلهم الشيطان.

* وقامت حرب التخذيل على قدم وساق، وقال المبطلون للمسلمين: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم.

* وتعلم المسلمون مواجهة الإشاعات وحرب التخذيل، بأن ثبتوا وازدادوا إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله.

– إن معركة أحد وما دار فيها كانت من تقدير الله عز وجل، ليتعلم المسلمون منها دروسا في الإيمان والصبر والثبات والطاعة والتضحية والمضى في طريق الحق مهما قدموا من شهداء.

– إن من الخطأ أن تُحسب معركة أحد هزيمة للمسلمين، لم يحصلوا منها على فائدة، فقد كان معها من مكاسب الدنيا والآخرة ما لا يستهان به.

– وإن الذين أخطأوا من المسلمين في أحد، خاطب الله تعالى رسوله الكريم فيهم قائلا: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ (١٥٩) ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

تفسير آيات السورة الكريمة

١ - الآيات الكريمة من الآية الأولى إلى الآية السادسة

وتقرر: أن التوحيد أصل الدين، وأن القرآن الكريم واجب الاتباع.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ الٓمٓ (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤) إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) ﴾ [آل عمران: ١ - ٦].

- هذه الآيات الكريمة تتضمن الثناء على الله تعالى بما هو أهله، وتبين أنه سبحانه هو الذى أنزل الكتب السماوية المشهورة: التوراة والإنجيل والقرآن الكريم.

وتقرر الآيات الكريمة حقيقة التوحيد التى هى أعظم قواعد الدين، وحقيقة أن الأديان التى جاءت من عند الله - قبل أن يلحقها التحريف - يصدق بعضها بعضا، وحقيقة أن من كفر بالقرآن الكريم - خاتم الكتب السماوية - يستحق العذاب الشديد من الله تعالى الذى لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

- وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على عدد من الأخبار جاء بعضها مؤكدا، وجاء بعضها خاليا من أدوات التأكيد، ولكنها جميعا قررت حقائق هامة فى مجال العقيدة والتوحيد.

وإلى تفصيل لهذه الحقائق - والله المستعان - :

١ - ألـــم:

كلمة مكونة من حروف الألف واللام والميم، وهى من حروف الهجاء الثمانية والعشرين.

وقد وردت هذه الكلمة وأمثالها فى القرآن الكريم فى مفتتح عدد من السور القرآنية مثل: الر. والمص. وطس، وطسم. وحم. وحمعسق. وكهيعص. ويس. وص، ون، وهى أربعة عشر حرفا، وقد جاءت هذه الحروف معظمها فى مفتتح السور المكية ما عدا سورتى: البقرة وآل عمران؛ إذ هما مدنيتان.

وهذه الحروف - كما يرى علماء التفسير - من متشابه القرآن الكريم، واختلف علماء التفسير والتأويل فى دلالة هذه الحروف، فتعددت أقوالهم في ذلك، حتى بلغت واحدا وعشرين قولا.

ونحن نذكر هنا بعض هذه الأقوال:

- أنها رموز اقتضبت من كلمات أو جمل، فهى سر من الأسرار لايعرفها إلا أهل المعرفة.
- أو أنها حروف اقتضبت من أسماء الله تعالى وصفاته.
- أو أنها حروف اقتضبت من أسماء النبى ﷺ.
- أو أنها أسماء للملائكة.
- أو أنها إشارات إلى أحوال تزكية القلب.
- أوأنها أسماء للسور.
- أو أنها أسماء للقرآن الكريم.
- أو أنها حروف للتنبيه.

إلى غير ذلك من الأقوال، وكل هذا فى مجمله من الأقوال الضعيفة.

* وأرجح ما هو معروف - مما قيل فى معانى هذه الحروف - ثلاثة أقوال:

الأول:

أن هذه الحروف جاءت فى أوائل السور لتحدّى المشركين بالقرآن الكريم: أن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل عشر سور من مثله أو بسورة من مثله، وبيان ذلك أن القرآن الكريم مكون من كلمات عربية، وأن هذه اللغة العربية مكونة من حروف هى: الألف والباء والتاء ... . إلخ وأن هذه لغتكم أيها العرب فهل تستطيعون أن تأتوا بسورة من مثله؟

وهذا هو وجه التحدى.

وقد ذهب إلى هذا القول من العلماء:

المبرّد، وقُطْرب، والفرّاء، والزمخشرى من علماء اللغة.

وقد رجح هذا الرأى عدد من علماء التفسير المحدثين منهم:

الشيخ الطاهر بن عاشور، فى تفسيره المعروف: «التحرير والتنوير»، والشيخ الإمام محمد عبده فى تفسيره المعروف بتفسير «المنار» الذى نشره تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا

باسم: «تفسير القرآن الحكيم».

فهذه الحروف التى صدرت بها سور القرآن الكريم إنما جاءت لإظهار عجز الناس عن معارضة القرآن الكريم.

والقول الثانى:

ان هذه الحروف أقسام أقسم بها لتشريف قدر الكتابة، وتنبيه العرب الأميين إلى أهمية الكتابة، وذلك لإخراجهم من حالة الأمية التى هم فيها.

والقول الثالث:

ان هذه الحروف : ألم، وألر، والمر .. إلخ كل منها اسم للسورة التي صدرت بها.

*** وأما الأخبار التى اشتملت عليها هذه الآيات الكريمة فهى:**

٢ - خبر تقريرى فى قوله تعالى: ﴿**الله لا إله إلا هو الحى القيوم**﴾ وهو تقرير لعقيدة التوحيد، ورد على المشركين عموما، وعلى النصارى بوجه خاص: ﴿**الله لا إله إلا هو**﴾ ثم اتبع ذلك بوصف الله تعالى بأنه حى قيوم.

* وفى وصف : ﴿**الحى**﴾ إشارة إلى أن غيره من المعبودات التى لاحياة فيها كالأصنام والأوثان، وسائر ما يعبد المشركون مما لايستحق العبادة.

*** وفى وصف: ﴿القيوم﴾ إشارة إلى أن غيره ممن يرد عليه الموت والفناء والعجز عن** تدبير السموات والأرض كعيسى بن مريم الذى عبده النصارى، وكيف وقد أوذى فى الله وكُذِّب واختفى من أعدائه، فلا يستحق أن يُعبد من دون الله.

* و : ﴿**الحى القيوم**﴾ اسم الله الأعظم، قد أخرج الطبرانى وابن مردويه من حديث أبى أمامة رضى الله عنه مرفوعا: «إن اسم الله الأعظم فى ثلاث سور، سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة طه» وقال أبو أمامة فالتمستها فوجدت فى البقرة: ﴿**الله لا إله إلا هو الحى القيوم**﴾ وفى آل عمران: ﴿**الله لا إله إلا هو الحى القيوم**﴾ وفى طه ﴿**وعنت الوجوه للحى القيوم**﴾ . هذا هو الخبر الاول فى هذه الآيات الكريمة.

٣ - وخبر آخر يوضح أن القرآن الكريم قد نزله الله على خاتم أنبيائه محمد ﷺ : ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾.

فالتنزيل من الله، والمنزّل عليه هو محمد ﷺ.

والكتاب هو القرآن الكريم الجامع للاصول والفروع، ولما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

* وعبّر عنه باسم الجنس وهو «الكتاب» ليوحى ذلك بتفوقه على بقية الكتب التى سبقته كالتوراة والإنجيل.

* و «بالحق» اى بالصدق او العدل فى إخباره، او بما يحمل من دلائل على انه من عند الله، او بسبب إثبات الحق وتقريره وتاكيده.

* وقال بعض العلماء: الحق : اى الصدق فيما تضمنه من أخبار عن الأمم السابقة.

* أو ان ما فيه من الوعد والوعيد يحمل المكلف على ملازمة الطريق الحق فى العقائد والاعمال، ويمنعه من سلوك الباطل.

* أو بما يجب ان يكون لله عل عباده من العبودية وشكر النعمة، وإظهار الخضوع له سبحانه، وما يجب ان يكون لبعضهم على بعض من العدل والإحسان فى المعاملات.

– وإنما استوعبنا معنى كلمة «بالحق» لكثرة ورودها فى القرآن الكريم دالة على ان القرآن أنزله الله بالحق، او ان الرسل جاءوا من عند الله بالحق، او ان الله تعالى خلق السموات والأرض بالحق، فقد جاءت كلمة «بالحق» فى هذه السياقات أكثر من مائة وخمسين مرة، وهى فى كل هذه المرات لم تخرج من واحد من هذه المعانى التى ذكرنا آنفا، ليكون القارئ المسلم على بينة من معنى هذه الكلمة القرآنية الشريفة.

– «مصدقا لما بين يديه من الكتاب» اى ان القرآن الكريم مصدق للكتب السماوية التى نزلت على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومصدق لما أخبروا به عن الله عز وجل.

* ويفهم من كلمة «مصدقا لما بين يديه» كما يرى علماء التفسير معنيان جليلان هما:

الاول: ان الله تعالى لم يبعث نبيا إلا بالتوحيد والإيمان بالله تعالى وتنزيهه عما لايليق به، وأمرهم جميعا – عليهم السلام – ان يامروا الناس بالعدل والإحسان، وأنزل عليهم الشرائع التى هى صلاح كل زمان جاءت فيه، فالقرآن الكريم مصدق لتلك الكتب السماوية فى كل ما جاءت به.

والآخر: ان الله تعالى دلّ بقوله «مصدقا لما بين يديه» على صحة القرآن، لانه لو كان من عند غير الله ما جاء موافقا للكتب التى سبقته، لان محمدا ﷺ كان أميا لم يختلط بأحد من العلماء ولا تتلمذ لاحد ولا قرا على احد شيئا.

واضيف أمرا ثالثا فتح الله به وهو أن القرآن الكريم - بوصفه الكتاب السماوى الوحيد الذى تكفل الله بحفظه فى حين استحفظ الرهبان والأحبار على الكتب الأخرى - بقى سليما من كل تحريف أو تبديل، فأصبح فى الإمكان أن يكون القرآن الكريم شاهدا ودليلا على صدق أى كتاب سماوى سابق، لايختلف ما فيه عما جاء فى القرآن الكريم. ولعل هذا الذى أضفته يُفهم من وصف الله تعالى للقرآن: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ (٤٨) ﴾ [المائدة: ٤٨].

٤ - وخبر تقريرى فى قوله تعالى: ﴿ وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ﴾.

* **والتوراة:** اسم للكتاب المنزل من الله تعالى على موسى عليه السلام، أو هى اسم للألواح فيها الكلمات العشر التى نزلت على موسى عليه السلام فى جبل الطور، لأنها أصل الشريعة التى جاءت فى كتب موسى عليه السلام فأطلقت على جميع كتب موسى.

* وفى لفظ «التوراة» قال بعض علماء اللغة إنها مشتقة من الورى وهو الوقد والقدح والضياء والنور، من قولهم: ورى الزند إذا قدح وظهرت منه النار والشرر.

وقيل كلمة «التوراة» عبرانية الأصل إذ أصلها طورى بمعنى الهدى.

- «والإنجيل» اسم للوحى الذى أوحى الله به إلى عبده عيسى ابن مريم عليه السلام، فجمعه أصحابه.

* **وفى لفظ «الإنجيل»:**

قال الزجاج: إنه من النجل وهو الأصل، فسمى بذلك لأنه الأصل الذى يرجع إليه فى ذلك الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام.

وقال أبو عمرو الشيبانى: من التناجل وهو التنازع، ومسمى بذلك الاسم لأن القوم تنازعوا فيه.

وقيل من النجل وهو سعة العين، وسمى بذلك لأنه سعة ونور وضياء أخرجه الله لهم.

وقيل هو معرّب عن الرومية وأصله: «إنانجيليوم» أى الخبر الطيب.

- **«من قبل هدى للناس»**.

والمعنى: أنزل الله التوراة والإنجيل من قبل إنزاله القرآن، وفى هذا إشارة إلى أن التوراة والإنجيل كانا كالمقدمة لنزول القرآن الكريم الذى هو آخر الكتب وأتمها وأكملها.

وكلمة «من قبل» توحى بان هدى التوراة والإنجيل كان قبل نزول القرآن، وأنه غير مستمر بعد نزول القرآن.

* وكلمة: «الناس» تعنى الذين استجابوا لدعوة موسى وعيسى عليهما السلام، ولا يدخل فيها من استجابوا لدعوة محمد ﷺ، لان القرآن الكريم أبطل أحكام الكتابين التوراة والإنجيل، ولا يُعترض على ذلك بقول علماء أصول الفقه: «شرع من قبلنا شرع لنا»؛ لان ذلك معناه انه شرع لنا فيما حكاه القرآن الكريم عنهم.

٥ - وخبر تقريرى كذلك فى قوله تعالى:

﴿وأنزل الفرقان﴾.

اى القرآن الكريم الذي ذكره آنفا بقوله: «نزل عليك الكتاب بالحق».

* وسمى القرآن فرقانا فى عدد من الآيات الكريمة، ومعناه انه سبحانه «فرّق بين الحق والباطل، فأحل الحلال وحرم الحرام وشرع الشرائع، وحد حدوده وفرائضه، وبين بيانه وأمر بطاعته ونهى عن معصيته سبحانه وتعالى» قال ذلك قتادة .

* وقال ابن جرير: «إنه الفاصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى عليه السلام وغيره، بدليل ان صدر السورة فى محاجّة النصارى لرسول الله ﷺ فى شأن عيسى عليه السلام».

* وقيل: المراد بالفرقان كل آية محكمة.

* وقيل: المراد به الكتب الثلاثة، لانه سبحانه جعلها هدى، ودلالة، وهى بذلك تفرق بين الحلال والحرام، وسائر الشرائع، فقد بيّن بهذه الكتب ما يلزم عقلا وشرعا.

* والقول الأول أرجح الأقوال لان التفرقة بين الحق والباطل أعظم أحوال الهدى، لما فيها من البرهان وإزالة الشبهة.

٦ - وخبر مؤكد فى قوله تعالى:

﴿إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾

* والمعنى ان من كفر بآيات الله من المشركين واليهود والنصارى فى مرتبة واحدة، لأنهم جميعا اشتركوا فى الكفر بالقرآن الكريم وهو المراد بكلمة «آيات الله».

وهؤلاء لهم «عذاب شديد» بما يلقى الكفر فى عقولهم من الخرافات والاباطيل التى تطفئ

نور الحق والهدى، وما يجرهم إليه ذلك الكفر من المعاصى والمفاسد التى تدنس نفوسهم، فلهم بذلك عذاب شديد.

﴿والله عزيز ذو انتقام﴾

العزيز: الغالب على أمره يفعل ما يشاء.

وذو انتقام: أى يعاقب على جناية الكفر، وهو عقاب يصحبه غضب، لأن الله تعالى إنما أنزل القرآن لتحقيق مصالح العباد، فمن كفر به فقد أضر بمصالح العباد وبمصلحة نفسه، ولذلك كان انتقام الله منه مصحوبا بغضبه سبحانه وتعالى.

- وفى هذه الآيات من أول السورة الكريمة إلى هذه الآية الرابعة، تقررت معظم الحقائق المتعلقة بمعرفة الإله سبحانه وتعالى، ومعظم ما يتعلق بتقرير النبوة، ثم أتبع ذلك بالوعيد، زجرا للمعرضين عن هذه الدلائل، وتلك الآيات هى: ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ و ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ و ﴿أنزل الفرقان﴾ و ﴿إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾.

٧ - ثم خبر مؤكد فى قوله تعالى:

﴿إنّ الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء﴾

فهذا تأكيد لواسع علم الله تعالى المحيط بجميع ما فى العالم من ناس وأشياء، ومن جملة ذلك علمه بإيمان من آمن، وكفر من كفر، وجاء هذا التأكيد بحرف ﴿إنّ﴾ وباسمية الجملة.

- وكلمتا: ﴿الأرض والسماء﴾ المراد بهما العالم بأسره، فالأرض هى الكرة الأرضية التى تعيش عليها البشرية والسماء: العوالم المتباعدة عن الأرض. ولأنه سبحانه لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، فقد كان من رحمته أن أنزل لعباده كتابه الخاتم، وأعطاهم من العقل والبصيرة ما من شأنه أن يهتدوا به إلى الحق لو تدبروا فى هذا الكتاب العظيم، وهو سبحانه يعلم إيمانهم وكفرهم ونفاقهم، ويجازى كلا بما عمل.

٨ - وخبر تقريرى فى قوله تعالى:

﴿هو الذي يصوركم فى الأرحام كيف يشاء﴾

والمعنى طلاقة قدرة الله تعالى، فهى قادرة على كل شىء وعلى أدق شىء وأخفى شىء، وقادر على تحصيل مصالح الناس جميعا فى معاشهم ومعادهم.

* وإنما كان التصوير فى الأرحام دلالة على شمول علمه سبحانه وتعالى وعظيم قدرته،

لأن تكون الجنين فى الرحم من ساعة كان نطفة إلى اكتماله - فاصبح بشرا سويا وخرج إلى هذه الدنيا بصرخة الاستهلال - يمر بمراحل وأطوار بالغة الدقة عظيمة التنظيم - يعرفها العلماء- هى التى تكفل له هذا النمو فى رحم أمه، بل تمده باسباب الحياة بعد أن يولد، وفي هذا ما فيه من دلالة على سعة علم الله وعظيم قدرته.

* فالله تعالى يعلم إيمان المؤمن وكفر الكافر ونفاق المنافق. لأن كل ذلك وأكثر منه إنما هو شيء من علم الله تعالى.

* وفى الآية الكريمة تعريض بالنصارى ورد عليهم فيما زعموه بالنسبة للمسيح عليه السلام الذى ولد لغير أب، فلبّس عليهم فزعموا ما زعموا. ولكن الله تعالى يصور فى الأرحام ما يشاء.

٩ - وخبر تقريرى أخير فى هذه الآيات الكريمة هو قوله تعالى:

﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾

فهو تقرير وتأكيد للوحدانية، والعزّة والحكمة.

* فـ «**لا إله إلا الله**»، زجر للنصارى الذين قالوا بأن الآلهة ثلاثة.

* «**والعزيز**»: **إشارة إلى كمال قدرته سبحانه وتعالى.**

* «**والحكيم**»: **إشارة إلى كمال علمه سبحانه وتعالى.**

* وفى تلك الآية دلالة على أن المسيح وإن كانت جرت على يديه بعض المعجزات فإنما كان ذلك بإذن الله تعالى وإرادته، وليس ذلك كافيا ليكون المسيح إلها - كما يزعمون - لأنه لا إله إلا الله، ولأن المسيح غير كامل القدرة ولا كامل العلم، وما يكون الإله بشرا مهما كان لهذا البشرى من قدرات وإمكانيات؛ لأن الالوهية ليست إلا لواجب الوجود سبحانه وتعالى.

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من هذه الآيات أن توحيد الله تعالى هو أعظم قواعد الدين، بل أهم قواعد الحياة الدنيوية السعيدة؛ لأن توحيد الله يقتضى وجوب التلقى عنه وحده وطاعته وحده واتباع منهجه وحده. والالتزام بذلك هو الذى يضمن قواعد صحيحة للحياة الإنسانية.

وتوحيد الله تعالى يقتضى الإيمان به والتوكل عليه ودعاءه وطلب الرزق منه، والإيمان بذاته وصفاته وأفعاله، وذلك يؤدى إلى رضا الله تعالى: أى سعادة الحياة الآخرة.

ومن لم يوحد الله تعالى خسر الدنيا والآخرة.

٢ - ويتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة أن من أكبر نعم الله على الناس عموما، أن أنزل القرآن الكريم على خاتم رسله ﷺ، لينقذهم من الضلال والكفر، ويهديهم إلى ما يصلح دينهم ودنياهم.

وأنه لانجاة للناس، ولا صلاح لهم إلا باتباع هذا الكتاب الكريم، الذى جاء بالصدق والعدل والحق والقيم الصحيحة، وكل ما يحتاج إليه الناس من أنواع الهدى التى تيسر لهم حسن التعامل مع غيرهم من الناس، بل حسن ممارستهم للحياة فى كل شعبة من شعبها.

وأن كل ما جاء فى القرآن حق، سواء فى ذلك ما جاء فيه مما يصف الحياة الآخرة من جنّة ونار وحساب وعقاب، أو ما جاء فيه من قيم وأخلاق وأحكام تنظم للناس حياتهم الدنيا فى كل شأن من شئونها؛ فقد نزل الله تعالى هذا القرآن بالحق، على نحو ما فسرنا كلمة «بالحق».

٣ - ويتعلم المسلمون من الآيات الكريمة أن كتب الله تعالى التى أنزلها على رسله عليهم السلام، لاتضارب بينها، بل إن بعضها يصدق بعضا، وما يحتمل أن يبدو من تضارب أو اختلاف بين القرآن الكريم وبعض الكتب السابقة، إنما مردّه إلى ما دخل على هذه الكتب السابقة من تحريف وتبديل؛ لأن الله تعالى استحفظ عليها الرهبان والأحبار، فقصروا فى حفظها.

ولو بقيت هذه الكتب على النحو الذى أنزلها الله به لما وجد بينها وبين القرآن الكريم تضارب أو اختلاف.

٤ - ويتعلم الناس من هذه الآيات أن رحمة الله تعالى بعباده قد اقتضت أن ينزل عليهم الكتب السماوية على فَتَرات فى حياتهم ليهديهم بها إلى عبادته، وإلى منهجه، ولهذا أنزل التوراة والإنجيل بالهداية فى زمنى موسى وعيسى عليهما السلام، وأنزل الزبور في زمن داود عليه السلام.

وكل تلك الكتب جاءت بتوحيد الله تعالى بالعبادة، ولكن بعض الناس غيروا وبدلوا

وحرفوا هذه الكتب، فختم الله تعالى تلك الكتب بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأمر جميع أهل الكتب السابقة باتباعه وبالإيمان بما جاء به محمد ﷺ، وهو الفرقان الذى يفرق بين الحق والباطل، ويحل ويحرم ويبين الشريعة والمنهج ويأمر بطاعة الله وينهى عن معصيته.

ولقد وصف القرآن الكريم أهل هذه الكتب بالكفر إن لم يتبعوا ما أنزل على محمد ﷺ.

٥ – ونتعلم من الآيات الكريمة سعة علم الله وطلاقة قدرته، وأنه سبحانه لايخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء. وكيف يخفى شيء على من يصون الخلق فى الأرحام كيف يشاء وله الغلبة ولديه الحكمة ؟!

ومن كانت هذه صفاته عاقب من كفر به، وبما أنزله على خاتم رسله محمد ﷺ، لأنهم بهذا الكفر قد فوتوا على أنفسهم وعلى غيرهم مصالح الدنيا والآخرة.

– المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة:

وهى كثيرة نذكر منها ما يفتح الله به فيما يلى:

١ – يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات الاهتمام الشديد بقضية التوحيد؛ إذ هى أصل الإيمان، وإذا صح التوحيد صح الإيمان والعمل، لأن جميع أركان الإيمان والإسلام والعدل والإحسان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا؛ إنما تتفرع عن توحيد الله تعالى إلها وربا وخالقا ورازقا وبيده كل شيء.

* وليس للدعاة أن ينصرفوا عن الاهتمام بقضية التوحيد، بحجة أنها قضية تعد من المسلّمات؛ لأن توحيد الله الخالق الرازق فطرة فى الناس، لأنه ولو كان الأمر كذلك إلا أن للتوحيد شوائب ونواقض تحتاج إلى إيضاح وبيان وتحذير، إن لم يقم به الدعاة والحركيون قد يتحول التوحيد الفطرى فى الناس إلى شرك بالله، والدعاة مسئولون أمام الله عن صيانة التوحيد، ليصح الإيمان والإسلام والعمل والخلق والنظام.

٢ – ويتعلمون من هذه الآيات الكريمة أن القرآن الكريم الذى فرق الله به بين الحق والباطل، وبيّن فيه كل شيء وفصله هو وحده من بين الكتب السماوية الذى تضمن منهجا كاملا لحياة الإنسان وسعادته فى الدنيا والآخرة.

* وكلما كانت اقوال الدعاة والحركيين واعمالهم موصولة بل معتمدة على التوحيد كما جاء فى القرآن الكريم، كلما كان عملهم على الطريق الصحيح، وكلما استطاع عملهم ان يحقق أهدافه المرحلية والعامة.

٣ – ويتعلمون من الآيات الكريمة ان الكتب السماوية جميعا من عند الله تعالى، وأنها جميعا دعت إلى توحيد الله وعبادته وحده لاشريك له.

* ومن أجل هذه الحقيقة، فليس لداعية أوحركى ان ينتقص من قدر أى كتاب من هذه الكتب، كما فعلت اليهود والنصارى مع القرآن الكريم؛ لان خطأ الآخرين لايبرر الخطأ أو الانتقاص من كتب الله، وإنما يكون شأن العاملين فى حقل الدعوة والحركة الردود ودفع الشبهات، والإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن دون تهجم أو افتيات كما يفعل أعداء الإسلام والمسلمين.

* إن الفرق لكبير بين من يعملون في حقل الدعوة والحركة الإسلامية – ملتزمين باخلاق الإسلام وآدابه – وبين أولئك الحاقدين على الإسلام والمسلمين الذين لايلتزمون بخلق فاضل، حتى وإن كان ذلك الالتزام مطلبا من مطالب دينهم وكتبهم السماوية. الا ساء ما يفعلون.

٤ – ويتعلمون من هذه الآيات الكريمة ان الحكم الدقيق على التوراة والإنجيل، وأى كتب سماوية سبقت نزول القرآن الكريم هو مدى ما تقوم عليه هذه الكتب من توحيد الله تعالى وعبادته وفق ما شرع، ومدى ما تضمنته هذه الكتب من تنزيه لله تعالى، واحترام لانبيائه ومرسليه، فإن تضمنت ذلك فإنها لم تحرف فى هذا المجال، وإن تضمنت شيئا مما لايليق وصف الله تعالى به، أو اتهام لأحد من أنبيائه ورسله فهى تؤكد بذلك أنها ليست من عند الله وإنما حرفت وبدلت اتباعا للهوى وجريا وراء الاحقاد.

* إن أدب الدعوة والحركة ان يمتنع المسلمون عن تناول سيرة أى نبى من أنبياء الله تعالى بادنى شيء يشينها، حتى لو تعرض هؤلاء لمحمد ﷺ بما يشين، لان المسلم مطالب من القرآن والسنة بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما كان لمؤمن بنبى من أنبياء الله ان يسيىء إلى سيرته مهما استفزه الحاقدون، بالإساءة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين.

٥ – ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات أنه لا نجاة

للبشرية إلا باتباع القرآن عقيدة وعبادة وخلقا وشريعة أى منهجا متكاملا للحياة.

* وأن اتباع القرآن والسير على منهجه ونظامه ليس أمرا عفويا، وإنما يحتاج إلى مزيد من الإعداد والاستعداد، وإلى خطوات ومراحل فى الدعوة والحركة، وإلى التزام دقيق فى مفردات التربية الإسلامية وإلى تنظيم لكل هذه الأعمال، حتى يصلوا إلى التمكين لدين الله فى الأرض، ثم المحافظة على هذا التمكين.

* وعلى العاملين فى مجالى الدعوة والحركة، أن يوقنوا بأن تأخر الأمة الإسلامية في أى عصر من عصور تاريخها، إنما كان نتيجة طبيعية لبعدها عن القرآن الكريم ومنهجه ونظامه، بل إن تفرق الأمة الإسلامية وتمزق شملها في أى عصر، وتراجعها الحضارى اليوم، كل ذلك إنما جاء نتيجة لعزل القرآن الكريم ومنهجه ونظامه عن حياتها[1].

* ومعنى ذلك هو يقين الدعاة والحركيين بأن عودة الأمة الإسلامية إلى التمسك بالقرآن، هو الذى يجعل منها أمة قوية ذات قدرة على ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة فى ظل حضارة إسلامية سامقة تجعل منها خير أمة أخرجت للناس.

---

(١) للتوسع فى معرفة أسباب التراجع الحضارى للمسلمين اليوم وطرق التغلب عليه انظر للمؤلف: التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى وطريق التغلب عليه. نشر دار الوفاء: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢ - الآيات الكريمة من السابعة إلى التاسعة

محكم القرآن ومتشابهه، وموقف الناس منه

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران: ٧ - ٩].

- هذه الآيات الكريمة توضح أن بعض آيات القرآن الكريم محكم، وأن بعضها متشابه، وتبين موقف الناس من هذين النوعين: فمنهم زائغوا القلوب الذين يجرون وراء المتشابه ابتغاء للفتنة وإن زعموا التأويل، ومنهم مؤمنون راسخون فى العلم يؤمنون بكل ما جاء من عند الله دون تكلف فى التفسير، فضلا عن ابتغاء الفتنة. وهم بهذا الموقف يعدون من أصحاب العقول المستنيرة التى يلهج أصحابها بدعاء الله تعالى فى كل موقف.

- وفى الآيات الكريمة عدد من الأخبار، ونوعان من دعاء أولى الألباب، وتقرير لحقيقة كبرى من حقائق الإيمان.

ونحاول أن نبين ذلك فيما يلى والله ولى التوفيق.

- الخبر الأول:

عن إنزال الله تبارك وتعالى القرآن الكريم على محمد ﷺ، وأنه سبحانه جعل من آياته المحكم وجعل منها المتشابه ليبتلى بذلك عباده.

فما المحكم والمتشابه من آيات القرآن الكريم؟

ولتعرُّف هذين النوعين من الآيات نقول:

* المحكم:

فى اللغة هو المتقن أو الموثق، أو المانع من حدوث الخلل.

والمعنى أن المحكم من آيات القرآن هو الذى يمنع بإحكامه أن يتطرق الخلل إلَى نفسه أو غيره.

* والمتشابه:

فى اللغة يطلق على ما له أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضا، أو على ما يشتبه من الأمر أى يلتبس، أو على المتماثل.

– وقد أطلق المحكم فى هذه الآية ﴿منه آيات محكمات﴾ على ما هو واضح الدلالة – على سبيل الاستعارة – لأن فى وضوح الدلالة منعا لتطرق الاحتمالات الموجبة للتردد فى المراد.

– وأطلق المتشابه فى الآية الكريمة ﴿وأخر متشابهات﴾ على خفاء الدلالة على المعنى – على طريق الاستعارة أيضا – لأن تطرق الاحتمال فى معانى الكلام يُفْضى إلى عدم تعين أحد الاحتمالات.

وقد وصف الله القرآن الكريم بأنه كله محكم، قال الله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ (1) ﴾ [هود: ١]. وذلك من إحكام النظم وإتقانه، أو من الحكمة التى اشتمل عليها.

* كما وصف الله تعالى القرآن كله بانه متشابه، قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ (23) ﴾ [الزمر: ٢٣]. أى يشبه بعضه بعضا فى هدايته وبلاغته وسلامته من التناقض والتفاوت والاختلاف.

* ولا عجب فى أن يصف الله تعالى القرآن كله بأنه محكم وبأنه متشابه، لأنه متقن موثق، ولأن بعضه يشبه بعضا.

* غير أن التقسيم إلى محكم ومتشابه فى هذه الآية قائم على استعمال الكلمتين فى معنى خاص بهما. ولأجل ذلك اختلف العلماء فى تفسيرهما على النحو التالى:

الرأى الأول:

وينسب إلى ابن عباس رضى الله عنهما قال:

* المحكم مالا تختلف فيه الشرائع كتوحيد الله تعالى وتحريم الفواحش وذلك ما تضمنته الآيات الثلاث من سورة الانعام وهى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا

إلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣]، وما تضمنته الآيات من سورة الإسراء هي: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩)﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٣٩].

* والمتشابه هو الحروف المجملات التى لم تُبن كحروف أوائل السور.

والرأى الثانى:

ينسب إلى ابن عباس وابن مسعود - رضى الله عنهم، وهو:

* المحكم هو الناسخ.

* والمتشابه هو المنسوخ.

والرأى الثالث:

ينسب إلى الإمامين مالك وأبى حنيفة رحمهما الله، وهو:

* المحكم هو ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جليّ أو خفيّ.

* والمتشابه هو ما لاسبيل إلى العلم به، لأن الله تعالى استأثر بعلمه.

وقد مال إلى هذا الرأى الشاطبى فى كتابه «الموافقات».

والرأى الرابع:

ينسب إلى الإمام الشافعى، وهو:

* المحكم هو الواضح الدلالة.

* والمتشابه هو الخفى الدلالة.

والرأى الخامس:

ينسب إلى مجاهد[1] وهو:

* المحكم هو ما أحكم الله فيه بيان حلاله وحرامه.

* والمتشابه هو ما أشبه بعضه بعضا فى المعانى وإن اختلفت ألفاظه.

والرأى السادس:

ينسب إلى الأصم[2] وهو:

* المحكم هو ما اتضح دليله.

* والمتشابه ما يحتاج إلى التدبر.

وضربوا لذلك مثلا بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ⑪ ﴾ [الزخرف: ١١].

فأول الآية محكم، وآخره متشابه.

والرأى السابع:

ينسب إلى كثير من العلماء وهو:

---

(١) هو مجاهد بن جبر (٢١ - ١٠٤هـ) تابعى مفسر من شيوخ القراء والمفسرين، أخذ عن ابن عباس رضى الله عنهما، قرأه عليه ثلاث مرات يقف عند كل آية يسأله: فيم نزلت وكيف نزلت؟ مات وهو ساجد.

(٢) هو محمد بن يعقوب بن يوسف أبو العباس الأصم (٢٤٧ - ٣٤٦هـ) محدّث من هل نيسابور، رحل من اجل العلم إلى مكة ومصر ودمشق والموصل والكوفة وبغداد، وتلقى عن علمائها من رجال الحديث، حدّث ستا وسبعين سنة وأصيب بالصمم بعد عودته من رحلته، توفى بنيسابور وكان يأكل من عمله بالوراقة.

* المحكم ما لم يحتمل من التأويل إلا وجها واحدا.

* والمتشابه ما احتمل من التأويل أكثر من وجه.

والرأى الثامن:

ينسب إلى عدد من العلماء وهو:

* المحكم هو الإنشاء أى الأوامر والنواهى، أى ما يُعمل به.

* والمتشابه هو الإخبار أى الذى يؤمن به المسلم ولايعمل به.

والرأى التاسع:

ينسب إلى الإمام ابن تيمية رحمه الله، وهو:

* المحكم هو القرآن كله باستثناء آيات الصفات.

* والمتشابه هو الآيات التى ذكرت فيها صفات الله تعالى.

والرأى العاشر:

ينسب إلى الشيخ محمد عبده [1] وهو:

* المحكم هو الذى لاينفى العقل شيئا من ظاهر معناه.

* والمتشابه هو ما يجد العقل مرجحا لمعنى من معانيه على معنى آخر.

والرأى الحادى عشر:

ينسب إلى الشيخ الطاهر بن عاشور، يقول فيه:

«على أن من مقاصد القرآن الكريم أمرين آخرين:

أحدهما:

كونه شريعة دائمة، وذلك يقتضى فتح أبواب عبارته لمختلف استنباط المستنبطين حتى تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين.

---

(١) هو محمد عبده حسن خير الله (١٢٦٦هـ - ١٣٢٣هـ) من كبار رجال الإصلاح والتجديد فى الإسلام، تخرج فى الأزهر وعمل فى التعليم والصحافة فقد تولى تحرير الوقائع المصرية وكان مفتيا للديار المصرية قاوم الإنجليز المحتلين لمصر آنذاك وشارك فى الثورة العرابية، ونُفى عن مصر، وله تفسير مشهور هو تفسير المنار.

وثانيهما:

تعويد حملة هذه الشريعة وعلماء هذه الأمة بالتنقيب والبحث، واستخراج المقاصد من عويصات الادلة، حتى تكون طبقات الامة صالحة - فى كل زمان - لفهم تشريع الشارع ومقصده من التشريع، فيكونوا قادرين على استنباط الاحكام التشريعية.

ولو صيغ لهم التشريع في أسلوب سهل التناول، لاعتادوا العكوف على ما بين أنظارهم فى المطالعة الواحدة.

من أجل هذا كانت صلوحية عباراته لاختلاف منازع المجتهدين قائمة مقام تلاحق المؤلفين فى تدوين كتب العلم، تبعا لاختلاف مراتب العصور.

فإذا علمت هذا علمت السبب فى وجود ما يسمى بالمتشابه فى القرآن»[1].

* وذكر الإمام الرازى فى كتابه «التفسير الكبير» أو «مفاتيح الغيب» عددا من فوائد المتشابه جمع منها خمسة أوجه، أكتفى هنا بسرد الوجه الخامس وحده.

قال الفخر الرازى: «الوجه الخامس، وهو السبب الأقوى فى هذا الباب، أن القرآن مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية، وطبائع العوام تنبو فى أكثر الامر عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام فى أول الامر إثبات موجود وليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه، ظن أن هذا عدم ونفى فوقع فى التعطيل، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه، ويكون ذلك مخلوطا بما يدل على الحق الصريح.

فالقسم الأول:

وهو الذى يُخاطبون به فى أول الأمر يكون من باب المتشابهات.

والقسم الثانى:

وهو الذى يُكشف لهم فى آخر الأمر هو المحكمات.

فهذا ما حضرنا فى هذا الباب والله أعلم بمراده[2].

٢ - الخبر الثانى:

تقرير أن الآيات المحكمات: «هن أم الكتاب».

(١) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير: ٣/١٥٨ ط الدار التونسية للنشر، دون تاريخ.

(٢) فخر الدين الرازى: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. ٧/١٤٩ ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

* والأم هي: الأصل الذى يكون منه الشيء.

ولما كانت الآيات المحكمات مفهومة بذواتها، والمتشابهات إنما تصير مفهومة بإعانة المحكمات، صارت المحكمات كالأم للمتشابهات والمتشابهات كالفرع عن هذا الأصل.

٣ - وخبر **ثالث** يقرر نوع العمل الذى يقوم به الذين فى قلوبهم زيغ إزاء المحكم والمتشابه من آيات القرآن الكريم، وذلك فى قوله تعالى: **«فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله»**.

فمن هم الذين فى قلوبهم زيغ؟

قال المفسرون: هم كل كافر وزنديق، وجاهل وصاحب بدعة، إذ الزيغ هو الميل والانحراف عن المقصود، وكل هؤلاء منحرفون عن الحق.

وقال الزجّاج[1]: «هم الكفار الذين ينكرون البعث».

وقال الكلبى[2]: «هم اليهود طلبوا علم مدة بقاء هذه الأمة وطلبوا استخراجه من الحروف المقطعة فى أوائل السور».

وقال قتادة [3]: «إن لم يكونوا الحرورية وأنواع الخوارج فلا أدرى من هم؟».

وقال كثير من المفسرين: هم وفد نجران لما حاجّوا رسول الله ﷺ فى المسيح.

* و «**يتبعون**» أى يلازمون ويعكفون على الخوض فى المتشابه، وعلة هذا هو طلب الفتنة، وطلب تأويله بما يوافق أهواءهم، وهذا شأن الملاحدة وأهل الأهواء وأهل النفاق والزنادقة والمشركين.

* وقال القرطبى: قال شيخنا أبو العباس رحمة الله عليه: متبعوا المتشابه لايخلو أن يتبعوه ويجمعوه طلبا للتشكيك فى القرآن وإضلال العوام، كما فعلته الزنادقة، والقرامطة

---

(١) هو إبراهيم بن السرى بن سهل أبو إسحق (٢٤١ - ٣١١هـ) عالم بالنحو واللغة، ولد ببغداد، وهو تلميذ المبرّد، وكانت له مناقشات مع ثعلب عالم اللغة المشهور. ومن كتبه: معانى القرآن، والاشتقاق، وكتاب فعلت وافعلت، ومات ببغداد.

(٢) الكلبى هو محمد بن السائب بن بشر (٠٠٠ - ١٤٦هـ) نسّابة راوية عالم بالتفسير من اهل الكوفة وبها مولده ووفاته، وهو والد هشام صاحب كتاب الأصنام.

(٣) قتادة هو: مقاتل ابن سليمان بن بشر الأزدى (... - ١٥٠ هـ) من أعلام المفسرين أصله من بلخ رحل إلى البصرة ودخل بغداد وحدّث بها ومات بالبصرة ومن كتبه: التفسير الكبير ونوادر التفسير، ومتشابه القرآن وغيرها.

الطاعنون فى القرآن، أو طلب لاعتقاد ظواهر المتشابه، كما فعلته المجسمة الذين جمعوا ما فى الكتاب والسنة، مما ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أن البارئ سبحانه جسم مجسّم، وصورة ذات وجه وعين ويد وجنب ورجل وإصبع - تعالى الله عن ذلك[1].

* وقد ضرب العلماء لهذا التأويل المفضى إلى الفتنة مثلين:

أحدهما: لتأويل المشركين.

والآخر: لتأويل الزنادقة.

قالوا: ومثل تأويل المشركين قصة العاصى بن وائل المشرك، إذ جاءه خبّاب بن الأرت رضى الله عنه، يتقاضاه أجرا، فقال له العاصى متهكما به: «وإنى لمبعوث بعد الموت، فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد».

فقد أراد العاصى أن البعث بعد الموت رجوع إلى الدنيا، أو أراد أن يوهم دهماء المشركين ذلك، ليكون أدعى إلى تكذيب الخبر بالبعث بمشاهدة عدم رجوع أحد من الأموات، ولذلك كانوا يقولون: «**فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين**».

* ومثل تأويل الزنادقة ما حكاه محمد بن على بن رزام الطائى الكوفى قال: كنت بمكة حين كان الجنابى - زعيم القرامطة - بمكة، وهم يقتلون الحُجّاج ويقولون: أليس قد قال لكم محمد المكى: «**ومن دخله كان آمنا**»، فأى أمن هنا؟

قال: فقلت له: هذا خرج فى صورة الخبر والمراد به الأمر، أى ومن دخله فأمّنوه، كقوله: «**والمطلقات يتربصن**».

* وقال ابن العربى فى كتابه: «العواصم من القواصم»:

ومن الكائدين للإسلام الباطنية والظاهرية.

- فالباطنية جعلوا معظم القرآن متشابها، تأولوه بحسب أهوائهم.

- وأما الظاهريون فقد أكثروا فى متشابهه واعتقدوا سبب المتشابه واقعا.

فدخل الباطنيون في قوله: «**وابتغاء تأويله**».

وخرج الظاهرية من قوله: «**وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون فى العلم**» أو «**وما يعلم**

---

(١) القرطبى: الجامع لاحكام القرآن. ٤ / ١٣-١٤ عن ط دار الكتب المصرية، دون تاريخ.

تأويله إلا الله» فخالفوا السلف والخلف.

ثم قال ابن العربى فى نفس الكتاب: وأصل الظاهريين الخوارج الذين قالوا: لاحكم إلا لله، يعنى أنهم أخذوه بظاهر قوله تعالى: **«إن الحكم إلا لله»**، ولم يتأولوه بما هو المراد من الحكم.

٤ – **وخبر رابع ينفى عن الزائغة قلوبهم العلم بتأويل القرآن، وليس علمه إلا لله تعالى.**

ومن هنا أمسك السلف عن تأويل المتشابهات غير الراجعة إلى التشريع.

* قال ابن عباس رضى الله عنهما:

تفسير القرآن على أربعة أوجه:

– تفسير لايسع أحدا جهله.

– وتفسير تعرفه العرب بألسنتها.

– وتفسير تعلمه العلماء.

– وتفسير لا يعلمه إلا الله.

وقد سئل مالك بن أنس رحمه الله عن الاستواء فقال: «الاستواء معلوم والكيفية مجهولة، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[1] وإنما علم هذا التأويل عند الله وحده، ويكون الكلام تاما بقوله تعالى: **«وما يعلم تأويله إلا الله»** ويصبح قوله سبحانه: **«والراسخون فى العلم...»** كلامًا مستأنفًا جديدًا.

* وبهذا الرأى قال ابن عباس وابن عمر وعروة بن الزبير رضى الله عنهم، وأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، ومالك بن أنس.

ومن علماء اللغة الذين قالوا بذلك: الكسائى، والأخفش، وأبو عبيد.

ومن المعتزلة: أبو على الجبائى.

٥ – **وخبر خامس يثبت للراسخين فى العلم أنهم لتمكنهم من العلم والإيمان لايلجأون إلى الخوض فى المتشابه، وإنما يتركون أمر علمه إلى الله.**

* **«والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولوا الألباب».**

---

(١) الفخر الرازى: التفسير الكبير ٧ / ١٥٤، مرجع سابق.

* والرسوخ فى اللغة: الثبوت فى الشىء.

والراسخ فى العلم هو الذى عرف ذات الله وصفاته بالدلائل اليقينية القطعية، وعرف أن القرآن كلام الله بالدلائل اليقينية، فإذا رأى شيئا متشابها ودلّ القطعى على أن الظاهر ليس مراد الله تعالى، علم حينئذ قطعا أن مراد الله شىء آخر سوى ما دلّ عليه ظاهره، وأن ذلك المراد حق.

* فهؤلاء شأنهم فى التعرض للمحكم والمتشابه أن يقولوا: كل منهما من عند ربنا.

وما يقول هذا ويؤمن به، ويدع اتباع المتشابه إلا ذووا العقول.

* وقال بعض العلماء: إن الواو فى قوله تعالى «والراسخون» للعطف على لفظ الجلالة، ومقتضى ذلك أنهم يعلمون تأويله – وهو قول مرجوح لأكثر من سبب ولأكثر من علّة.

٦ – وأما الدعاء الذى اشتملت عليه هذه الآيات، فيفهم من قوله تعالى: «ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب».

* ويحتمل أن يكون هذا الدعاء صادراً من الراسخين فى العلم الذين قالوا آمنا به كل من عند ربنا.

* ويحتمل أن يكون المعنى: أن هذا دعاء عُلّمه النبى ﷺ، تعليما للأمة؛ لأن المو... موقع عبرة ومثار لهواجس الخوف، أى قل يا محمد: ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.... وذلك أن إزاغة القلوب فساد وميل عن الدين، فهم يدعون الله الأ يبتليهم بما يثقل علي... بعد أن هداهم.

ويكون الله تعالى قد علّم عباده الدعاء إليه فى الأ يكونوا من الطائفة الذميمة التى ذُكرت وهى أهل الزيغ.

* روى الترمذى بسنده عن شهر بن حوشب – رضى الله عنه – قال: «قلت لأم سلمة رضى الله عنها: يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك، قال – أى النبى ﷺ –: يا أم سلمة إنه ليس آدمى إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فمن شاء الله أقام، ومن شاء أزاغ» فتلا معاذ: «ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا» ومعاذ هو أحد رواة الحديث.

٧ – ودعاء ثان فى الآية، هو فى قوله تعالى: «وهب لنا من لدنك رحمة».

أى طلبوا أثر الدوام على الهدى وهو الرحمة فى الدنيا والآخرة، ومنع دواعى الزيغ والشر،

لأن هبة الله تعالى أكبر من أن تُحد، وهبات الناس – بالنسبة لما أفاض الله من الخيرات – شيء لا يُعبأ به.

٨ – وخبر مؤكد فيه ثناء على الله بأنه كثير الهبات لعباده، وذلك قوله تعالى: «**إنك أنت الوهاب**»، فذلك خبر مؤكد بإن ومؤكد بأنه جملة اسمية توحي بالثبات والدوام، في حين توحي الجملة الفعلية بالتجدد، والحاليّة.

٩ – وخبر مؤكد فيه ثناء على الله بأنه مالك كل شيء وإليه مآل كل شيء، وهو في قوله تعالى: «**ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه**» كأنهم قالوا: وهب لنا من لدنك رحمة وبخاصة يوم القيامة يوم تجمع الناس ليوم لاريب فيه، حيث يكون الناس أحوج ما يكونون إلى الرحمة في ذلك اليوم الذي لاشك في وقوعه.

١٠ – وخبر أخير في الآية مؤكد بإن، وذلك في قوله تعالى: «**إن الله لايخلف الميعاد**»، فالمعنى تأكيد أن الإلهية تنافي خلف الميعاد.

– وفي الآيات الكريمة من المواقف التربوية العامة ما نذكر بعضه فيما يلي:

١ – أن القرآن الكريم هو الكتاب المنزل من عند الله تبارك وتعالى على محمد خاتم رسله وأنبيائه ﷺ، وأن الإيمان بالقرآن وبكل ما جاء فيه ركن من أركان الإيمان، لايكون الإيمان إلا به.

«**هو الذي أنزل عليك الكتاب**».

* وأن الإيمان بالقرآن يقتضي العمل بما فيه والاهتداء بهديه، وتحليل حلاله، وتحريم حرامه، والتدبر فيه والاتعاظ بقصصه وأخباره، وتصديق كل كلمة منه.

* والإيمان بأن الله تعالى قد حفظه بنفسه وسيحفظه – إلى يوم الدين – من أي تغيير أو تبديل أو تحريف أو تشويه، لأن الله تعالى ميز القرآن عن سائر كتبه سبحانه بأن تولى حفظه بنفسه، في حين استحفظ الناس على كتبه الأخرى.

* والإيمان بأنه لا فلاح للأمة المسلمة في دنياها وأخراها إلا إذا تمسكت بما في القرآن الكريم وجعلته دستورا وقانونا لها، واعتقدت أن التخلي عن أي شيء منه هو السبب الحقيقي لكل داء يصيب المسلمين أو يجعلهم في مجال التخلف والضياع، بل التبعيّة لأعدائهم ومن يريدون بهم الشر.

٢ – والإيمان بأن هذا القرآن العظيم قد تضمن آيات محكمات هى الأم والأصل والمرجع والموثق والمتقن المانع من وقوع الخلل فى حياة كل من تمسك به وبأحكامه وآدابه.

* وأن هذا المحكم من القرآن واضح الدلالة، ولايعجز الناس فهمه، ولايختلفون فى المراد منه، ولايشق عليهم الأخذ به.

* ومن منطلق عدم المشقة فى الأخذ بالقرآن ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢﴾ [طه: ٢] من هذا المنطلق يعد القرآن كله محكما، كما وصفه الله تعالى بذلك: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١].

* والإيمان بأن هذا القرآن العظيم قد تضمن إلى جانب هذه الآيات المحكمات آيات متشابهات يشبه بعضها بعضا فى عمق الدلالة، ولا يُؤتَى فقهها إلا من أراد الله به خيرا «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين»[1]، لأن تلك الآيات يشبه بعضها بعضا فى الهداية، وفى السلامة من التناقض والاختلاف، وبهذا وصف الله تعالى القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۝٢٣﴾ [الزمر: ٢٣].

٣ – ونتعلم من هذه الآيات الكريمة أن نعكف على معرفة المحكم من القرآن الكريم، ونقبل على التمسك به والتأدب بأدبه، وقد ذكر العلماء – كما أشرنا إلى ذلك آنفا – مثالين فى القرآن الكريم لهذا المحكم من آياته، بحيث لاتختلف فيه الشرائع أبدا كتوحيد الله عز وجل، وتحريم الفواحش، والتحلى بفضائل الأخلاق.

* ومن مصلحة كل مسلم – بل كل عاقل – أن يتدبر فى هذين المثالين وأن يأخذ نفسه بكل أمر فيهما، وأن يباعد بين نفسه وبين كل نهى فيهما، وأن يلتزم بكل قيمة أخلاقية جاءت فيهما.

* وهذان المثالان هما:

الأول:

قول الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ:

– أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،

(١) رواه البخارى ومسلم عن معاوية رضى الله عنه، ورواه أحمد والترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما، ورواه ابن ماجة عن أبى هريرة رضى الله عنه.

- وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ،

- وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ،

- وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ،

- وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ،

ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)

- وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ،

- وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ،

لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ،

- وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ،

- وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ،

ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)

- وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ،

- وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ،

ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

والمثال الثاني:

قول الله تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ،

- وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) ،

- وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ،

- وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦)

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧)

- وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً (٢٨) ،

- وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ،

- وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً (٢٩) ،

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٣٠) .

- وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (٣١) ،

- وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) ،

- وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً (٣٣) ،

- وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ،

- وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) ،

- وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) ،

- وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ،

- وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (٣٨) ،

ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ،

- وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً (٣٩) ﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٣٩].

وهذان المثلان للمحكم من القرآن الكريم وغيرهما مما يشبههما، هما الدستور الأخلاقى فى القرآن الكريم الذى يجب أن يتخذه كل مسلم دليلا له فى السلوك الأخلاقى[1].

٤ - ونتعلم من الآيات الكريمة أن المتشابه فى القرآن الكريم وهو ما كان واضح الدلالة لبعض الناس دون بعض، ما ينبغى أن يقف عنده أو يتعلق به أو يتخذه وسيلة للتشكك والتشكيك فى أمور الدين؛ إلا أولئك الذين فى قلوبهم زيغ أو زندقة أو جهل أو بدعة، مع رغبة فى الانحراف عن الحق وعن منهج الله تعالى.

---

(١) تحدثنا عن هاتين الآيتين الكريمتين وغيرهما فى كتابنا: التربية الخلقية فى القرآن الكريم: الفصل الأول من الباب الثالث من هذا الكتاب - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.

* **أما السلف رحمهم الله تعالى فلم يكونوا يتعلقون بهذه المتشابهات وإنما يتركون ذلك قائلين: علمها عند الله.**

وكلمة مالك بن أنس – رحمه الله – عندما سئل عن بعض المتشابهات فى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

فقال: «الاستواء معروف والكيفية مجهولة والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة» – تلك الكلمة تمثل منهج السلف عليهم رحمة الله وهم يتعاملون مع المتشابه.

* **وأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.**

٥ – ونتعلم من الآيات الكريمة: أن شأن المؤمنين الراسخين فى العلم أن يقولوا – عند التعرض للمتشابه من الآيات – **«آمنا به كل من عند ربنا»، فهم بهذا القول أصحاب** الباب مهتديه وعقول نيّرة.

* وأن المؤمنين الراسخين فى العلم من شأنهم أن يكون الدعاء والتوجه إلى الله بهذا الدعاء فى كل حين قائلين: **«ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب».**

٦ – ونتعلم من هذه الآيات الكريمة أن الإيمان باليوم الآخر هو ركن من أركان الإيمان، لأنه لا إيمان بغير عمل، ولا عمل بغير التزام بمنهج الله، ولا التزام بالمنهج ما لم تكن طاعة لله وحساب وجزاء على هذه الطاعة أو على تركها، والجزاء والحساب والثواب والعقاب إنما يكون فى اليوم الآخر الذى يجمع الله فيه الناس، لأنه سبحانه وعد بذلك والله لايخلف الميعاد. **«ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه إن الله لايخلف الميعاد».**

إن على كل مسلم أن يتعلم هذا الدعاء، وأن يعتقد أن كل عمل يأتيه فى هذه الحياة الدنيا سوف يحاسب عليه ويجازى به، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

– المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات كثيرة نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ – أن يجعل الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية كل أقوالهم وأعمالهم وتنظيماتهم، وأهدافهم من تربية الناس تربية إسلامية، ووسائلهم إلى هذه التربية، وعملهم على التمكين لدين الله فى الأرض، يجعلون كل ذلك نابعا من القرآن الكريم ومستندا إليه، وأن يردوا كل عمل لهم فى أى من تلك المجالات إلى أصوله من الكتاب والسنة، فإنهم

بهذا التأصيل يأمنون الانحراف عن الحق ويطمئنون إلى أنهم على الطريق الصحيح.

٢ - وعلى الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية ان يحرصوا على أن يكون زادهم الروحى والخلقى هو القرآن الكريم والسنة النبوية التى فسرته، حفظا واستظهارا وتدبرا واستشهادا بتلك النصوص الكريمة.

* إن الاصل فى الدعاة إلى الله ان يصاحبوا كتاب الله فى دعوتهم وحركتهم وتنظيماتهم وكل ما يعملون، يتجاوبون مع كل ما فيه من احكام وآداب وقصص وأخبار.

* وعليهم أن يضعوا البرامج العلمية والعملية والتربوية التى يستعينون فيها بنصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية، فهما غنيان بكل ما يحتاج إليه الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية.

* وعليهم أن يجتهدوا ويجدوا ويعملوا ما وسعهم على أن يخرجوا بالقرآن الكريم من دائرة النظرية إلى مجال التطبيق، متذكرين ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه وغيره من الصحابة لما طالت بهم المدة التى حفظوا فيها سورة البقرة فبلغت سنتين أو يزيد، فسئل بعضهم عن ذلك قال: كنا لاندع الآية حتى نعمل بما فيها.

* إن الله تعالى أنزل هذا القرآن الكريم ليعُمل به، وليتُخَذ منهجا ونظاما.

٣ - ويتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآيات الا يتوقفوا طويلا عند المتشابه من آيات القرآن الكريم، وإنما حسبهم فى ذلك اخلاق السلف رضوان الله عليهم وهو ترك المتشابه لعلم الله تعالى، والانصراف عن الخوض فيه أو الوقوف عنده طويلا.

* وما دام الدعاة إلى الله والحركيون هداة إلى الحق، وطلابا له، فليس لديهم الوقت الذى ينفقونه فى الوقوف عند بعض المتشابه فى القرآن الكريم، وخير من ذلك الانصراف إلى المحكم والاهتداء بهدى القرآن الكريم، وحسبهم وصف الله تبارك وتعالى للقرآن الكريم بأنه هدى، فالتماس الهدى فيه هو الأصل، ولايتمشى مع التماس هذا الهدى الاستغراق فى الخوض فى المتشابه من القرآن الكريم.

٤ - وعلى الدعاة والحركيين أن يعكفوا على معرفة صفات الراسخين فى العلم ليتمثلوها فى أنفسهم.

وأبرز هذه الصفات ما يلى:

أ - أنهم متثبتون من العلم متحققون منه.

ب - وأنهم لاتعرض لهم الشبهات ولا الارتياب.

جـ - وأن مقولتهم الدائمة: «آمنا به كل من عند ربنا».

د - وأنهم مؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ لكن الراسخين فى العلم منهم والمؤمنين يؤمنون بما أنزل على رسول الله ﷺ.

هـ - وأنهم أصحاب العقول النيّرة «وما يذكر إلا أولوا الألباب».

و - وأنهم موصولون بالله تعالى، يدعونه دائما ويلجأون إليه فى كل حين: «ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا» و «هب لنا من لدنك رحمة».

تلك صورة مجملة لصفات الراسخين فى العلم؛ على الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يترسموا خطواتهم فيها، فإن ذلك من أهم أسباب النجاح.

٥ - وعلى الدعاة والحركيين أن يكونوا من أهل الدعاء، لأن الرسول ﷺ علّمنا أن نكون دائما ممن يلجأون إلى الدعاء مع العمل الصالح، للاستعانة به على قضاء حوائجهم.

* وفى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، فقد كان ﷺ كثير الدعاء، كثير الاستغفار، يلجأ إلى ربه يدعوه ويرجوه فى كل أمره فى السراء والضراء، فى سلمه وحربه وأمانه وخوفه، بل كان يلح فى الدعاء، ويرقّ حتى يبكى وهو يدعو ربه.

ويستطيع الدعاة والحركيون أن يتغلبوا على كثير من مسائلهم وقضاياهم بالدعاء، فقد قال الله تعالى: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (٦٠) ﴾ [غافر: ٦٠].

٣ – الآيات من العاشرة إلى الثالثة عشرة

جزاء الكافرين هزيمة فى الدنيا وعذاب فى الآخرة

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾ [آل عمران: ١٠ – ١٣].

– هذه الآيات الكريمة تشتمل على توضيح لحال الكافرين أيام النبى ﷺ، وحالهم فى الماضى البعيد، وترمز إلى أن ذلك حالهم فى كل حين، كما توضح مآلهم أيضا، وهو عذاب الله، وتؤكد أن الله تعالى مع المؤمنين يؤيدهم بما يشاء من جنود، ويجعل فى تأييده لهم عبرة لأصحاب العقول والأفهام.

– وفى الآيات عدد من الأخبار، وضرب لبعض الأمثال وأمر وبشارة، وبيان ذلك فيما يلى:

١ – الخبر الأول:

أن الله تبارك وتعالى يخبرنا خبرا مؤكدا: أن الذين كفروا لن تغنى عنهم عدة – ولا عتاد، ولا مال ولا أولاد – من عذاب الله تعالى، إذا استحقوا بسبب كفرهم أن يكونوا من وقود جهنم **﴿إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار﴾**.

وقد أُكد هذا الخبر بإن وبالجملة الاسمية.

والمعنى: أن الذين جحدوا الحق الذى قد عرفوه من نبوة محمد ﷺ من يهود بنى إسرائيل، ومنافقيهم، ومنافقى العرب، وكفارهم الذين فى قلوبهم زيغ، هؤلاء لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم لينجوا بها من عذاب الله وعقوبته حين تقع بهم فى الدنيا إذا عجّل بها، ولايغنى عنهم ذلك كله شيئا من عذاب الله وعقابه فى الآخرة، وإنما يكونوا بذلك حطب جهنم أو وقود النار.

* وقد يكون المراد بالذين كفروا وفد نجران الذين جاءوا يجادلون رسول الله ﷺ في المسيح عليه السلام.

أو يكون المراد بهم يهود بنى قريظة وبنى النضير، ويرجح هذا أنهم ذكّروا بحال آل فرعون دون حال عاد وثمود، لأن اليهود والنصارى أعلق بأخبار فرعون، كما أن العرب أعلق بأخبار عاد وثمود.

* ويجوز أن يكون المراد جميع الكافرين من المشركين وأهل الكتابين، ويكون التذكير بفرعون؛ لأن وعيد اليهود فى هذه الآية أهم.

٢ – وخبر ثان عن آل فرعون ومآلهم، حيث كذبوا نبيهم موسى عليه السلام فعاقبهم الله فى الدنيا بالهزيمة والغرق، ولهم فى الآخرة ما يستحقون من عقاب **﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب﴾.**

* والدأب: يعنى الجد والاجتهاد كما جاء ذلك فى كتب اللغة.

والمعنى: أن جدهم واجتهادهم – وهم فى تكذيب محمد ﷺ وكفرهم بما جاء به من عند الله، وإجماع اليهود والنصارى ومشركى العرب على تحديه وتكذيبه – كجد آل فرعون واجتهادهم فى تكذيب موسى عليه السلام وكفرهم بما جاء به.

* والنتيجة أنا أهلكناهم بذنوبهم تلك، وسوف نهلككم بذنوبكم وكفركم بمحمد ﷺ كما أهلكناهم.

* ويمكن أن يكون الدأب بمعنى الصنع والعادة، ويكون معنى الآية: أن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، ويجعلهم الله وقود النار، كعادته سبحانه وصنعه فى آل فرعون كما كذبوا رسولهم فأخذهم بذنوبهم.

* ويحتمل أن تكون الآية الكريمة جامعة للعادة المضافة إلى الله تعالى، والعادة المضافة إلى الكفار المكذبين لرسلهم.

ويكون المعنى: إن عادة هؤلاء الكفار ومذهبهم فى إيذاء محمد ﷺ كعادة من قبلهم فى إيذاء رسلهم، وعادتنا أيضا فى إهلاك هؤلاء كعادتنا فى إهلاك أولئك الكفار المتقدمين.

* والمقصود – على كل تقدير من هذه التقديرات الصحيحة كلها – هو: نصر النبى ﷺ على من كذبوه، وبشارته ﷺ بأن الله تبارك وتعالى سينتقم منهم فى الدنيا والآخرة.

* والمراد بآل فرعون: فرعون وآله، لأن فرعون هو قائدهم إلى الكفر وإلى النار.

والآل: يطلق على أشد الناس اختصاصا بمن يضاف إليه وهو فرعون، والآل: أخص من القوم.

٣ - وخبر ثالث بأن من كذّب بآيات الله وعصى رسله فإن الله تعالى يأخذه ويعذبه في الدنيا، ويحشره يوم القيامة إلى جهنم وهى أسوأ مهاد وأتعسه: **«كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم»**.

٤ - وخبر رابع يقرر أن الله تعالى شديد العقاب حين يعاقب. ومن المعروف أنه سبحانه لايعاقب إلا من كذب رسله وعصاهم، فإن عاقبهم فإنه سبحانه شديد العقاب، وفى هذا تخويف لكل من تحدثه نفسه من الناس أن يكذب رسول الله ﷺ.

٥ - وأما الأمر:

فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتبليغ الذين كفروا حقيقة واقعة، وهى: أنهم سوف يغُلبون فى الدنيا يوم تنتصر عليهم جيوش الحق، وفي هذا إعجاز قرآنى، حيث يخبرهم عن أمر سوف يقع، ثم وقع كما أخبرهم وذاقوا مرارة الهزيمة فى بدر كما ذاقها اليهود فى بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع، ويهود خيبر، كما يخبرهم بغيب سوف يقع وهو أنه سبحانه وتعالى سوف يحشرهم يوم القيامة فى جهنم وبئس المهاد. **«قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد»**.

* وفى الآية الكريمة وعيد للكفار بعذاب الدنيا، لأن مصيرهم شُبِّه بأنه كدأب آل فرعون، وما عذب الله به آل فرعون معروف، وفيها كذلك وعيد بعذاب الآخرة، وأنهم سوف يكونون وقود النار وحصب جهنم.

* وقد قيل: إن الخطاب فى الآية الكريمة **«ستغلبون»** موجه إلى اليهود، حيث غلبهم المسلمون فقتلوا بنى قريظة لخيانتهم، وأجْلَوا بنى النضير لنفاقهم، وفتحوا خيبر.

* كما قيل: إن الخطاب موجه للمشركين، وقد قدر عليهم المسلمون وهزموهم يوم بدر، ثم أتم الله على المؤمنين نعمته فنصرهم على هؤلاء المشركين يوم فتح مكة.

* والأقرب أن يكون الخطاب عاما لكل مشرك وكل يهودى وكل منافق ممن كذبوا الله ورسوله، فهزمهم الله تعالى فى الدنيا ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا فى الدنيا، وسوف ينفذ وعيده فى الآخرة فيحشرهم فى جهنم وبئس المهاد.

٦ – وأما الأمثال المضروبة فى الآيات فهى:

* ضرب الله تعالى مثالا ـ لمن تغره نفسه أو ماله وولده – بما كان بين المؤمنين والمشركين يوم بدر، وبه قال جمهور المفسرين.

وقال بعض المفسرين: إن الآية تحتمل أن يكون المثال منها إشارة إلى وقائع أخرى قبل الإسلام.

غير أن رأى جمهور المفسرين أرجح.

– وقد كان من آيات الله التى أيّد بها المسلمين فى معركة بدر أن ألقى فى قلوب الكافرين الرعب، إذ كانوا يرون المسلمين فى مثلى عددهم، وألقى فى قلوب المؤمنين الاطمئنان إذ كانوا يرون الكفار أقل من عددهم الحقيقى، قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣].

* روى محمد بن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما غلب قريشا ببدر، ورجع إلى المدينة، جمع اليهود وقال لهم: «يامعشر اليهود: احذروا من الله مثل ما نزل بقريش، وأسلموا فقد عرفتم أنى نبى مرسل» فقالوا: يا محمد لايغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لا معرفة لهم بالحرب، فأصبت فيهم فرصة، أما والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس، فأنزل الله هذه الآية.

* وروى الواحدى فى أسباب النزول: أن يهود يثرب كانوا عاهدوا رسول الله ﷺ إلى مدّة، فلما أصاب المسلمين يوم أحد ما أصابهم من النكبة نقضوا العهد، وانطلق كعب بن الأشرف فى ستين راكبا إلى أبى سفيان بمكة وقال لهم: لتكوننّ كلمتنا واحدة. فلما رجعوا إلى المدينة أنزلت هذه الآية.

* وبناء على هاتين الروايتين فالغَلَب الذى أُنذروا به هو فتح قريظة والنضير وخيبر.

أما التهديد فشامل للفريقين: اليهود والمشركين فى جميع الأحوال.

* وأما الفئتان اللتان التقتا فهما: المسلمون والمشركون فى معركة بدر، والمسلمون هم الفئة التى تقاتل فى سبيل الله، والمشركون هم الفئة الكافرة.

– وفى الآية الكريمة بشارة للمؤمنين بأن الله يؤيديهم على الرغم من قلة عددهم: «والله

يؤيد بنصره من يشاء. وفي هذا التأييد والنصر لقليلى العدد، على كثيرى العدد عبرة لاولى الابصار.

– المواقف التربوية العامة فى الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلى:

١ – أن الله تعالى مالك الملك ومدبر الأمور ومصرفها وحده سبحانه وتعالى، وأن الذين كفروا يتوهمون أن ما يملكونه من أسباب القوة من أموال وبنين ونحوها، وكل ذلك لايغنى عنهم من الله شيئا، فقد يهزمهم الله تعالى فى الدنيا على الرغم من تلك الأسباب – كما حدث أن أغرق آل فرعون، وهزم المشركين فى بدر – ثم يجعلهم يوم القيامة وقودا للنار.

*** وهكذا يكون الشأن فى كل من يغترون بقوتهم وهم على الباطل.**

٢ – وأن سنة الله فى الذين خلوا من قبل: أن كل من كذب بآيات الله أخذه الله بذنبه وعاقبه العقاب الشديد الذى يستحقه.

*** وأن سنن الله تعالى لاتتخلف أبدا، والإيمان بسنة الله تعالى جزء من الإيمان لابد منه.**

٣ – ويتعلم المسلمون من هذه الآيات أن مصير الكفار والمعاندين لله ورسوله ﷺ هو الهزيمة فى الدنيا، والخزى والعذاب فى الآخرة، وهذا من شأنه أن يزرع الاطمئنان فى قلوب المؤمنين ويعطى العبرة لأولى الأبصار.

٤ – ويتعلم المسلمون من هذه الآيات أن الله تبارك وتعالى يناصر الحق وأهله، ويمدهم بالأسباب التى تحقق لهم النصر على عدوهم فى الدنيا، فضلا عما يحيق بهؤلاء الأعداء من عذاب يوم القيامة. وهذا من شأنه أن يجعل المسلمين يخوضون معاركهم ضد الباطل وهم على ثقة من أن الله تعالى معهم ومؤيدهم.

وهذا الشعور له أثره فى تحقيق النصر على الأعداء، وهو من نعم الله تعالى على المؤمنين.

– المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يفتح الله به فيما يلى:

١ – على رجال الدعوة والحركة أن يتعلموا من هذه الآيات الكريمة، ألا تهولهم ولا تخدعهم الأسباب التى بأيدى أعداء الله تعالى من المشركين والكافرين والمنافقين والمعاندين، فإن هذه الأسباب – مهما تنوعت وكبرت وتكاثرت وكانت من القوة

والبطش - فلن تستطيع أن تحول بين أصحابها وبين ما يريد الله بهم من هزيمة على أيدى المؤمنين فى الدنيا، فضلا عما يدخره لهم من عذاب يوم القيامة.

* إن على رجال الدعوة والحركة أن ينطلقوا فى طريق عملهم ماضين إلى ما يرضى ربهم آخذين بالأسباب، مع إيمانهم بأن الله تعالى معهم ومؤيدهم، ما داموا قد استجمعوا شروط الإيمان وصفات المؤمنين.

٢ - وعلى رجال الدعوة والحركة أن يعلموا علم اليقين أن سنن الله تعالى لاتتخلف فى زمان أو مكان.

* وأن من سننه تعالى أن يأخذ الذين يكذبون بآياته ويعاندون ما أمر الله به أو نهى عنه، يأخذهم بهذه المعاصى والذنوب إن عاجلا وإن آجلا، وليس أبعث على اطمئنان نفوس الدعاة والحركيين من يقينهم بأن الله تعالى معهم ومع الحق الذى يدعون إليه، وأنه سبحانه ضد الذين يكذبون بآياته.

* وإن إيمان رجال الدعوة والحركة بتلك السنن الإلهية يجعلهم أقوى فى مواجهة الباطل وأهله، ويحول بين بعضهم وبين الخوف والتراجع أمام قوى الباطل مهما تكن ضخمة، ومهما كانت قد تمكنت وسيطرت وأخذت تأمر وتنهى وتتحدى، وتعرض رجال الدعوة والحركة للفتن والمحن.

* إن هذا الإيمان يضمن لرجال الدعوة والحركة رضا الله تعالى عنهم وعما يفعلون، وتقبله لما يقومون به من جهود وأعمال صالحة فى كل مجال من مجالات العمل من أجل الإسلام.

٣ - ويتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآيات الكريمة أن يوقظوا فى الناس حب القرآن الكريم وما تضمنه من حكمة ومثل، وقصة وخبر، وأن يجعلوا من ذلك زادا لهم يستعينون به على المضى فى طريق الدعوة إلى الله.

* إن القرآن الكريم هو الزاد الذى تعمر به القلوب، ويزداد به المؤمنون إيمانا وإخلاصا وعملا صالحا وجهاداً وتضحية بكل شىء فى سبيل الله.

* إن القرآن الكريم هو منهج الله الذى ارتضاه دينا ونظاما للناس جميعا، وطالبهم بالتمسك به، وهدّدهم إذا هم تخلوا عنه، لأن الله تبارك وتعالى كرّم بنى آدم وحملهم فى البر والبحر، وفضلهم على كثير من خلقه، ولا كرامة للناس، ولا تكريم لهم إلا

باتباع منهج القرآن الكريم.

* وإن قصة الصراع بين الإيمان والكفر والحق والباطل - مع قلة أعداد المؤمنين وضآلة عدتهم إذا قورنوا بما يملك الكافرون من اعداد وعدد - محسومة النتائج معروفة النهاية، إذ مهما تعددت الجولات التى ينتصر فيها الباطل على الحق والكفر على الإيمان؛ فإن تلك عوارض لابد أن تزول وأن يكتب الله النصر للإيمان والمؤمنين.

* وإن ما حدث فى معركة بدر فى حياة الرسول ﷺ من نصر القلة المؤمنة على الكثرة المشركة لهو من أقوى الادلة على نصر الله للمؤمنين.

* إن رجال الدعوة والحركة عليهم أن يتذكروا ذلك وتمتلئ قلوبهم إيمانا به، ويأخذوا بالأسباب، مستجيبين لأمر الله تعالى فى مواجهة الأعداء: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ.... (٦٠) ﴾ [الأنفال: ٦٠].

* والقرآن الكريم مليء بالأمثال والعبر فى مجال الصراع بين الحق والباطل. وفى هذه الآيات الكريمة من تلك الأمثال والصبر أنموذجان هما:

- فرعون وآله وما أوتوا من عدد وعدة، وما كان منهم من تكذيب لموسى عليه السلام، وما عاقبهم الله تعالى من هزيمة وإغراق فى الدنيا وما ينتظرهم يوم القيامة من أشد العذاب.

- والذين من قبل فرعون وآله كقوم نوح، وكعاد وثمود وغيرهم، ممن كذبوا بآيات الله وعصوا رسله، فأخذهم سبحانه وتعالى بذنوبهم، حيث أهلك قوم نوح بالطوفان، وأهلك عادا بريح صرصر عاتية، وأهلك ثمودا بالصاعقة الطاغية فما أبقى منهم أحدا، وأهلك كل مكذب لأنبيائه قبل محمد ﷺ.

٥ - ورجال الدعوة والحركة الأصلاء، القادرون على العمل الدائب من أجل الإسلام - دعوة وحركة وتنظيما وتربية وإعدادًا وعملا من أجل تمكين الدين فى الأرض - ليس أمامهم مثل القرآن يوقظون به أنفسهم ومن يدعونهم بالعلم والعمل والإخلاص لله تعالى واحتساب كل ما يلقون فى سبيل الله عند الله.

٤ ـ الآيات من الرابعة عشرة إلى السابعة عشرة
فى طبائع الناس وكيف يدركون الحق ويستقيمون على الفطرة

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧) ﴾ [آل عمران : ١٤ - ١٧].

هذه الآيات الكريمة تتحدث عن طبائع الناس وفطرهم التى فطرهم الله عليها. وهى طبائع بحكم خلقتها - تميل إلى تحقيق شهواتها المادية وملذاتها النفسية، من حب النساء والبنين والمال والزينة والتكاثر، والتمتع بكل ما فى الحياة الدنيا دون قيد على هذه الشهوات.

وتوضح الآيات أن الاعتدال فى تناول الشهوات خير للإنسان عند الله، لأن متع الآخرة أصفى وأبقى من متع الدنيا، والمؤمنون الذين تتوفر فيهم صفات الإيمان أجدر وأولى بنعم الله فى الدار الآخرة.

وفى الآيات الكريمة إخبار بطبائع الناس، وتقرير عن حقيقة الفطرة البشرية، واستفهام، ووصف للمؤمنين الذين يستحقون نعيم الله يوم القيامة، وهو لذائذ ومتع خالصة، مستمرة مع الإنسان استمراراً أبديا.

ونستطيع بعون من الله أن نوضح ذلك فيما يلى:

١ - يخبر الله تعالى الناس ويعلمهم بهذا الخبر ما هى طبيعة الإنسان التى فطر عليها؟

فيوضح سبحانه وتعالى أنه فطر الناس على حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة... وإنما فطرهم على ذلك من أجل إعمار هذه الدنيا، بل زيّن لهم ذلك، ثم أرسل الله الرسل للناس لينظموا لهم - من خلال ما أنزل عليهم - مناهج التعامل مع هذه الشهوات كيفًا وكما، وأبلغتهم الرسل بأنهم سوف يحاسبون أمام الله تعالى على اتباع مناهج الرسل عليهم السلام، أو الإعراض عنها.

والتزيــين :

من الزينة وهى ما لا يعيب الإنسان فى شىء من أحواله فى الدنيا أو الآخرة.

* والزينة ثلاثة أنواع:

أ - زينة نفسية كالعلم والاعتقادات الحسنة.

ب - وزينة بدنية كالقوة وطول القامة.

جـ - وزينة خارجية كالمال والجاه.

* فمن الزينة النفسية: قول الله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

* ومن الزينة البدنية: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا ....﴾ [يونس: ٢٤].

* ومن الزينة الخارجية: قوله سبحانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: ٧٩]. والزينة في هذه الآية تعنى الجاه والمال.

- وقد نسب الله تعالي التزيين إلي نفسه فى مواضع من القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ونسب التزيين إلى الشيطان أحيانا كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وأحيانا جاء التزيين فى القرآن عاريا عن نسبته إلى من زيَّنه كما فى آيتنا هذه: ﴿زُيِّنَ للناس حب الشهوات... الآية﴾.

- والشهوات: جمع شهوة: وهى نزوع النفس إلى ما تريده، وذلك فى الدنيا ضربان:

أ - شهوات صادقة.

ب - وشهوات كاذبة.

* **فالشهوة الصادقة** هى التى يحتاج إليها الإنسان بالضرورة ولا تستقيم حياته إلا بها كشهوة الطعام عند الجوع.

* **والشهوة الكاذبة** هى التى لا تختل حياة الإنسان بدونها، بل يمكن الاستغناء عنها

دون أن يفقد الإنسان حياته كشهوة النساء والبنين ونحوهما.

- وكلمة الشهوات فى الآية الكريمة تحتمل هذين النوعين من الشهوات.

* وفى الآية الكريمة بيان لجميع أصول اللذات التى يتمتع بها الإنسان فى الدنيا، على وفق ما تمليه عليه غريزته، ليبين لهم سبحانه وتعالى ما هو خير من تلك اللذات وما هو شر منها، عنده تعالى.

* وهذه اللذات المحببة المزيَّنة للإنسان هى:

أ - حب النساء: أى الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة، وهذه الشهوة أقوى الشهوات فى الإنسان، وتلك نعمة من الله تعالى؛ لأن حفظ النوع لا يكون إلا من خلالها.

غير أن الشريعة وضعت لها نظامًا وأحكامًا وآدابا، وحرمت هذه الصلة فى غير الإطار المشروع لها وهو زواج الرجل من المرأة[1].

ب - وحب البنين: الأولاد ذكورا وإناثا، وإنما ذكر البنين لأن حبهم فى الغالب أقوى، والفتنة بهم أعظم.

حـ - وحب كثرة المال: ﴿القناطير المقنطرة من الذهب والفضة﴾ وذلك مما أودع الله فى غرائز الإنسان، وربما كان ذلك لأن المال وسيلة لتحقيق معظم الشهوات.

د - وحب اقتناء الخيل: للاتجار بها والمفاخرة بامتلاكها «والخيل المسوَّمة» أى المطهمة أو المعلمة بالألوان.

هـ - وحب الأنعام: وهى الإبل والبقر والأغنام ضأنها ومعزها، وكل ما يؤكل من هذه الأنعام، والأنعام ثروة أهل البادية ومن يشتغلون بزراعة الأرض.

و - وحب الحرث: وهو الزرع أو النبات، نجمه وشجره على اختلاف أنواعه، وتلك الأشجار هى قوام حياة الإنسان والحيوان فى البدو والحضر والريف والمدن.

٢ - وأما التقرير: فهو تقرير أن كل الشهوات التى ذكرتها الآية الكريمة المحببة إلى الناس بحكم الفطرة أحل الله الاستمتاع بها فى إطار شرعية توضح أحكامها وآدابها وأبعادها.

* وأن الشيطان يحاول دائما أن يغرى الإنسان بتجاوز هذه الشرعية والخروج على

---

(١) أقول ذلك؛ لأن الغرب بدأ فى النصف الأخير من القرن العشرين يبيح زواج الرجل من الرجل، وزواج الرجل من البهيمة، وزواج المرأة من المرأة، ويبيح الزواج بشرط عدم الإنجاب وينشئ بنوكا للحيوانات المنوية وبنوكا لاستئجار البطون والأرحام ويعقد لذلك المؤتمرات التى تشرف عليها هيئة الأمم المتحدة!!!

الأحكام والآداب والأبعاد، فيحدث الخطأ والإسراف أو الحرمان، وكل ذلك من عمل الشيطان.

* **وأن الإنسان إذا تناول هذه الشهوات فى إطارها الشرعى وفى عفة وتقوى الله – أى بلا إسراف ولا حرمان – فإنه بذلك يدخر عند الله ما هو خير وأبقى له يوم القيامة.**

– وقد ذكر فى أسباب نزول هذه الآية: ﴿ زين للناس حب الشهوات من.... ﴾ الآية أقوال كثيرة نذكر منها ما يلى:

* **نزلت فى وفد نصارى نجران – وكانوا ستين راكبا – دخلوا المسجد النبوى وعليهم ثياب الحبرات – أى ثياب مخططة – وأردية الحرير، وفى أصابعهم خواتم الذهب، وطفقوا يصلون صلاتهم، فأراد الناس منعهم، فقال الرسول ﷺ: دعوهم. ثم عرضوا هديتهم عليه وهى بُسُطٌ فيها تصاوير ومسوح، فقبل المسوح دون البُسُط.**

ولما رأى فقراء المسلمين ما على هؤلاء من الزينة تشوفت نفوسهم إلى الدنيا، فنزلت هذه الآية – وتلك رواية ضعيفة.

– وقيل: إنها نزلت لَمَّا اعترف أبو حارثة بن علقمة النصرانى لأخيه بأنه يعرف صدق محمد فى قوله، إلا أنه لا يقر بذلك خوفًا من أن يأخذ منه مَلك الروم المال والجاه، فنزلت الآية.

– وقيل: لَمَّا دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام بعد غزوة بدر، أظهروا من أنفسهم القوة والشدة والاستظهار بالمال والسلاح، فبين فى هذه الآية أن هذه الأشياء وغيرها من متاع الدنيا باطلة، وأن الآخرة خير وأبقى.

* **والأصل الذى اتفق عليه علماء المسلمين هو: أن العبرة فى آيات القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص سبب النزول.**

٣ - وتقرير آخر: وهو أن حسن المآب والمرجع عند الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، هو الأفضل لأن فيه المتعة الدائمة.

* وتفصيل وشرح لذلك المآب الحسن عند الله، بدئ بأمر النبى ﷺ بأن يخبرهم بذلك: **﴿ قل: أؤنبئكم بخير من ذلكم؟ ﴾.**

وقد جاء بصيغة الاستفهام تشويقًا لسماع الجواب.

وجاءت كلمة الإنباء بدل الإخبار، لأن النبأ والإنباء لم يرد فى القرآن الكريم إلا لما له وقع

وشان عظيم، كما قال بعض علماء اللغة.

* ومعنى إنبائهم بما هو خير من شهوات النساء والبنين وغيرهما، أن هذه الشهوات ليست شرا، وإنما يعرض الشر فيها عند التجاوز والإسراف والمخيلة، مثلها فى ذلك مثل سائر النعم.

* والذى هو خير من هذه الشهوات الدنيوية هو ما أعده الله تعالى لعباده المتقين، وهو جواب الاستفهام: ﴿**للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله**﴾.

* والجزاء على التقوى عند الله تبارك وتعالى فى هذه الآية نوعان:

- **جزاء مادى: يعود على صاحبه بالمنفعة وهو :**

* الاستقرار بل الخلود فى الجنة - أى البستان - الذى تجرى من تحتها الأنهار، وهذا يرمز إلى جميع النعم الموجودة فى هذه الجنة من مطعم ومشرب وملبس ومفرش ومنظر، أى جميع المطالب من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

* ومن تمام هذه المنافع الأنس بالأزواج اللاتى لا يحصل التنعم إلا بهن، وهن أزواج مطهرات مما ينفر منه الطبع كالحيض والنفاس والولادة والأمراض ونحو ذلك، ومطهرات من القبح وتشوه الخلقة، ومطهرات من الأخلاق الذميمة ومن سوء العشرة.

وكل ذلك جزاء مادىّ.

- وجزاء معنوى: نفسى وهو الشعور بأن الله تعالى قد رضى عنهم، وذلك أعظم الجزاء وأحسنه، وهو الفوز العظيم كما وصفه الله تبارك وتعالى.

* وهذا الجزاء بنوعيه المادى والمعنوى للمتقين: ﴿**للذين اتقوا عند ربهم جنات...**﴾ الآية.

* ولا يكون الإنسان متقيا لله إلا إذا كان متقيا للشرك والكفر، ويترتب على ذلك أن يكون ملتزما بأداء الواجبات، محترزا عن المحظورات.

* ولا يستطيع أحد أن يدعى التقوى وهو غير تقى؛ لأن الله تبارك وتعالى بصير بالعباد، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

وختم الآية بقوله تعالى: ﴿**والله بصير بالعباد**﴾ يحمل معنى: الوعد للمتقين والوعيد لغيرهم.

- وصفات هؤلاء المتقين كما جاءت فى الآيتين الكريمتين: ﴿ **الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا، وقنا عذاب النار، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾ هى صفاتهم التى استحقوا بها تلك الدرجات العليا فى الجنة، وهى خمس صفات:

الأولى : الصبر .

والمراد أنهم صابرون على أداء الواجبات والمندوبات وترك المحظورات، وصابرون على ما ينزل بهم من المحن والشدائد، وأكمل أنواع الصبر؛ الصبر على ملازمة الشريعة فى المنشط والمكره، وهو ذلك الصبر الذى يثبت الإيمان، وهو منطلق الصفات الأربعة التالية، ومن فقده لم يستطع الاتصاف بالصدق والقنوت والاستغفار.

والصفة الثانية : الصدق.

ويكون فى الأقوال والأفعال والنوايا.

فصدق القول : مجانبة الكذب.

وصدق الفعل: إكماله وعدم الانصراف عنه قبل تمامه.

وصدق النية: إمضاء العزم والقيام عليه حتى يبلغ الفعل.

* والصدق منتهى الكمال فى كل شىء، والصدق ملاك الدين كله.

والصفة الثالثة : القنوت.

وهو المداومة على الطاعة، والخشوع لله تعالى، أى الاستمرار على العبادة روحها ولبابها، قبل صورتها وشكلها.

والصفة الرابعة : الإنفاق.

والإنفاق فى عمومه يكون على النفس وعلى العيال والأقارب والأرحام، كما يكون فى الزكاة والجهاد، وكل وجوه البر، سواء أكان هذا الإنفاق واجبا مفروضًا أم مستحبًا مندوبا.

والصفة الخامسة : الاستغفار بالأسحار.

أى الاستغفار قبل طلوع الفجر، والمراد أنهم يقومون الليل مصلين، ثم يتبعون صلاتهم بالاستغفار فى ذلك الوقت الفضيل.

* ويرى بعض المفسرين أن الاستغفار هو طلب المغفرة بالفعل لا مجرد حركة اللسان، أى

ان يكون مع حركة اللسان حضور القلب، وأن تكون أعمال الإنسان مؤهلة له ليغفر الله له.

* روى النسائي بسنده عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله تبارك وتعالى فى كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه، حتى يطلع الفجر».

ورواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن والمسانيد من غير وجه عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم.

* وروى ابن مردويه بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: «كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر فى آخر السحر سبعين مرة».

* قال الرازى: — فى عطف هذه الصفات بالواو: «وأظن والعلم عند الله أن كل من كان معه واحدة من هذه الخصال دخل تحت المدح العظيم واستوجب هذا الثواب الجليل، والله أعلم»[1].

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلى:

١ - يتعلم الناس من هذه الآيات أن الفطرة التى فطر الله عليها الناس تجعلهم يحبون الشهوات من النساء والبنين والأموال، ولكن فى غير إسراف ولا مخيلة، ولا خروج عما جاءت به الشريعة.

* وأن الذين يسرفون فى تناول هذه الشهوات مخطئون يسيئون إلى أنفسهم فى دنياهم ودينهم.

* وأن الذين يمنعون أنفسهم من هذه الشهوات منعا مخطئون يسيئون إلى أنفسهم فى الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

* وأن منهج الإسلام يعترف بغرائز الإنسان ويحترمها ويحترم التعبير عنها فى ظل الشرعية التى وضعها لها.

٢ - وأن التنعم بهذه النعم، والالتذاذ بهذه الشهوات هو متعة الحياة الدنيا التى يستعين بها المسلم على ما يصلحه من:

---

(١) فخر الدين الرازى: التفسير الكبير. مرجع سابق.

* حفظ النوع بالتناسل.

* وتربية الأولاد والعناية بهم.

* وبذل المال لكل من يحتاج إليه من الأهل والأقارب، وسائر من يحتاجون إليه، وفى سبيل الله تعالى عموما.

وذلك كله يجعل للمسلم عند الله يوم القيامة حسن المآب وعظيم الأجر والثواب.

٣ - وأن الذين اتقوا الله تعالى لهم عند الله ما هو خير من ذلك كله وهو : ﴿ **جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله** ﴾ .

وذلك هو الجزاء الأوفى؛ لأنه فى دار الخلود، وأن العقلاء من الناس - الذين يحسنون الفهم - هم الذين يتقون الله؛ ليفوزوا هذا الفوز العظيم.

* ونتعلم من ذلك أن غير المتقين ليسوا على عقل ولا فهم، لأنهم أوقعوا أنفسهم في مأزق سوء الاختيار؛ إذ نسوا الله وما أمر به وما نهى عنه، وآثروا ألا يكون لهم سوى ما فى الدنيا من متع ولذائذ!!!

٤ - ويتعلم المسلمون من الآية الكريمة أن تقوى الله لا تُدَّعَى ، لأن لصاحبها صفات معروفة، ولأن تحليه بهذه الصفات يطبعه بطابع يعرف به بين الناس، فضلا عن معرفة الله تعالى بدخائله، ليثيب من اتقاه، ويعاقب من عصاه.

٥ - وأن الآيات الكريمة أو ضحت صفات الأتقياء، فذكرت منها: الصبر والصدق والقنوت والإنفاق فى سبيل الله والاستغفار بالأسحار.

* وأن هذه الصفات هى من أحسن ما يتحلى به المؤمن، وهى صفات إذا انتشرت فى المجتمع وكثر المتصفون بها كانت أمنا، وطمأنينة ووئاما للمجتمع كله، وما أحسن المجتمع الذى تسود أفراده صفات: الصبر، والصدق، والمداومة على طاعة الله والإنفاق فى وجوه الخير الواجبة والمستحبة، وقيام الليل والاستغفار بالأسحار.

إنه مجتمع إنسانى يستطيع أن يكرم الإنسان، الذى كرمه ربه وفضله على كثير من خلقه.

- المواقف التربوية التى يفيد منها العاملون فى مجالى الدعوة والحركة وهى كثيرة نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ - على الدعاة إلى الله أن يعلموا الناس أن من رحمة الله بهم أن سخر لهم هذه الحياة الدنيا

وما فيها ليتمتعوا بها كما أحل الله لهم وكما أوضحت شريعته، وأنه سبحانه زين لهم التمتع بالشهوات في حدود ما شرع، ليعينهم بذلك على الحياة نفسها طعاما وشرابا وزواجا وذرية، وأنه سبحانه رزقهم المال وأباح لهم العمل والكسب ليتمتعوا بطيبات ما أحل الله لهم، وينفقوا من هذا المال فى أوجه الخير التى ترضى الله تبارك وتعالى.

* إن هذا التفقيه للناس يشجعهم على الإقبال على الدعوة وعلى الانضمام إلى الحركة، وعلى التضحية من أجل هذا الدين بالوقت والجهد والمال.

* وإن هذا الفقه ليزيل عن أذهان الناس وبخاصة أعداء الإسلام ذلك الضلال الذى ران على قلوبهم فاتهموا الإسلام بأنه يحرم الناس من متع الحياة، واتهموا المسلمين بالجمود والانعزال عن الحياة، والتطرف ومعاداة كل جديد!!!

٢ - وعلى الدعاة إلى الله والعاملين فى مجال الحركة الإسلامية أن يؤكدوا للناس أن جميع متع الحياة الدنيا التى أحلها الله تعالى لهم، يحاسبهم عليها إن أسرفوا فيها أو حرموها على أنفسهم.

* وذلك درس عميق الأثر فى الانضباط والالتزام، والتقيد بحدود الله ونظمه، وليس أنفع لمجتمع إنسانى من أن ينضبط أفراده مع ما شرَّع الله تعالى، لأنه سبحانه لا يشرّع إلا ما يحقق للناس صالح دنياهم وآخراهم.

٣ - وعلى العاملين فى مجالى الدعوة والحركة الإسلامية أن يؤكدوا للناس أن الله تعالى أعدّ للمتقين من عباده جنات تجرى من تحتها الأنهار، وأزواجًا مطهرة ورضوانًا من الله؛ ليعلمهم أن الجزاء من جنس العمل، وليزيد يقينهم بما فى الدار الآخرة من جنة أو نار، وما أعد الله فيها لمن أطاعه ولمن عصاه، ليدرك الناس كم للطاعة من عزة ومكانة، وكم للمعصية من ذلة وصغار.

* وإن هذا لمن أحسن الوسائل فى توجيه الناس وترشيد سلوكهم، وإغرائهم بما ينفع وإبعادهم عما يضر، وإن فى هذا إبلاغا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٤ - ويستطيع الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية أن يعرفوا من هذه الآيات كيف يلزمون أنفسهم بصفات المتقين، وكيف يصبحون من الصابرين على ما يلاقون فى طريق الدعوة إلى الله، ومن الصادقين فى أقوالهم وأفعالهم ونواياهم ليواجهوا بهذا الصدق ظروفا ومواقف لا يصلح معها إلا صدق النية وصدق القول، أو تنكمش الدعوة ويذوب

الدعاة فى تيارات الباطل التى تشق طريقها فيهم بقوة الظلم والبطش والطغيان، وكيف يصبحون من القانتين المسرعين إلى طاعة الله والاستعانة بهذه الطاعة على كل صعوبة فى الحياة، وإن برنامجا من النوافل التى يتقرب بها الدعاة إلى الله إلى ربهم لكفيل - إذا خلصت النوايا - أن يقربهم إلى الله حتى يحبهم، فإذا أحبهم سبحانه كان سمعهم الذى يسمعون به وبصرهم الذى يبصرون به ويدهم التى يبطشون بها، بل رجلهم التى يمشون بها - كما ورد ذلك فى الحديث القدسى:

روى البخارى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل قال: مَنْ عادى لى وَلِيًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه....» الحديث.

* وهل ينفع الدعاة مثل ذلك فى عملهم وما يطمحون إليه من هداية الناس؟

وكيف يصبحون من المستغفرين بالأسحار؟

وكيف يصبحون من المنفقين فى سبيل الله؟

* إن تلك الصفات إذا تمثلت في الدعاة والحركيين أمكنهم أن ينقلوها إلى من يدعونهم ومن يتحركو ن فيهم من الناس، وما أسعد المجتمع الذى تكون هذه صفات الناس فيه!!!

٥ - ويتعلم العاملون فى مجالى الدعوة والحركة من هذه الآيات الكريمة أنه لا استقامة لعمل ولا وصول إلى نجاح أو فلاح في دعوة أو حركة أو تنظيم أو تربية أو تمكين لدين الله إلا مع الإيمان بالله ودعائه واللجوء إليه وطلب مغفرة الذنوب منه. ﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾.

* إن هذه الآية الكريمة منهج عمل متكامل للدعاة إلى الله وللعاملين فى الحركة الإسلامية، ولمن يدعونهم ويتحركون فيهم.

ودعائم هذا المنهج فيما أتصور - هى:

- الإيمان بكل أركانه وشروطه، والتعبير عنه بالعمل الصالح ﴿ إننا آمنا ﴾.

- وطلب المغفرة من الله وحده، وطلب الوقاية من عذاب النار منه وحده، وذلك تنقية للقلب من الشرك، وللعقل من الزيغ والضلال ﴿ فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ﴾.

- والاتصاف بصفات: الصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار في الأسحار.

* إن هذه دعائم المنهج الذى يحقق به المؤمنون النصر فى كل معركة يخوضونها، ويحولون بها بينهم وبين الخلل والقصور والتقصير، والانهزام، لينطلق ركب المؤمنين فى طريقه نحو التمكين لدين الله في عباد الله، ليحيا من حَيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

٥ - الآيات من الثامنة عشرة إلى الخامسة والعشرين
أدلة التوحيد وأدب الجدال فى الإسلام

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [آل عمران: ١٨ - ٢٥].

هذه الآيات الكريمة تتحدث عن قضية التوحيد، وتقيم عليها الأدلة والبراهين، وتؤكد أن دين الحق عند الله هو دين الإسلام - أى دين الخضوع لله ولمنهجه - وأن اختلاف الذين أوتوا الكتاب فى ذلك لم يكن عن جهل منهم؛ لأنه قد جاءهم العلم، وإنما كان حسدا وتطاولا، ولهم على ذلك الموقف حساب عند الله.

وتوضح الآيات الكريمة للنبى ﷺ أنّ أهل الكتاب سوف يجادلونه على الرغم من حججه الظاهرة، وتطلب منه ﷺ الا يجاريهم فى هذا الجدل، وإنما يقول لهم: أخلصت عبادتى لله، فإن أسلموا كما أسلمتَ فقد اهتدوا، وإن أعرضوا فلا تبعة عليك، فإن الله مطلع عليهم ومحاسبهم.

وتؤكد الآيات الكريمة حقيقة كبرى فى مجال الدعوة إلى الله وهى أن الذين يجحدون آيات الله الكونية، وآياته المنزلة على رسله عليهم السلام، ويقتلون الأنبياء الذين أرسلهم الله لهدايتهم، هؤلاء الذين يفعلون ذلك يستحقون عذابا أليما، مع بطلان أعمالهم حتى لو كان بعض هذه الأعمال صالحا، فلا ينفعهم ذلك العمل فى الدنيا ولا فى الآخرة ولا يجدون لهم من ناصرين.

كما توضح الآيات أن أهل الكتاب إذا دُعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم لا يسارعون إلى الإجابة، بل يعرضون، ويتصورون – من غرورهم – أنهم لن يُعذبوا بهذا الإعراض إلا أياما معدودة!!! فكيف يكون حالهم أمام الله يوم القيامة؟

– وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة أخبارا، وأساليب شرط، وأوامر وأكثر من استفهام، وبيان ذلك بعون الله فيما يلى:

١ - يخبر الله تبارك وتعالى إخبارا مقرونا بالعلم والشهادة، بأنه سبحانه واحد أحد، وقد شهدت بذلك الملائكة وأولوا العلم. ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط** ﴾.

والمعنى: أن الله تبارك وتعالى بيَّن دلائل وحدانيته سواء منها ما كان كونيا، أو كان عن طريق الوحى، والملائكة عليهم السلام أظهروا دلائل وحدانيته للرسل عليهم السلام، والرسل عليهم السلام أظهروا ذلك للعلماء، والعلماء أظهروا هذه الأدلة – على وحدانية الله تعالى – للناس.

* والشهادة هنا تحمل معنى الإقرار، مما يؤكد وحدانيته سبحانه وتعالى.

* «**وقائما بالقسط**» أى بالعدل.

والقائم بالعدل فى هذه الشهادة هو الله سبحانه وتعالى، أو المؤمنون أولوا العلم: أى قاموا بالقسط فى أداء هذه الشهادة.

* وجوهر التوحيد الذى حدثت به الشهادة هو: «**لا إله إلا هو**»، وقد ذكرت هذه الكلمات: «**لا إله إلا هو**» فى أول الآية، وكررت فى آخرها لتعليم الناس أن تكرار كلمة التوحيد أعظم أنواع العبادة.

* «**والعزيز الحكيم**»: صفتان للإله الواحد الأحد يؤكدان معنى القيام بالقسط والعدل.

* والعدل قد انبنت عليه أحكام الشريعة كلها فى العبادات وفى المعاملات، وفى الأخلاق والآداب، لأن العدل ينصلح به حال الناس وحال الدنيا كلها.

العدل بين طاقات الإنسان: روحه وعقله وبدنه.

والعدل بين الإنسان وربه.

والعدل بين الإنسان وغيره من الناس.

* وقد أمر الله تعالى بذكره وشكره والتقرب إليه بالنوافل من أجل أن تزكو روح المؤمن، وأمر بالصلاة والزكاة والصيام والحج لتزكية الروح والبدن معا، وأمر بالسير فى الأرض، والنظر فى آثار الأولين والتدبر فى ملكوت السموات والأرض لتزكية العقل وإيقاظه، وأمر بالطعام والشراب واللباس فى غير إسراف أو مخيلة، ليصح بدن المؤمن ويستقيم وضعه الاجتماعى.

* ونهى سبحانه وتعالى عن الظلم وعن سائر الإثم والفواحش ليمارس الإنسان حياته الاجتماعية فى أمن وأمان.

ونهى عن الغلو فى الدين والإسراف فى الدنيا.

وفى الاستجابة لأمر الله تعالى ونهيه عدل من الإنسان مع ربه.

* وفى الالتزام بأحكام الإسلام فى المعاملات - سواء منها ما كان شخصيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو سياسيا - عدل من الإنسان مع الآخرين من الناس.

٢ - ومما أخبر الله تعالى به، وشهد له فى هذه الآيات أن الدين الحق هو دين الإسلام، أى توحيد الله تبارك وتعالى، والخضوع له أمراً ونهياً، والاستسلام لمنهجه فى كل ما جاء به.

* وليس اختلاف أهل الكتاب فى ذلك أو رفضهم الدخول فى الإسلام بسبب نقص العلم عندهم، إذ جاءهم فى ذلك من العلم ما يكفى، وإنما المانع لهم من الدخول فى الإسلام هو الحقد والحسد.

﴿إن الدين عند الله الإسلام، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ وهذا البغى تجاوز للحد وللشرع، وتجاوز لأمر الله ونهيه، ومن هذه التجاوزات الحقد والحسد إذ حرمهما الله تبارك وتعالى بين ما حرم من فواحش وآثام، وقد تحدثت عن حسدهم هذا بعض آيات القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾ [البقرة: ١٠٩].

* وفى هذه الآية الكريمة تهديد لمن يكفر بآيات الله، ووعيد بأنه سوف يُحاسب حسابا سريعا، فيُجزى على كفره بالعذاب. وقد جاء هذا التهديد والوعيد فى أسلوب شرط

في قوله تعالى: ﴿ ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾.

فإذا حدث فعل الشرط وهو الكفر، حدث الجواب وهو سرعة الحساب.

٣ - وفى الآيات تعليم للرسول ﷺ وللمسلمين من بعد ذلك، كيف تكون محاجة أهل الكتاب، أولئك الذين أعطاهم الله العلم ولكنهم أصروا على كفرهم من بعد ما تبين لهم الحق.

وتكون محاجّتهم على النحو التالى:

الإعراض المطلق عن محاجّتهم أو جدالهم، لأن الله سبحانه وتعالى قد أظهر لهم الحجج والبراهين، ولأن الرسول ﷺ أظهر لهم المعجزات بالقرآن الكريم، وبكلام الذئب، وانشقاق القمر ونحو ذلك، فلم يستجيبوا على الرغم من كل ذلك، فلا جدوى من جدالهم.

وهذه إحدى الطرق فى التعامل معهم فى المحاجّة.

* أو أن يقول لهم ﷺ: أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى، ولن أجادلكم فيما تختلفون فيه معنا. وحسب اليهود شرا فى خلافهم مع الإسلام، أنهم دخلوا فى حمأة التشبيه والتجسم لله تعالى، وحسب النصارى شرا أنهم ألّهوا عيسى بن مريم، وجعلوه ابنًا لله!!!

ففى أى يشىء يجادَلُ هؤلاء وأولئك؟

يقول الله تعالى فى ذلك: ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى... ﴾.

والخلاصة أن المحاجّة والمجادلة إنما تكون مع مَن يُرجى منهم الرجوع عن الباطل إلى الحق، أما الذين يكفرون بآيات الله على الرغم مما لديهم من علم، فلا ينبغى أن يضيع الدعاة أوقاتهم وجهودهم معهم.

٤ - وأمْر من الله تعالى إلى نبيه ﷺ، بأن يقول لليهود والنصارى ومشركى العرب ما يمليه عليه ربه فى قوله تعالى: ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ﴾.

- والاستفهام فى الآية الكريمة: أأسلمتم، يتضمن معنى التقريع. ويرى بعض العلماء أن هذه الآية عامة فى أهل الكتاب وغيرهم من المخالفين لدين محمد ﷺ، وقالوا فى تعليل ذلك: لأن المخالفين منهم من كان من أهل الكتاب كاليهود والنصارى، ومنهم من كان من عبدة الأوثان.

* ويحتمل أن يكون الاستفهام للتقرير والمراد به الأمر، وإنما جاء الأمر فى صورة الاستفهام لتعييرهم بأنهم معاندون بعيدون عن الإنصاف لظهور الحجج لهم، ومع ذلك لم يقبلوا الإسلام.

* وقال البيضاوى: ونظيره قوله تعالى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ وفيه تعيير لهم بالبلادة والمعاندة.

* والدخول فى الإسلام يعنى التوحيد، ويعنى رفض التشبيه والتجسيم والتثليث، ورفض الزعم بإلهية عيسى، وعبادة النار والأوثان.

٥ - وفى الآيات تقرير حقيقة هى أن من أسلم من أهل الكتاب وغيرهم فقد اهتدى، ومن تولى عن الإسلام واتباع محمد ﷺ فليس على محمد ﷺ سوى البلاغ **﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾**، أى ليس عليك سوى التبليغ بحقيقة الإسلام وما جاء فيه من أحكام.

- ومما تدل عليه هذه الآية الكريمة أنه لا إكراه فى الدين، وأن وظيفة الرسول ﷺ منحصرة فى البلاغ عن الله، وأنه ليست له سيطرة على الناس ولا إجبار لهم على الدخول فى الإسلام.

* وقد جاء هذا التقرير فى صورة الشرط وجزائه: **﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾** مما يدل على أنه لا إكراه ولا إجبار.

وجاء فى صيغة أخرى شرط وجزاء أيضاً: **﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾**، مما يدل على وظيفة الرسول ﷺ.

٦ - وخبر مؤكد من الله تعالى يوضح جزاء الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالعدل والمعروف، هؤلاء لهم عذاب أليم فى الآخرة ولا يقبل الله أعمالهم يوم القيامة مهما تكن صالحة فى الدنيا؛ لأنه لا صلاح لعمل مع كفر صاحبه: **﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، فبشرهم بعذاب أليم، أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾**.

* قيل إن المراد بهذه الآية هم اليهود خاصة، فقد نسب إليهم قتل الأنبياء وقتل الصالحين، وقد حاولوا قتل الرسول ﷺ أكثر من مرة.

* والآية عامة فى كل الكافرين بآيات الله والمتعرضين لقتل القائمين بالقسط، أى العلماء الحكماء الذين يرشدون الناس إلى العدالة العامة فى كل شىء، وهم الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر.

* هؤلاء جميعا قد أُمر الرسول ﷺ أن يبشرهم بعذاب أليم، والأصل فى البشارة أن تكون بما يسر ويفرح، إلا أنها استُعملت فى هذه الآية: ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ على سبيل الاستعارة، للتنبيه على أن أحسن ما يسمعونه وأكثره سرورا لهم هو الإخبار بما ينالون من عذاب أليم، وهو تهكم بهم وبموقفهم مِن الكفر بآيات الله، وهذا وعيد لهم وتهديد باجتماع أسباب الآلام والمكروهات فى حقهم.

* وفى الآية وعيد آخر وهو إخبارهم بأن محاسن أعمالهم محبطة فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فهى محبطة لما يقع عليهم من الذم بدل المدح، واللعن بدل الثناء، وما قد ينزل بهم من الأسر والسبى أو القتل، وأخذ الأموال غنيمة.

وأما فى الآخرة فبإزالة الثواب واستحقاق العقاب الشديد: ﴿ **أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة** ﴾.

* وفى الآية وعيد ثالث لهم وهو: ثبات ألمهم بالعذاب وحبوط عملهم فى الدنيا والآخرة، ولزوم ذلك كله فى حقهم على وجه لا يجدون معه ناصرا ولا دافعا.

٧ - وخطاب للنبى ﷺ ولكل المسلمين من بعده، خطاب سبق بهمزة الاستفهام على طريقة التعجب لكل من رأى حالة أهل الكتاب فى تناقضهم، لأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب أى التوراة، ومع ذلك فإنهم عندما يرغبون – فى حاجة من حاجاتهم – إلى حُكم يلجأون إليه يذهبون إلى النبى ﷺ، فإن وافق حكمه هواهم رضوا به، وإن خالف هواهم رفضوه! مع أنه ﷺ يحكم بينهم بمثل ما فى التوراة الصحيحة قبل أن يحرفوها أو يخفوا ما فيها: ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون** ﴾.

* وقد رُويت فى سبب نزول هذه الآية روايات نذكر منها ما يلى:

* قال السدى: دعا النبى ﷺ اليهود إلى الإسلام، فقال له النعمان بن أوْفى: هلم يا محمد نخاصمك إلى الأحبار.

فقال رسول الله ﷺ : بل إلى كتاب الله .

فقال : بل إلى الأحبار، فأنزل الله هذه الآية .

* وقال ابن عباس رضى الله عنهما : دخل رسول الله ﷺ المدْراس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله، فقال نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد : على أىّ دين أنت يامحمد؟

فقال ﷺ : على ملة إبراهيم .

قالا : إن إبراهيم كان يهوديا .

فقال رسول الله ﷺ : فهلموا إلى التوراة فهى بيننا وبينكم، فأبيا عليه فأنزل الله هذه الآية .

* وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا : أن رجلا وامرأة من اليهود زنيا، وكانا ذوى شرف، وكان فى كتابهم : الرجم، فكرهوا رجمهما لشرفهما، فرجعوا فى أمرهما إلى النبى ﷺ رجاء أن يكون عنده رخصة فى ترك الرجم، فحكم رسول الله ﷺ بالرجم فأنكروا ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام : « بينى وبينكم التوراة فإن فيها الرجم، فمن أعلمُكم؟ قالوا : عبد الله بن صوريا الفَدَكى، فأتوابه وأحضروا التوراة، فلما أتى على آية الرجم وضع يده عليها، فقال ابن سلام : قد جاوز موضعها يارسول الله، فرفع كفه عنها فوجدوا آية الرجم، فأمر النبى ﷺ بهما فرجما، فغضبت يهود -لعنهم الله- غضبا شديدا، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

* وقال الفخر الرازى : « وهناك رواية أخرى هى : « أن علامات بعثة محمد ﷺ مذكورة فى التوراة، والدلائل الدالة على صحة نبوته موجودة فيها، فدعاهم النبى ﷺ إلى التوراة، وإلى تلك الآيات الدالة على نبوته فأبوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

والمعنى أنهم إذ أبوا أن يجيبوا إلى التحاكم إلى كتابهم فلا تعجب من مخالفتهم كتابك، فلذلك قال الله تعالى : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران :٩٣] .

وهذه الآية - على هذه الرواية - دلت على أنه توجد فى التوراة دلائل صحة

نبوته، إذ لو علموا أنه ليس فى التوراة مـا يدل علـى صحة نبوتــه لســارعوا إلى بيان ما فيها ولكنهم أسروا ذلك»[1].

٨ - وإخبار من الله تعالى عن بعض مقولات اليهود الضالة وهى قولهم - كما جاء فى القرآن الكريم -: ﴿ **ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون** ﴾.

* وروى بعض المفسرين أن اليهود لهم مقولات كاذبة منها :

- زعمهم أنهم لا يعذبون كسائر الناس.

- وزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه.

- وزعمهم أن مدة عذابهم سبعة أيام، أو أربعون ليلة - وهى مدة عبادتهم العجل-.

* وكل هذه المقولات باطلة، وقد رد الله تعالى على بطلان بعض مقولاتهم كما جاء فى سورة البقرة فى قوله تعالى:

﴿ **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)** ﴾ [البقرة: ٨٠ - ٨٢].

* فهذا هو القانون العام للثواب والعقاب، لا يستطيع أحد أن يستثنى نفسه منه، وذلك أن الانتماء إلى قوم أو إلى دين لا يعنى إعفاء هذا المنتمى من المسئولية والجزاء، ولا يعفيهم من العقاب، وإنما مناط الثواب والتخلص من العقاب هو الإيمان والعمل الصالح، باتباع ما جاء به محمد خاتم الأنبياء ﷺ.

* وإنما كانت من اليهود هذه المقولات وتلك المزاعم؛ لأنهم اغتروا بما افتروه فى دينهم من أكاذيب ما فتئوا أن صدقوها، قال الله تعالى: ﴿ **وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون** ﴾.

٩ - وفى الآيات الكريمة وعيد من الله لكل من كفر بمحمد خاتم الأنبياء ﷺ، وكل من افترى على الله الكذب، عن طريق ما جاء فى الآية من استفهام استُعمل فى موضع

---

(١) فخر الدين الرازى: التفسير الكبير: ٧/١٨٩، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

التعجيب، والتفظيع على سبيل المجاز، ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه، ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾.

* وهذا اليوم الذى يجمع الله فيه الناس، يوم معروف للمجازاة على الإيمان والعمل الصالح بالثواب، وعلى الكفر وافتراء الكذب على الله بالعقاب، وذلك اليوم كائن لاشك فيه ولا ارتياب.

هو اليوم الذى توفى فيه كل نفس ما كسبت فى الدنيا من صالح أو طالح، بحيث لا يظلم أحد شيئا.

– المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات، وهى كثيرة نشير منها إلى ما يلى:

١ - دلائل توحيد الله تعالى كثيرة تحيط بالناس من كل جانب، بحيث يدركها ويطمئن إليها من أراد من الناس أن ينظر وأن يتدبر فى نفسه وفيما حوله من الآفاق.

* ودلائل توحيد الله – وأنه وحده الخالق البارئ المصور – فى نفس الإنسان كثيرة لمن تأمل وكانت له بصيرة، ومن أمثلة ذلك تكوين الأجنة فى ظلمات الأرحام. وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة فى خلقة الإنسان، وما يحيا به الإنسان من روح، وما أنعم الله به عليه من عقل وبدن، وأجهزة بالغة الدقة لهذا البدن، كالعين والأذن واللسان والإرادة والحركة وغيرها.

إن التأمل فى ذلك يزيد الإنسان إيمانا بالله الواحد الخالق.

* ودلائل توحيد الله فى الآفاق والكون كثيرة بل بالغة الكثرة، ومن أمثلتها:

خلق السموات والأرض وما فيهما من عجائب المخلوقات، واختلاف الليل والنهار، والصيف والشتاء والحر والبرد، والشمس والقمر والنجوم والشجر والجبال والدواب، والبحار والأنهار والأمطار، والرعد والبرق، والزلازل والبراكين، وما أودعه الله فى باطن الأرض.

وتسخير الحيوان للإنسان.

ونعمة الزرع والنبات.

كل ذلك يؤكد أنه خالق واحد له ملك السموات والأرض.

* وهذه الدلائل على التوحيد شهد لها الله تعالى ونصبها فى الآفاق، وفى الأنفس.

* وشهدت الملائكة بتوحيد الله وأقرت به.

* وشهد بذلك أولوا العلم من الناس وقدموا عليه البراهين.

٢ – ويتعلم المسلمون من هذه الآيات أهمية استقرار عقيدة التوحيد فى نفوسهم، لكثرة ما يقوم عليها من أدلة وبراهين، لما يحدثه هذا الاستقرار فى النفوس من حرص على التلقى عن الله سبحانه وحرص على اتباع منهجه الذى جاء به خاتم النبيين محمد ﷺ، وما يستتبعه التلقى عن الله تعالى واتباع منهجه من تحقيق للأمن والرضا والإقبال على الحياة والأحياء، وبذر بذور الحب والخير فى المجتمع.

٣ - ويتعلم الناس من الآيات الكريمة أن الله تعالى شهد هذه الشهادة على وحدانيته قائما بالقسط – والقسط : العدل.

والعدل فى هذا المجال نوعان :

أ – عدل فى الدين والشريعة :

وهو العدل فى الاعتقاد بالتوحيد الذى هو وسط بين التعطيل والشرك.

ب – وعدل فى الكون والطبيعة :

وهو أن سنن الخلق فى الإنسان والكون كله قائمة على العدل، وهو ذلك النظام الدقيق الذى لا يتخلف، والذى يعيش الإنسان بمقتضى تطبيق الله تعالى له.

* هذا فضلا عن العدل الذى جاءت به العبادات والمعاملات والأخلاق.

٤ – ويتعلم الناس جميعا – إذا قرأوا هذه الآيات – أن العدل أصل عظيم فى حياة البشر، بحيث لا تستطيع البشرية أن تعيش حياتها الإنسانية الكريمة بغير العدل، ولذلك أمر الله تعالى به أمرا مطلقا فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ [النحل : ٩٠].

* وأبسط نتائج فَقْد العدل فى المجتمع هى الظلم والعدوان على حق الإنسان فى الحياة الكريمة، فضلا عن أن أوضح نتائج فقد العدل هى الحروب الإقليمية والعالمية.

* ومن فَقْد العدل تحدث كل الجرائم والآثام، ويحدث كل شقاء للإنسان.

٥ – ويتعلم المسلمون من هذه الآيات أن الدين الوحيد المقبول عند الله تعالى من أى إنسان هو الإسلام وحده، أى إسلام الإنسان أمره لخالقه يُشرِّع له ويضع له المنهج ويحميه من

نفسه ومن شياطين الإنس والجن ومن كل عدو يتربص به .

* وكل ما عدا الإسلام – المنهج الذى جاء به خاتم الأنبياء محمد ﷺ – من دين أو منهج أو نظام ليس مقبولا عند الله : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾، وليس قادرا على أن يحقق للإنسان حياته الإنسانية التى كرمه الله تعالى بها وسخر له من أجلها ما فى السموات والأرض .

٦ – ويتعلم المسلمون من هذه الآيات أن الذين يختلفون فى الحق وعندهم عليه علم ودليل، هم البغاة المجاوزون لحدودهم .

* وقد كان ذلك أوضح ما يكون فى أهل الكتاب وفى اليهود منهم خاصة : ﴿ **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم . . .** ﴾ .

فهذه الآية الكريمة تتضمن حقائق تاريخية وقواعد ثابتة فى علم الملل والنحل، كما تتضمن أسلوب المناظرة والجدل، وهى فى الوقت نفسه تملى على المسلمين درسا عظيما فى توقى الخلاف فى الدين، وتجنب التفرق فيه إلى شيع وأحزاب ومذاهب، كما فعلت الأمم التى سبقت، حيث افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة .

* وتهيب الآية الكريمة بأهل العلم الا يدب بينهم الخلاف فى الدين .

٧ – ويتعلم المسلمون من الآيات الكريمة أنّ من يكفر بآيات الله الدالة على وحدة الدين الذى جاء به محمد ﷺ من عند الله تعالى، وعلّمه الرسول الخاتم ﷺ لكل الناس وأذاعه فى البشرية كلها أحمرها وأسودها . .

من يكفر بآيات الله بعد إذ بلغته وجاءه بها العلم، فإنه يعرض نفسه لأسرع الحساب وأسوأ الجزاء .

* وما له لا يعذب وقد أنكر ما جاءه من الحق على الرغم من علمه به، وقيام الدليل عليه؟

* والكفر بالدين كله كالكفر بأى جزء منه، فالدين لا تتفاضل أجزاؤه ولا أحكامه ولا أخلاقه، فإما إيمان به كله أو كفر به كله .

٨ - ويتعلم المسلمون من هذه الآيات أن للجدال والمحاجّة فى منهج الإسلام أدباً، يجب أن يُتّبع، وأن هذا الأدب فى إيجاز هو :

أ – أن المجادلين فى الحق بعد ما تبين لهم وجاءتهم عليه الأدلة والبراهين، لا ينبغى مجاراتهم فى جدالهم وباطلهم؛ لعدم جدوى ذلك أو نفعه .

ب – وأن الكلمة الهادفة الهادئة التى توجه إلى هؤلاء المجادلين بعد جدالهم بالتى هى أحسن، هى ما أمر الله تعالى به نبيه ﷺ : «أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى» .

حـ – وأن تُعَرض الدعوة إلى الله على المشركين واليهود والنصارى وكل أحد بالأسلوب الذى هدانا إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾ [النحل: ١٢٥].

ء – وأن الداعى إلى الله ليس له أن يُكره أحدا على الدخول فى الإسلام، ولا أن يعنف نفسه لإعراض بعض الناس عن الدخول فى الحق، لأنه ليس عليه أكثر من الدعوة والبلاغ: ﴿ فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ، أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد ﴾ .

٩ – ويتعلم المسلمون من تاريخ اليهود وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء والذين يأمرون بالقسط من الناس، أن لهم عند الله العذاب الأليم، وأنه سبحانه لا يقبل منهم عملا فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولا يملك أحد أن ينصرهم أمام الله تعالى .

* وهكذا كل من يتحدون الحق ويتعرضون لدعاته بالأذى الذين قد يصل إلى حد القتل، إن هؤلاء ينتظرون عند الله تعالى عقابا يلائم تحديهم للحق ودعاته، وما يُستبعد أن تحبط أعمالهم فى الدنيا والآخرة، وإن كنا نسأل الله لهم الهدى والرشاد .

١٠ – ويتعلم المسلمون من الآيات الكريمة أن أصحاب الأهواء والمغالطين المعرضين عن الحق الزاعمين بأنهم مميزون، هؤلاء مغرورون لن يفلتوا من عذاب الله تعالى يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . ومهما أوتى هؤلاء من علم وجاه ومال فلن يستطيعوا أن يوقفوا موكب الحق، ولن يجنوا من تحدى الحق وأهله إلا الحسرة والندامة يوم يقفون بين يدى الله تعالى .

والمواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات كثيرة نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ ـ يتعلم العاملون فى مجالى الدعوة والحركة من هذه الآيات الكريمة أن القاعدة الأولى فى

العمل من أجل الإسلام، والمرتكز الأساسى لهذا العمل هو: «التوحيد» توحيد الله تبارك وتعالى إلها خالقا رازقا لا إله غيره.

ثم يتفرع عن هذا التوحيد كل عنصر من عناصر الإيمان وكل ركن من أركان الإسلام، وكل نوع من أنواع الإحسان.

* ولن يحتاج الدعاة إلى الله إلى البحث عن أدلة توحيد الله تعالى، فهى تحيط بهم، وتملأ عليهم الأرض والسماء. وقديما قال بعض العارفين:

وفى كل شىء له آية .:. تدل على أنه الواحد

وهذه الدلائل مما شهد به الله تعالى والملائكة وأولوا العلم.

* وإذا صحت عند المدعويين قاعدة التوحيد صلح كل ما بعدها فى الدنيا والآخرة، واتجه الناس إلى الله اتجاها صحيحا يحقق لهم سعادة الدنيا والآخرة.

٢ - وعليهم أن يوضحوا للناس أن هذا الدين القائم على التوحيد هو دين القسط والعدل، فى كل شىء يتصل بحياة الإنسان، وما دام هو كذلك فهو وحده دين الحق.

* وإن تأكيد هذه الحقيقة للناس يوثق عُرى إيمانهم ويقوى من رغبتهم فى التمسك بمنهج الله تعالى، ويدفعهم إلى مزيد من الإخلاص فى العمل من أجل هذا الدين، ويهون عليهم الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

* إن الإنسان إذا عرف أنه يدين بدين الحق والعدل، اطمأنت نفسه وارتاح قلبه، وتبددت هواجسه، وانطلق بهذا الدين الحق، ينشره فى الناس ويدعو إليه، ويشجع الناس على أن يلوذوا به فارّين إليه ملجأ آمنًا وحصنا ركينا يقيهم شر البلبلة والحيرة والاضطراب.

٣ - ويتعلم أهل الدعوة والحركة أن خير ما يوجهون الناس إليه هو الوحدة والتجمع حول هذا الدين الحق القائم على العدل، مع نبذ الخلاف والتفرق، وعدم الانخداع فى المذهبيات والطائفيات، لأن المؤمنين جميعا أمة واحدة، ومن عمر قلبه بالتوحيد لم يلجأ إلى أى سبب من أسباب الفرقة، لأن الاختلاف والتفرق إنما هو نوع من البغى، وتجاوز الحق، ومعاندة الفطرة السوية التى فطر الله الناس عليها.

* وللمسلمين فى الأمم التى سبقتهم عظة وعبرة، إذْ تَفَرّقَ اليهود والنصارى حتى كَفَّر

بعضهم بعضا، ثم سَرَتْ عدوى هذا التفرق إلى بعض الغافلين من المسلمين، فحذوا حذو المغضوب عليهم والضالين، فضلّوا وأضلوا، وقال بعضهم بما ليس من الدين الحق في شيء، إذ قال بعضهم بالحلول والاتحاد، وسقوط التكاليف عن بعض «الواصلين».

* إن كل عمل يفرق أمر المسلمين ويذهب ريحهم ويمزق وحدتهم، يعد ضلالا وضياعا، وإن الدفاع عن هذا الضلال كفر بآيات الله ودلائله على التوحيد وعلى دين الحق، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب.

٤ - ويتعلم أهل الدعوة والحركة أن جدالهم مع المبطلين والمعاندين، يجب أن يكون بالتى هى أحسن، وأنه لا يجوز لهم – مهما تكن الدولة لهم والسلطة فى أيديهم – أن يكرهوا أحداً على الدخول فى دين الحق، وإنما يكون رائدهم قول الله تعالى لنبيه – معلما له وللمسلمين من الدعاة فى كل زمان ومكان –: ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾.

* ولعل فى تلك الحقيقة الشرعية، وهذه المسلَّمة القرآنية ما يرد على أولئك المفترين على الله الكذب، الراغبين فى تشويه دين الحق، برميه بما ليس فيه، إذ يزعمون أن الإسلام قد انتشر بين الناس بالسيف، وأن الناس قد أُكرهوا على الدخول فيه!!!

كبرتْ كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا وباطلا وزورا.

* وكيف يسوغ ما يزعمون؟ والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ويقول: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس: ٩٩].

* إن حرية الإرادة وحرية الاعتقاد مكفولة فى الإسلام، لا يستطيع أحد أن يعبث بها على أى حال.

٥ - وعلى أهل الدعوة والحركة أن يوقنوا بحقيقة كبرى هى أن الذين يتحدون الحق ودعاته فى أى زمان وأى مكان، ضعاف مهما كانت لديهم من قوة، وضائعون مهما بدا للناظر أنهم أهل جاه وسلطان، وحسبهم ضياعا وخسارا أن تحبط أعمالهم فى الدنيا والآخرة،

وأن يتجردوا أمام الله تعالى من كل أسباب قوتهم فلا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيرا.

* وإن هذه الحقيقة يجب أن تُلقى فى نفوس أهل الدعوة والحركة إيمانًا راسخًا بأن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة، وأن الذين يأمرون بالقسط من الناس، والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر هم الناجون على وجه اليقين، مهما أوذوا ومهما قدموا من ضحايا وشهداء.

* وحسب الدعاة إلى الله شرفا، وحسب الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر مكانة أن الله تعالى يجمعهم إلى الأنبياء الذين قَتَلَهم أعداء الله، وأن يتوعد أعداءهم بالعذاب الأليم فى الآخرة، وأن يحبط لهم كل عمل فى الدنيا والآخرة جميعا ﴿ **إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم، أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين** ﴾.

٦ – وعلى أهل الدعوة والحركة أن لا يخافوا ولا يحزنوا إن وجدوا من كثير من الناس من أهل الكتاب إعراضا عن الحق وعن حكم الله ما دام لم يوافق هواهم، فتلك مواقف متوقعة من أهل الباطل والهوى، مهما كانوا قد أنزل إليهم كتاب يدعوهم إلى الحق والعدل.

* ولا ينبغى أن يجزع الدعاة إلى الله ولا العاملون فى الحركة الإسلامية حينما يجدون من الناس عموما، ومن أهل الكتاب على وجه الخصوص، من يزعمون أنهم متميزون عن غيرهم فى الدنيا وفى الآخرة!!! لأن ذلك هو الغرور وهو التَّعالى، وهو نكران الحق من بعد ما تبين، ومن كانت هذه صفاته فأنى يكون له نجاح أو فلاح فى دنياه أو آخرته؟

* وليوقن أهل الدعوة والحركة أن هؤلاء المغرورين المخدوعين عن أنفسهم سوف يحاسَبون حسابا سريعا أمام الله تعالى، على غرورهم وتعاليهم، ومزاعمهم التى رددها أسافلهم حين قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ... ﴾ [المائدة: ١٨].

إن هؤلاء مؤاخذون ومعذبون على ما يقولون، ﴿ **فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه، ووفيت كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون** ﴾.

* إن فى ذكر هذه الصفات المردية لأصحابها، لإشارة إلى العاملين من أجل الإسلام- دعاة وحركيين وتربويين – إلى أن يباعدوا بين أنفسهم وبين أى صفة من هذه الصفات، إذا أرادوا أن يمضوا فى طريق عملهم آمنين واثقين فى نصر الله وتأييده لهم ولدينه حتى يمكن لهم فى الأرض.

* إن صفة واحدة من صفات الغرور والتعالى قد تعوق النصر سنوات وسنوات، على حين يتساءل بعض العاملين من أجل الإسلام قائلين – وقد أصابهم القَرْح – متى نصر الله؟ ألا فليبحثوا فى داخل صفوفهم ودواخل أنفسهم عن صفة من تلك الصفات التى تغضب الله فتحبط العمل، فإن لم يجدوا شيئا من ذلك فليحمدوا الله وليمضوا فى موكبهم واثقين من نصر الله الذى وعد.

٦ - الآيات من السادسة والعشرين إلى الثانية والثلاثين

حسد أهل الكتاب لمحمد ﷺ، وتحذير للمسلمين من موالاة الكفار، وتقرير أن حب الله تعالى يستتبع طاعته

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾ [آل عمران: ٢٦ - ٣٢].

هذه الآيات الكريمة تتحدث عن عدد من القضايا ذات الصلة بما سبقها من الآيات، وهي تمثل موعظة عامة بدأت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ ...﴾ [آل عمران: ١٠].

* ثم الآيات الكريمة فى الموعظة بقوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم...﴾ وهذا هو الترهيب.

* ويقابله قوله تعالى: ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم...﴾.

* ثم تأييد لما عليه المؤمنون من حق فى قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو....﴾.

ثم وعظ بطريق المجادلة والمحاجّة: ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى....﴾.

* ثم ترهيب فى قوله تعالى ﴿إن الذين كفروا بآيات الله...﴾.

* ثم ترهيب بطريق التعريض: ﴿قل اللهم مالك الملك ....﴾.

* ثم أمر بقطيعة الكفار: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾.

* ثم ترغيب فى طاعة الله للحصول على محبته سبحانه.

* ثم تخويف من ترك الطاعة المؤدى إلى الكفر وإلى غضب الله تعالى.

- وقد اشتملت الآيات الكريمة على خطابات أربعة للنبى ﷺ موجهة إليه بلفظ «قل»، ليوجه هو بعد ذلك مضمون هذا القول إلى الأمة كلها؛ ليعلمها ويبصرها فى شئون دينها ودنياها، مرغبًا مرة، ومخوفًا أخرى.

كما اشتملت الآيات على تقرير عدد من الحقائق الدالة على قدرة الله تعالى، بل على طلاقة قدرته، واشتملت الآيات على أكثر من نهى وأكثر من أمر.

مما نوضحه فيما يلى والله نعم العون:

١ - الخطاب الأول للرسول ﷺ هو: ﴿قُلْ اللهم مالك الملك....﴾.

* وفى ذلك تعليم من الله تعالى لنبيه ﷺ - وللمسلمين - أن يدعو الله ويمجده ويثنى عليه سبحانه وتعالى.

* وفى سبب نزول هذه الآية روايتان:

إحداهما: عن ابن عباس وأنس بن مالك رضى الله عنهم، قالا: لما فتح رسول الله ﷺ مكة ووعد أمته مُلك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات، من أين لمحمد ملك فارس والروم؟ هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمدا مكة والمدينة حتى طمع فى ملك فارس والروم؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والأخرى: عن عمرو بن عوف رضى الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ على الخندق يوم الأحزاب ثم قطع عشرة أربعين ذراعا، وكنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المزنى وستة من الأنصار فى أربعين ذراعا... فأخذنا نحفر فخرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول، فوجهنا سلمان إلى النبى ﷺ فخبره، فنزل رسول الله ﷺ الخندق فأخذ المعول من سلمان فلما ضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها كأنه مصباح فى جوف ليل مظلم، فكبّر وكبّر المسلمون، وقال ﷺ: «أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب». ثم ضرب الثانية فقال: «أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم»، ثم ضرب الثالثة، فقال: «أضاءت لى منها قصور صنعاء، وأخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة على الدنيا كلها فأبشروا» فقال المنافقون: ألا تعجبون من نبيكم

يعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومداين كسرى، وأنها تفتح لكم، وانتم إنما تحفرون الخندق من الخوف، لا تستطيعون ان تخرجوا؟ فنزلت هذه الآية. والله اعلم[١].

- ﴿ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ﴾ اى يجعل سبحانه الليل قصيرا، ويجعل ذلك القدر الزائد داخلا فى النهار، وتارة على العكس من ذلك، وإنما فعل الله ذلك لانه علق به نظام العالم وقوامه، أو يأتى بالليل عقيب النهار، فيلبس الدنيا ظلمة بعد أن كان فيها ضوء النهار، ثم يأتى بالنهار عقيب الليل فيلبس الدنيا ضوءه - اى التحكم فى حركة الشمس والأرض وغيرهما-.

* وقال ابن عرفة[٢]: وكان بعضهم يقول: القرآن يشتمل على الفاظ يفهمها العوام والفاظ يفهمها الخواص، وما يفهمه الفريقان، وهذه الآية مما يفهمها العوام والخواص، فإن الإيلاج يشمل الأيام التى لا يفهمها إلا الخواص، والفصول التى يدركها سائر العوام. والمعنى ان الله تعالى يتصرف فى الناس كما يتصرف فى الليل والنهار.

- ﴿ وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ﴾.

قال المفسرون :

* تخرج الحى من الميت: كالكافر من المؤمن والصالح من الطالح والمؤمن من الكافر.

* وتخرج الميت من الحى: كالكافر من المؤمن والجاهل من العالم، والشرير من الخيِّر.

* وقد فسر بعض العلماء إخراج الحى من الميت... تفسيرا حسيا، بخروج النخلة من النواه وخروج الإنسان من النطفة والطائر ونحوه من البيضة وبالعكس، والتمثيل صحيح وإن اثبت علماء هذا الشأن ان فى النطفة حياة، وكذا البيضة والنواة، لان هذه الحياة اصطلاحية لاهل الفن فى عرفهم دون العرف العام.

* والأرجح من هذه الأقوال أن الكفر هو الموت والإيمان هو الحياة، بدليل قوله تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] .

---

(١) الواحدى: أسباب النزول : ٥٥ - ٥٦ بتصرف واختصار ط الحلبى مصر ١٣٨٧هـ- ١٩٦٨م.

(٢) هو محمد بن محمد بن عرفة الورغمّى نسبة إلى : «ورغمة» قرية بتونس وهو إمام تونس وعالمها وخطيبها فى عصره (٧١٦هـ- ٨٠٣هـ) تولى إمامة الجامع الأعظم والإفتاء، وهو فقيه مالكى متبحر فى التوحيد والفرائض.

يريد كان كافرا فهديناه فجعل الموت كفرا والحياة إيمانا...»(١).

- فهاتان الآيتان الكريمتان: ﴿ قل اللهم مالك الملك.... وتولج الليل فى النهار.... ﴾ تُعَرِّضان بأهل الكتاب الذين حسدوا رسول الله ﷺ على النبوة، بعد أن كانت النبوة فيهم فانقرض فيهم النبوة والملك، وأصبح فى رسول الله ﷺ والمسلمين، فالله سبحانه يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، إذ يُسَيِّر الكون كله وفق سنن لا تتخلف، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى، ويعطى من يشاء ويمنع من يشاء.

٢ - والنهى عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فى قوله تعالى: ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين... ﴾ الآية.

* الأصل أن يكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.

* وألا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وذلك أن هؤلاء الكفار قد سفهوا دين المؤمنين وسفهوا أحلامهم وحسدوهم وحقدوا عليهم، فاتخاذهم أولياء يدل على ضعف فى الدين، وعلى رضا أو تصويب لعمل هؤلاء الكفار.

* وفى سبب نزول هذه الآية، قال الواحدى: قال ابن عباس رضى الله عنهما: كان الحجاج بن عمرو وكهمس بن أبى الحقيق وقيس بن زيد- وهؤلاء كانوا من اليهود، وكانوا يباطنون نفرا من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم - فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر - : اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا لزومهم ومباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ينهاهم عن اتخاذهم أولياء.

* وقال الكلبى: نزلت فى المنافقين: عبدالله بن أُبى وأصحابه، وكانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار...

* وقال الضحاك: قال ابن عباس رضى الله عنهما: إنها نزلت فى عبادة بن الصامت الأنصارى رضى الله عنه، وكان نقيبا، بدريا، وكان له حلفاء من اليهود، فاستأذن الرسول ﷺ أن يخرجوا معه ليستظهر بهم فى يوم الأحزاب، فأنزل الله تعالى هذه الآية للنهى عن ذلك.

* وقد فصل العلماء القول فى موالاة الكفار، فذكروا ثمانية أحوال، نرجو أن نستعرضها

---

(١) فخر الدين الرازى: التفسير الكبير: ٨/٩ مرجع سابق.

لما لها من أهمية، ولقربها من قضية الولاء والبراء التي يرددها كثير من المنشغلين بالعمل الإسلامي اليوم، ولأنها تحمل من فقه الدين والدنيا ما يحتاج المسلمون إلى معرفة وجه الحق فيه، فنقول سائلين الله التوفيق:

هذه الأحوال هي:

الأولـى :

أن يتخذ المسلم جماعة الكفر أو طائفته أولياء في باطن أمره؛ ميلا إلى كفرهم ومناوأة لأهل الإسلام.

*وهذه الحالة: كفر، عند جميع العلماء.

والثـانيـة :

الركون إلى طوائف الكفر ومظاهرتهم، لأجل قرابة أو محبة، دون الميل إلى دينهم، في وقت يكون فيه الكفار مجاهرين بعداوة المسلمين والاستهزاء بهم وأذاهم – كما كان حال الكفار عند ظهور الإسلام – مع عدم الانقطاع عن مودة المسلمين.

* وهذه حالة لا توجب كُفْر صاحبها، إلا أن ارتكابها إثم عظيم، لأن صاحب هذه الحالة يوشك أن يوالي الكفار على مضرة الإسلام.

والثـالثـة :

الركون إلى طوائف الكفر دون أن يكون هؤلاء الكفار مجاهرين ببغض المسلمين، ولا بأذاهم – كما كان نصارى العرب عند ظهور الإسلام.

* وهذه الحالة لا توجب كُفْر صاحبها، إلا أنه منهي عن ذلك، لما قد يجر إليه من استحسان ما هم عليه، وانطلاء مكائدهم على المسلمين.

والحالة الرابعة :

موالاة طائفة من الكفار، لأجل الإضرار بطائفة معينة من المسلمين مثل الانتصار بالكفار على جماعة من المسلمين.

* وهذه الحالة أحكامها متفاوتة على النحو التالي:

– قال الإمام مالك رحمه الله: يوكل أمر هؤلاء إلى اجتهاد الإمام ويأخذون حكم الجاسوس.

– وقال ابن القاسم[١]: تلك زندقة لا توبة منها، ويُقتل صاحبها كما يقتل الزنديق.

– وقال ابن وهب[٢]: تلك ردة، ويستتاب صاحبها.

* وقول الإمام مالك أرجح الأقوال.

والخامسة :

أن يتخذ المؤمنون طائفة من الكفار أولياء لنصر المسلمين على أعدائهم، فى حين إظهار هؤلاء الكفار حماية المسلمين والنصرة لهم.

* وهذه قد اختلف العلماء فى حكمها على النحو التالى :

– قال ابن القاسم «فى المدونة»: لا يستعان بالمشركين فى القتال؛ لقول لنبى ﷺ لكافر تبعه يوم بدر: «ارجع فلن أستعين بمشرك».

– وقال مالك: لابأس بذلك عند الحاجة. وذهب إلى ذلك، أبو حنيفة، والشافعى، والأوزاعى[٣]، والليث[٤].

– وقال جماعة من العلماء: لا نطلب منهم المعونة، وإذا استأذنونا لا نأذن لهم، وإذا خرجوا معنا لم نمنعهم.

– وأجاز أبو حنيفة الاستعانة بأهل الكتاب دون المشركين.

والسادسة :

أن يتخذ واحدٌ من المسلمين واحدا من الكافرين بعينه وليًا له فى حسن المعاشرة أو القرابة، من غير أن يكون فى ذلك إضرار بالمسلمين.

* وذلك غير ممنوع، كما استأذنت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما فى برّ أمها

---

(١) ابن القاسم هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد المصرى أبو عبد الله (١٣٢ – ١٩١هـ) فقيه جمع بين الزهد والعلم، وتفقه علي مذهب الإمام مالك، عاش ومات فى مصر، له: المدونة، وهى من أجلّ كتب المالكية طبعت فى ١٦ جزءا.

(٢) ابن وهب هو عبد الله بن وهب من مسلم الفهرى – ولاءً – المصرى مولدا ومعاشًا ومماتا (١٢٥ – ١٩٧هـ)، فقيه الأئمة من أصحاب مالك، جمع بين الفقه والحديث والعبادة، له: الجامع فى الحديث، مطبوع فى مجلدين.

(٣) هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى، ولد ببعلبك بلبنان (٨٨ – ١٥٧ هـ) وهو إمام الشام فى الفقه والزهد، وله فى الحديث النبوى قدم، له: السنن فى الفقه.

(٤) هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن، ولد فى قلقشندة بمصر ومات بالقاهرة (٩٤ – ١٧٥هـ) وهو إمام أهل مصر فى عصره فى الحديث والفقه، قال عنه الشافعى: «الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به».

الكافرة، فاذن لها الرسول ﷺ.

والحالة السابعة :

حالة المعاملات الدنيوية كالتجارات والعهود والمصالحات.

* واحكامها مختلفة باختلاف الاحوال، وتفاصيلها تُلتَمس فى كتب الفقه الإسلامى.

والثامنة :

حالة إظهار الولاء لهم اتقاء ضررهم وشرهم.

* وهذه هى المشار إليها فى هذه الآية الكريمة ﴿ **إلا أن تتقوا منهم تقاة** ﴾، والاتقاء تجنب المكروه.

* وهذه التقية جائزة كالحالة التى كان عليها المستضعفون من المؤمنين الذين لم يجدوا سبيلا إلى الهجرة، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾.
ويشبه ذلك ما لقيه مسلموا الاندلس حين اكرههم النصارى على الكفر فتظاهروا بذلك، إلى ان تمكنوا من الفرار أو من استئذان الكفار فى الهجرة.

لكن يجب ان تكون التقية غير دائمة، لانها إن طالت دخل الكفر فى الذرارى والأجيال الآتية.

٣ - ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾.

وهذا تحذير من المخالفة لأى شيء من أمر الله تعالى، ومن التساهل فى دعوى التقية واستمرارها أو طول زمنها.

﴿ **وإلى الله المصير** ﴾ ليحاسب كلا بما عمل، وبما امتثل من أمر واجتنب من نهى.

٤ - والخطاب الثانى :

موجه إلى الرسول ﷺ، ليعلن على الناس حقيقة هامة فى الدين والتدين والتعامل مع الله تبارك وتعالى وهى: ان اى عمل لا يستطيع الإنسان ان يخفيه عن الله تعالى مهما حاول، لان الله تعالى يعلم ما فى السموات والارض، وله قدرة ذات طلاقة غير محدودة، بحيث لا يغيب عنها شيء ﴿ **قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله....** ﴾ الآية.

* وهذه الآية الكريمة جاءت بعد نهى الله تعالى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء، مستثنيا من هذا النهى التقية فى الظاهر، واوعدت الآية من يصير باطنه كظاهره فى وقت

التقية، إذ يكفى الظاهر لاتقاء الخطر، أما الباطن فيجب أن يكون نقيا، وإلا حوسب صاحبه، لأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء.

* وفى الآية أسلوب شرط لتوضيح أن من أخفى شيئا علمه الله وجازاه.

وهنا ملحظ جدير بالاهتمام وهو أن تأخر الجزاء - وهو الحساب - عن الشرط - وهو الإخفاء - لا يترتب عليه القول بأن علم الله بالأشياء حادث أى غير قديم، وذلك أن علمه تعالى بما كان وبما سيكون علم قديم. والتجدد الذى يقتضيه الشرط إنما هو فى النسب والإضافات والتعليقات، لا فى حقيقة العلم.

- وذاك مبحث جليل القدر فى علم الكلام - لمن أراد التوسع.

* ومن المجاز التعبير بالصدر - وإن تخفوا ما فى صدوركم - عن القلب، لأن الصدر محل القلب، والقلب حالٌ فيه.

٥ - **وفى الآيات إخبار عن حقيقة أخرى** : هى أن الإنسان يجد يوم القيامة صحائف عمله أمامه، ما هو خير منها وما هو شر، فإذا بالإنسان يودّ فى ذلك اليوم أن يكون عمله السيّء فى الدنيا بعيدا عنه كل البعد، ولكن هيهات، لقد أحصى الله عليه، وها هو فى يوم الحساب ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد** ﴾.

* والتحذير فى الآية للمؤمنين، وقد قام مقام الموعظة.

* وذيّلت الآية بتقرير رأفة الله تعالى بالعباد، لتأكيد أن هذا التحذير أو تلك الموعظة لمصلحة المحذَّرين الموعوظين.

٦ - **وخطاب ثالث** :

موجه إلى النبى ﷺ أمَره الله تعالى فيه أن يقرر للناس حقيقة هامة فى حياة المسلمين وهى: أنّ من كان يحب الله، فليتبع رسوله، فإن فعل فإنه يحظى بحب الله ومغفرة الذنب، ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم** ﴾.

* وفى سبب نزول هذه الآية أورد الواحدى فى كتابه « أسباب النزول »، عددا من الآراء نذكر منها ما يلى:

– قال الحسن[1] وابن جريج[2]: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فقالوا: يا محمد، إنَّا نحب ربنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

* وقال الضَّحاك[3] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: وقف رسول الله ﷺ على قريش، وهم فى المسجد الحرام، وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعلوا فى آذانها الشنوف، وهم يسجدون لها، فقال: يا معشر قريش، لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم، وإسماعيل، ولقد كانا على الإسلام.

فقالت قريش: يا محمد، إنما نعبد هذه حبًّا لله ليقربونا إلى الله زلفى، فأنزل الله تعالى: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله، فاتبعونى يحببكم الله... ﴾ أى إن كنتم تحبون الله – وتعبدون الأصنام لتقربكم إليه – فاتبعونى يحببكم الله؛ فأنا رسول الله إليكم وحجته عليكم، وأنا أولى بالتعظيم من أصنامكم.

– وروى الكلبى[4] عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن اليهود لما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، أنزل الله تعالى هذه الآية، فلما نزلت عرضها رسول الله ﷺ على اليهود فأبوا أن يقبلوها.

* وروى محمد بن إسحق بن يسار: قال: نزلت فى نصارى نجران، وذلك أنهم قالوا: إنما نعظم المسيح ونعبده حبا فى الله وتعظيما له، فأنزل الله هذه الآية ردًّا عليهم.

* وفى الآية الكريمة جزاء عظيم هو مطمح المؤمنين وهو «يحببكم الله» معلق على شرط هو: «اتبعون» أى اتبعوا ما جاء به محمد ﷺ.

٧ – والخطاب الرابع والأخير:

موجه إلى النبى ﷺ، يأمره ربه أن يقول للناس: «أطيعوا الله والرسول، فإن تولوا فإن الله

---

(١) هو الحسن بن يسار البصرى (٢١–١١٠هـ) تابعى جليل كان إمام أهل البصرة وحَبْر الأمة فى زمانه، ولد بالمدينة وشب فى كنف على رضى الله عنه وسكن البصرة وتوفى بها.

(٢) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن بشر (٨٠–١٥٠هـ) إمام الحرم المكى وإمام أهل الحجاز، وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة، وفى الأصل مكى المولد والوفاة.

(٣) هو الضحاك بن مزاحم الهلالى أبو القاسم (٠٠٠ – ١٠٥هـ) ولد ببلخ وكان يقيم بمرو حينا وببخارى حينا وبسمرقند حينا، وهو من تابعى التابعين بخراسان، عنى بعلم القرآن عناية كبيرة مع ورع، وكان يعلم الصبيان بلا أجر، لقى سعيد بن جبير وأخذ عنه.

(٤) هو محمد بن السائب بن بشر (٠٠٠–١٤٦هـ) نسَّابة راوية عالم بالتفسير، من أهل الكوفة مولدا ووفاة، وهو مفسر مرضى عنه من العلماء وإن كان في الحديث أقل من ذلك. وهو والد هشام الكلبى صاحب كتاب «الأصنام».

لا يحب الكافرين﴾، يطالب الناس بطاعة الله ورسوله، ويخبرهم بأن من تولى عن تلك الطاعة فقد كفر بالله ورسوله، ويخبرهم بأن الله تعالى لا يحب الكافرين.

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من الآيتين الأوليين: **﴿قل اللهم مالك الملك. . . .﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾.**

* أن الله تعالى بيده الملك وبيده كل شيء، وأنه سبحانه يؤتى من يشاء ويمنع من يشاء، ويعز أو يذل ما يشاء، وأن قدرته سبحانه لا حدود لها.

ومعنى ذلك ألا يغتر أحد بنعمة - أو جاه أو سلطان - ينعم بها فربما نُزعت منه، وأن لا ييأس أحد من ألا تصل إليه نعمة المال أو الجاه أو السلطان، فربما واتته، وما على الإنسان إلا أن يعمل صالحا ويأخذ بالأسباب متوكلا على الله تعالى فى كل أمره، عسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده.

* ويتعلمون أن الله تعالى - القادر بلطفه وحكمته وعزته وقدرته على أن يولج الليل فى النهار والنهار فى الليل، ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويرزق من يشاء بغير حساب - هو القادر على أن يغير ما بأيدى الناس من نعم وأسباب جاه وسلطان، ليصبحوا كأن لم يغنوا فيها، وينقل ذلك إلى من يشاء من عباده، فينبغى أن يعيش كل مؤمن بين الرجاء والخوف، يحافظ على ما بيده من نعمة، ويرجو الله نعمة إن كان محروماً منها.

٢ - ويتعلم المسلمون من الآيات الثلاثة التالية: **﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. . .﴾ إلى قوله تعالى: ﴿والله رءوف بالعباد﴾.**

* أن الولاء والمناصرة والمودة يجب أن تكون من المؤمن إلى أخيه المؤمن، وأنه لا يجوز أن يكون المؤمن وليًّا للكافرين - على النحو الذى فصلناه آنفا - وأن من والى كافرا على مؤمن فقد كفر بالله ورسوله، ويستثنى من ذلك حالة الاضطرار والخوف، حيث يكون للكافر ولاية على المؤمن، فإن ذلك جائز إلى أن تزول أسبابه.

* وأن من اتخذ الكافر وليًّا فى الباطن وأخفى أمره على الناس، فإن الله تعالى سوف يعلم ما أخفى؛ لأنه سبحانه بصير بالعباد، ومحاسبهم ومجازيهم.

* وأن كل إنسان سوف يجد يوم القيامة أمامه ما قدّم من عمل ليُحاسَب عليه ويُجازَى به، وساعتها سوف تتكشف له الحقائق ويود لو أن كلّ عمل سيئ عمله فى الدنيا، قد بُوعد

بينه وبينه إلى اقصى مدًى، ولكنها امنيات لا تتحقق - ولا تجدى لو تحققت - لان الله تعالى جعل هذا اليوم للجزاء لا للامنيات والندم، فكلاهما لا يجدى فتيلا فى ذلك اليوم.

* وأن الله تعالى قد أعذر إلى الناس فى الدنيا بأن أرسل إليهم الرسل ومعهم البينات، وطالب الناس بالإيمان واتباع الرسول، وحذرهم من معصيته، وخوفهم من عذابه، وعلمهم أنه رءوف بهم لو أطاعوا.

٣ - ويتعلمون من الآية الكريمة الاخيرة من هذه الآيات: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله .... ﴾ الآية.

* أن ادّعاء حب الله تعالى ليس مجرد دعوى لا يصحبها عمل، وإنما حب الله تعالى له دلائل وعلامات أولها اتباع الرسول ﷺ، والالتزام بما جاء به كله، وفى هذا الالتزام غفران للذنوب من رب غفور.

* وأن طاعة الله ورسوله هى دليل الإيمان وهى الأصل الذى لا يحيد عنه إلا غافل ضال، وأن المعصية لله ولرسوله هى الكفر، وهى دليل على مناصبة الحق العداء، وأنها سبب فى كراهية الله تعالى للعصاة، لأن الله تعالى لا يحب الكافرين.

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة، وهى كثيرة نذكر منها ما يلى:

١ - يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات:

* أن منكرى الحق، ومنكرى النبوة لهم وجود فى القديم وفى الحديث.

فالذين أنكروا النبوة قديما نوعان:

النوع الأول: المشركون.

وكانوا ينكرون النبوة لرجل مثلهم يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، ولم تُنَزَّل عليه الملائكة تنزيلا، ولم يستطع الرقى فى السماء، وحتى لو رقى فى السماء فلن يؤمنوا به إلا إذا أتى إليهم بكتاب من عند الله يقرءونه!

والنوع الثانى: أهل الكتاب.

وكانوا ينكرون النبوة لرجل من غير بنى إسرائيل، لاعتقادهم - خطأ - أن النبوة فيهم وحدهم.

- والذين أنكروا النبوة حديثا أنواع:

أ - نوع ينكر الدين كله وهم الملاحدة والزنادقة الذين لا يعترفون بالله ولا بالملائكة ولا الكتب ولا الرسل ولا اليوم الآخر. وهؤلاء معروفون فى عصرنا هذا بسماتهم وشعاراتهم وما يوجهونه إلى الدين من نقد، وما يعترضون به على الإيمان بالغيب.

ب - ونوع ينكرون نبوة محمد ﷺ، ويزعمون أنه ﷺ متنبئ لا نبى، ويتهمونه بتأليف القرآن الكريم! وهؤلاء معروفون بتوجهاتهم ومقالاتهم ومؤلفاتهم وما يبثونه فى الناس من باطل وزور.

جـ - ونوع يعترفون بالله تعالى ويؤمنون به، ويعترفون بمحمد ﷺ ويؤمنون به، ولكنهم يقولون: إنه ﷺ جاء لتنظيم الدين لا الدنيا، ويرون أنه لم يبن دولة ولم يقم حكومة. وهؤلاء هم الذين يعزلون الدين عن الدنيا، ويرددون مقولة بالية خاطئة هى: دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر.

د - ونوع ينكر ما جاء به النبى ﷺ من كل ما يجب الإيمان به بالغيب. وهذا الإنكار متضمن لإنكار النبوة أو رمى النبى بالكذب ودعوته إلى إلغاء العقول والحواس!!! لأنهم لا يؤمنون إلا بكل ما هو مادى محسوس.

هـ - ومنهم من يخلط بين إنكار النبوة وإنكار المنهج الذى جاء به النبى ﷺ، أو إنكاره قدرة هذا المنهج على حل مشكلات الناس والفصل فى قضاياهم.

وكل هؤلاء وأولئك إما كفرة بالدين وإما عصاة وإما ضالون يجهلون الحق ويجهلون أنفسهم، كل أولئك يقول لهم الدعاة محتسبين عند الله ما ينالهم منهم من أذى: ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير، إنك على كل شىء قدير** ﴾ ويسألون الله لهم الهداية قبل أن تدور عليهم الدوائر فينزع منهم السلطان ويُذَلون بعد عزة وغرور.

٢ - ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية أن قدرة الله تعالى لا يقف أمامها عائق، وأنه سبحانه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، وأنه سبحانه يخرج المؤمن من الكافر، والمهتدى من الضال، وأن ذلك يعنى بالنسبة للدعاة ألا يعرف اليأس إليهم طريقا، وهم يتعاملون مع المدعوين؛ لأن الله سبحانه وتعالى: ﴿ **يخرج الحى من الميت...** ﴾ أى المؤمن من الكافر والطائع من العاصى - كما أوضحنا آنفا.

٣ - ويتعلمون من الآيات، موضوع الولاء، ومن يوالون ومن يرفضون ولاءهم، على نحو ما

فصلنا القول فى شرح هذه الآية الكريمة: ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين... ﴾.

* والأصل فى الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية، أن يجيدوا موضوع الولاء والبراء، إذ لابد لمضيهم فى عملهم من أن يمارسوا الولاء للذين لا يقفون فى طريق العمل من أجل الإسلام، ولابد أن يبرأوا من أولئك المشركين والكفار المحاربين لله ورسوله. والذى لاشك فيه أن طريق الدعوة والحركة ملىء بهؤلاء وأولئك، منهم من يظهر هذا ومنهم من يبطنه، والله من ورائهم محيط.

٤ – ويتعلمون من هذه الآيات مشروعية التقية – وهى أن يقول أو يفعل ما يخالف الحق – إذ للعلماء فى ذلك أقوال منها:

* قال بعض العلماء: إن التقية مشروعة للمحافظة على النفس والعرض والمال.

* وقال بعضهم: إنها تجوز للمحافظة على المال.

* وقال بعضهم: هى عامة فى كل حين.

* وقال الخوارج: إنها لا تجوز مطلقا، ولكن رأيهم هذا مردود عليه بقول الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ﴾ [النحل: ١٠٦].

* وقال الشيعة: إن التقية أصل من أصول الدين جرى عليه الأنبياء والأئمة. ورأيهم هذا مرجوح أيضا، لما قدمنا من آراء أكثر نضجا وواقعية.

* وخلاصة الرأى الذى ارتضاه جمهور العلماء أن التقيَّة من الرُّخص لأجل الضرورات العارضة، وليست أصلا من أصول الدين المتبعة دائما.

ولذلك كان من المسائل التى أجمع عليها العلماء: وجوب الهجرة على أى مسلم من مكانه الذى يخاف أن يُظهر دينه فيه، ويضطر إلى التقية.

* ومن علامات كمال الإيمان فى المؤمن ألا يخاف فى الله لومة لائم، وفى ذلك أسوة بالرسول ﷺ، الذى تحمل كثيرا من الأذى فى ذات الله تعالى، مع الصبر والتواصى به.

* ومن التقية الجائزة – فيما أرى – المداراة فيما لا يترتب عليه ضياع حق ولا تأييد باطل، حيث تعد هذه المداراة من الكياسة والفطنة ما لم تصل إلى حد النفاق.

- وهذه المداراة مؤكدة فى التعامل مع السفهاء والفاحشين منهم، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: «استأذن رجل على رسول الله ﷺ - وأنا عنده - فقال: بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة، ثم أذن له، فألان له القول، فلما خرج، قلتُ: يارسول الله: قُلْتَ ما قلتَ، ثم ألَنتَ له القول، فقال: يا عائشة إنّ من أشرِّ الناس مَن يتركه الناس - أو يدعه الناس - اتقاء فحشه».

وروى البخارى بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنا لنكشر فى وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم» والكشْر هو: التبسم.

٥ - ويتعلمون من هذه الآيات أن واجبهم تبصير الناس بأن أحدا من الناس لا يستطيع أن يضمر فى نفسه شيئا، متوهما أنه قد أخفاه عن الله تبارك وتعالى، وذلك أن الله تبارك وتعالى يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم السِّر وما هو أخفى من السِّر، إذ هو سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، فلا يمكن أن يتفلَّت من قدرته أحد، ولا يعجزه شيء، ولهذا حذر الناس نفسه وعقابه. ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم.... ﴾ الآية.

* وإذا عامل الناس أنفسهم وتعاملوا مع غيرهم على أن الله تعالى عالم بكل ما تكنه صدورهم وما يعلنون، استقاموا على منهج الله واتبعوا ما سنّ رسول الله ﷺ، وفى ذلك الأسلوب من التعامل يستطيع الإنسان أن يحقق لنفسه الخير فى الدنيا، كما يستطيع بذلك أن يحظى برضا الله تعالى فى الآخرة.

* وينبغى أن يتعامل الدعاة والحركيون مع الأعمال التى يقومون بها فى كل مجال من مجالات العمل الممهد للتمكين لدين الله فى الأرض، بنفس الأسلوب، وهو أن شيئا ما قد قصروا فيه فإن الله تعالى يعلمه ويحاسب عليه، وأن صحائف الأعمال يوم القيامة سجل حافل أمين يطلع عليه الناس فيودّون أن يباعد بينهم وبين كل عمل فى الدنيا شابه تقصير أو مخالفة.

* إن كل تعويق أو تأخير للدعوة أو الحركة عن بلوغ الهدف، لابد أن يكون من أسبابه القصور أو التقصير فى العمل، ومع نصاعة هذه الحقيقة فإننا نسمع ما بين حين وآخر، وفى كل بلد مسلم من يتساءلون فى دهشة قائلين: لماذا تأخر التمكين لدين الله فى الأرض؟

تلك مسلَّمة لابد أن يعيها الدعاة والمدعوون والذين يمارسون أعمال الحركة الإسلامية، والذين يمارسون التربية الإسلامية والذين يسدون الثغرات والفراغات فى مجال التمكين لدين الله.

* وعلى الدعاة والحركيين - ما داموا يريدون النجاح والفلاح - أنْ يوقنوا أنّ مفتاح النجاح والفلاح في جميع أعمال التمكين لدين الله إنما يستعان عليه بحب الله تبارك وتعالى لهؤلاء العاملين، والله تعالى لا يحب إلا من اتبع الرسول ﷺ والتزم بمنهجه، واعتز بالإسلام، وقوّى في نفسه الانتماء إليه، مع أنواع من الفقه تعد من الضرورات ومنها:

فقه الدعوة.

وفقه الحركة.

وفقه التربية.

وفقه التنظيم.

وفقه المكان وفقه الزمان - فقه الدنيا - أي فقه الواقع.

وفقه التمكين.

وفقه ما وراء التمكين، أي المحافظة عليه واستمراره بعد الوصول إليه بإذن الله تعالى[1].

كل هذا يفهم من قوله تعالى: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم ﴾.

٧ - ويتعلم الدعاة والحركيون من الآية الأخيرة من هذه الآيات: ﴿ قل أطيعوا الله والرسول، فإن توليتم فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ يتعلمون من هذه الآية أمورا منها:

* أن طاعة الله ورسوله واجب شرعي، لا يكون إيمان ولا إسلام إلا بها، حيث عبر عنها رسول الله ﷺ - كما أمره ربه - بفعل الأمر «أطيعوا...». وهذا الأمر موجه إلى كل مسلم ومسلمة بلغا حد التكليف.

* وأن عدم الطاعة أي المعصية هي من التولّي عن الله ورسوله، وهذا التولي كفر صريح يستحق صاحبه عقاب الكافرين، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء: ١٤].

وقال جل شأنه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

---

(١) انظر للمؤلف: فقه الدعوة إلى الله . نشر دار الوفاء بمصر ١٤٠٠هـ - ١٩٩٠م بجزئيه كليهما.

* إن معاصى الدعاة والحركيين مهما صغرت لهى من العوائق فى الطريق إلى تمكين دين الله فى الأرض، وإن هذه المعاصى قد لا يتنبه إليها كثير من الواقعين فيها، إذ قد يتصور بعضهم أن المعصية لله ورسوله مقصورة على ارتكاب الكبائر أو الإصرار على الصغائر، وان هذا كله فى مجال العبادات والأخلاق والمعاملات...

* والحق الذى أحب أن أنبه إليه أن من المعاصى لله ولرسوله - فى مجال الدعوة والحركة والتربية والتنظيم والتمكين والمحافظة على التمكين - ما لابد من الإشارة إليه والتحذير من الوقوع فيه.

وهو - فى تصورى - فيما يلى:

أ - التقصير فى توصيل دعوة الله إلى كل من يجب أن تصل إليه وبالأسلوب الذى يجب أن تكون به هذه الدعوة، فتلك معصية؛ لأن الله تعالى أوجب الدعوة إليه على كل مسلم يملك القدرة عليها والبصيرة بها.

ب - والتقصير فى إهمال أى مرحلة من مراحل الدعوة إلى الله:

التمهيد، والتعريف، والتكوين، والتنفيذ، والتمكين، والمحافظة على التمكين.

جـ - والتقصير فى فقه الدعاة وواجباتهم وصفاتهم وآدابهم، وما يجب أن يكونوا عليه من فهم وإخلاص وعمل وجهاد وتضحية وطاعة وثبات وتجرد، وأخوة فى الإسلام، وثقة فيما بينهم.

د - والتقصير فى فقه المدعوين، ومعرفة أصنافهم، وكيفية التعامل معهم، والاستجابة لحاجاتهم بما يصلحهم ويصلح بهم.

هـ - والتقصير فى فقه الحركة، بإهمال الاختلاط بالناس والصبر على أذاهم، أو الفتور فى خدماتهم وحبهم وحب الخير لهم، أو الوقوف بالتحرك معهم قبل أن يرتبطوا بموكب الدعوة، وقبل أن يعرف كل منهم مكانه ومكانته فى هذا الموكب المبارك.

و - والتقصير فى تنظيم المدعوين، أو فى دقة تصنيفهم حسب ما لديهم من طاقات واستعدادات، وحسب ما لهم من سابقة وخبرة فى مجال العمل الإسلامى.

ز - والتقصير فى تربيتهم تربية إسلامية، لقصور فى المنهج، أو للاكتفاء به دون تزويده بما هو فى حاجة إليهم من أنشطة وثقافات، أو بالتشبث بالمنهج التربوى ورفض تغييره أو تطويره، كلما جدّت متغيرات فى الزمان أو المكان أو الظروف والأشخاص.

ح – والتقصير فى العمل من أجل التمكين لدين الله فى الأرض، كإهمال شيء من مفردات العمل من أجل التمكين مثل:

– إهمال إعداد العلماء المتخصصين فى المجالات المختلفة.

– وإهمال الإعداد والاستعداد لمواجهة الظروف.

– وإهمال التدرب على التعامل مع المتغيرات.

– وإهمال إعداد الدراسات العملية والنظرية التى تستجيب لكافة المتطلبات.

ط – والتقصير فى عدم المحافظة على التمكين بعد الوصول إليه. ولهذا التقصير مظاهر. نذكر منها ما يلى:

– الفرح بالوصول إلى التمكين وعدم التأمل فيما وراء هذا الوصول.

– عدم الاستفادة من عِبَر التاريخ الإسلامى ودروسه، فقد وصلت دول إسلامية كثيرة إلى التمكين ثم انهارت!!!

– والانغماس فى لذائذ النصر وشهوات النفوس فى السلطة والجاه والمال...

ى – والتقصير فى الترابط مع سائر أقطار العالم الإسلامى لتبادل الآراء والخبرات وتوحيد الأفكار والصفوف.

كل هذه الأنواع العشرة من التقصير هى من المعاصى لله ولرسوله تعرض المسلم للعقاب وتعرض موكب الدعوة للتعويق عن الوصول إلى الهدف، أو العجز الكامل عن الوصول إليه.

٧ - الآيات من الثالثة والثلاثين إلى الحادية والأربعين
اصطفاء الله تعالى لرسله ، وخبر أم مريم وزكريا عليهما السلام

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١) ﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٤١].

اشتملت هذه الآيات الكريمة على حديث عن الذين أحبهم الله تعالى واصطفاهم من خلقه وهم فى هذه الآية:

آدم أبو البشر عليه السلام.

ونوح عليه السلام.

وإبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام.

وآل عمران عليهم السلام.

فقد اصطفاهم الله تعالى وجعل فيهم النبوة والرسالة، وختمهم بولد إسماعيل محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين.

وتحدثت الآيات الكريمة عن مريم أم المسيح عليهما السلام.. مَنْ نذرتها أمها لله يوم حملت بها إلى أن وُلدت وكفلها زكريا، وشبُت واحاطتها الكرامات مثل وجود الطعام عندها **وكلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا**.

وقد تهيأت مريم عليها السلام لعبادة الله حق عبادته، ولما رأى زكريا عليه السلام مريم الصالحة العابدة التى كرمها الله تعالى، دعا زكريا ربه أن يهبه غلاما صالحا مثلها، فأعطاه الله ما يريد، فأبلغته الملائكة ببشارة الله له بيحيى، وجعله عليه السلام مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين، فكانت دهشة زكريا عليه السلام بالغة أن ينجب فى هذه السن وامرأته عاقر!!! وجعل الله تعالى له آية – اى علامة – تتقدم هذه العناية الإلهية وتؤذن بها فجعل آيته له أن يعجز عن كلام الناس ثلاثة أيام بلسانه إلا إيماءً وإشارة، وطالبته بأن يتفرغ هذه الأيام الثلاثة لذكر الله وتسبيحه بالعشىّ والإبكار.

-– وفى الآيات الكريمة أخبار عديدة عن تلك الأسرة الصالحة من آل عمران عليه السلام، وبخاصة مريم أم المسيح، والمسيح نفسه وزكريا زوج خالة المسيح ويحيى ابن خالته، كما حدد هذه العلاقة بينهم علماء السيرة، مستدلين بما ورد فى الصحيح من قول الرسول ﷺ: «... فإذا بيحيى وعيسى ابنا الخالة....».

غير أن ابن إسحاق يرى أن زكريا زوج خالة مريم وليس زوج أختها، ولكن مع الحديث النبوى الصحيح لا يقام وزن لرأى آخر مهما يكن صاحبه.

هذا مجمل ما اشتملت عليه هذه الآيات الكريمة، وسوف نوضحه فيما يلى، والله الموفق:

١ – أخبر الله تبارك وتعالى أنه اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين وفضلهم.

* «والعالمين»: جمع عالم بما فيه من ملائكة وجن وإنس وشياطين.

* والاصطفاء يعنى: الاختيار والتفضيل.

– ويحتمل أن يكون الاصطفاء لدين هؤلاء وملتهم دون سائر الأديان والملل.

– ويحتمل أن يكون اصطفاهم اى صفاهم من الصفات الذميمة وزينهم بالخصال الحميدة، وهذا أولى؛ لأن الانبياء عليهم السلام جميعًا بريئون من الصفات الذميمة، متصفون بالصفات الحميدة.

وهذا أولى من الأول لأن الله تعالى قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فهو سبحانه يصطفى من خلقه من يعلم استقامته قولا وفعلا.

- وقوله تعالى : ﴿ **ذرية بعضها من بعض** ﴾ أى هم أشباه فى الخير والفضل، وهم الأنبياء والرسل عليهم السلام وأولاهم ممن اختارهم الله لرسالاته.

٢ - واخبر سبحانه وتعالى : أن امراة عمران نذرت ما فى بطنها لسدانة بيت المقدس - وكانت تتصور أنه ولد - فولدته بنتا هى مريم ابنة عمران بن ماثان، وطلبت من الله تعالى أن يتقبل منها هذا النذر، فتقبله سبحانه وتعالى.

* وقد قال عكرمة: إنها كانت عاقراً لاتلد، وكانت تغبط النساء بالأولاد، ثم قالت: اللهم إنّ لك على نذراً إن رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس ليكون من سدنته، محررا أى عتيقا من أمر الدنيا خالصا لطاعة الله عز وجل.

- «**فلما وضعتها قالت**: **رب إنى وضعتها أنثى، وليس الذكر كالأنثى**» أى فى التفرغ لخدمة بيت المقدس، وإنما الذكر أقدر على ذلك وأنسب لما يعترى النساء من حيض ونحوه.

- «**وإنى سميتها مريم**» وكلمة مريم بلغتهم أى العابدة.

- «**وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**» لتكون صالحة قانتة تلد الصالحين والصالحات، وقد كان فقد ولدت المسيح عليه السلام.

- «**فتقبلها ربها بقبول حسن**» أى أحاطها برعايته، فكفلها زكريا، وكان زوج أختها أو خالتها - على نحو ما قلنا آنفا - وكان أعمامها -وهم كتبة وحى- يحاول كل منهم أن يكفلها، فاقترعوا بإلقاء أقلامهم فى اليم، فمن ارتفع قلمه فهو الراجح، فخرج قلم زكريا عليه السلام فكفلها: «**وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم...**».

* ومن رعاية الله سبحانه وتعالى لها أنه كان يأتيها رزقها فى المحراب، كرامة لها وتكريما، وكان ذلك موضع تعجب زكريا عليه السلام.

* ومن رعايته سبحانه وتعالى لها أن قبلها فى خدمة بيت المقدس، مع أن الأصل أن يخدم المسجد رجل لا امراة، وقوى لاصغير.

- «**وأنبتها نباتا حسنا**» فكانت مشمولة برعايته مكفولة الرزق تنمو فى الصلاح والتقوى والسداد والعفة.

* ومن رعايتها أنه سبحانه وتعالى جعلها فى كفالة زكريا عليه السلام، وهو نبى صالح

فأحسن كفالتها، وأنه كفل لها رزقها، فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب[1] وجد عندها رزقا يكفيها فتعجب وقال لها: **«يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»**.

٣ – وإخبار عن زكريا عليه السلام بأنه لما رأى كرامة الله تعالى لمريم، دعا الله أن يرزقه ولدا صالحا، فاستجاب الله تعالى لدعائه ﴿ **فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبيا من الصالحين** ﴾.

ومصدقا بكلمة من الله: أى بعيسى بن مريم الذى ولد بكلمة «كن» أى بغير السنة المعروفة فى توالد البشر.

* **وأن الله تعالى قد جمع فى يحيى صفات هى:**

– **أنه يصدق بعيسى الكلمة عليه السلام.**

– **وأنه يكون سيدا فى قومه بالعلم والصلاح والكرم وفعل الخير.**

– **وأنه حصور يمنع نفسه مما لا يليق بالإنسان الفاضل، ويكتم السر، أو أنه لا يقرب النساء – كما قيل –.**

– وأنه سيكون نبيا صالحا.

– ولما نادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب بأن الله سبحانه وتعالى، قد استجاب لدعائه، سأل ربه عن كيفية تلك الاستجابة وهى على غير السنة المتبعة فى حمل العاقر، فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿ **كذلك يفعل الله ما يشاء** ﴾.

– ﴿ **قال رب اجعل لى آية** ﴾ أى علامة تؤذن بتلك العناية الإلهية وهذه الاستجابة للدعاء، فأجابه الله تعالى لطلبه بأن جعل تلك الآية هى عجزه عن كلام الناس بلسانه مدة أيام ثلاثة، وطالبه بأن يذكر الله كثيرا ويسبحه فى العشى والإبكار، حمداً لله وشكرا.

– **المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات كثيرة، نذكر منها ما يلى:**

١ – يتعلم المسلمون من الآيتين الأولى والثانية من هذه الآيات: ﴿ **إن الله اصطفى آدم...** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **والله سميع عليم** ﴾.

* أن الصلاح والتقوى والاستقامة على أمر الله ومنهجه هى التى تؤهل الإنسان ليكون

---

(١) المحراب: مقصورة فى مقدمة المعبد، لها باب يُصعد إليه بسلم ذى درجات قليلة، بحيث يكون من فى المحراب محجوبا عمن فى المعبد من الناس.

موضع رضا الله واختياره وتفضيله. وهذا من شأنه أن يعلّم الاستقامة ويشجع عليها.

* وأن الصلاح والتقوى يجب أن تكون أمرا متوارثا فى الذرية ليحظى الكبار والصغار والآباء والأبناء برضا الله تعالى.

* وأن الإقبال على الله تعالى بالطاعة والإنابة والتقرب إلى الله بصالح الأعمال هو التوفيق والخير والهدى.

وفى قصة مريم عليها السلام عبرة وعظة، فقد نذرت ما فى بطنها لتحرره من رق الأغيار، لعبادة الله سبحانه، وخدمة بيته، وكانت تتصور أن فى بطنها غلاما، فلما وضعتها أنثى، -وليس من شأن الإناث أن يدخلن فى خدمة بيت الله- تقبلها الله تعالى بقبول حسن جزاء إخلاص أمها فى نذرها، وأنبتها نباتا حسنا....

* وهذا يعلّم المسلمين أن كل عمل فيه إخلاص يتقبله الله تعالى، ويرعى صاحبه وينبته نباتا حسنا، ويجعل له من يكفله ويرعاه حتى يحقق وظيفته وهدفه.

٢ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ أنّ قدرة الله تعالى لا تقف دونها حوائل، ولا تتوقف على أسباب، لأنه سبحانه هو وحده الذى يقول: كن فيكون، يتعلمون أن الإخلاص لله، وجميل التوكل عليه مع الأخذ بالأسباب -يتيحان- للإنسان أن يجد من عون الله، ومن رزقه ما لا يقع فى حسبان أحد، فلا يسع المخلص المتوكل عندئذ إلا أن يقول: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

إنه لدرس عظيم فى التعامل مع الله ومع الناس.

٣ - ويتعلم المسلمون من هذه الآيات الأخيرة من هذه الآيات الكريمة أن الإنسان كلما رأى مؤمنا يعمل الصالحات قد أكرمه الله ربه بنعمة منه - كما حدث مع مريم عليها السلام - تحيُّن الفرصة ليدعو الله بما يشاء بشرط تقديم الإيمان والعمل الصالح بين يدى دعواته، وبشرط الإخلاص لله وانتظار الخير منه: ﴿ **هنالك دعا زكريا ربه، قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة..** ﴾ الآيات، فقد دعا زكريا ربه واستجاب الله لدعائه لعلمه بإيمانه وعمله الصالح، فأجرى عليه كرامة أيضا؛ إذ رزقه يحيى وهو طاعن فى السنّ وامرأته عاقر، لأن أمر الله لا يحتاج إلى ما اعتاد الناس من أسباب وإنما هى طلاقة قدرته سبحانه وتعالى، وقوله للشىء: ﴿ **كُنْ فيكون** ﴾.

* وذلك الإيمان بالله والتوكل عليه مفتاحا كل خير وتوفيق، فقد روى الطبرانى فى الصغير بسنده عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله كل مئونة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا، وكله الله إليها».

٤ – ويتعلم المسلمون من الآية الكريمة الاخيرة **﴿قال رب اجعل لى آية قال آيتك.....﴾** الآية

* أن إنعام الله على عبده واستجابته سبحانه لدعائه، ليس معناه أن العبد المنعَم عليه له أن يتوقف عن ذكر الله وشكره، وإنما يستوجب ذلك الاستمرار فى ذكر الله كثيرا، وتسبيحه باستمرار أى بالعشى والإبكار، ومعنى ذلك أن ذكر الله تعالى مطلب عام من كل الناس، وهو مطلب دائم على كل حال.

– المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى الآيات الكريمة كثيرة، تذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ – أن اصطفاء الله تعالى لأحد –أو مجموعة– من خَلْقه إنما يقوم على أساس أن يكون هذا المصطفى مؤمنا بالله يعمل العمل الصالح.

وأن هذا الاصطفاء يصَحبه توفيق من الله تعالى وتأييد، وإظهار كرامات، وتحقيق نصر بإذن لله تعالى.

ومعنى ذلك أن يجدُّ الدعاة والحركيون فى تجديد إيمانهم ودعمه بالعمل الصالح، والاستجابة لكل ما أمر الله تعالى به، ولكل ما نهى، ليكونوا موضعا لهذه التكريم، وأهلا للتأييد والنصر والتوفيق.

* وكلما وجد الدعاة أو العاملون فى الحركة الإسلامية تعثُّراً فى العمل أو عقبات فى الطريق تذكروا القاعدة الجوهرية التى يصطفى الله بها بعض عباده ليجرى على أيديهم التوفيق والنصر وهى تَوفُّر الإيمان والعمل الصالح.

٢ – ويتعلمون أن تكريم الله تعالى لأحد من خلقه باصطفائه يجب أن يقابله العبد المختار بمزيد من العمل الصالح ومزيد من طاعة الله ورسوله، وعلى قدر ما فى ذلك من إخلاص لله يكون تقبل الله تعالى لهذا المصطفى ولعمله.

* وأن الله تعالى إذا تقبل عبدا احاطه ورعاه وهيأ له من صالح أمره فى معاشه ومعاده ما لا يكون له فى حسبان، وما يُحتمل أن يخرق الله له العادات كرامة له، فقد كان ذلك ما

حدث مع أم مريم عليها السلام إذ تقبل الله تعالى مريم بقبول حسن، وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا عليها السلام، وجعل زكريا نفسه عليه السلام يرى من علامات القبول والكرامة لمريم عليها السلام ما يثير تعجبه.

* وكل العاملين في الدعوة والحركة عرضة لهذا التكريم؛ إذا كان هناك إخلاص لله وحسن توكل عليه مع الإعداد والأخذ بالأسباب، فهل تُسْمَع هذه الكلمات؟

٣ – ويتعلم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية أن دعاء الله وسؤاله والطلب منه عبادة من أفضل العبادات، بل هي العبادة نفسها كما ورد ذلك عن رسول الله ﷺ. فقد روى الترمذي بسنده عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾ [غافر: ٦٠].

* والدعاء أكرم على الله من أي عمل وأي شيء، لأنه سبحانه يحب الذين يدعونه بل يحب الملحّين عليه في الدعاء. فقد روى الترمذي بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا الخير دهركم، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم».

* أليس ذلك الحديث الشريف جديراً بأن يجعل العاملين في مجالي الدعوة والحركة يدعون الله ويلحّون في الدعاء؟

٤ – ويتعلم الدعاة والحركيون من تلك الآيات الكريمة، أن الثروة الحقيقة للدعاة وأن الغنى الحقيقي والزاد الذي يجب أن يتزودوا به في طريق الدعوة إلى الله هو: ذكر الله تعالى، بل الإكثار من ذكره تعالى في كل حين بالعشي والإبكار، وعلى كل حال قياما وقعوداً وعلى جنوبهم، إن ذلك هو الزاد الذي يعوّل عليه في موكب الدعوة إلى الله مادام قد سبقه الإيمان والعمل الصالح والأخذ بالأسباب.

٨ - الآيات من الثانية والأربعين إلى الرابعة والأربعين

وصف طهارة مريم عليها السلام

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٤].

- تلك قصة مريم عليها السلام فى مجال حديث الملائكة لها، تشريفا لها وتكريما، وليس هذا الحديث شرعًا خُصَّت به مريم، وإنما هو إيحاء بمكانتها عند الله تعالى، وبما يجب عليها إزاء خالقها من شكر يتطلب دوام العبادة والقنوت.

وهذه الآيات الكريمة تتحدث عن السيدة مريم البتول الطاهرة عليها السلام، لتخبرها بأن الله تعالى قد اصطفاها نوعين من الاصطفاء أحدهما:

بقبوله إياها محرَّرَة لخدمة الله تعالى فى بيته - وكانت تلك الخدمة خاصة بالرجال - فطهرها من الحيض، وبذلك كانت أهلا لملازمة المحراب وهو أشرف مكان فى المعبد.

* وقيل طهرها مما يُستقبح من الأمور كسفساف الأخلاق وذميم الصفات وكل ما لا يليق.

والآخر:

ما خصها الله تعالى به من مخاطبة الملائكة إياها وكمال هدايتها أو جعلها تلد المسيح من غير أن يمسها رجل كسنة التوالد.

وفضلها على نساء العالمين عموما، أو على نساء زمانها. فقد جاء فى الحديث الشريف: «إن أفضل النساء مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ، ورضى الله عنهن».

* وفى الآيات مطالبة مريم بالقنوت والسجود والركوع - على نحو ما سنشرح فيما بعد-.

* وهذا القصص الذى قصه القرآن الكريم على محمد ﷺ هو من أنباء الغيب، لم يشهده محمد ﷺ ولا شهده غيره من قومه، بل ما كان محمد ﷺ عند أعمام مريم وهم

يتساهمون فيما بينهم ليكفلوا مريم عليها السلام.

١ – فى الآيات إخبار مريم باصطفائها وإسباغ نعم الله عليها، حيث اختيرت وطُهرت وفُضلت على نساء العالمين، وكل ذلك أبلغتها به الملائكة عليهم السلام تكريما لمريم وتشريفا لها إذ تكلمها الملائكة.

٢ – وفى الآيات مطالبة مريم بل أمرها بعبادات بعينها تتجه بها إلى الله تعالى وهى:

– القنوت لله تعالى، أى الخضوع له والطاعة.

– والسجود: أى التذلل له سبحانه.

– والركوع: أى الانحناء، وهو يعنى الخشوع، والتواضع فى العبادة وفى غيرها من الأعمال.

– وركوعها مع الراكعين: أى صلاتها مع المصلين فى المعبد، وقد كانت ملازمة للمحراب.

* ولم تكن صلاة اليهود كصلاتنا، وإنما تشترك كل الصلوات لله تعالى فى اشتمالها على الخشوع والتواضع والتذلل لله تعالى.

٣ – وكل ما اتصل بقصة مريم عليها السلام من يوم حملت فيها أمها إلى أن كفلها زكريا عليه السلام بعد الاختصام فى كفالتها، وما أكرمها الله تعالى به من مكانة حيث كفل لها الرزق وهى فى محرابها، كل ذلك أنباء غيب أخبر بها الله تعالى رسوله ﷺ دون أن يشهدها أو يشهدها أحد من قومه، وإنما هو وحى أوحاه الله إلى خاتم رسله محمد ﷺ.

٤ – وهؤلاء الذين اختصموا فى كفالة مريم هم خَدَمَة البيت المقدس أو هم العلماء والأحبار وكتاب الوحي، وهم جميعا من أهل الفضل والرغبة فى التقرب إلى الله بكفالة مريم.

* وإنما رغبوا فى كفالة مريم لمكانة أبيها فيهم؛ حيث كان رئيسا لهم فأرادوا حفظ حقه فى ابنته، أو لأن أمها حررتها لعبادة الله وخدمة بيته، أو لأن الكتب الإلهية التى كانت لديهم كان فيها بيان لأمرها وأمر ابنها عيسى عليهما السلام.

٥ – وليست مريم عليها السلام من الأنبياء، لأن الله تعالى لم يعط النبوة لغير الرجال، كما يُفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا

تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ [يوسف: ١٠٩] وإنما كان إرسال جبريل إليها من باب التكريم لها، أو من باب كرامات الأولياء.

* ومريم عليها السلام فى هذا الكلام مع الملائكة أو هذا الإيحاء كان شأنها يشبه شأن أم موسى عليه السلام؛ إذ أوحى الله تعالى إليها دون أن تكون من الأنبياء، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي... ﴾ [القصص: ٧].

– المواقف التربوية العامة فى الآيات كثيرة، نذكر منها ما يلى:

١ – يتعلم المسلمون من هذه الآيات أن الصالحين والصالحات من المؤمنين فى حفظ الله تعالى ورعايته دائما، وإن بدا للناس خلاف ذلك، فاصطفاء الله لمريم وتطهيرها واختيارها أمًّا لعيسى عليه السلام، رعاية وعناية من الله تعالى بها لصلاحها وصلاح أمها وأبيها من قبل، فقد نُذرت وحُررت لخدمة بيت الله تعالى، وحسب الإنسان أن يكون مكرَّما من الله تعالى.

٢ – ويتعلمون من الآيات أن نعم الله تعالى يجب أن تقابَل بشكره سبحانه، وإنما يكون شكره بالإقبال على عبادته ولزوم طاعته والخشوع له مع التذلل والضراعة، وكلما تذلل الإنسان لله تعالى زاده الله عزا وكرامة ورفعة فى الدنيا والآخرة.

* وقد نالت مريم من هذه الرفعة والشرف ذكراً فى العالمين باقيا إلى يوم القيامة فى هذا القرآن الكريم خاتم كتب الله، وفى كلمات النبى الخاتم محمد ﷺ.

فقد روى الترمذى بسنده عن أنس رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون» ورواه أحمد وغيره من أصحاب السنن.

٣ – ويتعلمون من هذه الآيات أن الله تعالى يقيض للصالحين والصالحات من عباده من يرعاهم عندما يكونون فى حاجة إلى رعاية دنيوية، فالتخاصم من أجل كفالة مريم بين هؤلاء الأخيار، بلغ حد الاستهام والاقتراع فيما بينهم على كفالة هذه الصالحة، ثم خرج السهم على زكريا عليه السلام فكفلها.

وهؤلاء الأخيار وإن كان كل واحد منهم حريصا على التقرب إلى الله بهذه الكفالة إلا أن المردود عائد على مريم البتول الصالحة، إذ هيأ الله تعالى لها من يكفلها ويتعهدها منذ

طفولتها الباكرة فكان زوج أختها زكريا عليه السلام.

- **المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة في الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يلي:**

١ - أنّ الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية يجب أن يوقنوا بأنهم محروسون من الله تعالى، وموضع لعنايته ورعايته ماداموا مخلصين له في أعمالهم. ومهما تعرضوا في هذه الحياة الدنيا إلى المتاعب والأوجاع، فإن تلك المتاعب على وجه الحقيقة ابتلاء وتمحيص لابد منه، لأن الله تبارك وتعالى جعل ذلك من سنته، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)** ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]. وإذا كانت تلك سنة الله في عباده أجمعين، فكيف تكون سنته في الدعاة إليه والعاملين على تمكين دينه؟

٢ - ويتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآيات ألا ينخدعوا بما يردده الناس من كلام وما يصدرونه من أحكام على الدعاة إلى الله، وعلى المتاعب والأوجاع التي تصيب هؤلاء الدعاة.

* فالناس - على سبيل المثال - يقولون: إن الدعاة يعرّضون أنفسهم لبطش الحكام!!! وما لهم ولهذا؟

وبعضهم يصف الدعاة إلى الله بقصر النظر والتصلب والتشدد، بل قد يرفعون تلك الأوصاف إلى حد التطرف!!!

* والحق أن الدعاة إلى الله عندما يمارسون الدعوة والحركة، فيتعرضون لظلم أو بطش أو تضييق في العيش فضلا عن أن يُقْتَلوا أو يُسْجَنوا أو يُعذَّبوا، عندما يتعرضون لذلك فإنما يحصلون بذلك عند الله على مكانة عالية وثواب عظيم، ماداموا قد اتبعوا في دعوتهم ما أمر الله به وحبب فيه من أساليب الدعوة إلى الله.

* إن الدعاة إلى الله يسمعون ما يردده الناس عنهم، بل ما يسيئون إليهم به من اتهامات، ولا يلقون إلى كل ذلك بالا، وإنما يصيخون السمع ويلقون البال لقول النبي ﷺ فذلك أنفع لهم وأجدى عليهم.

فقد روى البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه وعن أبي سعيد رضي الله عنه قالا: قال رسول الله ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن

ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كَفَّرَ الله بها من خطاياه».

وفى رواية لهما بسنديهما عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها».

* كذلك كانت مريم عليها السلام فى الأولين حين لطخوا سمعتها، وكذلك كان خاتم النبيين محمد ﷺ حين حورب وحوصر بعد أن كُذِّب وأُوذى.

وكذلك كان الدعاة إلى الله فى تاريخ الإسلام، وسوف يظل الدعاة كذلك إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

* والعبرة الحقيقية فى كل ما يصيب الإنسان فى حياته الدنيا بما عند الله لا ما عند الناس، إذ المسَلَّم به فى القرآن الكريم أن ما عند الله خير للمؤمنين، يُفهم هذا من قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)﴾ [الشورى: ٣٦].

٣ – ويتعلم الدعاة إلى الله من هذه الآيات أنهم فى نعمة من الله تعالى، والدليل على هذه النعمة أن الله تعالى قد اصطفاهم دون الناس ليكونوا دعاة إلى الله، واصطفاء الله تعالى دليل رضاه عنهم، فليهنأ بذلك كل الدعاة إلى الله، لأنه سبحانه إنما يصطفى من يحب ومن هو خير، نفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)﴾.

* وأستطيع من هنا أن أزف بشرى لكل داعية إلى الله بأن الله تعالى قد اختاره ليورثه الكتاب ويحمله عبء الدعوة إليه، وفى ذلك تفضيل وتمييز، ودليل حب ورضا إن شاء الله تعالى.

* هؤلاء الدعاة بهذا الاصطفاء هم صفوة من عباد الله، اختارهم من بين عباده لكى يقوموا بعمل يشبه عمل الأنبياء والرسل، حيث يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله، وذلك أكرم عمل عند الله وأنبله، لأنه نقل لبعض الناس من الكفر إلى الإيمان ولبعضهم من الضلال إلى الهدى، وحسبهم هذا مكانة عند الله تعالى.

٤ – ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية أن اصطفاءهم للقيام بأعباء الدعوة إلى الله ليس له مقابل عند الله إلا لزوم طاعته سبحانه وتعالى: «القنوت»

والاستمرار فى عبادة الله تعالى سجودا وركوعا وتذللا وتضرعا إليه سبحانه.

* إن هذا القنوت وذلك التذلل لله هو الزاد الذى يمد الدعاة بالعون والتوفيق، ويهيئ لهم من النجاح والفلاح الذى يحقق الأهداف، إذ هم بهذه العبادة أقرب ما يكونون إلى الله، والله تبارك وتعالى باصطفائهم أقرب ما يكون إليهم، وحسب المؤمن أن يكون قريبا من الله ليجد العون والمدد والتوفيق.

٥ - ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات أنهم إذا أخلصوا فى عملهم وقصدوا وجه الله تعالى به، فإن الله تعالى سيهيئ لهم من يكفلهم فى الدنيا على الرغم من كل شيء ومن كل أحد، لأن الدنيا لا تخلو من الصالحين أبدا، والصالحون يسخرهم الله تعالى لكفالة الصالحين، بل فى بعض الأحيان يسخر الله غير الصالحين لمساندة الصالحين والذود عنهم.

روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه لايدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر».

وروى الطبرانى فى الكبير بسنده عن عمرو بن النعمان بن مقرن رضى الله عنه[1]: قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليؤيد الدين بالرجل الفاجر».

وبعد: فهذا قليل من كثير يتعلمه الدعاة والحركيون من هذه الآيات الكريمة، نرجو أن نكون فيه من الموفقين، وأن يفتح الله بمزيد على كل من يتدبر فى القرآن الكريم.

---

(١) هو عمرو بن النعمان بن مقرن المزنى، من سادات التابعين وقراء أهل البصرة، والده النعمان بن مقرن أحد الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين.

٩ – الآيات من الخامسة والأربعين إلى الثامنة والخمسين

مولد عيسى عليه السلام وخبره مع قومه

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)﴾ [آل عمران: ٤٥ – ٥٨].

– هذه الآيات الكريمة تخبر عن أمر عيسى بن مريم عليه السلام، كيفية ولادته ومعجزاته، وما أفاء الله عليه من تأييد، وعن إرساله إلى بني إسرائيل، وتصديقه للتوراة.

وعن خبره مع قومه وإيذائهم له، وعن حفظ الله تعالى له من كل ما أراد به قومه من شر، وتوعد الله لهم بالعذاب.

– وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على عدد من الأخبار، وعلى أكثر من أمر، وعلى تأكيد عدد من الحقائق، مما سنوضحه بعون من الله تعالى فيما يلي:

١ – إخبار الملائكة عليهم السلام لمريم ببشارة الله لها بأنها سوف تلد المسيح عليه السلام

-كلمة الله- وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين إلى الله، بحيث يمكنه من ان يكلم الناس فى المهد وكهلا، ويجعله من الصالحين.

* والملائكة فى هذه الآية قصد بهم جبريل عليه السلام، ومن معه من الملائكة، أو هو وحده ولكنه جمع مع أنه فرد، لأن ذلك وارد فى لسان العرب وفى القرآن الكريم؛ إظهارا لمكانته، فقد كان جبريل عليه السلام رئيس الملائكة.

* ويبشرك: يخبرك خبرا سارا تنبسط له بشرة السامع من الفرح.

* والكلمة: تعنى كلمة التكوين «كن» لا كلمة الوحى.

- وقد يكون معناها: ما اشتهر به المسيح عليه السلام بين الأنبياء بأنه «الكلمة»، أى خلق بقول الله «كن».

- أو الكلمة بمعنى كلمة البشارة لأمه.

- أو بمعنى أنه سيوضح للناس كلام الله -والكلمة بمعنى الكلام مستعملة كثيرا فى لغة العرب-

* ﴿اسمه المسيح﴾: كلمة المسيح لها معان:

- قال ابن عباس رضى الله عنهما: سمى به؛ لأنه كان يمسح بيده ذا العاهة فيبرأ من مرضه بإذن الله.

- وقيل: كان يمسح الأرض اى يقطعها ويسيح فيها.

- وقيل: لأنه كان يمسح رأس اليتامى تقربا إلى الله تعالى.

- وقيل: لأنه مسح من الأوزار والآثام.

- وقيل: لأنه خرج من بطن امه ممسوحا بالدهن.

- وقيل: المسيح الصديق.

* ﴿وجيها فى الدنيا والآخرة﴾ :

- أى ذو جاه وشرف وقدر، ومنزلة عالية عند الناس فى الدنيا.

- أو بمعنى: كريم.

- أو وجاهة النبوة فى الدنيا.

– ووجيه فى الآخرة بمعنى علو درجته عند الله.

* ﴿ومن المقربين﴾:

– اى مقرب من الله تعالى لوجاهته فى الدنيا والآخرة.

٢ – ومما اخبر الله تعالى به عن المسيح عليه السلام، جملة من الأخبار منها:

* انه يكلم الناس فى المهد وكهلا، وكانت تلك من معجزاته عليه السلام، فقد جاء فى سورة مريم: « ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ [مريم: ٢٨ – ٣٣].

والكهل من اكتملت فيه القوة والشباب، والمعنى انه كلم الناس فى المهد؛ لأن ذلك من معجزاته، أما فى الكهولة فقد كلمهم بالوحى والرسالة.

* وأنه من الصالحين فى الدين والدنيا، اى فى افعال القلوب وأفعال الجوارح، أى أنه فى أرفع الدرجات.

٣ – واخبرت الآيات الكريمة عن صفات خمس فى المسيح عليه السلام هى:

* يعلمه الكتاب: أى الخط والقراءة والكتابة.

* والحكمة: أى معرفة الحق والخير والعمل بهما، والعلوم وتهذيب الأخلاق.

* ويعلمه التوراة: وهى الكتاب المعروف الذى أنزله الله على موسى عليه السلام وفيه كثير من الأحكام والاخبار.

* ويعلمه الإنجيل: أى الكتاب الذى أنزله الله تعالى عليه.

وقد جاءت هذه الصفات أو النعم الإلهية على المسيح عليه السلام مرتبة ترتيبا منطقيا، إذ كانت الأولى تعليمه الخط والكتابة ليفتح بذلك الطريق إلى تعلم الحكمة، ثم يطلع على الكتاب الذى سبقه وهو التوراة، فإذا أنزل الله عليه الإنجيل بعد ذلك كان ذلك فى الغاية القصوى من العلم والفهم والإحاطة.

* والصفة الخامسة أو النعمة الخامسة هى أنه رسول الله إلى بنى إسرائيل يحمل من الأدلة والبراهين والمعجزات ما من شأنه أن يقنع الناس.

* وقد أعطى الله تعالى المسيح عليه السلام خمس معجزات ورد ذكرها فى هذه الآيات الكريمة، وهى:

الأولى:

أنه يصور من الطين على هيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طيرا على وجه الحقيقة، وذلك خارق لما اعتاده الناس من عادات ولكنه يتم على يديه بإذن الله تعالى.

والثانية:

أنه كان يبرئ الأكمه -وهو الأعمى- من عماه، فيبصر بإذن الله تعالى، كأن لم يكن أعمى من قبل.

والثالثة:

أنه كان يبرئ من أصابه البرص -وهو بياض يصيب الجسد لمرض- بإذن الله تعالى، فيذهب برصه.

والرابعة:

أنه كان يحيى الموتى بإذن الله تعالى.

والخامسة:

أنه كان يخبر عن الغيب، وما يخفيه الناس فى بيوتهم.

* وكل تلك معجزات كان يجب أن تدعوهم إلى الإيمان بالله وتصديق المسيح عليه السلام، ولكن الناس لم يستجيبوا!

٤ - ثم تحدثت الآيات الكريمة عن المهمة التى بعث الله من أجلها عيسى بن مريم وأعطاه هذه البينات أو المعجزات وهى أمران:

الأول:

التصديق بالتوراة، على أنها كتاب من عند الله. قال المفسرون: وعلى كل نبى أن يكون مصدقا لمن تقدمه من الأنبياء، لأنهم جميعا من عند الله يصدق بعضهم بعضا ﴿**مصدقا لما بين يدى من التوراة**﴾.

والأمر الثانى:

أنه أحل لبنى إسرائيل بعض ما كان محرما عليهم من قبل الله تعالى عقابا لهم، فأحله

لهم المسيح عليه السلام تيسيرا عليهم.

٥ - وفى الآيات إجمال لدعوة المسيح عليه السلام، وفحواها هو قوله لقومه: ﴿ اتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾.

وتلك دعوة المسيح فى صورتها المجملة، بل هى فحوى دعوة كل نبى من أنبياء الله عليهم السلام.

* وقد قدم المسيح عيسى عليه السلام على صدق نبوته معجزات عديدة: وليس مجرد ولادته من غير أب -كما أوضحنا آنفا-.

* ولكن قومه لم يؤمنوا بما دعاهم إليه، فلما أحس منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله؟

* قال السدى[1]: لما بعث الله تعالى عيسى رسولا إلى بنى إسرائيل جاءهم ودعاهم إلى دين الله فتمردوا وعصوا، فخافهم واختفى عنهم، لما اغلظوا له وأرادوا به الشر.

* وقال بعض المفسرين: إن اليهود طعنوا فيه، وفى نبوته وطالبوا بقتله، فلما أظهر الدعوة اشتد غضبهم وأخذوا فى إيذائه، فلما أحَسَّ منهم العناد والأذى قال: ﴿ من أنصارى إلى الله ﴾ وربما قال ذلك فى الملأ من بنى إسرائيل إبلاغا للدعوة، وقطعا للمعذرة.

* الأنصار هم الذين يعملون على إعلاء الدين وإظهاره، والدعوة إليه، والمعنى: مَنْ الذين ينضمون إلىّ فى النصر الذى وعدنى الله به، إذ لابد للنصر من أسباب كما هى سنة الله تعالى فى الصراع بين الحق والباطل.

* ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾.

- والحواريون لقب أطلق على أصحاب عيسى عليه السلام الذين آمنوا به ولازموه.

ومعنى حوارىٌ فى العربية من يكون من الخاصة والقرابة وفى الحديث: «لكل نبى حوارى، وحوار يى الزبير بن العوام».

والحواريون اثنا عشر رجلا، وقد سماهم المفسرون بأسمائهم وهم:

١ - سمعان بطرس،

٢ - وأخوه أندراوس،

---

(١) هو إسماعيل بن عبد الرحمن، تابعى من أهل الحجاز، عالم بالتفسير والمغازى والسير، توفى سنة ١٢٨هـ ولم تعرف سنة مولده تحديدا.

٣ – ويوحنا بن زبدى،

٤ – وأخــوه يعــقــوب

وهؤلاء الأربعة صيادوا سمك.

٥ – ومتى العشَّار،

٦ – وتوما،

٧ – وفيليبوس،

٨ – وبرثو لماوس،

٩ – ويعقوب بن حلفى،

١٠ – ولباوس،

١١ – وسمعان القانونى،

١٢ – ويهوذا الأسخريوطى،

* وكان جواب الحواريين دالا على أنهم علموا أن نصر عيسى ليس لذات عيسى، بل هو نصر لدين الله، فكان جوابهم أن قالوا ﴿ **نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾.

أى استجابوا وأعلنوا إيمانهم واستشهدوا عليه، وطلبوا من الله سبحانه أن يجعلهم من الشهداء على تبليغ الرسل، وصدقهم.

* وقد آمن به مع الحواريين أفراد قلائل من اليهود، مثل الذين شفاهم الله على يد المسيح من أمراضهم، كما آمن به من النساء عدد منهن: أمه عليها السلام، ومريم المجدلية، وأم يوحنا، وحماة سمعان، ويوثا، وسوسة ونساء أُخر.

٦ – وعندما أحسَّ عيسى عليه السلام من اليهود الكفر، ورأى مكرهم به، وتدبيرهم لأخذه وسعيهم لدى ولاة الأمور لتمكينهم من قتله، كان الله تبارك وتعالى لهم بالمرصاد، فجعل مكرهم مخفقا وسعيهم خائبا، فمكر بهم، وخيب مسعاهم: «**ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين**» أى أبطل مكرهم، وغلبهم.

٧ – وإخبار من الله تعالى يحكى قصة رفع عيسى عليه السلام إلى الله تعالى، وإخفائه عن أنظار أعدائه، حيث خاطبه الله تعالى –تسلية وإيناسًا له– مخبرا إياه بأنه سبحانه

سوف يتوفاه فى الدنيا، ويرفعه إليه سبحانه فلا يتمكن منه أعداؤه، ولا يصيبونه بأذى، وإنما يطهره الله من الذين كفروا اى يعصمه منهم ﴿ **إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا** ﴾.

٨ – وإخبار بأن الله سبحانه سوف يجعل الحواريين والذين اتبعوا عيسى عليه السلام ظاهرين منتصرين على الذين كفروا به فى الحياة الدنيا.

وهذا التأييد فى الدنيا، اما فى الآخرة فإن مرجعكم جميعا أيها المؤمنون وأيها الكافرون إلىّ –اى إلى الله– فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون من إيمان وكفر فأجازى كلا بما عمل. ﴿ **فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين، وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فنوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين** ﴾.

* وهذا المعنى وإن خوطب به المسيح عليه السلام ومن اتبعوه أو عاندوه، إلا انه خطاب عام فى الكافرين والمؤمنين من كل أمة، فيكون ذلك تعريضا بالمشركين الذين عاندوا محمدا ﷺ.

* وعذاب الدنيا يجرى على نظام احوال الدنيا من ضعف أو هزيمة ولكنه عذاب لا يكون مستمرا، ففى الوقت الذى يقدر الله فيه عذابهم أو هزيمتهم لا يوجد لهم من ينصرهم، أما فى الوقت الذى لا يريد الله تعالى فيه ذلك، فقد ينتصرون انتصارا مؤقتا، كما حدث ذلك على فترات من التاريخ القديم والوسيط، وحدث فى تاريخنا الحديث باستيلاء اليهود على فلسطين، مع يقين كل مؤمن بانهم سوف ينهزمون يوما ويعود الحق إلى أهله –بإذن الله.

٩ – وأما عذاب الآخرة فهو مطلق ومستمر، كما دلَّت على ذلك آيات قرآنية كثيرة.

* فهؤلاء اليهود الذين كفروا بالمسيح عليه السلام وعاندوه وحاولوا قتله، ظلموه وظلموا انفسهم باختيارهم الكفر على الإيمان، بل ظلموا الله تعالى وظلموا الحق بأن نسبوا إلى الله تعالى ولدا،وبالغوا فى ظلم المسيح عليه السلام أنواعا عديدة من الظلم.

* قال المفسرون: إن عذاب الدنيا هو زوال الملك، وضرب الذلة عليهم والمسكنة، والجزية والتشريد فى الأقطار، وكل هذا قد حدث لليهود الذين كذبوا عيسى وعاندوه وكفروا بما جاء به وحاولوا قتله، وعذاب جهنم فى الآخرة. ﴿ **فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين** ﴾ هذا شأن الكافرين.

* أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات المهتدون بهدى الله تعالى العاملون على سنن الخير، فإن لهم عند الله جزاء وافيا على أعمالهم تلك، وتلك سنة الله تعالى فى منح ثوابه للمؤمنين ومنعه عن الكافرين المتجاوزين لحدود الله، المعاندين للحق، المحاربين لدعوته، المتربصين بدعاته.

١٠ - وذلك الذى تحدثت عنه الآيات الكريمة فى جوانب من:

- قصة مريم عليها السلام.
- وقصة زكريا عليه السلام.
- وقصة عيسى عليه السلام.
- وقصة الحواريين والذين اتبعوا المسيح عليه السلام.
- وقصة اليهود الذين تحدوا المسيح عليه السلام وعاندوه وحاولوا قتله والكيد له.

* كل ذلك مما تُتلى عليك يا محمد من الآيات يؤكد صدق رسالتك ويدل على أن لله تعالى سنة فى التعامل مع أنصار الحق وأعدائه.

* وما كنت تعلم يا محمد شيئا من ذلك كله، ولكنا نوحيه إليك قرآنا يتلى، يشتمل على الدلائل والبراهين المؤيدة لصدق رسالتك، ويشتمل على العلم النافع فى كل حال.

* والقرآن الكريم ذكر وموعظة للناس، وهو محكم لا يتطرق إليه باطل، ولا خلل. ﴿ **ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم** ﴾.

- **المواقف التربوية العامة فى الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلى:**

١ - يتعلم المسلمون من هذه الآيات أن قدرة الله تعالى لا حد لها، وأنه سبحانه وتعالى يخلق ما لا يخطر للبشر على بال، فقد خلق عيسى عليه السلام من غير أب، وخلق آدم عليه السلام من غير أب أو أم، ولا ينبغى لأحد من الناس أن يتعجب من هذا، لأن قدرة الله تعالى لا حدود لها، ﴿ **إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾.

وهذا الدرس يُعمّق الإيمان، ويملأ النفس المؤمنة تعظيما لله تعالى القادر على كل شىء.

٢ - ويتعلمون من هذه الآيات ضرورة الأخذ بالأسباب وضرورة مواجهة الناس بما يقنعهم ويدخل فى مجال ما يعقلون.

* إن الله تعالى عندما أرسل المسيح عليه السلام علمه الكتاب (أى الخط والكتابة)

وعلمه الحكمة (أى العلم والمعرفة) . وعلمه التوراة والإنجيل، وأيده بالمعجزات، كل ذلك ليقنع المسيح الناس بما يطالبهم به وما يدعوهم إليه، ليقطع ذلك حجة الناس الذين لا يرغبون فى الاستجابة للإيمان وعبادة الله وحده، فإن كفروا بعد كل هذا استحقوا العقاب ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى جئتكم بآية من ربكم.... ﴾ .

ولو جاء المسيح عليه السلام بغير هذه الأدلة وتلك الاستعدادات لكان للناس حجة فى عدم الإيمان بالله، وفي معصية رسوله عليه السلام، فاستحقوا بذلك عقاب الله وعذابه ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾ [الإسراء: ١٥].

٣ – ويتعلمون من الآيات أن أنبياء الله جميعا دينهم واحد ودعوتهم واحدة، لأنهم جميعا من عند الله، ولأنهم جميعا يدعون إلى الإيمان بالله الواحد وعبادته وفق ما شرع، ويحرمون الإثم والفواحش ويحلون البر والطيبات، ويدعون إلى مكارم الأخلاق.

وهذا يؤكد وحدانية الله تعالى وأحديته، وأنه قد أكرم الناس بالأنبياء والرسل، وأن الصلاح كل الصلاح للناس فى دينهم ودنياهم هو فى اتباع ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأن ما جاء به محمد ﷺ ناسخ لما سبقه من الشرائع، وأن على أهل الشرائع جميعا –بل على الناس جميعا– أن يدخلوا فى خاتم الأديان ليكونوا بذلك على الصراط المستقيم.

٤ – ويتعلمون من هذه الآيات القول الفصل فى اصطفاء مريم أم المسيح عليه السلام، وفى خَلْق المسيح ونبوته، وأن كل تهمة توجه إلى مريم الطاهرة باطلة، وأن كل وصف يوصف به المسيح عليه السلام –غير أنه عبد الله ورسوله إلى بنى إسرائيل– باطل لا أصل له إلا فى عقول الجاحدين وقلوب الكافرين، وأن دين المسيح ودين الرسل جميعا هو التوحيد وعبادة الله وفق ما شرع.

٥ – ويتعلمون من الآيات الكريمة أن لكل نبى أنصارا ومعادين، وأن من طبيعة عمل الأنبياء أن يتعرفوا على أنصارهم فى الطريق إلى الله ليزودوهم بما يجب أن يتزودوا به من إيمان ويقين وأخذ بالأسباب وتوكل على الله تعالى.

* وأن أعداء الرسل وأعداء الحق لا يتوقفون عن المكر والتربص بالحق وأهله، ولكن الله تعالى يخيب مساعيهم ويرد كيدهم عن رسله وعن عبادة المؤمنين المخلصين، فإذا حاق

بالمؤمنين شيء من مكر أعدائهم بهم فإنما يكون ذلك من باب الابتلاء والاختبار.

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ - أن عصر المعجزات قد انقضى بخاتم الرسل محمد ﷺ وأن الدعاة إلى الله لم يبق لهم من وسائل التأييد إلا الكرامات، بشرط أن تتوفر فيهم صفات من يجرى الله تعالى على يديه الكرامات من: إيمان وإسلام وإخلاص وصلاح للباطن والظاهر وتقوى لله على كل حال.

* وأن هذه الكرامات مستمرة إلى يوم القيامة، وأن جهد الدعاة يجب أن يتوجه إلى أن يحققوا فى أنفسهم مؤهلات من يُجرى الله تعالى على أيديهم الكرامات.

* وأن كثيرا من معوقات العمل فى مجالى الدعوة والحركة قد يُتغلَّب عليها بإحدى هذه الكرامات على يد أحد الأتقياء الأخفياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا.

* مع اليقين بأن المتغيرات كلها بيد الله تعالى، وأن الثقة فى تأييد الله ونصره لعباده المؤمنين العاملين الصالحين، ما ينبغى أن تتزعزع مهما أبطأ النصر، وأن مع الإيمان والعمل الصالح ينبغى الأخذ بكل ما يتاح من الأسباب.

٢ - وعلى الدعاة والحركيين أن يقفوا طويلا أمام ما زوّد الله تعالى به المسيح عليه السلام ليواجه الناس ويدعوهم إلى الله، ثم عليهم أن ينظروا فى هذه الأسباب، وماذا يستطيعون استيعابه من هذه الأسباب ليتسلحوا به فى عملهم.

* وقد زوّد الله تعالى المسيح عليه السلام بما يلى:

- العلم بالكتاب (القراءة والكتابة) وبلغتنا المعاصرة فإن ذلك يساوى الثقافة العامة للداعية التى تمكنه من إقناع من يدعوهم، والتفاهم معهم حول كل ما يشغلهم من شئون الحياة.

- والثقافة العامة تعنى فى مجالى الدعوة والحركة ما يلى:

* معرفة التيارات الموالية والمعادية للإسلام والمسلمين، لموالاة الموالين وتلافى أسباب العداوة بأسلوب الدعوة المعروف.

* ومعرفة الشبهات التى يثيرها الأعداء أو غافلوا الأولياء، والتمرس بالرد على هذه الشبهات.

* ومعرفة أصناف المدعوين، وشروط الدعوة والحركة وآداب العمل فيهما.

* والإلمام الجيد بتاريخ الحركات الإسلامية الإصلاحية، مع الدرس والتحليل لأسباب النجاح والفشل فيها.

- والحكمة: وهى عندنا -معشر المسلمين- مصطلح يعنى: فقه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لأن الحكمة هى إصابة الحق بالعلم والعقل، وليس أعون على الوصول إلى ذلك من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

* ويدخل فى مفهوم الحكمة: العلوم والمعارف العامة، كما يُفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)﴾ [البقرة: ١٥١].

* ويدخل فى الحكمة: العلوم والمعارف المتخصصة فى كل مجالٍ من مجالات الحياة دون استثناء، فما لم يكن للمسلمين علماء متخصصون فى كل هذه المجالات، فلن يستطيعوا أن يقيموا الحضارة التى أوجب الإسلام عليهم أن يقيموها، ولن يستطيعوا أن يعمروا الأرض التى أُمروا بإعمارها، إذ كيف يتم ذلك دون علم متخصص ومعرفة متخصصة؟

* وهكذا ينبغى أن يكون ذلك كله من زاد الدعاة الذى يجب أن يتزودوا به، ليواجهوا متطلبات الحياة ومتغيراتها على أحسن مستوى وأرقاه.

- والتوراة والإنجيل: وهى كلها أى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، فى هذه الآيات الكريمة ترمز إلى ما جاء من عند الله من كتب حُفظت ولم يدخلها تغيير أو تبديل، ولم يتوفر ذلك إلا للقرآن الكريم.

* ومن أجل ذلك لا يستطيع الدعاة والحركيون أن يمارسوا عمل الدعوة والحركة إلا فى نور الوحى، وعلى هدى الكتاب والسنة.

* ومعنى ذلك أن دراسات متخصصة متعمقة يجب أن يقوم بها بعض الدعاة، ليسدوا هذا الاحتياج، وتلك ثقافة متخصصة لابد منها.

* وإن على الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يتزودوا بهذا الزاد، وأن يأخذوا بهذه الأسباب ما وجدوا إلى ذلك السبيل، لأنهم بغير ذلك لن يستطيعوا أن يحققوا من أهداف الدعوة والحركة شيئًا.

٣ – ويتعلمون من هذه الآيات أن الاديان كلها من عند الله، وأنها جميعا قائمة على توحيد الله وعبادته وفق ما شرع، وأن تلك الاديان كانت رحمة من الله بالبشرية، وأن خاتم الاديان وناسخها جميعا هو ما جاء به محمد ﷺ، إذ ثبت في السنة النبوية، ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن ثابت رضى الله عنه قال: «جاء عمر إلى النبى ﷺ وسلم فقال: يا رسول الله إنى أمرت بأخ يهودى من قريظة فكتب لى جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟

قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ.

قال عبد الله بن ثابت، قلت له: ألا ترى وجه رسول الله ﷺ؟

قال عمر: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا.

قال: فسرى عن النبى ﷺ وقال: والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام، ثم تبعتموه وتركتمونى لضللتم، إنكم حظى من الامم، وأنا حظكم من النبيين».

وروى الحافظ أبو يعلى بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله لو كان موسى حيًا بين أظهركم ما حَلَّ له إلا أن يتبعنى».

وفى بعض الأحاديث: «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعى».

* ومقتضى ذلك أن يكون الداعية واسع الصدر يحسن التعامل مع أهل الأديان جميعا، لا يعرف تعاملا مع الناس إلا من خلال الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن.

٤ – ويتعلم الدعاة والحركيون من الآيات الكريمة أن للمصطفين من عباد الله شرفهم ومكانتهم وطهارتهم، وحسبهم شرفا أن الله اصطفاهم.

* ومعنى ذلك أن أولئك المصطفين لا يجوز أن يوصف أحدهم بصفة تخرج به عن طبيعته البشرية، أو تلحق به نقصا لا يليق به، فكل ذلك من أوهام الغافلين ومن افتراءات الضالين.

* فإذا حدث شىء من ذلك رُدَّ صاحبه عنه بالحسنى، ووُضِّحت له الحقائق ودعى إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة وجودل بالتى هى أحسن.

* ولا ينبغى أن ينخدع الدعاة بكثرة عدد الضالين الذين يخلطون بين بعض الأنبياء وبين

الله تعالى، أو يزعمون ان الله تعالى له أى صفة من صفات الإنسان، لان الكلمة الفصل فى ذات الله وصفاته وأسمائه وأفعاله هى التى جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهذه الكلمة لا يجوز تجاوز معناها بحال.

* والمعيار الدقيق للحكم على العقيدة هو توحيد الله تبارك وتعالى وعبادته وحده لا شريك له والدخول في الإسلام خاتم الأديان وأتمها وأكملها، وناسخ كل شريعة سبقته فى الوجود.

٥ – ويتعلمون من الآيات الكريمة ان من سنن الله فى حياة الأنبياء، وفى سيرة الدعاة إلى الله ان يكون لهم أنصار وأعداء:

– أنصار يؤمنون بالحق ويدافعون عنه ويضحون من أجله بأموالهم بل بأنفسهم.

– وأعداء ينكرون الحق، ويتحدون أهله والداعين إليه، ويقعدون له بكل صراط يكيدون ويحاربون.

* ومعنى ذلك: معاونة الدعاة للأنصار وحرصهم على تفقيههم، فى الدين والدعوة والحركة والتربية، وتحديد مكانهم فى مرحلة التمكين لدين الله فى الأرض، لأنهم بغير هذا التفقيه قد يقصرون وقد يخطئون بحسن نية، وقد يعوقون موكب الدعوة إلى الله، وهم لا يعرفون.

* ومع التفقية فى دين الله تعالى ودعوته ومنهجه يزول التعصب والتشدد، ويمتنع سوء التفاهم مع الناس وما يجره من متاعب ومخاصمات، ويزول شعور بعض العاملين فى الدعوة والحركة – من كثرة ما يعانون من الناس –بأن الناس معظمهم أعداء، ثم التعامل معهم على هذا الاعتبار.

– أما الأعداء الذين يكيدون للإسلام وللحق ودعاته فهم كثيرون؛ فى كل زمان ومكان.

* لقد كان أعداء الحق كثرة فى مختلف أحقاب التاريخ، ولعل السر فى كثرتهم أنهم فى الغالب أهل ضلال وفسق إن لم يكونوا أهل شرك ووثنية، وهؤلاء جميعا الأصل فيهم أن يكونوا كثرة، لان تلك سنة الله تعالى فى الناس ووقوفهم من الحق والباطل، يُفهم ذلك من آيات القرآن الكريم من مثل قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٧٨].

وقوله ﴿ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) ﴾ [المائدة: ٧١].

وقوله ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾ [يونس: ٩٢].

وقوله ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) ﴾ [المائدة: ٤٩].

* والكثرة فى الغالب ضالة لا تؤمن، وعلى سبيل المثال فقد ورد فى سورة واحدة هى سورة الشعراء تعقيبا على عناد الحق وإيثار الكثرة من الناس للكفر على الإيمان، ثمانية مواضع كلها تنتهى بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [الشعراء: ٨]، فى التعقيب على المكذبين للحق الذى جاء من عند الله.

وفى الآية: ٦٧ فى التعقيب على تكذيب فرعون وقومه.

وفى الآية ١٠٣ فى التعقيب على المشركين المكذبين من قوم إبراهيم عليه السلام.

وفى الآية ١٢١ فى التعقيب على الكافرين من قوم نوح عليه السلام.

وفى الآية ١٣٨ فى التعقيب على كفر قوم هود عليه السلام.

وفى الآية: ١٥٨ فى التعقيب على كفر قوم صالح عليه السلام.

وفى الآية: ١٧٤ فى التعقيب على كفر قوم لوط عليه السلام.

وفى الآية: ١٩٠ فى التعقيب على كفر أصحاب الأيكة قوم شعيب عليه السلام.

* فما ينبغى أن يهول الدعاة كثرة الذين لا يؤمنون، ولا كثرة الذين يتحدون الحق وأهله؛ فتلك سنة الله تعالى فى أعداء الحق، وهى أن يكونوا كثرة، وأن تكون لهم قوة وشوكة.

* إن على الدعاة والحركيين ألا تقنطهم كثرة الضالين والمفسدين فتقعدهم عن العمل والجهاد فى سبيل الله مهما تكن العقبات التى يضعونها فى الطريق. إن عليهم أن يعملوا على إزالة هذه العقبات والمضى فى الطريق إلى الله وإلى الحق. إن إماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان، كما نطق بذلك إمام الدعاة وخاتم الأنبياء محمد ﷺ.

١٠ - الآيات من التاسعة والخمسين إلى الثامنة والستين
حجاج أهل الكتاب فى عيسى وإبراهيم عليهما السلام

﴿ إنَّ مَثَلَ عيسَىٰ عندَ اللَّه كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ من تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ من رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فيه منْ بَعْد مَا جَاءَكَ منَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّه عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا منْ إِلَٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّه فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ منْ بَعْده أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) ﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦٨].

فى هذه الآيات رد على شبهات الذين فُتنوا بعيسى عليه السلام، لمولده على غير السنة المعروفة فى ميلاد الناس.

وفيها تقرير الحقيقة فى شأن المسيح عليه السلام، بالمحاجة الدامغة القوية وهى - المباهلة - على نحو ما سنوضحها فيما بعد.

وفى الآيات دعوة لأهل الكتاب أن يتبعوا الحق، وأن يؤمنوا بإله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

وفيها رد على دعوى من زعموا من أهل الكتاب أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا أو نصرانيا، وتأكيد أنه كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين، وأن أولى الناس بإبراهيم ليسوا اليهود ولا النصارى ولكنهم مَن آمن به فى عصره، وأمة محمد ﷺ.

- وفى الآيات الكريمة أخبار مؤكدة لعدد من الحقائق، وفيها أكثر من أسلوب شرط، وأكثر من استفهام، وفيها تقرير لبعض الحقائق التى أنكرها اليهود والنصارى.

ولبيان ذلك نقول، والله المستعان:

١ - يخبر الله تبارك وتعالى بعدد من الاخبار المؤكدة، وهى:

* بشرية عيسى على الرغم من أنه ولد لغير أب.

* وأنَّ عيسى عليه السلام هو كلمة الله القاها إلى مريم.

* وان مثل عيسى فى ولادته -على غير سنة الله فى خلقه- كمثل آدم، فقد خلق آدم من غير ابوين، فهى المشيئة الإلهية، وطلاقة القدرة التى تخلق ما تشاء بكلمة «كن»: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾.

٢ - ويخبر سبحانه وتعالى أن بشرية عيسى السلام - على الرغم من خلقه على خلاف السنة المتبعة - حقيقة واقعة، وليس صحيحا ما يدعيه بعضهم من الوهية عيسى أو جمعه بين طبيعة الإله وطبيعة الناس.

وما ينبغى ان يمارى فى ذلك أحد. والنهى عن المماراة وإن كان موجها إلى النبى ﷺ إلا انه تعريض بمن قالوا بالوهية عيسى عليه السلام: ﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾.

٣ - وتقرر هذه الآيات حقيقة المسيح عيسى بن مريم، وتخبر النبى ﷺ بان: مَنْ حاجُوك فى المسيح وكابروا فى هذا الحق وعاندوا، فادعهم إلى المباهلة - اى الملاعنة - حتى يظهر الحق.

* والمباهلة هى - كما وردت فى الآية الكريمة -:

ان يجمع كل طرف من طرفى المباهلة أبناءهم ونساءهم وأنفسهم ثم يدعون الله أن تكون لعنة الله على الكاذبين المعاندين، والآية الكريمة الدالة على ذلك هى: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من الحق، فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾.

* وهذه المباهلة من طرق التناصف عند النصارى، ولذلك دعاهم إليها الرسول ﷺ لإقامة الحجة عليهم.

وقد كان من قصة المباهلة: أن وفدا من نجران -منهم راهبا نجران: السيد والعاقب- وفدوا على النبى ﷺ، وقالوا لرسول الله ﷺ: مالك تشتم صاحبنا؟

قال: وما اقول؟

قالوا: تقول إنه عبد.

قال: أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته القاها إلى مريم العذراء البتول.

فغضبوا، وقالوا: هل رأيت إنسانا قط من غير أب؟ فإن كنت صادقا فأرنا مثله، فأنزل الله تعالى: ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب... ﴾ الآية.

* وقد جاء فى كتب التفسير ما أخرجه أبو نعيم فى الدلائل بسنده عن ابن عبّاس رضى الله عنهما: «أن ثمانية من نصارى نجران، قدموا على رسول الله ﷺ منهم العاقب والسيد، فأنزل الله تعالى: ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا.... ﴾ الآية، فقالوا: أخّرنا ثلاثة أيام، فذهبوا إلى قريظة والنضير وبنى قينقاع، فاستشاروهم فأشاروا عليهم أن يصالحوه، ولا يلاعنوه، وقالوا: هو النبى الذى نجده فى التوراة، فصالحوا النبى ﷺ على: ألف حلة فى صَفَر وألف فى رجب ودراهم...».

* وكثير من الروايات تذكر أن النبى ﷺ اختار للمباهلة عليًّا وفاطمة وولديهما الحسن والحسين، وخرج بهم وقال: «إن أنا دعوتُ فأمِّنوا أنتم».

* ولكن من الواضح أنّ ترويج هذه الروايات - التى فيها على وفاطمة وحسن وحسين - من أعمال بعض الشيعة، وهى روايات غير صحيحة؛ لأن كلمة: نساءنا تعنى الزوجة أو الزوجات، ولا تدخل فيها البنت.

وكلمة: أنفسنا لا يستقيم أن يراد بها علىٌّ رضى الله عنه، ولكن الصواب - كما أخرج بن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه: ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم... ﴾ الآية. قال: فجاء بأبى بكر وولده وبعمر وولده، وبعثمان وولده، وبعلى وولده».

والظاهر أن الكلام فى جماعة المؤمنين، وليس فى خصوص علىٍّ وفاطمة وولديهما رضى الله عنهم.

* والآية الكريمة تأمر النبى ﷺ أن يدعو المحاجّين والمجادلين فى عيسى عليه السلام من أهل الكتاب إلى الاجتماع رجالا ونساءً وأطفالا، ويجمع هو ﷺ المؤمنين رجالا ونساءً وأطفالا ويبتهلون إلى الله تعالى بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى عليه السلام.

قال بعض المفسرين: وإنما جمع فى المباهلة - الملاعنة - الأبناء والنساء والأطفال. لأنه لما ظهرت مكابرتهم فى الحق وحب الدنيا، عُلِمَ أن من هذه صفته يكون أهله ونساؤه أحب إليه من الحق.

كما قال شعيب عليه السلام: ﴿ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ [هود: ٩٢]، وأن من هذه صفته فإنه يخشى سوء العيش وفقدان الأهل، ولا يخشى عذاب الآخرة.

* والمباهلة دعوة إنصاف، لا يدعو إليها إلا واثق من أنه على الحق، ولم تتم هذه المباهلة.

روى البخارى ومسلم بسنديهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «جاء العاقب والسيد صاحبا نجران، وأرادا أن يلاعنا رسول الله ﷺ بعد أن رفضا ما عرضه عليهما رسول الله ﷺ، فقال لهما: نلاعن.

فقال أحدهما لصاحبه: لا تلاعنه، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا أبدا، قال: فأتيا رسول الله فقالا: لا نلاعنك ولكنا نعطيك ما سألت، فابعث معنا رجلا أمينا.

فقال النبى ﷺ: لأبعثن رجلا أمينا حق أمين، قال: فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ، قال: فقال ﷺ: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، قال: فلما قام قال: هذا أمين هذه الأمة».

٤ - وخبر مؤكد بأن ما ذكره الله فى قصة عيسى عليه السلام هو الحق، وما عداه من قول اليهود والنصارى: من زعمهم أنه ولد زنى، أو مغالاتهم فى القول بأنه الله، أو ابن الله باطل. إذ ليس من إله إلا الله الذى خلق كل شيء، وليس كمثله شيء: ﴿إنّ هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله، وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾.

٥ - وتهديد لهؤلاء الذين قالوا فى عيسى بن مريم عليه السلام، تهديد بأنهم إن لم يتبعوا الحق، وأعرضوا عنه، فإن الله تعالى يعلم بهم وبمدى إفسادهم لعقائد الناس وعقولهم، وأنه سبحانه سوف يحاسبهم على ذلك حسابا شديدا بوصفهم رءوس الكفر والفساد: ﴿فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾.

٦ - وأمر من الله تعالى لنبيه ﷺ بأن يبين لهم الحق الذى جاءهم به ويدعوهم إلى الدخول فيه - بعد أن بين لهم حقيقة عيسى عليه السلام وألزمهم الحجة برفضهم المباهلة لخوفهم من نتائجها - وهذا الحق الذى يبينه الله تعالى لهم هو ما دعا إليه الأنبياء جميعا، وهو توحيد الله تعالى وعبادته وفق ما شرع، وتلك هى الكلمة السواء: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله﴾.

* وتقرر هذه الآية الكريمة عددًا من الحقائق فيما يتصل بالتوحيد وهى فى إجمال:

- وحدانية الألوهية :

ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ألا نعبد إلا الله﴾، مع تأكيد هذه الوحدانية بقوله تعالى: ﴿ولا نشرك به شيئا﴾.

- ووحدانية الربوبية :

ويفهم ذلك من قوله تعالي: ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله﴾.

والرب هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى، والمراد هنا مَن له حق التشريع والتحليل والتحريم.

وكانوا قد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا.

* وروى ابن جرير بسنده عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال: «أتيت رسول الله ﷺ - وفى عنقى صليب من ذهب - فقال: يا عدى: أخرج هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته، وانتهيت إليه وهو يقرأ فى سورة براءة، فقرأ هذه الآية: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ قال: قلت: يارسول الله إنا لسنا نعبدهم. فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال: قلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم».

٧ - ومن خلال أسلوب الشرط فى قوله تعالي: ﴿فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ تقرر الآية الكريمة أن أهل الكتاب إن تولوا عن الحق بعد أن قُدِّمَت لهم هذه الحجج والبراهين، فقد صاروا بحيث يُقنَط منهم ومن إسلامهم، فتمسكوا أنتم بإسلامكم، وباتباعكم الحق، وأشهدوهم أنكم على إسلامكم.

* وإنما طلب إشهادهم لكى يسجل المسلمون عليهم هذا الموقف حتى لا يقول أهل الكتاب: إن توقف المسلمين عن محاجتهم تسليم بأحقية ما عليه أهل الكتاب، فهذا معنى الإشهاد عليهم بأنا مسلمون.

٨ - ونداء على أهل الكتاب لإنكار محاجتهم الباطلة للمسلمين فى إبراهيم عليه السلام، وزعم كل فريق منهم أنهم على دين إبراهيم، محاولين بهذا الزعم الإيهام بأن من ليس على دينهم فليس على دين إبراهيم، وتلك محاجة باطلة، لأن إبراهيم عليه السلام لم يكن على دين اليهود ولا على دين النصارى. لأن التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعد إبراهيم، فكيف يَدينُ بكتُب لم تكن أنزلت بعدُ؟ أفلا تعقلون هذا مع وضوحه؟:

﴿ يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون؟! ﴾.

* وإذا كنتم قد جادلتم فى المسيح بما لكم به علمٌ مَا، وقد قامت عليكم الحجة فى إبطال ما ناديتم به فى شأن المسيح، فكيف تجادلون فيما ليس لكن به علم، وهو دعواكم أن إبراهيم يهودى أو نصرانى؟! وكان الواجب أن تتبعوا فى أمر إبراهيم ما أخبركم به محمد ﷺ وهو الحق. وخلاصة ما جاء به: أن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما أى مائلا عن كل ما كان عليه أهل عصره من الشرك والضلال، مسلما وجهه إلى الله تعالى وحده مخلصا له الدين والطاعة، وما كان من أولئك المشركين الذين يسمون أنفسهم حنفاء، ويدعون أنهم على ملة إبراهيم - وهم قريش ومن كان مثلهم من العرب - ومع ذلك يعبدون الأوثان، حتى لقد ذاع أن الحنيف هو الوثنى!!! مع أن الحنيف هو من مال عن الشرك والضلال: ﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفًا مسلما وما كان من المشركين ﴾.

٩ - وإخبار مؤكد بأن أولى الناس بإبراهيم عليه السلام وأجدرهم بولايته وأحراهم بموافقته فى حنيفيته الصحيحة وتوحيده لله، وعبادته ثلاثة أصناف:

- الذين اتبعوه وآمنوا بالله تعالى وأجابوا بذلك دعوة إبراهيم عليه السلام واهتدوا بها.

- وهذا النبى الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ الذى تقوم دعوته على التوحيد الخالص الذى لا يشوبه اتخاذ الأولياء ولا التوسل بالوسطاء والشفعاء.

- والذين آمنوا برسالة محمد ﷺ، فوحدوا الله وعبدوه وفق ما شرع إلى أن يقوم الناس لرب العالمين: ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا... ﴾

١٠ - وهذه الآية الكريمة تقرر حقيقة كبرى لو عقلها الناس ودخلت قلوبهم لاهتدوا وتمسكوا بهداهم ولم يبالوا أحداً ولا شيئا، وتلك الحقيقة هى: أن الله تعالى ولى المؤمنين، الذين لا يتوجهون إلى غيره فى كشف ضر، ولا طلب نفع، فهو يتولى أمورهم ويصلح شئونهم، ويثيبهم على قدر تأثير الإسلام فى قلوبهم وأعمالهم، «والله ولى المؤمنين».

– والمواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يلى:

١ – أن قدرة الله تعالى لا تخضع للنواميس التى عرفها الناس فى طبائع المخلوقات، فليس ضروريا أن يكون كل خلق الله تعالى من بنى آدم من أبوين، لأن هذا الناموس قد يُخرق وقد يعطَّل، وليس خرقه أو تعطيله يعجز قدرة الله تعالى.

* وقدرة الله تعالى طليقة تستطيع تجاوز النواميس بالنسبة لمفردات الكون كله من ناس وأشياء.

* وقد حدث هذا بالفعل لعدد من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام نذكر منهم:

– نوحا عليه السلام والطوفان والسفينة.

– وإبراهيم عليه السلام والنار التى أُلقى فيها فتحولت عن طبيعتها إلى برد وسلام.

– وموسى عليه السلام والطريق اليابس فى البحر.

– وعيسى عليه السلام فى مولده.

– وزكريا عليه السلام وولادة امرأته العاقر.

– وما جرى على أيدى الأنبياء جميعا من معجزات كانت خرقا لهذه النواميس والعادات المألوفة.

* وفى هذه المعجزات –التى تخرق النواميس التى ألفها الناس– قيمة تربوية يزداد بها الإيمان بخالق عظيم له من طلاقة القدرة ما يشحذ الإيمان ويقوى اليقين بأنه سبحانه على كل شيء قدير.

٢ – وأن الذين يمارون فى خلق المسيح بالكيفية التى خلقه الله بها من غير أب، والذين يمارون فى طلاقة هذه القدرة، هؤلاء وأولئك ما عليهم إلا أن ينصاعوا للحجج والبراهين ليصلوا بها إلى الحق، فإن وصلوا فهذا من فضل الله عليهم، وإن أبوا فقد شرعت معهم المباهلة، وما فيها من تعرض لغضب الله على الكاذبين وأهل المماراة.

* والقيمة التربوية هنا هى: أن الدفاع عن الحق والعمل على توضيحه للناس، والمحاجَّة فيه، بل المباهلة من أجله عمل مطلوب من كل قادر عليه وفى كل حين.

* وأن القعود عن نصرة الحق بكل وسيلة ممكنة إثم ومعصية لله تعالى، وتشجيع للباطل وأهله، وسكوت عن إفساد العقول وإفساد المجتمع كله، ذلك المجتمع الذى سوف ينساق إلى

إيثار الباطل على الحق.

٣ - ويتعلم الناس من الآيات الكريمة أن كبرى الحقائق فى الحياة الإنسانية هى توحيد الله تعالى إلها وربًا خالقا إليه المصير ﴿إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله، وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ يتعلمون أمورا عديدة منها:

* وجوب التلقى عن الله وحده من خلال ما أوحى به إلى أنبيائه عليهم السلام، ورفض التلقى عن سواه فى أى تشريع.

* والإيمان بكل ما جاءت به الرسل من عند الله مادام سليما خاليا من التحريف والتبديل.

* والإيمان بما جاء به خاتم الانبياء والمرسلين محمد ﷺ، وهو القرآن الكريم الذى تكفل الله تعالى بحفظه فخلا من كل تحريف أو تبديل، وجاء مصدقا لما بين يديه من الكتاب.

* والاعتقاد بأن أهل التوحيد هم عناصر الإصلاح والتوازن فى الحياة الدنيا، وأن أهل الشرك والضلال هم عناصر الإفساد والاضطراب فى الحياة الإنسانية كلها.

٤ - وأن أهل الكتاب من يهود ونصارى مدعوون إلى توحيد الله تعالى، ومدعُوون إلى أن يرفضوا ما يُزعَم مما يخالف توحيد الله تعالى، ومن أمثلة ما يحب عليهم أن يرفضوه ما يلى:

* زعم اليهود أن عزيرا ابن الله!!!

* واتباعهم أحبارهم ورهبانهم فى التشريع تحليلا وتحريما !!!

* ورميهم مريم عليها السلام بالزنى!!!

* وزعمهم أن عيسى ليس نبيا من أنبياء الله !!!

* وزعم بعض النصارى أن عيسى عليه السلام ابن الله!!!

* وزعم بعضهم أن عيسى عليه السلام هو الله !!!

* وإيثارهم ما يقول رؤساؤهم، حتى لو اختلف ما قالوه عن الإنجيل!!!

* وزعمهم أن الآلهة ثلاثة !!!

* وإضفاؤهم على روسائهم فى الدين صفات ليست لهم كمغفرة الذنوب، وامتلاك الجنة ونحو ذلك!!!

- والقيم التربوية التي يستفيدها المسلمون من هذه الآيات هي :

* توضيح الحق لأهل الكتاب مهما كلف من عناء.

* ومجادلتهم بالتي هي أحسن.

* وإشهادهم على أن المسلمين موحدون، بل هم أمة التوحيد .

٥ - ونتعلم من الآيات أن لبعض أهل الكتاب اباطيل وحججا واهية بل حاسدة حاقدة فى تكذيب نبوة محمد ﷺ، وأن المسلمين يجب أن يكونوا على حذر من هذه الاباطيل، وأن يحاولوا إظهار فسادها ما وسعهم، وقد أشارت الآيات الكريمة من ذلك إلى ما يلى :

* زعمهم بأن دين محمد يخالف دين إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

* وزعمهم أن دين إبراهيم كان اليهودية أو زعمهم من بعد أن دينه كان النصرانية.

* وادعاؤهم أنهم أولى بإبراهيم عليه السلام من المسلمين. وقد أوضحت الآيات الكريمة هذه المزاعم وردتها .

- والقيمة التربوية فى هذه الآيات هى الاعتقاد الجازم بأن هذه الأباطيل والتهم والشبهات التى توجُه ضد الإسلام ونبيه ﷺ، ما ينبغى أن تزعزع الإيمان الراسخ بحقيقة الحنيفية، وما كان عليه إبراهيم عليه السلام من إيمان بالله وتوحيد له، وأن محمدا ﷺ والمسلمين هم أولى الناس بإبراهيم، وليسوا أولئك الذين انحرفوا عن دينه حتى أدخلوا فيه الوثنية.

٧ - ويتعلم المسلمون من الآيات الكريمة، أن الله تعالى ولىُّ المؤمنين فى كل زمان ومكان، وأنه يتقبل منهم صالح اعمالهم، ويجازيهم أحسن الجزاء على كل دفاع عن الحق مهما تكلفوا فى سبيله.

* وأن المؤمنين هم أولئك الذين آمنوا بما جاء به خاتم الانبياء محمد ﷺ، سواء أكانوا من المشركين أم من اليهود أم من النصارى أم من غير هؤلاء.

* وأن باب الإيمان مفتوح للناس جميعا إلى يوم القيامة ليدخلوا من خلاله إلى الإيمان بما جاء به محمد ﷺ، واتباع شريعته والاعتقاد بأنها ناسخة لكل الشرائع.

– والمواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى الآيات كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى :

١ – يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة أن عليهم أن يعملوا من أجل هذا الدين آخذين بالأسباب، ملتزمين بكل شروط الدعوة والحركة، مستجيبين للآداب الإسلامية، داعين الله، منتظرين تأييده ونصره، واثقين من ذلك كل الثقة، بحيث لا يتطرق إلى نفوسهم فى ذلك أدنى شك.

فالله سبحانه بيده مقاليد كل شيء، لأن أمره إذا قضى شيئا فإنما يقول له كن فيكون، متدبرين قوله تعالى : **﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، الحق من ربك، فلا تكونن من الممترين ﴾**.

٢ – ويتعلمون أن الذين يمارون فى الحق موجودون فى كل زمان، ولا يخلو منهم تجمع إنسانى – على الرغم من ظهور الحق – وأن على الدعاة أن يحاولوا إقناع هؤلاء الممارين فى الحق بتقديم الأدلة والبراهين والشواهد والأمثال، ولو أدى بهم الأمر إلى المباهلة – الملاعنة – بدعوة الأبناء والنساء والأنفس والابتهال إلى الله أن يجعل لعنته على الكاذبين الممارين، المكذبين بالحق وبما أنزل الله على محمد خاتم أنبيائه عليهم السلام.

* وأن يتعاملوا مع الذين تولوا عن اتباع هذا الدين الخاتم وعن عبادة الله وحده، على أنهم من المفسدين الذين يسيئون إلى أنفسهم وإلى غيرهم من الناس، وأنهم أهل لأن يحل بهم عقاب الله تبارك وتعالى.

٣ – ويتعلمون من هذه الآيات أن القضية بين المسلمين وأهل الكتاب هى قضية إيمان بالله وتوحيده إلها وربًّا.

ومن هذه القضية تتفرع سائر القضايا التى يقع فيها الخلاف بين المسلمين وأهل الكتاب من يهود ونصارى، كالخلاف حول كثير من القيم الخلقية، بل العادات والتقاليد.

* ومن أجل ذلك كان وما يزال واجب الدعاة والحركيين أن يقوموا بدعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء تتضمن أمرين :

أحدهما : ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له.

والآخر : ألا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، وإنما تكون الربوبية والطاعة لله لا لغيره،

من الرؤساء الدينيين أو الدنيويين.

* فإن رفضوا تلك الكلمة المنصفة، فليشهدوا بأن الموحدين هم المسلمون الذين عبدوا الله وحده، ولم يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، فإن هذه الشهادة أو ذلك التسجيل يدينهم بأنهم قد انحرفوا عن الحق، وشهدوا بذلك.

٤ - وعلى الدعاة والحركيين أن يدركوا أن كثيرا من محاجات أهل الكتاب لا تقوم على أساس من عقل أو منطق وإنما هي المغالطات، وذلك مثل: محاجتهم في يهودية إبراهيم أو نصرانيته، مع أن التوراة والإنجيل ما أُنزلا إلا بعد إبراهيم عليه السلام بزمن طويل.

* وموقف الدعاة مع هؤلاء المغالطين المحاجّين بغير علم، هو موقف التلطف في الإقناع بالحق، والجدال بالتي هي أحسن من أجل إظهار الحق الذي يجحدون والباطل الذي يزعمون.

* وهكذا يجد الدعاة أنفسهم في كثير من المواقف أمام مغالطين مضلِّلين يحتجون بباطل ويغالطون في حق، يزعمون أنهم في ذلك يقفون في وجه الإسلام، ويتحدون الحق الذي جاء به، وهم في الحقيقة يعارضون العقل ويناقضون المنطق ويريدون أن يحجبوا ضوء الشمس بأكفهم، وهم إنما يحجبون أنفسهم عن النور ويحرمونها من الخير، فيعيشون في ظلام وضلال، ويعانون من لشر والباطل.

* ومن أجل هذا تصبح مهمة العاملين في الدعوة والحركة صعبة بل بالغة الصعوبة، غير أنها طبيعية، بل هي طبيعة العمل من أجل الإسلام، وذلك ما لا فرار منه ولا نكوص عنه مهما كانت المتاعب والتضحيات.

* إن الدعاة ورثة الأنبياء عليهم السلام، وما من نبي هالَهُ باطل قومه أو أفزعه ضلالهم، ولا فتر عن الدعوة بسبب عناد المدعوين. وإنما شأن الأنبياء جميعا أن يصبروا على الناس، وأن يستمروا في الدعوة إلى الله حتى يلقوا الله رب العالمين.

* وهكذا ينبغي أن يكون شأن الدعاة ورثة الأنبياء الذين اختارهم الله تعالى لهذه المهمة الجليلة: الدعوة إلى الحق والتواصي به وبالصبر عليه.

٥ - ويتعلم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة أن يطمئنوا إلى حقيقة كبرى، كثيرا ما يغفل عنها الناس بل يغفل عنها أحيانا بعض الدعاة، وهي:

* أن الله تعالى ولي المؤمنين، أي متوليهم وناصرهم على أعدائهم في زمن يختاره ومكان

يريده، وأن ذلك كائن لا محالة، تؤكده آيات قرآنية عديدة منها:

هذه الآية الكريمة: ﴿ والله ولى المؤمنين ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١].

* وكل المطلوب من الإنسان من أجل أن يحظى بتأييد الله ونصره، كما دلت على ذلك الآيات الكريمة:

- الإيمان بالله تعالى وترجمة هذا الإيمان بالعمل الصالح الذى يرضى الله تبارك وتعالى.

- والاعتصام والالتزام بمنهج الله ونظامه.

فهل يفيق المسلمون على هذه الحقيقة؟

١١ - الآيات من التاسعة والستين إلى الخامسة والثمانين

من صفات أهل الكتاب

﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾ [آل عمران: ٦٩ - ٨٥].

هذه الآيات الكريمة تصف أهل الكتاب في مجموعهم بعدد من الصفات التي تلازمهم

غالبا في اعتقاداتهم وفى معاملاتهم، وقد آثرت أن أجمع هذه الصفات فى مستهل الحديث عن شرح هذه الآيات الكريمة، لتكون عونا للقارئ على معرفة صفاتهم، والله المستعان.

ومن أبرز هذه الصفات ما نذكره فيما يلى:

- عداؤهم للمسلمين ورغبتهم فى أن يضلوهم عن الحق الذى جاء على لسان خاتم الأنبياء محمد ﷺ، عن طريق إلقاء الشبه التى تضعف الاعتقاد، ولكنهم بهذه الرغبة وذلك العمل لا يضلون إلا أنفسهم، ولا يعلمون أنهم هم المتضررون بذلك وليس المؤمنون.

- وأنهم يكذبون بآيات الله المنزلة على محمد ﷺ، الدالة على صدق نبوته، مع أنهم يعلمون أنها حق، وأن محمدا رسول الله ﷺ.

- وأنهم يحاولون خلط الحق الذى جاءت به الأنبياء عليهم السلام، بما لديهم من شبهات وأباطيل، وهم يعرفون ذلك ويعلمون أن عقابه عند الله عظيم.

- وأنهم فى سبيل فتنة المؤمنين عن دينهم الذى جاء به محمد ﷺ اتفقوا فيما بينهم على أن يظهروا الإيمان بالقرآن أول النهار ويكفروا به آخر النهار، فربما فَتَن ذلك المؤمنين عن دينهم.

- وأنهم يتواصون فيما بينهم - من أجل إضلال المؤمنين - الا يستجيبوا أو يذعنوا إلا لمن تبع دينهم، خشية أن يدعى محمد أنه أوتى من عند الله مثل ما أوتوا من الكتاب، حتى لا يحتج عليهم به أمام الله تعالى - كما يزعمون - مع أن الحق أن الهدى هدى الله والعطاء عطاؤه والفضل والنبوة بيده يختص بذلك من يشاء من عباده.

* تلك جملة من صفاتهم فى الاعتقاد كما جاءت فى هذه الآيات الكريمة.

* أما صفاتهم فى المعاملات والأموال، فأبرزها ما نذكره فيما يلى:

- الأمانة عند بعضهم، حتى إن من استأمنه على قنطار من الذهب أو الفضة أداه إليه كاملا غير منقوص، على حين منهم الخونة الذين إذ استؤمن أحدهم على دينار واحد لم يؤده إليه إلا إذا لازمه وأحرجه.

- وأنهم يفترون على الله الكذب بما يزعمون، مع أن الوفاء بالعهد أصل فى كل الأديان التى جاءت من عند الله تعالى، ومع اليقين بأن التصديق والتمسك بهذا الوفاء يؤدى إلى الفوز بحب الله تعالى لأنه من تقوى الله.

- وأنهم بهذا الإخلال بالعهد وتجاهل ما أقسموا به من أيمان -يوثقون بها عهودهم- إنما

يبيعون الغالى النفيس بالهابط الخسيس، فيستحقون بذلك عذاب الله الأليم، فى حين لا يغنى عنهم متاع الدنيا شيئا.

– وأنهم يكذبون على الله فيميلون بألسنتهم عن الحق، وينطقون بكلمات ليست من عند الله يوهمون بها الناس أنها من عند الله، وهم فى ذلك كاذبون، ويعلمون أنهم كاذبون.

– وأنهم يبغون دينا غير دين الله، ويلفقون هذا الدين من عند أنفسهم، مع أن دين الحق هو دين الإسلام.

وبعد.. فهذه بعض صفاتهم فى الاعتقاد وفى المعاملات أرجو أن أكون قد ذكرت منها ما يوضح صورتهم.

* ولا أحب أن يفوتنى رصد بعض الحقائق التى تضمنتها هذه الآيات الكريمة؛ فإن فيها عظة وهدى للبشرية كلها، بل عصمة للناس جميعا من الزيغ والضلال فى الألوهية والنبوة.

ومن هذه الحقائق ما نذكر بعضه فيما يلى:

الحقيقة الأولى فى النبوات:

وهى أن الله تعالى لا يعطى النبوة والكتاب والعلم النافع والحق فى الحديث عن الله تعالى لأحد من أنبيائه إلا بعد اختيار الله تعالى له، بحيث يستحيل عليه أن يطلب من الناس أن يعبدوه هو من دون الله تعالى، بل الأصل أن يطلب منهم أن يعبدوا الله وحده كما يعبده هو، وذلك بمقتضى ما عَلَّمه الله وأمره بتعليم الناس من علم الكتاب وما يدرسون فيه.

والحقيقة الثانية:

أن النبى –أى نبى– لا يمكن أن يأمر الناس باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا من دون الله. لأن هذا كفر يستحيل على أى نبى أن يأمر به.

* وهاتان الحقيقتان ردٌّ على دعواهم فى القول بعبادة غير الله من أنبياء وملائكة.

والحقيقة الثالثة:

أن الله تعالى أخذ العهد والميثاق على كل نبى أنزل عليه الكتاب وآتاه العلم، أنه عندما يجىء خاتم الأنبياء الذى توافق دعوته دعوتهم أن يؤمنوا به وينصروه.

وأنه سبحانه قد أخذ على الأنبياء عليهم السلام العهد والإقرار بذلك، فأقروا وعاهدوا، وشهد الله عليهم، وبلغوه أممهم، وأصبح واجب أممهم أن يؤمنوا بهذا الرسول الخاتم وينصروه

وفاءً بما بلغهم به أنبياؤهم عليهم السلام.

والحقيقة الرابعة :

أن من أعرض عن الإيمان بالنبى الخاتم -بعد هذا الميثاق المؤكد- فهو فاسق خارج عن شرع الله تعالى، كافر بكل الأنبياء أولهم وآخرهم، وذلك لأن شرط الإيمان بالله تعالى هو الإيمان بخاتم أنبيائه ﷺ.

والحقيقة الخامسة :

أن من طلب دينا غير الدين الخاتم الذى جاء به محمد ﷺ، فقد ضل الطريق ولن يقبل الله منه غير الإسلام دينا، لأنه دين الله الذى يدين له كل من فى السموات والأرض طوعا باختيارهم أو كرها بسنن الخلق والتكوين، إذ هو سبحانه يُرجع إليه الأمر كله.

والحقيقة السادسة :

هى وحدة الألوهية، فما من إله إلا الله.

ووحدة الرسالة أى الإيمان بكل الرسل عليهم السلام.

فالرسول الخاتم ﷺ والمؤمنون برسالته يؤمنون بالله وحده، وبما أنزل من القرآن، وما أنزل من كتب وشرائع، على أنبيائه: إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وأولاده الأسباط الاثنى عشر، وما أنزل على موسى من التوراة، وعلى عيسى من الإنجيل، وما أنزل على جميع الأنبياء دون تفرقة بينهم.

والمسلمون بذلك يسلمون وجههم إلى الله تعالى.

وإلى شرح الآيات الكريمة:

- فى الآيات الكريمة عدد من الأخبار، ونداءان على أهل الكتاب يستنكر فيهما كفرهم وتضليلهم، وتقرير لعدد من الحقائق فى وصف أهل الكتاب، وبيان لحقيقة النبوة وحقيقة التوحيد، وتأكيد على وحدة الألوهية ووحدة الرسالات السماوية.

وعدد من الاستفهامات التوبيخية أو الإنكارية، وختمت -الآيات- بتقرير حقيقة كبرى فى وجوب اتخاذ الدين الذى جاء به محمد ﷺ دينا خاتما تدين به البشرية جمعاء.

وسوف نحاول توضيح ذلك فيما يلى بعون من الله.

١ - يخبر الله تعالى أن طائفة من اليهود - وهم جماعة من بنى قريظة وبنى النضير وبنى

قينقاع – دعوا عمار بن ياسر ومعاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان رضى الله عنهم، إلى الرجوع إلى الشرك أو أن يدخلوا فى اليهودية، وذلك بإلقاء الشبهات واختلاق المفتريات، وقد صرحت آية كريمة بهذا وهى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وهذه الآية الكريمة التى نحن بصدد شرحها وهى: ﴿ ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم . . . ﴾.

* وكلمة «لو» هنا تفيد التمنى، أى أنهم يتمنون لو يضلونكم بإدخالكم فى الشرك ثانية أو بتهويدكم، وفى الحق إنهم يضلون أنفسهم بصرفها عن الحق وعما جاء به محمد ﷺ، وما يعلمون أن هذا يضرهم ولا يضر المؤمنين.

٢ – ونداء على أهل الكتاب ليبين لهم حقيقة ما هم فيه من الضلال، لعلهم يلتفتون إلى أنفسهم التى شغلوا عنها بمحاولة إضلال غيرهم، واستعمل أسلوب الاستفهام المستنكر عليهم كفرهم بآيات الله، على الرغم من أنهم يشهدون هذه الآيات: ﴿ يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾.

* ومعنى الآية عند كثير من المفسرين: أن الخطاب موجه إلى أهل الكتاب جميعا الذين كفروا بمحمد ﷺ مع وجود الدلائل التى تؤكد نبوته وحقيقة ما جاء به من القرآن الكريم وغيره من المعجزات، مع أنهم شهدوا هذه الآيات حسًّا ومعنى.

* ويرى بعض المفسرين كالفخر الرازى وغيره: أن الآيات الواردة فى التوراة والإنجيل، من الإشارات التى تدل على نبوة محمد ﷺ، ولكنهم يكفرون بها على الرغم من معرفتهم بها، وهذا ما تستنكره الآية الكريمة عليهم.

وتلك الآيات أو البشارات عندهم كثيرة، من أهمها:

أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفا مسلما.

وأن الدين هو الإسلام.

وأن محمداً ﷺ يأتى بعد عيسى، ولكنهم كفروا ذلك أى كتموه وأخفوه أمام غيرهم، وإن اعترفوا أمام أنفسهم وخاصتهم.

٣ – ونداء على أهل الكتاب يوبخهم على خلطهم الحق بالباطل، مع أن الحق الذى جاء من عند الله، ونزلت به الكتب، وبلغته الرسل وهو عبادة الله وحده، وعمل البر والخير والبشارة بنبى من ولد إسماعيل يعلم الناس الكتاب والحكمة، كل ذلك حق منصوص

عليه فى كتبهم، لا يقبل جدلا، فضلا عن أن يخلط بالباطل الذى زعمه رهبانهم وأحبارهم عن تأويلات يعلمون أنها باطل، ولكنهم يكتمون هذا العلم الذى يقرر التوحيد ويؤكد فعل الخير والعمل الصالح.

* وقيل إن الحق الذى يكتمونه هو: بشارة كتبهم بنبوة محمد ﷺ: ﴿ **يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون** ﴾.

٤ – وإخبار من الله عن بعض أهل الكتاب الذين يرغبون فى إضلال بعض المسلمين ممن يتوهمون فيهم استجابة لتزويرهم.

قال الواحدى[1]: قال الحسن والسدّى[2]: تواطأ اثنا عشر حبراً من يهود خيبر، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا فى دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا به فى آخر النهار، وقولوا: إنا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه فى دينهم، وقالوا: إنهم أهل كتاب وهم أعلم به منا فيرجعون عن دينهم إلى دينكم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون** ﴾ وأخبر نبيه ﷺ والمؤمنين.

وقال مجاهد[3] ومقاتل[4] والكلبى[5]: هذا فى شأن القبلة، لما صرفت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود لمخالفتهم، قال كعب بن الأشرف وأصحابه: آمنوا بالذى أنزل على محمد من أمر الكعبة، وصلوا إليها أول النهار، ثم اكفروا بالكعبة آخر النهار، وارجعوا إلى قبلتكم الصخرة، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا، فربما يرجعون إلى قبلتنا، فحذّر الله نبيه مكر هؤلاء وأطلعه على سرهم، وأنزل: ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا...** ﴾ الآية.

* وقال السيوطى فى أسباب النزول: روى ابن إسحاق عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «قال عبد الله بن الصيف، وعدى بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا

---

(١) الواحدى: أسباب النزول: سورة آل عمران: مرجع سابق.
(٢) السدى هو إسماعيل بن عبد الرحمن تابعى من أهل الحجاز، مفسر عالم بالمغازى، توفى ١٢٨هـ.
(٣) مجاهد: سبقت ترجمته فى هامش صـ ٤٠ من هذا الكتاب.
(٤) مقاتل: سبقت ترجمته فى هامش صـ ٢٠ من هذا الكتاب.
(٥) الكلبى: تقدمت ترجمته صـ ٤٣ من هذا الكتاب.

نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعون عن دينهم، فأنزل الله فيهم: **﴿ يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل... ﴾ إلى قوله: ﴿ واسع عليم ﴾.**

٥ - **وأخبر سبحانه وتعالى عن اليهود أنهم قالوا بعضهم لبعض: ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾.**

والمعنى: لا تصدقوا إلا نبيا يقرر شرائع التوراة، فأمّا من جاء بتغيير شيء من أحكام التوراة فلا تصدقوه.

وهذا هو مذهب اليهود مع النصارى والمسلمين حتى يومنا هذا، فهم يكفرون بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، لأنهما لم يقرا كل ما جاء فى التوراة، فقد رفضوا تكميل المسيح للتوراة واتهموه، ورفضوا تغيير محمد ﷺ للتوراة واستبدال خاتم الكتب السماوية القرآن الكريم بها!!!

٦ - **وفى الآيات الكريمة أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ بأن يعلن فى الناس: أن الهدى هدى الله تعالى: ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾.**

والمعنى: أن الدين دين الله، وليس هدى شعب معين مختار كما يزعمون، وذلك أن الله تعالى يجعل هداه على لسان مَن يشاء من عباده، لأن مشيئته سبحانه لا تتقيد بأحد ولا شعب بعينه، وإنما من يرى الله تعالى فيه صلاحية لأن يحمل هداه.

٧ - **وفى الآيات إخبار من الله تعالى عن اليهود بأنهم مخادعون مضللون حاسدون يستكثرون أن يؤتى محمد ﷺ النبوة، كما أوتيها اليهود فى عدد من أنبيائهم، كما يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾.**

والمعنى أنهم أسروا وكتموا تصديقهم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتى اليهود، وطالب بعضهم بعضا ألا يفشوا ذلك إلا إلى أشياعهم دون أن يتطرق ذلك إلى المسلمين، كى لا يزداد المسلمون ثباتا، ولا يتطرق ذلك إلى المشركين كيلا يدعوهم ذلك إلى الدخول فى الإسلام.

وقال بعضهم لبعض: اكتموا ذلك حتى لا يحاجّوكم عند ربكم يوم القيامة، ويغلبوكم عند الله بالحجة.

٨ - وفى الآيات أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ، بأن يخبر الناس عموما مسلمهم وكتابيهم ومشركهم بأن الفضل والنبوة والهدى بيد الله تعالى: ﴿ **قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم** ﴾.

وفى هذه الآية الكريمة تذكير لليهود بضرورة ترك الحسد على نعم الله التى يؤتيها من يشاء من عباده؛ فقد أعطى النبوة موسى عليه السلام كما أعطاها محمداً ﷺ، وإن حسد اليهود لمحمد ﷺ، يدل على أنهم ينكرون أن الفضل بيد الله!!!.

* والنبوة رحمة من الله للبشر يختص بها من يشاء من عباده، لا تخضع لوساوس المغرورين الحاسدين من أهل الكتاب، الذين يتصورون أن الله تعالى يحابى الأفراد أو الشعوب، فيجعل النبوة فيهم وحدهم، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا!!!

٩ - وإخبار من الله تعالى بصفة أخرى من صفات أهل الكتاب أو بعضهم وهى: خيانة الأمانة، وأكلهم أموال الناس - من غير اليهود- بالباطل، غرورا منهم، وتضليلا وتأويلا خاطئا للكتاب؛ إذ لا يعقل أن يشرع الله لهم ذلك، فهم يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأن الدين والحق من خصائصهم وحدهم دون الناس، وأن شريعتهم قد نهتهم عن خيانة اليهود فقط، وأما سائر الناس - الأميون كما يسمونهم - فتجوز خيانتهم، وحاشا لله -ولأى شريعة شرعها لأى ناس- أن يقبل هذا، فضلا عن أن يأمر به!!! وفى ذلك قوله تعالى: ﴿ **ومن أهل الكتاب مَن إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾.

* وتلك قضية يمارس بها اليهود تضليلا ليس كمثله تضليل، فلا يعقل أن تكون التوراة قد أباحت أموال الأميين، أو أقرت قولهم: **ليس علينا فى الأميين سبيل** فذاك كذب محض وهم يعلمون أنهم يكذبون ويفترون.

١٠ - وفى الآيات الكريمة رَدٌّ على قولهم: «ليس علينا فى الأميين سبيل» بقوله تعالى: ﴿ **بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين** ﴾ والمعنى: بل عليكم سبيل وأى سبيل فى دعواكم أكل أموال الناس من غير اليهود، أو عدم الوفاء لهم بعهد - فقد كان اليهود لا يوفون بعهد مع غير يهودى - ؛ وذلك أن الله تعالى فرض احترام أموال الناس وفرض الوفاء بالعهد فى كل دين، لأن الإخلال بأى منهما ظلم، والله تبارك وتعالى حرم الظلم وتوعد الظالمين.

* وبناء على هذه القاعدة المقررة فى كل دين، يتبين خطأ اليهود وتضليلهم فى زعمهم أن ليس عليهم فى الأميين سبيل، وفى ذلك أيضا تعريض بأن أصحاب هذا الرأى من أى دين ليسوا من أهل التقوى ولا من أهل الطاعة لله تعالى وشريعته.

١١ - وفى الآيات الكريمة أوصاف أخرى لبعض اليهود - بعد وصفهم بخيانة العهد وأكل أموال الناس بالباطل - بأنهم: يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، ويشترون بعهد الله وما يحلفون به من أيمان كاذبة ثمنا قليلا، يقتطعون بذلك حقوق الناس، أو يجتذبون به منافع دنيوية، وهذه أحط الصفات وأخسها لأنها تجمع مساوئ الأخلاق جميعا.

* وعهد الله: يدخل فيه جميع ما أمر الله به، وجميع ما قامت عليه الأدلة، وجميع المواثيق المأخوذة من جهة الرسول ﷺ.

كما يدخل فى العهد: ما يلزم به الإنسان نفسه، إذ كل ذلك من عهد الله الذى لا ينبغى أن يشترى به أحد ثمنًا قليلا.

* ويشترون به ثمنًا قليلا: أى يحلفون كذبًا لكتمان الحق، أو لتربح بأخذ ما عند الناس، أو لترويج سلعة، وكل ذلك من الكبائر بل من أعظم الذنوب.

* وإنما كان ذلك من أكبر الكبائر وأعظم الذنوب، لأن الكبائر الأخرى كالزنى وشرب الخمر والميسر والربا ونحوها، لم يتوعد الله تعالى مرتكبها بما توعد به الذين يشترون بعهد الله وآياته ثمنا قليلا، وذلك أنها جريمة مركبة فيها افتيات على عهد الله وميثاقه، واستهانة بالوفاء بهذا العهد، فضلا عما فيها من ظلم الناس.

وتلك العقوبات التى توعد الله تعالى بها من يشترون بعهد الله ثمنا قليلا هى.. كما جاء فى الآية الكريمة:

- أنهم ﴿لا خلاق لهم فى الآخرة﴾: أى هم محرومون من منافع الآخرة ونعيمها.

- ﴿ولا يكلمهم الله﴾: أى سخط عليهم فلا يكلمهم، أو لا يكلمهم سبحانه كلاما فيه نفع لهم.

- ﴿ولا ينظر إليهم﴾: أى لا يحسن إليهم بهذا النظر، أى يغضب عليهم بإهمالهم وعدم النظر إليهم.

- ﴿ولا يزكيهم﴾: أى لا يطهرهم من الذنوب بأن يغفر لهم ويتجاوز عنهم كما يفعل بأوليائه وأحبابه.

- ﴿ولهم عذاب أليم﴾: أى عقاب يعذَّبون به فيشعرون بألم شديد.

* وهذا التوعد يشمل اليهود وغيرهم ممن يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا.

قال الواحدى فى أسباب النزول: قوله تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا...﴾ الآية... قال ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقى الله وهو عليه غضبان»، فقال الأشعث بن قيس: فِىَّ والله، كان بينى وبين رجل من اليهود أرض، فجحدنى، فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال: «ألك بينة»؟ قلت: لا، فقال لليهودى: «احلف»؟ قلت: إذن يحلف فيذهب بمالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا...﴾ الآية. ورواه البخارى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه.

- وروى أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا وقال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

١٢ - وفى الآيات إخبار من الله تعالى عن طائفة أخرى من أهل الكتاب وهم علماء يهود الذين كانوا يموهون على المسلمين بأشياء يزعمون أنها جاءت فى التوراة، مع أنهم يكذبون.

* قال الكلبى[١]: إن ناسا من علماء اليهود أُولى فاقة أصابتهم سَنة، فاقتحموا إلى كعب ابن الأشرف بالمدينة، فسألهم كعب: هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله فى كتابكم؟ قالوا: نعم، وما تعلمه أنت؟ قال: لا، فقالوا: فإنا نشهد أنه عبد الله ورسوله، قال: لقد حرمكم الله خيرا كثيرا، لقد قدمتم علىّ وأنا أريد أن أميركم وأكسو عيالكم، فحرمكم الله وحرم عيالكم. قالوا: فإنه شبه لنا، فرويدا حتى نلقاه، فانطلقوا فكتبوا صفة سوى صفته، ثم انتهوا إلى نبى الله ﷺ فكلموه وسالوه، ثم رجعوا إلى كعب بن الأشرف، وقالوا: لقد كنا نرى أنه رسول الله، فلما آتيناه، إذا هو ليس بالنعت الذى نُعت لنا، ووجدنا نعته مخالفا للذى عندنا، وأخرجوا الذى كتبوا، فنظر إليه كعب ففرح، ومَارَهم وأنفق عليهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

* تلك الطائفة من أهل الكتاب قال الله تعالى عنها: ﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند

---

(١) الكلبى: سبقت الترجمة له فى صـ٤٣ من هذا الكتاب.

الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾.

و ﴿ يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ كناية عن أنهم يكذبون ويتخرصون الأحاديث.

والكتاب الذى يلوون ألسنتهم به هو التوراة، ولَىُّ ألسنتهم به معناه: زعمهم فيه ما ليس منه بالكذب أو بالتأويلات الباطلة، أو بالتحريف اللفظى، وبكل ذلك قام اليهود.

* فمن لىّ ألسنتهم بالكتاب إنكار ما فى التوراة من نبوة محمد ﷺ، وإخفاؤهم حد الزنى وهو القتل للمحصن واكتفاؤهم بتحميم وجهه، وكتابة بعضهم كتابا بدلوا فيه صفة محمد ﷺ، فأخذت قريظة ما كتبوا ثم خلطوه بما عندهم من التوراة، وجعلوا يلوون ألسنتهم بقراءته يوهمون الناس أنه من التوراة!!!

ومنه: تحريفهم للحروف والألفاظ كقولهم للرسول ﷺ: السام عليكم - أى الموت - بدلا من كلمة: السلام عليكم، ونحو ذلك.

* يفعل اليهود ذلك فيحسب سامعهم أن ما يقولونه من الكتاب، والحق أنه ليس من الكتاب وإنما هى تمويهاتهم.

* وإنما فعل اليهود ذلك اجتراء على الله تعالى، فهم يعتقدون أنهم يغفر لهم ما يجترئون؛ لأنهم أهل هذا الدين، ومن سلالة أولئك النبيين، وهذا باطل وخيال.

* قال عكرمة: «نزلت هذه الآية فى أبى رافع ولبابة بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب وغيرهم من رؤساء اليهود، كتموا ما عهد الله إليهم فى التوراة من شأن محمد ﷺ، وبدَّلوه وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا أنه من عند الله، لئلا يفوتهم الرشا والمآكل التى كانت لهم على أتباعهم»[1].

١٣ - وفى الآيات إخبار عن التحريف والكذب والتضليل الذى يمارسه أهل الكتاب من يهود ونصارى إذ زعموا:

- أن المسيح ابن الله.

- وأنهم عبدوا المسيح لأنه أمرهم بذلك.

- وأن عزيرا ابن الله.

* وقد رد الله تعالى عليهم وكذبهم فيما يقولون، وأظهر الحق وبرأ المسيح عليه السلام

---

(١) الواحدى: أسباب النزول: ٦٤ مرجع سابق.

مما وصفوه به، فقال الله تعالى: ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة، ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾.

قال المفسرون: قال ابن عباس رضى الله عنهما: لما قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، نزلت هذه الآية.

وقال الضحاك ومقاتل: نزلت فى النصارى من نجران حين عبدوا عيسى، والمقصود بكلمة بشر: عيسى بن مريم عليه السلام، والكتاب هو : الإنجيل.

وقال الكلبى وعطاء: إن أبا رافع اليهودى، ورئيس نصارى نجران قالا لرسول الله ﷺ: يامحمد أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا؟ فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن يُعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثنى. ولا بذلك أمرنى، فأنزل الله تعالى هذه الآية(١).

* وأخرج عبد بن حميد بسنده عن الحسن قال: بلغنى أن رجلا قال: يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحق لأهله، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

* وقوله تعالى: ﴿ ما كان لبشر ﴾ نَفْىٌ لاستحقاق أحد لذلك أى ليس من حق أحد أن يطلب من الناس عبادته أو عبادة غير الله، فما بالنا إذا كان نبيا آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة؟

* وقد كذب النصارى إذ زعموا أن المسيح عليه السلام أمرهم بعبادته، لأن من أمر الناس بعبادته، كان آمرا لهم بصرفهم عن عبادة الله سبحانه وتعالى: وما فعل المسيح شيئا من ذلك، وحاشا له أن يفعل وهو نبى الله ورسوله!!!

* و﴿ أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ﴾ تعنى:

– الكتاب: ويقصد به ما ينزله الله أولا على نبيه.

– والحكم : هو العلم الذى يحدث للنبى عند فهم كتاب الله، أو المقصود بالحكم الحكمة وهى السنة.

– والنبوة: هى الخُلُق الذى يتحلى به من أنزل الله عليه الكتاب، ثم فهمه وعمل بما فيه.

---

(١) السابق : ٦٤.

والمعنى: أى ما كان لبشر أن يؤتيه الله ذلك ثم يقول للناس: ﴿ **كونوا عبادا لى من دون الله** ﴾.

– والعباد جمع عابد أو عبد.

ولكن شأن الرسول أن يقول لهم: ﴿ **كونوا ربانيين** ﴾ أى منسوبين إلى الرب سبحانه وتعالى، مخلصين له دون سواه.

– و﴿ **بما كنتم تعلمون الكتاب** ﴾ أى أخلصوا عبادة الله لأنه علمكم الكتاب، وهذا من شأنه أن يصدكم عن إشراك العبادة، لأن فائدة العلم العمل.

– و﴿ **بما كنتم تدرسون** ﴾ أى تقرأون الكتاب بتمهل للحفظ والتدبر، ومادة: درس تستلزم التمكن من المدروس.

والمعنى: كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب، وبما كنتم تحفظونه وتتدبرونه.

– ﴿ **ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا** ﴾.

أى لا يعقل أن من آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة يأمر الناس باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا، فقد كان المشركون يعبدون بعض الملائكة والنبيين أربابا، وكان النصارى يعبدون المسيح، واليهود يزعمون أن لله تعالى ولداً هو المسيح عليه السلام عند النصارى، أو عزير عند اليهود.

– ﴿ **أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون** ﴾ أى ليس له أن يفعل ذلك أبدا، لأنه أمر لهم بالكفر، وما كان لمن أعطاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يأمر أحدا بالكفر، وفطرته هى الإسلام لله تعالى وعبادته.

١٤ – وفى الآيات إخبار بأن الأنبياء قد أخذ الله عليهم العهد والميثاق أن يبلغوا الناس ما أمرهم الله به وأوحاه إليهم، وأنه كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم، عليهم أن يؤمنوا به وينصروه، وأنهم قبلوا ذلك وأبلغوه أقوامهم.

* وقد أخبر سبحانه وتعالى أن من رجع عن ذلك الميثاق من أقوام هؤلاء الأنبياء فهو من الفاسقين: ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى؟! قالوا أقررنا قال**

فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾.

* وهذا الميثاق أخذه الله على جميع الأنبياء، يؤذنهم فيه بأن رسولا يجيء مصدقا لما معهم، ويأمرهم بالإيمان به وبنصره، والمقصود بذلك إخبار أممهم بذلك وشهادتهم على أممهم، ليكون هذا الميثاق محفوظا لدى سائر الأجيال.

– قد وردت البشارات بنبوة محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل.

* فقد جاء فى التوراة: «قال لى الرب أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامى فى فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به»(١)، وإخوة بنى إسرائيل هم بنو إسماعيل عليه السلام ومنهم محمد ﷺ.

* وجاء فى الإنجيل :

«قال المسيح لتلاميذه : ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين، ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين، ولكن الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص، ويكرز ببشارة هذا الملكوت فى كل المسكونة شهادة لجميع الأمم، ثم يأتى المنتهى»(٢). هذا من إنجيل متى.

ومن إنجيل يوحنا: «إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد»(٣).

ومنه أيضا: «وأما المعزى الروح القدس الذى سأرسله إليكم من الأب روح الحق الذى من عند الأب ينبثق فهو يشهد لى، وتشهدون أنتم أيضا؛ لأنكم معى من الابتداء»(٤).

وما أكثر البشارات فى الكتب السماوية التى بشرت بنبوة محمد ﷺ، ولكن كثيرا منها بُدِّل وحُرِّف(٥).

* وفى أخذ العهد على الأنبياء بأن يؤمن أقوامهم برسالة محمد ﷺ عند ظهوره، فى هذا زيادة تنويه برسالته الخاتمة ﷺ.

١٥– وفى الآيات استفهام للتوبيخ والتحذير، أو للاستنكار، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ أفغير

---

(١) العهد القديم: سفر التثنية: الإصحاح الثامن عشر.
(٢) إنجيل متى: الإصحاح الرابع والعشرون.
(٣) إنجيل يوحنا: الإصحاح الرابع عشر. فقرات: ١٦ – ١٨.
(٤) إنجيل يوحنا: الإصحاح الرابع عشر: فقرة: ٢٧.
(٥) انظر المؤلف: عالمية الدعوة الإسلامية: الفصل الأول من الباب الثانى، نشر دار الوفاء: ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

دين الله يبغون، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ﴾.

وفى توضيح ما تتضمنه هذه الآية الكريمة نقول:

- ﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾.

هذا الاستفهام لتوبيخ كل من ابتغى دينا غير الإسلام، ولتحذيرهم من ذلك، واستنكار أن يحدث منهم، والموبخون هم الناس لا الأنبياء، لأن الأنبياء يستحيل عليهم شيء من ذلك.

- و﴿ دين الله ﴾.

هو الإسلام، وقد أضيف إلى الله تعالى تشريفا له على غيره من الأديان، أو لأن الأديان قد نُسخت به.

- و« يبغون » أى يريدون ويطلبون.

والمعنى: أيتولون عن الإيمان فيبغون دينا غير دين الله الذى هو الإسلام كما جاء به محمد ﷺ.

- ﴿ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ﴾.

للعلماء فى تفسير إسلام الطوع وإسلام الكره أقوال عديدة، ولكن صفوة ما قالوا يمكن أن نلخصه فيما يلى:

أن الدين الحق هو إسلام الإنسان وجهه وأمره لله تعالى والإخلاص له سبحانه فى اتباع منهجه الذى أكمله وأتمه ورضيه دينا، والأنبياء جميعا كانوا كذلك فى أزمانهم، وقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يبلغوا أقوامهم بذلك ففعلوا، غير أن هذه الأمم هى التى نقضت الميثاق، فجاء النبى الموعود به فى كتبهم يدعوهم إلى هذا الإسلام فكذبوه، فكانوا بهذا التكذيب يبتغون غير دين الله.. دين الحق الذى جاء به محمد ﷺ.

* والحق أن مرجع هذه الأمم المكذبة إلى الله، ليجازيهم على هذا التكذيب، بل مرجع المصدقين إليه كذلك ليجازيهم على إيمانهم وتصديقهم.

* ولو عقلت البشرية وأفاقت من غفلتها لما وجدت غير الإسلام منهجا ونظاما، يخلصها مما تعانيه من خواء الروح واشتطاط العقل، وفساد الخلق، واضطراب العلاقات الاجتماعية والسياسية وفساد العلاقات الاقتصادية، وجموح الشهوات.

١٦ – وفى الآيات الكريمة أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يعلن أنه، ومن معه من المؤمنين، مؤمنون بالله وبما أنزل عليهم من قرآن، ومؤمنون بما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وسائر النبيين، لا يفرقون بين أحد منهم، بل ينقادون لله بالرضى والإخلاص، منصرفون عن الأهواء والشهوات.

﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾.

ولتوضيح مضمون هذه الآية الكريمة نقول:

* إعلان الإيمان بالله تبارك وتعالى وبما أُنزل على محمد ﷺ من القرآن الكريم **﴿آمنا بالله وما أُنزل علينا﴾**

* وإعلان الإيمان بما أنزل على الرسل جميعا على وجه الإجمال، والتصديق بأن الله تعالى أوحى إليهم ما يهدى به أقوامهم، وأن هذا الوحى موافق لما أنزل الله على محمد ﷺ فى الجوهر، وهو عبادة الله وحده والإسلام له والانقياد لمنهجه.

﴿... وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم...﴾.

* وإعلان أن المؤمنين لا يفرقون بين أحد من رسل الله، كما يفرق أهل الكتاب، فيؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض، بل إن المؤمن من قال إنهم جميعا على الحق، وليس كما قال أهل الكتاب إن بعضهم على حق وبعضهم على باطل.

يعلن المؤمنون ذلك الإيمان، وينقادون لله تعالى بكل نبى أرسله وبكل كتاب أنزله.

– وعند هذه الآية الكريمة انتهت المجادلة مع نصارى نجران فى المسيح، وكانت هذه المجادلة قد بدأت بالآية الكريمة: **﴿فمن حاجّك فيه من بعد ماجاءك من الحق...﴾** الآية ذات الرقم: ٦١.

وانتهت بهذه الآية ذات الرقم: ٨٤.

١٧ – وفى الآية الأخيرة من هذه الآيات الكريمة، إخبار من الله تعالى بأن أى أحد يطلب دينًا غير الإسلام كما جاء به محمد ﷺ فلن يقبل منه، لأنه لم يعد –بعد ظهور محمد ﷺ– مقبولا من أحد غير هذا الإسلام.

﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾.

والمعنى كما يرى المفسرون: أن كل من له دين غير الإسلام لابد أن يدخل فى هذا الدين الخاتم، ولا يكون مقبولا منه فى الدنيا غير ذلك، فإن أبى فسوف يكون فى الآخرة من الخاسرين، والخسران فى الآخرة بالحرمان من الثواب، وحصول العقاب.

* وفى هذه الآية الكريمة تيئيس لأهل الكتاب من النجاة من عذاب الله فى الآخرة برفضهم الدخول فى الإسلام، وقولهم: نحن على ملة إبراهيم، فنحن ناجون على كل حال؛ إذ الأصل الذى قررته هذه الآية الكريمة هو: أن من ابتغى غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين.

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من هذه الآيات أن فى كل المجتمعات الإنسانية طائفة تحب أن تضل الذين آمنوا، فليكن المؤمنون على حذر من هذه الطائفة، بحيث لا ينخدع مسلم بباطل هذه الطائفة وما تزين به دعاواها.

* وسواء أكان هؤلاء المضللون من اليهود أم من النصارى أم من غيرهم، فإن الحذر منهم جميعا واجب.

* وسواء أكان الدافع لهؤلاء المضللين حسدا، أم رغبة فى الشر، بصرف المؤمنين عن الإيمان، فإن المسلمين ما ينبغى أن يحققوا لهم غرضهم، بل يجب أن يفوتوه عليهم بتمسكهم بإيمانهم.

* وعلى المسلمين أن يدركوا أن هؤلاء المضللين فى الحقيقة إنما يضلون أنفسهم بصرفهم إياها عن الحق والهدى، غير أنهم -لغلبة الشر على نفوسهم- لا يشعرون بما يسيئون به إلى أنفسهم.

﴿ودَّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم، وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾.

٢ - ويتعلم المسلمون من هذه الآيات أن أهل الكتاب على عهد الرسول ﷺ كفروا بالله وأنكروا نبوة محمد ﷺ على الرغم من مشاهدتهم آيات صدقه.

وأنهم يخلطون الحق -الذى جاءت به الرسل- بالباطل والشبهات التى يرددون وإذا كان ذلك شأن أهل الكتاب فى زمن النبى ﷺ، فإنه لا يزال شأنهم اليوم، بل هو شأن كثير من

الناس الذين يرون شـواهد الإيمان وآياته ثم ينحـرفـون عن طريق الإيمان، راغـبين فى خلط باطلهم وشبهاتهم بالحق لإفساده وإفساد أهله!!!

وهذا درس للمسلمين يتعلمون منه وجوب الانصياع للحق ونبذ كل شبهة وتلبيس يحاوله أعداء الحق.

٣ – ويتعلم المسلمون من الآيات أن التقلب والنفاق خُلق قديم فى أهل الكتاب، بل فى الناس جميعا، وأن من أهداف أهل الكتاب أن يفتنوا المسلمين عن دينهم بالحيلة والشبهة، بل بالعداوة أحيانًا، وأن أهل الكتاب مغرورون متعصبون لا يحبون أن يستمعوا إلى الحق إن صدر من غيرهم!!!

* وأن هذا النفاق والتقلب والتعصب لا يزال خلقا لهم ولكثير من الناس حتى اليوم، وأن هذا الخلق من مساوئ الأخلاق ومن المفاسد التى تضر جميع الناس، وأن المسلمين مهما عوملوا بهذا الخلق، فليس لهم أن يعاملوا الآخرين إلا بخلق الإسلام وهدى محمد ﷺ الذى جاء بالمحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

٤ – ويتعلمون من الآيات بعض صفات أهل الكتاب التى منها:

– أنهم غير أمناء فى الغالب، لا يؤدون الأمانة إلا إذا رُوقبوا وتوبعوا، وأن قليلا منهم هم الأمناء الذين يؤدون الأمانة بغير رقابة.

– وأنهم يستحلون أموال الناس بالباطل ما داموا أميين أى من غير اليهود قائلين: ﴿ليس علينا فى الأميين سبيل﴾ زاعمين أن هذه المقولة الظالمة من دينهم!!!

– وأن منهم من يقسم أغلظ الأيمان كاذبا حانثا فى قسمه ليستحل بهذا القسم عرضا من أعراض الدنيا، فيخسر الأسمى من أجل العرض الأدنى، وتلك غفلة وضلال عن الحق.

– وأن منهم من يتلاعب بالألفاظ ليُظهر غير ما يبطن، ويزعمون أن ما يقولونه من عند الله وما هو من عند الله.

* وهذه الصفات إنما يتصف بها ضعاف النفوس وضعاف الأخلاق من الناس عموما، وإن كانت أوضح ما تكون فى أهل الكتاب، وأن على المسلم أن يكون من هذه الصفات وأهلها على حذر.

٥ – ويتعلمون المسلمون من الآيات أن توحيد الله وعبادته وفق ما شرع هى عمل الأنبياء جميعا، بل إن من علامات صدق النبى فى نبوته أن يدعو إلى عبادة الله وحده، ومن

هنا تبطل دعاوى من زعموا أن نبيهم أمرهم بعبادته.

* ما كان لنبى أكرمه الله بالكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله، وإنما شأنه أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وليس من شأن أى نبى أن يقول للناس اتخذوا الملائكة والنبيين أربابا، إذ لا يجوز له أن يأمر الناس بهذا الكفر.

* ومعنى ذلك أن كل آمر للناس بعمل يغضب الله إنما يأمرهم بباطل يستحيل أن يكون من عند الله، ولا يصح لأحد أن يتبعه مهما زخرف قوله وزوّر بهتانه.

٦ – ويتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة أن الله تعالى قد أخذ العهد والميثاق على كل نبى من أنبيائه أن يأمر قومه بالإيمان بخاتم الأديان وخاتم الرسل عندما يظهر، وأن من تولى عن اتباعه واتباع دينه فهو من الفاسقين الخارجين عن أمر الله تبارك وتعالى.

* وأن الذين يطلبون دينا غير الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ لن يقبل منهم فى الدنيا، فضلا عن العقاب الذى يستحقون فى الآخرة.

وهذا من شأنه أن يعزز الإيمان فى قلوب المؤمنين، وأن يُنقّى القلوب من الشبهات والشوائب التى يبثها المضللون فى طريق الإيمان والمؤمنين.

٧ – ويتعلم المسلمون من الآيات الكريمة:

– وحدة الألوهية.

– ووحدة الرسالة.

– ووحدة العبادة.

وأن ذلك كله إنما أوجبه الله تبارك وتعالى، وأن الخروج عن شىء من ذلك كفر بالله وبما جاء به رسله عليهم الصلاة والسلام.

وأن المسلمين لا يتم إسلامهم إلا إذا آمنوا بما أنزل على محمد ﷺ، وما أنزل على رسله وأنبيائه من كتب تضمنت دين الحق الذى يأمر بعبادة الله وحده، دون تفرقة بين هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

* وهذا درس لمن يتدبر ليوقن بوحدة الأديان التى جاءت من عند الله قبل أن يدخلها تحريف أو تبديل، وأن كل خروج عن عبادة الله وحده وعن تنزيهه عن كل ما لا يليق به من وصف، دليل على أن من قالوا بشىء من ذلك قد حرفوا دينهم ومالوا به عن الحق.

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى الآيات كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية أن الراغبين فى إضلال الناس عن الحق، لهم وجود وحضور فى كل زمان ومكان، ولهم شبهاتهم ومفترياتهم.

* وأن على الدعاة أن يعاملوهم بأدب الدعوة إلى الله وخلقياتها، وأن يدعوهم إلى اتباع الحق ونبذ الباطل، وتكون وسيلتهم فى تلك الدعوة الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، وأن يصبروا عليهم ولا يضيقوا بهم وبما يفعلون، فتلك سنة الله فى خلقه وفى دعوته ودعاته فى كل زمان ومكان.

* وحسب هؤلاء المضللين الراغبين فى صرف الناس عن الحق وصرف المؤمنين عن الإيمان، حسبهم مهانة أنهم لا يشعرون بأنهم على باطل!!! إنها غفلة تستدعى الرثاء لهم ولما هم فيه.

٢ - ويتعلمون من الآيات أن من الناس ناساً يكفرون بآيات الله، وهم يرون الأدلة والبراهين، وأن الدعاة إلى الله يجب أن يكون لهم موقف من هؤلاء الذين ألغوا عقولهم، وتجاهلوا ما شاهدته حواسهم من أدلة وبراهين، وأن من واجب الدعاة أن يبصروهم ولا ييأسوا من هدايتهم، وأسلاف هؤلاء قد أنكرت عليهم آيات القرآن الكريم أن يكفروا وهم يشهدون الآيات.

* وهؤلاء، يستطيع الدعاة والحركيون أن يواجهوهم بمثل هذا الإنكار عليهم، واستنكار موقفهم حتى يتبين لهم الحق، فربما قبلوه مذعنين له.

* إن الملحدين والشيوعيين وكل منكر للحق، يكفرون بآيات الله، مع أنهم يشاهدونها، ويجدون الأدلة والبراهين أمام حواسهم ومع ذلك يكفرون!!!

* وإن الذين ينادون بتعطيل شرع الله، واستبداله بما يتعارف عليه الناس من قوانين، فيحكمون به بغير ما أنزل الله، هؤلاء أيضا يكفرون بآيات الله وينكرون الحق بعد ما تبين.

* وإن الذين يهاجمون دين الإسلام ويفترون عليه الكذب، زاعمين أنه دين محلى أو إقليمى أو رجعى لا يستطيع مواكبة المتغيرات، هؤلاء يكفرون بآيات الله وينكرون ما هو معلوم من الدين بالضرورة، وهو أنه الدين الحق.

* وإن الذين يخلطون الحق بالباطل، ويشوهون الحقائق ويموهون الحق -وهم يعلمون أنهم يمارسون ذلك كيدا فى الإسلام وفى الحق الذى جاء به- هؤلاء يكفرون أيضا بآيات الله، لأنهم يكتمون الحق وهم يعلمون ويلبسون الحق بالباطل وهم يعرفون أنهم يضللون.

- إن على الدعاة والحركيين أن يعلموا أن هذه الأصناف من الناس ظواهر قد لا يخلو منها مجتمع، وأن للتعامل مع هؤلاء أسلوبًا فى الدعوة، وأسلوبًا فى التحرك إليهم، وأنهم أولى الناس بأن يُبذَل معهم جهد مضاعف فى الدعوة والحركة، لأنهم بهذه الصفات يخدعون أنفسهم قبل أن يخدعوا الناس.

٣ - ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية أن أهل الكتاب يحاولون جاهدين أن يصرفوا المؤمنين عن إيمانهم بفتنتهم عن دينهم، وتلك صفة قديمة فى أهل الكتاب من يوم حاولوا ذلك مع بعض المسلمين فى حياة النبى ﷺ، وهى صفة مستمرة إلى يومنا هذا.

ولانستطيع أن نقدم على ذلك دليلا أقوى مما هو مشاهد فى منتصف العقد الثانى من القرن الخامس عشر الهجرى -العقد الآخير من القرن العشرين الميلادى (١٤١٥هـ-١٩٩٥م)- حيث يُفتن المسلمون عن دينهم فى بلدان عديدة، والذين يفتنونهم هم اليهود والنصارى وهيئة الأمم المتحدة ومجلس أمنها، والنظام العالمى الجديد الذى تقوده الولايات المتحدة الأمريكية، يفتنونهم بشكل مباشر بالحرب والآلة العسكرية، والإعلام وأجهزته، والمحالفات والمعاهدات والمعونات المشروطة أو غير المشروطة، واصطناع الفتن والقلاقل وتشجيع الانقلابات العسكرية، وإثارة مشكلات الحدود والأعراق بين الدول المسلمة أو الدول العربية!!!

* وعند النظر فى واقع العالم الإسلامى اليوم، مع تعامل العالم المتحضر معه: -عالم الغرب الذى يسيطر عليه اليهود والصليبيون، وعالم الشرق الذى يسيطر عليه الملحدون من فلول الشيوعية المنهزمة- يجد أن المسلمين يعانون من محاولات صرفهم عن دينهم فى أماكن عديدة، نذكر منها ما يلى:

أ - ما عاناه المسلمون من حرب الخليج الأولى بين إيران والعراق التى استمرت أكثر من ثمانية أعوام استنزفت فيها القوى البشرية المسلمة، فضلا عن المال والسلاح والروح المعنوية، ولا جريمة أتتها إيران إلا أنها أعلنت أنها جمهورية إسلامية!!! والعراق له

حاكم عسكرى غاشم يُغرى بالشر والعدوان لأهون الأسباب، ويُخدع عن نفسه ودينه لاتفه الأسباب!

ب – وما عاناه لبنان على مدى ما يقرب من عشر سنوات من حرب أهلية أتت على الأخضر واليابس وعادت بلبنان عشرات السنين إلى التخلف، وهدفهم تفريغ لبنان من المسلمين لصالح غير المسلمين، مع أن التعايش بين المسلمين والنصارى ليس موضع شك أو جدل بين من يشاهد تاريخ لبنان الحديث!!!

ولقد وقفت دول الغرب تساند فكرة تفريغ لبنان من المسلمين فمنحت حق اللجوء السياسى لكل لبنانى مسلم، ويسَّرت أمامهم أبواب الهجرة إلى كثير من بلدان إفريقيا وآسيا!!!

جـ – وما يعانيه المسلمون من متاعب وآلام وحصار اقتصادى فى الجمهوريات المسلمة التى كانت محتلة بما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى، بل ما تعانيه هذه الجمهوريات من حروب وفتن وكل ذنب أهلها أنهم مسلمون، ليس لهم حق الحياة الآمنة فى ظل سيطرة الشرق الملحد والغرب الصليبى!!!

د – وما عاناه ويعانيه المسلمون فى الصومال بعد سقوط الحكم الشيوعى فيها بقيادة زياد برى، وما قامت به هيئة الأمم المتحدة فى الصومال من أعمال أقل ما توصف به أنها شائنة، وذات دلالة على الحقد على أى بلد مسلم.

إن مما لاشك فيه أن الخلافات بين الصوماليين إنما يغذيها وينفخ فى نارها أعداء الإسلام من شرق وغرب!!!

هـ – وما يعانيه الأفغان من صراعات دامية لابد أن يكون وراءها تخطيط وتدبير معاد للإسلام والمسلمين.

و – وما يعانيه الأكراد على يد غاشم العراق حينا، وعلى يد تركيا العلمانية حينا، خشية أن يكون للاكراد –وهم شعب مسلم– أى كيان مستقل!!!

ز – وما تعانيه ليبيا من حصار جوى وحصار أدبى معنوى يقوده الغرب من أجل قضية شخصية تبدى ليبيا فيها موافقتها على التحقيق مع المتهمَيْن فى أرض محايدة، ولكن الشعب الليبى – مع بالغ الأسف – شعب مسلم!!! فكيف يترك دون حصار وكَمد؟

ح – وما يعانيه سكان دول الخليج جميعا –ومعهم العراق وحاكمه الغاشم الجهول– من احتلال لأرضهم بإقامة القواعد العسكرية فى بلادهم بحجة الدفاع عنهم أمام هجمات محتملة للعراق عليهم! وما يعانيه شعب العراق بصفة خاصة من ويلات وما تخسره تلك الدول المسلمة من أموال لا يقادَر قدرها، وما يغرقها فيه الغرب من ديون تفوق الخيال، وما ضاع عليها من نفط على مدى عشرات السنين الآتية، وما يستتبع ذلك من تسويق لسلاح الغرب وآلته العسكرية، وأجور باهظة لجنوده وخبرته العسكرية والفنية، ومالا أحصى مما يخسر المسلمون ويربح أعداؤهم.

* كل ذلك جاء نتيجة لعمل فيه حماقة وجنون قام به مشئوم العراق صدام حسين حين احتل بقواته العسكرية أرض بلد عربى مسلم وعاث فيه فسادا هو الكويت، وما كان ذلك إلا بإيحاء من الغرب والولايات المتحدة الامريكية.

* ومهما بذل الحاسبون من جهد فى وصد قدر الخسائر التى حاقت بالعالم العربى والعالم الإسلامى، وقدر المكاسب التى حققها الغرب وإسرائيل فلن يستطيعوا أن يبلغوا الحقيقة ولا بعض الحقيقة!!!

* وتحويل شعب العراق إلى هذا الوضع من الاحتياج والضياع، وتحويل جيش العراق – خامس أقوى الجيوش كما قيل – إلى هذا الوضع، كل ذلك لصالح الغرب وصالح إسرائيل، ولو أراد أعداء الإسلام من الصليبيين والصهاينة أن يكافئوا أحداً على هذه المكاسب التى جنوها –والتى سوف يجنونها فى عشرات السنين الآتية– لما وجدوا سوى أحمق العراق ومشئومها صدام حسين!!!

ط – وما قام به النظام العالمى الجديد بقيادة أمريكا ومعظم دول أوربا الغربية – وكلهم من أهل الكتاب كما يدعون، يساندون بذلك العمل إسرائيل – من ممارسات غير إنسانية ولا حضارية فى الصومال وأريتريا وجنوبى السودان وليبيا والعراق والبوسنة وغيرها، بقصد ألا يستقر العالم الإسلامى، ولا تقوم للإسلام قائمة، كل ذلك معروف مشهور لا يحتاج إلى تذكير به أو تعريف بأهدافه، وإنما حسبه أن تقال فيه جملة واحدة وهى: العمل المعادى للإسلام والمسلمين.

ى – وما تعانيه منظمة الجامعة العربية من فرقة وانقسام، وخصام يصل أحيانا إلى حد الصراع والقتال، من أجل خلافات على الحدود أو خلافات على المياه أو النفط أو الجزر أو نحوها، يجعل الجامعة العربية تفقد معنى أنها جامعة!!!

* هذا إذا تغاضينا عن أن إنشاء الجامعة العربية كان بإيحاء من إنجلترا خشية أن تقوم مكانها جامعة إسلامية - كما كان يفكر بعض المصلحين المخلصين فى ذلك الوقت - أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م)!!!

ك - وما يمارسه أعداء الإسلام المتحكمون فى اقتصاد العالم وإعلامه من تشجيع لكثير من حكومات العالم الإسلامى على ضرب الحركات الإسلامية ومنعها من العمل العلنى، واضطهاد قادتها وقتل كثير منهم فى محاكمات هزلية أو نفيهم وتشريدهم، بحجة أنهم يحاولون الاستيلاء على السلطة !!! كأن الوصول إلى السلطة جريمة فى بلاد تدعى جميعا أنها ديمقراطية!!! مع سيل من الاتهامات بالإرهاب والتطرف والعنف!!!

فإن استطاعت حركة إسلامية أن تصل إلى الحصول على أغلبية «برلمانية» من خلال صناديق الانتخابات تدخل الجيش بتحريض من الغرب ليلغى نتائج الديموقراطية، ولتدخل البلاد فى حمامات من الدم، وصراعات لا يمكن أن تنتهى - كما حدث فى الجزائر - تحت سمع العالم كله وبصره، وبمباركة الغرب الأوربى وفى مقدمته فرنسا والغرب عموما وعلى رأسه أمريكا!!

ل - وما يشاهد الآن من تحد ظاهر وخفى لكل بلد تعلن أنها تحكم بشريعة الإسلام: هذا التحدى يأخذ شكل حرب اقتصادية ضارية ذات أبعاد معروفة، وشكل إثارة القلاقل والفتن فى تلك البلاد، وتشجيع المنشقين من أبنائها على نظام الحكم فيها، أو تشجيع جيرانها على اصطناع النزاعات معها، كما هو مشاهد فى السودان وإيران وغيرهما.

م - وليس ما تعانيه البوسنة اليوم إلا عملية إبادة للمسلمين الذين يعيشون فى أوربا، على هذا اجتمعت كلمة الغرب ودول الوحدة الأوربية.

ن - وليست حرب الإبادة التى تشنها روسيا ضد الشيشان إلا عملية إبادة للمسلمين تتذرع بمختلف الذرائع!!!

س - وما يمارسه الغرب والشرق اليوم - وهم أهل كتاب كما يدعون - من تشجيع على إعادة القول فى تشويه القرآن الكريم، ودين الإسلام، وذلك بإغراء الأغرار الجهلة من المسلمين بالتهجم على القرآن وعلى الإسلام.

* إن ما يجرى الآن من تهجمات لا يمكن أن تكون نابعة من قلب رجل مؤمن ولا من عقل مَنْ عمر الإيمان قلبه، ولكنه الإغراء بالمكانة والشهرة ومقابلة رؤساء الدول، والحصول

على الأمن والمال، والتبجح بادعاء التنوير، وحرية الرأى والاجتهاد!!

* ولو شئت أن أذكر أسماء هؤلاء المتهجمين على القرآن الكريم وعلى الإسلام، والتيارات التى أغرتهم، بل المكاسب التى حصلوا عليها لفعلت، ولكن ذلك ليس هدفى فى هذا الكتاب، ولعلى أفعل فى كتاب آخر إذا أراد الله وشرح لذلك صدرى.

– وفى الختام ليس للغرب جريمة أكبر من جريمته ضد الإسلام والمسلمين والعرب، عندما تعاون الغرب كله مع ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى على اقتطاع أرض فلسطين من أهلها فى حرب إبادة معروفة، لكى تقيم فى قلب العالم العربى دولة يهودية، تمثل شوكة فى قلب العرب والمسلمين!!!

– لقد بلور الغرب – الذى ينتمى لأهل الكتاب – موقفه من الإسلام فى مقولة جعلتها إحدى المجلات الفرنسية عنوانا كبيرا فى أحد أعدادها، هو: «نعم.. الإسلام يثير الخوف»، وتحت هذا العنوان أخذت تلك المجلة تثير المغالطات والمفتريات حول الإسلام فى عرض يدل على الجهل والتحامل، من مثل قولها:

* الإسلاميون يقتلون النساء غير المحجبات!!!

* والإسلاميون لا يسمحون للمرأة بالتعلم!!!

* والإسلام يحرم المرأة من حقوقها!!!

– وكل تلك أباطيل هم يعرفون من خلال بعض المنصفين من كُتّابهم أن الإسلام برىء منها.

– وتنسى هذه المجلة – وهى فرنسية – ما فعلت فرنسا فى الجزائر قديما، وكيف أحرقت مكتبتها العامة يوم أُجبرت على الرحيل منها؟ ثم يعيبون على التتار أنهم ألقوا مكتبات بغداد فى النهر!!!

وتنسى هذه المجلة إغراء فرنسا لجيش الجزائر بإلغاء نتيجة الانتخاب الذى فازت بها الجبهة الإسلامية!!!

– إن على الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يتعلموا من هذه الآيات ما هى أخلاق أهل الكتاب اليوم، حتى يتعاملوا معهم بما يلائم تلك الأخلاق من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن.

* وعليهم أن يوقنوا أن محاولات صرف المسلمين عن دينهم مستمرة منذ عهد النبى ﷺ -يوم كان المسلمون قلة مستضعفة- وإلى يومنا هذا وقد أصبح المسلمون كثرة تربو على الألف مليون إنسان، ولكنهم مستضعفون متراجعون حضاريا.

٤ - ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية أن صفات أهل الكتاب، وبخاصة اليهود هى أخَسُّ الصفات وأبعدها عن الحق، وحسبنا فى التدليل على ذلك ما وصفهم به الله تعالى من أنهم فى غالبيتهم لا يؤدون الامانة، وأنهم يستحلون أموال الناس، وأنهم يحلفون أغلظ الأيمان كذبا ليأكلوا بها عرضا من أعراض الدينا، وأنهم سيئوا النوايا، منافقون يكذبون على الله تعالى.

* ومعنى ذلك أن يتعاملوا معهم وفى أذهانهم أن تلك صفاتهم، فلا ينبغى أن ينخدعوا بهم وبما يقولون أو يصدقوهم فيما يزعمون، حتى المعاهدات والمحالفات هم أسرع الناس إلى نقضها، لأن الغدر خلق فيهم على كل حال وفى كل حين.

* وليس سائر أهل الكتاب بأحسن حالا من اليهود، كما نشاهد اليوم فى هذا التحدى السافر لكل ما هو إسلامى على مستوى أى بقعة فى العالم الإسلامى كله شرقه وغربه.

٥ - ويتعلم المسلمون الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات أن الدين الخاتم يجب أن يكون دين كل الناس حتى أهل الكتاب، وأن بقاء أهل الكتاب على دينهم -سواء أكانوا يهودا أم نصارى- يعد معصية منهم لأنبيائهم الذين أخذ الله عليهم العهد أن يبلّغوا أقوامهم بوجوب الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به بمجرد أن يظهر ويدعو الناس إلى الله.

* فأهل الكتاب من اليهود هم الذين كفروا بالله وقتلوا الأنبياء من قبل، وهم الذين عاندوا محمدا ﷺ وكذبوه وحاولوا قتله، وكفروا به، وأحفادهم وأنسالهم هم الذين لا يزالون كافرين بخاتم الأديان وخاتم المرسلين.

* والدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية ينبغى أن يضعوا هذه الاعتبارات فى خططهم للعمل وهم ينشرون الدعوة الإسلامية ويأخذون بمراحلها، ويلتزمون بأخلاقيات الحركة الإسلامية.

بل عليهم أن يراعوا ذلك وهم يضعون أى برنامج للعمل من أجل الإسلام، على كل مستوى من مستويات العمل.

وهم – على كل حال – مطالبون بالتزام أخلاق الإسلام وآدابه وهم يتعاملون مع غير المسلمين عموما (أهل كتاب وغير أهل كتاب) .

٦ – ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات ان : الإله واحد ، والدين واحد ، وان الانبياء جميعا دعوا إلى توحيد الله وعبادته وفق ما شرع ، وان الانبياء جميعًا دعوا إلى قيم خلقية فاضلة ، وأن كل من انحرف عما دعا إليه الأنبياء فقد كفر بما أنزل الله على رسله ، وعصى الله تبارك وتعالى .

* ومعنى ذلك ان ينطلق الدعاة والحركيون فى عملهم من الشعور بهذه الوحدة بين الأنبياء والرسل فى الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن الاتم والاكمل –من الاديان التى جاءت بالتوحيد ولم يدخلها شيء من التحريف أو التبديل– هو دين الإسلام كما جاء به محمد ﷺ .

* وأن كل انحراف عن القيم الخلقية الفاضلة لا يمكن ان يكون مما جاء به اى واحد من الانبياء بحال ، مهما ادعى اتباع نبى من الأنبياء غير ذلك!!!

* وأن ما يمارسه أهل الكتاب من اعمال وحشية فى كثير من بلدان العالم الإسلامى –فى البوسنة والشيشان والجمهوريات المسلمة فيما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى– ليس مما يقره أو يرضاه اى دين ، بل لا تقره الإنسانية نفسها .

* وأن الدعاة والحركيين لابد ان يدركوا هذه الحقائق ليبلغوها الناس ، وليفضحوا بها نوايا اعداء الإسلام من أهل الكتاب ، فضلا عن فضح اعمالهم ، لان هذه الأمور يجب ان يعرفها كل مسلم ، حتى لا ينخدع فى عدو يلبس ثوب الصديق ، او فى كتابىّ يتنكر لآخر الكتب السماوية واتمها واكملها وارضاها لله تعالى ، وهو القرآن الكريم .

١٢- الآيات من السادسة والثمانين إلى الواحدة والتسعين في بيان الكفر بعد الإيمان، وبعض أحكام المرتد، وأنواع المرتدين

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: ٨٦ - ٩١].

- في هذه الآيات الكريمة بيان لحال من ارتد عن الإسلام، ثم ندم فأرسل إلى رسول الله ﷺ يسأل إن كانت له توبة، فجاءت هذه الآيات لتوضح هذا الحكم، وفي بيان حال من ارتدوا ثم لم يتوبوا بل ازدادوا كفرا، او ماتوا وهم كفار، وبيان حكمهم.

- وقد اشتملت الآيات الكريمة على استفهام إنكارى لحال من كفر بعد إيمانه، وتقرير لعدد من الحقائق، وتأكيد لبعض أحكام المرتد عن الإسلام.

وبيان ذلك فيما يلي:

١ - تستنكر الآيات الثلاثة الأولى من هذه الآيات الكريمة سلوك بعض من دخلوا في الإيمان، ثم أغواهم الشيطان فخرجوا منه مرتدين، وهؤلاء ندرة، ولكن قد تكون موجودة في أي وقت.

* وقد قال علماء التفسير وعلماء أسباب النزول في هذه الآيات ما نذكر بعضه فيما يلي:

* قال ابن عباس رضى الله عنهما: نزلت هذه الآية في عشرة رهط كانوا آمنوا، ثم ارتدوا ولحقوا بمكة، ثم أخذوا يتربصون بمحمد ﷺ ريب المنون، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

وكان فيهم من تاب، فاستثنى التائب منهم بقوله تعالى: ﴿إلا الذين تابوا....﴾.

* وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا: أنها نزلت في يهود بني قريظة وبني

النضير ومن دان بدينهم ، كفروا بالنبى ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين قبل مبعثه ، وكانوا يشهدون له بالنبوة، فلما بعث فيهم وجاءهم بالبينات والمعجزات كفروا به بغيًا وحسدًا .

* وذكر الواحدى فى أسباب النزول بسنده عن مجاهد قال : كان الحارث بن سويد قد أسلم ، وكان مع رسول الله ﷺ ، ثم لحق بقومه وكفر ، فأنزلت فيه هذه الآية : ﴿ **كيف يهدى الله قومًا كفروا بعد إيمانهم ...** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **فإن الله غفور رحيم** ﴾ فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه فقال الحارث : والله إنك لصدوق ، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك ، وإن الله لأصدق الثلاثة ، ثم رجع فأسلم إسلامًا حسنًا .

* وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن الرجل ندم فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ : هل لى من توبة ؟ فإنى ندمت ، فنزلت : ﴿ **كيف يهدى الله قومًا كفروا بعد إيمانهم ...** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **إلا الذين تابوا ...** ﴾ فكتب بها قومه إليه ، فرجع فأسلم .

* ومعنى الآية والله أعلم :

كيف يهدى الله قومًا كفروا بعد إيمانهم ، وبعد الشهادة بأن الرسول ﷺ حق ، وقد جاءهم بالبينات ، وهذا ما دعا إلى الاستنكار ، فالله تبارك وتعالى استعظم كفر القوم من حيث إنه حصل بعد خصال ثلاث :

إحداها : بعد الإيمان .

والثانية : بعد شهادة أن الرسول حق .

والثالثة : بعد مجيء البينات .

والكفر بعد هذه الثلاثة يكون أقبح ، لأن مثل هذا الكفر يكون معاندة وجحودًا ، وقد سُموا ظالمين؛ لأن الكفر والشرك ظلم بل ظلم عظيم .

* وهذا يدل على أن زلّة العالم أقبح من زلّة الجاهل .

٢ - وأخبرت الآيات الكريمة أن الله تعالى حكم بأن الذين كفروا بعد إيمانهم يمنعهم الله من الهداية ، وبيان أن أمرهم ليس مقصورًا على الحرمان من الهداية فقط وإنما ذلك عقاب دنيوى فقط ، أما فى الآخرة فلهم عذاب هو اللعن وهو عذاب على سبيل التأبيد والخلود .

* ولعنة الله تعالى تعنى : الإبعاد عن الجنة وإنزال العقوبة بل أشد العذاب .

* واللعنة من الملائكة تعنى قولهم : لعنهم الله .

* واللعنة من الناس تعنى قولهم : لعنهم الله .

وكل ذلك مستحق لهم بسبب ظلمهم وكفرهم ، فكان ذلك جزاؤهم . ﴿ **أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ .

* وقد أخبرت الآيات أن هؤلاء المرتدين يُخَلَّدون فى اللعنة بمعنى : خلودهم فى النار لعظم ما قاموا به من عمل قبيح ، وأنهم لا يخفف عنهم عذابهم ولا يؤخر من وقت إلى وقت ﴿ **ولا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون** ﴾ .

*واستثنت الآيات من ذلك مَنْ تابوا بعد ارتدادهم وأصلحوا باطنهم بأن يكونوا مع الحق، وظاهرهم بأن يكونوا مع الخلق فى العبادات، وأن يعلنوا أنهم كانوا فى حال ارتدادهم على الباطل حتى لا يغتر بحالهم أحد ، فإن فعلوا ذلك رجعوا إلى الإيمان .

- ومعنى غفران الله ورحمته أنه سبحانه غفور لقبائحهم فى الدنيا بالستر عليهم، رحيم بهم فى الآخرة بالعفو .

٣ - وفى الآيات خبر مؤكد بأن الذين كفروا بعد إيمانهم ، ثم ازدادوا كفرًا بإصرارهم على الكفر وإقامتهم عليه لن تُقبل توبتهم، بل يموتون على الكفر، وأولئك هم الضالون على وجه الكمال فى الضلال ، ﴿ **إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون** ﴾ .

* فهؤلاء تابوا توبة فاسدة ، ومن أجل فساد توبتهم فإنها لن تقبل كما قبلت من الذين تابوا توبة مخلصة .

* وقال بعض المفسرين : إن الآية نزلت فى أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد قبل مبعثه ، ثم كفروا به عند مبعثه ، ثم ازدادوا كفرًا بسبب طعنهم فيه فى كل وقت ، ونقضهم ميثاقه وفتنتهم للمؤمنين ، وإنكارهم للمعجزات .

* وقال بعض المفسرين : إن المقصود بالآية اليهود الذين كانوا مؤمنين بموسى عليه السلام ، ثم كفروا بسبب إنكارهم عيسى عليه السلام وإنكار الإنجيل ، ثم ازدادوا كفرًا بسبب إنكارهم لمحمد ﷺ والقرآن الكريم .

* وقال بعضهم : إن الآية نزلت فى الذين ارتدوا وذهبوا إلى مكة ، وازدادوا كفرًا

بقولهم: نقيم بمكة نتربص بمحمد ﷺ ريب المنون .

* وعدم قبول توبتهم بسبب أنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت . قال ذلك : الحسن وقتادة .

أو ان توبتهم رفضت لأنهم يتوبون باللسان دون إخلاص ، فهى توبة فاسدة لاتقبل .

* وقال القفال[1] وابن الأنبارى[2] : إنه تعالى لما قدّم ذكر من كفر بعد الإيمان ، وبين أنه أهل للعنة إلا أن يتوب ، ذكر فى هذه الآية أنه لو كفر مرة أخرى بعد تلك التوبة ، فإن التوبة الأولى تصير غير مقبولة، وتصير كأنها لم تكن.

٤ - وفى الآيات إخبار مؤكد بأن من مات على الكفر لن يقبل عند الله بحال: ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار، فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ، ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين** ﴾.

* **قال الفخر الرازى فى تفسيره «مفاتيح الغيب»: الكافر على ثلاثة أقسام:**

أحدها: الذى يتوب عن الكفر توبة صحيحة مقبولة وهو الذى ذكره الله تعالى فى قوله: ﴿ **إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم** ﴾.

وثانيها: الذى يتوب عن الكفر توبة فاسدة، وهو الذي ذكره الله فى قوله تعالى: ﴿ **إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون** ﴾.

وثالثها: الذى يموت على الكفر من غير توبة البتة، وهو المذكور فى هذه الآية: ﴿ **...وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ...** ﴾ الآية.

* وهؤلاء الذين ماتوا على الكفر ولن تقبل توبتهم، أخبر الله تعالى عنهم أخبارا ثلاثة:

الأول: ﴿ **فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به** ﴾ وذلك أنه سبحانه وتعالى لن يقبل منهم فدية بحال، وفى ذلك نفى مؤكد لقبولهم، علما بأنهم لن يستطيعوا أن يقدموا فدية فى الآخرة - على فرض أن أحدا يستطيع أن يقدم هذه الفدية، أى لاخلاص لهم من العذاب بسبب الفدية.

---

(١) القفال : هو محمد بن على بن إسماعيل الشاشى (٢٩١ - ٣٦٥هـ) كنيته ابو بكر، من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث واللغة والأدب ، وعنه انتشر مذهب الشافعى فيما وراء النهر - موطن القفال - وهو أول من صنف فى الجدل الحسن ، ومن كتبه : أصول الفقه ، ومحاسن الشريعة، وشرح رسالة الشافعى .

(٢) ابن الأنبارى : هو محمد بن القاسم بن بشار (٢٧١ - ٣٢٨هـ) من اعلم اهل زمانه باللغة والأدب ، وكان يحفظ ثلاثمائة الف شاهد من الشعر فى القرآن الكريم ، وله مؤلفات عدة فى اللغة والقراءات وعلوم القرآن ، ومن اشهر كتبه : غريب الحديث ، قيل إنه ٤٥٠٠٠ (خمس واربعون) الف ورقة .

والثانى: «**ولهم عذاب أليم**» وهو وعيد لهم، وقد وصف عذابهم بانه اليم لكل من مات على الكفر.

والثالث: «ومالهم من ناصرين» اى لاخلاص لهم من العذاب بسبب النصرة، او الإعانة. أو الشفاعة.

- المواقف التربوية العامة فى الآيات، وهى كثيرة نذكر منها ما يلى:

١ - أن الذى يؤمن بالله تعالى بعد توافر الأدلة العقلية والنقلية أمامه، ثم يرتد عن الإيمان إلى الكفر، ويحول بذلك بين نفسه وهدى الله يضع نفسه موضع العقاب على هذا الانتكاس.

* فالله تعالى أعطانا التمييز والعقل لندرك ما يحيط بنا ونقتنع بالدلائل والبينات «**وجاءهم البينات**» فنؤمن به سبحانه إلها واحدا خالقا رازقا إليه المصير، فمن تنكر لهذه الدلائل وتلك البينات التى يجيء بها الرسول ﷺ، فكأنما الغى عقله وتنكر لهذه النعمة التى هى مناط التكليف، ولولاها لكان الإنسان كالحيوان!!!

* ومكانة العقل فى الإسلام مكانة عظيمة إذ هو مناط التكليف، كما هو شرط لاستحقاق العقاب.

وما ذكرت آيات القرآن الكريم العقل إلا فى مقام التفخيم والتعظيم، والدعوة إلى وجوب العمل به والاحتكام إليه. وما ذكر العقل فى القرآن الكريم ذكرا عارضا او مقتضبا، وإنما ذكر فى كل موضع ذكر فيه على سبيل التأكيد الجازم فى اللفظ والدلالة.

* ونحاول فى الأسطر التالية ان نضرب على ذلك الأمثال، فنقول:

- يخاطب القرآن الكريم العقل في كل احواله، وأنواع وظائفه العديدة:

* فيخاطب العقل الوازع والعقل المدرك، والعقل المفكر، والعقل الراشد المستوفى لكل هذه الخصائص.

* فالعقل الوازع: يحث على التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل.

* والعقل المدرك: يناط به الفهم والتصور فى مجالات الوازع الأخلاقى، وما لهذه المجالات من أسباب وعواقب، وفى مجالات الإدراك العام للأمور، وفيما ليس له علاقة بالأوامر والنواهى والحسنات والسيئات، أى أن العقل المدرك هو العقل الحكيم.

* والعقل المفكر: هو الذى يقوم بأهم الوظائف وهى الموازنات والحكم على المعانى والأشياء.

* والعقل الراشد: وهو فوق العقل الوازع والمدرك والمفكر، لانه يستوفى جميع هذه الخصائص والوظائف العقلية.

- وفى الخطاب القرآنى للعقل الوازع نجد قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

- وفى خطابه للعقل المدرك نجد قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر: ١٨].

- وفى خطابه للعقل المفكر (الحكيم) نجد قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

- وفى خطابه للعقل الراشد نجد قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد: ١٩].

تلك أهمية العقل فى الخطاب القرآنى، ولعل فى ذلك - وهو قليل من كثير - ما يرد على مزاعم الحاقدين على الإسلام الذين يتهمونه بأنه لم يعط للعقل وزنه ولاقدره، مموهين باطلهم بما يرددون من تسميات مغالطة كقولهم «الغيبيات»، يعنون بها - خطأ - الإيمان بالغيب ووجوب الإيمان بما تدركه الحواس فقط!!!

* إن نعمة الله تعالى علينا بالعقل تستوجب التفكير والموازنة بين الأمور، واختيار الأحسن والأرشد، ولهذا اجمعت كلمة المسلمين على أن الإيمان تقليدا للآخرين لايعد إيمانا، إذ لا إيمان بغير إعمال للعقل، بل لا إسلام بغير إعمال للعقل.

٢ - ويتعلم المسلمون من الآيات أن من الغى عقله - على الرغم من وجود الدلائل والبينات- وعاند وكابر واستسلم لبعض الموروثات، فهو بأسوأ المنازل عند الله تعالى، إذ يستحق الطرد من رحمة الله كما يستحق أن تدعو عليه الملائكة والناس باللعن أى الطرد من رحمة الله تعالى.

* وفى هذا تأكيد لمكانة العقل فى الإسلام ومكانه من الإنسان، إذ الإيمان والإسلام والإحسان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله تعالى لتكون كلمة الله هى العليا، كل تلك المنظومة التى تميز المؤمنين عن سواهم يجب الاقتناع بالقيام بها

وممارستها عمليا بعد الاقتناع بها وبجدواها فى حياة الناس. ولايكفى أن تكون ممارسة هذه المفردات عن تقليد للآخرين.

* ومعنى ذلك أن الإنسان مطالب بأن يعمل عقله فى كل ما يحيط به ليزداد بهذا التعقل والإدراك والتفكر إيمانا ويقينا، ويأخذ حذره من همزات الشياطين، ومن أولئك الذين يريدون أن يقودوه قهرا وخداعا ليتبعهم ويتبع مناهجهم دون تفكير وإدراك.

* وما أكثر الآيات القرآنية الكريمة التى دعت إلى التفكر والتأمل والنظر والتدبر والسير فى الأرض، لأخذ العبرة العقلية التى تجعل الإنسان راشدا فى حياته.(١)

٣ – ويتعلم المسلمون من هذه الآيات أن التائب من الذنب توبة خالصة وبشروطها المعروفة من ندم على ارتكاب الذنب وعزم على عدم معاودته واستغفار الله تبارك وتعالى وخلوص القلب له فى ذلك كله – «التائب من الذنب كمن لاذنب له» كما روى ذلك ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ.

* غير أن التوبة لابد أن يتبعها العمل الصالح، كما صرحت بذلك الآية الكريمة: ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا، فإن الله غفور رحيم﴾.

* وأيا ما كان الذنب الذى ارتكبه الإنسان، فإن التوبة منه بهذه الشروط تجعل الإنسان مغفورا له عند الله، حتى لو كان الذنب كفرا بعد إيمان.

* وهؤلاء الذين آمنوا ثم تابوا عن الكفر، هم نوع من العصاة يتوب الله عليهم؛ إذا أخلصوا التوبة وأقبلوا على الله بنوايا سليمة وإخلاص.

* ومن العصاة نوع ثان: هم الذين أذنبوا وتابوا غير مخلصين فى توبتهم، بل ازدادوا كفرا، وهؤلاء – لإصرارهم على الذنب – لن تقبل توبتهم بل هم فى ضلال عما ينفعهم ويصرف عنهم السوء.

* ومن العصاة نوع ثالث: وهم أولئك الذين كفروا وماتوا على الكفر بعد أن كانوا مؤمنين، هؤلاء لن تقبل توبتهم بحال، وكيف تقبل وقد ماتوا على الكفر؟ هؤلاء أبعدوا عن قبول توبتهم حتى لو افتدى أحدهم نفسه بملء الأرض ذهبا، لو كان هناك افتداء!! بل لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين.

---

(١) سوف نتوسع عن الحديث فى ذلك فى كتابنا: «التربية العقلية» من سلسلة مفردات التربية الإسلامية، أو المدخل إلى التربية الإسلامية، الذي نوشك على دفعه إلى الطباعة بإذن الله تعالى.

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ - أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فقد روى مسلم بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء».

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال فستكون فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع أحدهم دينه بعرض من الدنيا قليل».

* وما دامت القلوب كذلك والناس كذلك، فإن على الدعاة والعاملين فى مجال الحركة الإسلامية أن يتعلموا من ذلك ألا يرتابوا إن صادفهم أحد المدعوين الذين استجابوا لله ولرسوله ثم انتكسوا بعد إيمان، أو انفرط عقد عملهم بعد التزام، وإنما عليهم أن يهيئوا له من ظروف التوبة الخالصة ما يعود به إلى عز الطاعة وحلاوة الإيمان والالتزام، فذلك شأن الدعاة دائما، وليس من شأنهم أن يستمر الناس على الإيمان والطاعة، وإنما شأنهم تحبيب الناس فى الإيمان والطاعة، وأحسن ما يكون ذلك بتوضيح أصول الإيمان وقواعد الإسلام وأسهمه، وأنواع الإحسان وآداب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ووجوب الجهاد فى سبيل الله، وعرض كل ذلك على القلب والعقل، بدعوة القلب إلى التفتح على الحق، ودعوة العقل إلى التأمل والنظر والتدبر، ليصل الناس إلى الإيمان عن طريق العقل.

٢ - ويتعلمون من الآيات الكريمة أن الذين يلغون عقولهم فيعودون إلى الكفر بعد الإيمان، على الرغم من وجود الدلائل والبينات، هؤلاء قوم يعرضون أنفسهم لغضب الله ولعنته وللعنة الملائكة والناس أجمعين، استنكارا لما صدر منهم من كفر بعد إيمان.

* وليس لهؤلاء الذين كفروا بعد إيمان من منقذ إلا توبة خالصة بتلك الشروط المعروفة للتوبة.

* وعلى الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن ييسروا لهؤلاء أسباب التوبة، ويفقهوهم فى شروطها، ويبصروهم بمعنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ... ⑧﴾ [التحريم: ٨].

حيث جعلت الآية الكريمة الوقاية من السيئات - أى تكفيرها - بزوال ما يكرهه الإنسان، بل جعلت دخول الجنة، وهو حصول أغلى وأعز ما يحب الإنسان، جعلت هذا وذلك مشروطا بحصول التوبة النصوح أى الخالصة لله تعالى، وإنما تكون التوبة نصوحا - كما فسرها عمر بن الخطاب، وأبيّ بن كعب[1] رضى الله عنهما - بأنها: «أن يتوب المذنب من الذنب، ثم لايعود إليه، كما لايعود اللبن إلى الضرع».

- وفسرها الحسن البصرى بقوله: «هى أن يكون العبد نادما على ما مضى، مجمعا على أن لايعود فيه».

- وفسرها الكلبى[2] بقوله: «هى أن يستغفر الإنسان باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن» أى يمسك جوارحه عن المعاصى.

- وقال محمد بن كعب القرظى[3]: يجمع التوبة النصوح أربعة أشياء:

الاستغفار باللسان.

والإقلاع بالأبدان.

وإضمار ترك العود بالجنان.

ومهاجرة سيئ الإخوان.

- وقال ابن القيم الجوزى: النصح فى التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لاتدع ذنبا إلا تناولته، وذلك يتعلق بما يتوب المذنب عنه وهو الذنب.

والثانى: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لايبقى عنده تردد، ولا تلوّم ولا

---

(١) هو ابى بن كعب بن قيس من بنى النجار كنيته ابو المنذر(٠٠٠ - ٢١هـ) صحابى من الانصار، كان قبل إسلامه حبرا من احبار اليهود، ولما اسلم كان من كتاب الوحى، شهد بدرا واحداً والخندق والمشاهد كلها، وشهد مع عمر وقعة الجابية، وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس وامره عثمان - رضى الله عنه - بجمع القرآن فشارك فى جمعه، وله فى الصحيحين ٦٤ حديثا، وقد قال عنه النبى ﷺ: «اقرأ امتى ابى بن كعب» وقد مات بالمدينة المنورة.

(٢) الكلبى: سبقت ترجمته فى هذا الكتاب، ص ٤٣.

(٣) هو محمد بن كعب القرظى ابو حمزة (٣٨ - ١١٨هـ) تابعى من عبّاد أهل المدينة، وعلمائها بالقرآن الكريم، وابوه صحابى. وروى محمد بن كعب عن ابن عباس وابن عمر وزيد بن أرقم رضى الله عنهم، وكان يقص في المسجد، فسقط عليه وعلى أصحابه سقف فمات هو وجماعة تحت الهدم، وكان عمره يوم مات ثمانين سنة، وعدّه ابن حبان من الثقات.

انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرا بها، وذلك يتعلق بالتائب نفسه.

والثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها بمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده، وذلك يتعلق بمن يتوب المذنب إليه وهو الله تعالى».

* وعلى الدعاة إلى الله أن يفقهوا الناس بهذه التوبة حتى يقبل الله تعالى توبتهم.

* وعلى الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يعلموا أن بعض من ينضم إلى موكب الدعاة قد يضعف أو يتخاذل أو يضن بجهده أو وقته أو ماله، بل قد ينتكس في بعض الأحيان، فيكون على حال تشبه حال من كفر بعد إيمان، ومن عصى بعد أن تبينت له الدلائل والآيات، ممن ألغوا عقولهم وآثروا الهوى والحياة الدنيا.. وهؤلاء المتراجعون لهم على الدعاة حق، هو أن يحاولوا إعادتهم إلى الحق وإلى الله، وإلى استعادة مكانهم من موكب الدعاة، وما ذلك إلا بتذليل طريق التوبة أمامهم.

٣ - ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية أن من الناس من يزدادون كفارا بعد إيمانهم، أو يتركون طريق الله بعد أن كانوا يسعون فيها، بل قد يتحول بعضهم إلى عداء للدعوة، ويناصب من كان معهم - بالأمس في موكب الدعوة - العداء بل أشد أنواع العداء!!!

* هؤلاء لايقبل الله منهم توبة وقد بارزوه وعادوا دينه، وهذا فى علم الله تعالى، أما ما يجب أن يكون عليه الدعاة والعاملون فى الحركة فهو أن ييسروا لهؤلاء طريق التوبة، وأن يعينوهم على المضى فى طريق الله، تاركين أمر قبولهم أو رفضهم إلى الله تبارك وتعالى.

* إن ذلك واجب الدعاة ما ينبغى أن يحول بينهم وبين أدائه حقد عليهم أو كراهية لهم أو توجس منهم، لأن طريق الدعوة إلى الله لابد أن توجد فيه هذه النماذج، حتى لقد يكون هذا من السنة الدائمة فى العمل والعاملين من أجل الإسلام.

٤ - وعلى الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يبذلوا أقصى ما فى وسعهم لكى لايستمرئ منتكس عن الحق معاد لله ولدعوته ما هو فيه من ضلال وباطل، حتى لايموت على الكفر - أعاذنا الله من ذلك وإياه - فلا يقبل منه ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به.

* إن الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية يأخذون بحُجز الناس عن الوقوع فى

النار، فتلك وظيفتهم التي أورثهم إياها خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ .

– روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «مثلى كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التى يقعن فى النار، يقعن فيها، وجعل يحجزهن، ويغلبنه فيقتحمن فيها، فذلك مثلى ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار: هلمّ عن النار، هلمّ عن النار، فتغلبونى فتقتحمون فيها».

* إن الدعاة إلى الله هم ورثة النبى ﷺ ، وينبغى أن يكون شأنهم دائما أن يأخذوا بحجز الناس عن الوقوع فى النار، ولا عليهم من حرج إن أبى بعض الناس إلا أن يقتحموا النار.

* ياخيبة داعية إلى الله يمل – فضلا عن أن ييأس – من الأخذ بحجز الناس حتى لايقعوا فى النار، مهما كانت ظروف الناس ومهما كانت درجة عنادهم وإصرارهم على الاقتحام فى النار!!!.

١٣- الآية الثانية والتسعون

معظم شرائع الإسلام تدور كلها على محور البر

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

[آل عمران: ٩٢].

- هذه الآية الكريمة جاءت مستأنفة بين: آية ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ...﴾ الآية وبين آية: ﴿كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل..﴾ الآية الآتية بعد ذلك مباشرة.

* والمناسبة التى وقعت فيها هذه الآية مستأنفة هكذا، كما قال المفسرون: إن الآية التى سبقتها بينت أن الذين كفروا لن يقبل من أحدهم أعظم ما ينفق من ذهب يملأ الأرض كلها، وأن هذه الآية بينت ما ينفع أهل الإيمان من بذل المال، وأنه يبلغ بصاحبه مرتبة البر، إذ بين الطرفين مراتب كثيرة يعلمها أهل الفطنة عند التأمل فى هذه المقابلة الهادية المعلمة.

- وفى الآية الكريمة خبر منفى، وفيها أسلوب شرط.

وبيان ذلك فيما يلى:

١ - أما الخبر المنفى فهو قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.

- والبرّ هو التوسع فى فعل الخير..

والبر من العبد هو طاعة لله تعالى..

والبر من الله تعالى هو: الثواب.

- وقد بيّن الله تعالى خصال البرّ الذى يصدر من الإنسان فى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ وذلك برّ فى الاعتقاد.

وهناك بر فى الأعمال تحدثت عنه نفس هذه الآية الكريمة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

* وأجمع معانى البر أنه: الوفاء بما جاء به الإسلام مما يعرض للإنسان فى أقواله وأفعاله وأمره كله.

* والمعنى المقصود من الآية – والله اعلم بمراده – أن من أنفق مما أحب كان من جملة الابرار، وهؤلاء الابرار قد وصفهم الله تعالى بجملة صفات نذكر منها ما يفتح الله به فيما يلي:

– قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) ﴾ [الانفطار: ١٣].

وهذا النعيم هو الجنة، وكان من كلمات أسلافنا رحمهم الله تعالى – إذا أراد أحد منهم أن يطمئن على ماله عند الله – أن يقولوا له: اعرض عملك على كتاب الله، فيقول في أي مكان من كتاب الله؟ فيقولون: على قوله تعالى: ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم** ﴾.

– وقال جل شأنه فيهم وفي وصفهم: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) ﴾ [المطففين: ٢٢–٢٨].

وفي هذه الآية الكريمة وصف لما يناله الابرار من حسن الجزاء يوم القيامة.

– وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) ﴾ [الإنسان: ٥].

وهذا وصف لمشرب الأبرار الصافي من كأس ممزوجة بالكافور.

* فالابرار – كما وصفهم الله تعالى ووصف ما ينالون من جزاء حسن – هم في أعلى منزلة وأرفع درجة في الجنة.

ومن أجل أن يكون المسلم من هؤلاء الابرار، فإن عليه أن ينفق في سبيل الله من كل ما يحب من مال وعقار.

* وكان أسلافنا رحمهم الله إذا احبوا شيئا جعلوه لله تعالى.

ومن أمثلة ذلك:

– ما رواه علماء التفسير عن أبي طلحة وزيد بن حارثة وابن عمر رضي الله عنهم:

قالوا: لما نزلت هذه الآية ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ قال أبو طلحة: يارسول الله: لي حائط بالمدينة وهو أحب أموالي إليّ، أفاتصدق به؟ فقال ﷺ: «بخ بخ، مال رابح، وإني أرى أن تجعلها في الاقربين».

فقال أبو طلحة: أفعل يارسول الله.. فقسمها فى أقاربه.

وروى أن زيد بن حارثة رضى الله عنه جاء عند نزول هذه الآية بفرس له كان يحبه وجعله فى سبيل الله، فحمل عليه رسول الله ﷺ أسامة، فوجد - أى حزن - زيد فى نفسه، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد قبلها».

وروى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه اشترى جارية أعجبته فاعتقها، فقيل له: لم اعتقتها ولم تصب منها؟ فقال: «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون».

- وكلمة البر فى هذه الآية الكريمة تحتمل معنيين:

أحدهما: ما يصيرون به أبرارا، حتى يدخلوا فى قوله تعالى: «إن الأبرار لفى نعيم» أى ما يحصل منهم من الاعمال المقبولة.

والآخر: الثواب والجنة، أى لايحدث هذا الثواب ودخول الجنة إلا بالإنفاق مما يحب الإنسان.

* أن يكون ما نحب هو نفس المال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ⑧﴾ [العاديات: ٨].

* أو أن تكون الهبة التى يهبها الإنسان لغيره رفيعة جيدة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ...﴾ [البقرة: ٢٦٧]

* أو يكون المعنى: مما تحتاجون إليه، قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ⑧﴾ [الإنسان: ٨].

٢ - وأسلوب الشرط يفهم من قوله تعالى: «وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم»، أى أن كل شىء وأدنى شىء ينفق فى سبيل الله، فإن الله تعالى عليم به مكافئ عليه.

* وعلم الله تعالى بهذا الذى يُنفق مهما كان قليلا، وعلمه بنية المنفق وبالوجه الذى أنفق فيه، علمه سبحانه بذلك كله مقطوع به، وفى هذا دعوة للناس إلى الإنفاق مما يحبون.

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآية كثيرة، نذكر منها ما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من هذه الآية الكريمة أن البر - بمعنى ثواب الله تعالى وحسن جزائه - مطلب أسمى يجب أن يعمل الإنسان ما وسعه من أجل الحصول عليه، إذ ليس وراء الجنة مطلب.

* وأن البر بمعنى الأعمال الصالحة يجب أن يمارسه الإنسان فى مجالاته العديدة:

* مجال الاعتقاد: وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

* ومجال الأعمال: إيتاء المال على حبه ذوى القربى واليتامى، والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر فى البأساء والضراء وحين البأس.

* كل هذه الأنواع من البر مطلب شرعى حتى يكون الإنسان من الصادقين فى اعتقاداتهم وأعمالهم، ومن المتقين لكل ما يغضب الله تعالى.

٢ - ويتعلمون من الآية الكريمة أن هذا البر - بمعنى الثواب والجنة - لن يناله الإنسان إلا إذا أنفق ما يحب من المال وغيره من ممتلكات الإنسان مما ينفق فى سبيل الله.

ومن المعروف أن الإنفاق فى سبيل الله لايُعتد به إلا إذا صحبه إخلاص لله أى قُصد به وجهه الكريم، بحيث لايدخل فيه رياء ولا رغبة فى سمعة أو نحوها.

* وفى هذا الإنفاق فى سبيل الله تأمين للمجتمع كله من مخاوفه جميعا، لأن سبيل الله يقصد بها مصالح المسلمين عامة، تلك المصالح التى بها قوام الدين والدنيا، فإذا كان الإنفاق فى سبيل الله لتأمين هذه المصالح جميعا، كان الجزاء عليه هو نيل البر أى الجنة، بعد نيل الأضعاف المضاعفة التى يمنحها الله تعالى للمنفقين فى سبيله، كما تدل على ذلك آيات القرآن الكريم، وكلمات السنة النبوية المطهرة، فقد قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة: ٢٦١].

وروى النسائى بسنده عن خزيم بن فاتك رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة فى سبيل الله كتبت له سبعمائة ضعف».

٣ - ويتعلم المسلمون من الآية الكريمة أن كل أنواع الخير التى يقدمها المسلم، مهما كانت قليلة أو صغيرة أو خافية وقد منحت فى السر، فإن الله تعالى عليم بها، ومجاز عليها أحسن الجزاء، وهذا يزرع فى نفس المؤمن الثقة فى أن شيئا من العمل الصالح الذى يُقصد به وجه الله لن يضيع، لأن الله تعالى يجازى على الخير خيرا حتى لو كان قدر ذرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧)﴾ [الزلزلة: ٧].

* إن المسلم ما ينبغى أن يستهين بأدنى عمل صالح يعمله، فإن كل عمل صالح يسهم فى دفع حاجة عن محتاج ويسهم فى بناء المجتمع بناء إسلاميا صحيحا، ولو كان العمل الصالح شق تمرة، بل لو كان كلمة طيبة.

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى الآية الكريمة غير قليلة نذكر منها ما يلى:

١ - يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية أنهم لن ينالوا البر - الثواب والجنة - حتى ينفقوا مما يحبون.

* وهذا المحبوب الذى ينفق منه الدعاة والحركيون، وإن كان ينصرف إلى المال - كما هو معروف - إلا أنه يشتمل فى مجال الدعوة والحركة أمورا أخرى، نشير إلى بعضها فيما يلى:

* الوقت: وهو تلك الساعات أو الأيام التى ينفقها الدعاة والحركيون فى سبيل الله: دعوة وحركة وتنظيما وتربية وعملا على التمكين لدين الله فى الأرض، ومحافظة على هذا التمكين بعد الوصول إليه.

كل ذلك الوقت - الذى قد يستغرق سنين - مما يحبه الإنسان لأنه على وجه الحقيقة هو حياته الدنيا نفسها، والإنفاق منه برّ عظيم.

* والجهد: وهو الطاقة بكل أنواعها التى ينفقها العاملون من أجل الإسلام فى مختلف مجالات العمل الدعوى والحركى والتنظيمى والتربوى، على كل مستوى من مستوياته ومرحلة من مراحله.(١)

* والصبر على ما يعانيه الدعاة والحركيون من متاعب وأوجاع فى ممارسة الدعوة إلى الله، من خلال العقبات التى توضع فى طريقهم والمحن التى يتعرضون لها من أعداء الله وأعداء العمل الإسلامى سواء أكانوا صليبيين أم صهيونيين أم من غافلى المسلمين.

والصبر على كل ذلك مطلب، ولابد أن يتحمل العاملون من أجل الإسلام كل عناء وأن يصبرو أو يصابروا ويرابطوا ويتقوا الله لعلهم يفلحون.

٢ - وعلى الدعاة والحركيين أن يعلموا الناس حب الإنفاق فى سبيل الله، بل حب الإنفاق فى سبيله من كل ما يحبون، لأن العمل من أجل الإسلام لايربو ولايزكو إلا بالإنفاق فى سبيل الله من المال والوقت والجهد، وكل ما من شأنه أن يُنفَق فى سبيل الله تعالى.

* وعلى الدعاة والحركيين أن يؤكدوا للناس أن العمل من أجل الإسلام، لايؤتى من

---

(١) للتعرف على تلك المستويات والمراحل: انظر المؤلف: فقه الدعوة إلى الله، جزءان: نشر دار الوفاء بمصر ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

موضع ألم ووجع بمثل ما يؤتى من البخل والضن بالمال والجهد والوقت والنفس.

* وما تقدم العمل من أجل الإسلام فى زمن من الأزمان أو فى مكان من الأمكنة إلا بالتضحية بالمال والجهد والوقت والحياة نفسها.(١)

٣ – ويتعلم المسلمون دعاة وحركيين من هذه الآية الكريمة ان ما انفقوا من شىء فى سبيل الله فإن الله عليم به مكافئ عليه أحسن مكافاة.

وهذا العمل من أجل الإسلام، يشمل كثيرا من الأعمال ربما لاينتبه إليها بعض الدعاة، ونحاول هنا أن نذكر منها بعضا من كل كبير، والله المستعان.

* العمل الواضح الجلى الذى يمكن أن يراه الناس، كإنفاق المال والجهد والوقت، وما أشرنا إليه آنفا.

* والعمل الخفى الذى يُقصَد به وجه الله تعالى، ولايطلع عليه أحد من الناس، ومثال ذلك ما يلى:

– التفكير المستمر فيما يثرى العمل من أجل الإسلام ويطوره ويحسنه ويجعله أكثر نفعا للمسلمين وأكثر إرضاء لله تعالى.

– وحمل الهموم من أجل الإسلام وعدم الضيق بهذه الهموم، وإنما يبذل الجهد للتغلب عليها.

– وتحليل واقع المسلمين اليوم، والتعرف على نقاط الضعف فى تدينهم، وفي أسباب عيشهم، والإسهام فى رسم الخطة أو الخطط للتغلب على هذه الأمور.

– والتفوق العلمى فى أى مجال يستطيع الداعية ان يتفوق فيه؛ لأن صوت الإسلام لن يُسمع ولن تصيخ له الآذان إلا إذا صدر من علماء متبحرين فى مجالات العلوم المتعددة.

– والإعداد والاستعداد للعمل من أجل الإسلام، فى كل مجال يحتاج فيه المسلمون إلى إعداد واستعداد، لمواجهة الأعداء من كل شكل ولون الذين نعلمهم والآخرين الذين لايعلمهم إلا الله.

– والإسهام بكل جهد ممكن فى تربية النشء على أخلاق الإسلام وهديه، وعلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

– والالتزام الدقيق بمنهج الإسلام فى الحياة، فى مجال الفرد والأسرة والأقارب والأرحام والمجتمع كله.

---

(١) انظر للمؤلف: ركن التضحية من أركان البيعة، من سلسلة: فى فقه الإصلاح والتجديد عن الإمام حسن البنا: نشر دار النشر والتوزيع: ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م.

١٤- الآيات من الثالثة والتسعين إلى الحادية بعد المائة

جدل بني إسرائيل بالباطل وموقف المؤمنين منهم

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

[آل عمران: ٩٣- ١٠١].

- فى هذه الآيات الكريمة توضيح لموقف بنى إسرائيل من الأنبياء عليهم السلام، وبيان لجدالهم وافترائهم الكذب على الله وكفرهم بآياته، وصدهم المؤمنين عن سبيل الله، ورغبتهم فى إضلال الناس عن الصراط المستقيم..

وفى الآيات إيجاب حج بيت الله على من استطاع إليه السبيل..

وفيها تحذير للمؤمنين من الانخداع بأهل الكتاب، وتأكيد على رغبتهم فى إعادة المؤمنين إلى الكفر بعد الإيمان، وبعد ان تليت عليهم آيات الله وأنعم الله عليهم برسوله الخاتم ﷺ.

وفى الآيات دعوة إلى الاعتصام بالله من أجل الاهتداء إلى الصراط المستقيم.

- وفى الآيات الكريمة أخبار وأوامر ونواه، وفيها أكثر من استفهام وأكثر من أسلوب شرط، مما سنوضحه فيما يلى، والله المستعان.

١ - يخبر الله تعالى فى هذه الآيات عن بنى إسرائيل وجدلهم مع النبى ﷺ، وإثارتهم الشبهات حوله وحول دينه ونبوته ﷺ.

* ومن هذه الشبه التى أثاروها:

قولهم لرسول الله ﷺ: إذا كنت يا محمد على ملة إبراهيم والنبيين من بعده - كما تدعى - فكيف تستحل ما كان محرما عليه وعليهم كلحم الإبل؟

وما دمت قد استحللت ما كان محرما عليهم فليس لك أن تدعى أنك مصدق لهم وموافق لهم فى الدين، ولا أن تقول: إنك أولى الناس بإبراهيم أنت ومن آمن معك[1].

هذه شبهتهم، وهى واهية وقد تكفلت الآيات الثلاثة الاول من هذه الآيات بالرد على تلك الشبهة على النحو التالى:

الإخبار بأن كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل ولإبراهيم من قبلهم، ثم حرم الله عليهم بعض الطيبات فى التوراة عقوبة لهم وتأديبا، كما يُفهم ذلك من قوله تعالى ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١)** ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

والمراد بإسرائيل فى الآية شعب إسرائيل – كما هو مستعمل عندهم – لا يعقوب نفسه.

ومعنى تحريم الشعب الإسرائيلى ذلك على نفسه أنه ارتكب الظلم واجترح السيئات التى كانت سبب التحريم، كما دلت على ذلك الآية الكريمة: «**فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات...**» فكان التحريم تأديبا لهم، إذ الأصل فى الأطعمة الحل، إلا ما ورد دليل بتحريمه، ومحمد ﷺ وأمته لم يجترحوا السيئات، فلم يحرم الله عليهم من الأطعمة شيئا من الطيبات.

* ثم أخذ الرسول ﷺ يدفع حججهم ويرد شبههم فأمره الله تعالى أن يقول لهم: ائتوا بالتوراة – التى تزعمون أن هذا الطعام محرم فيها – فاتلوها علىّ إن كنتم صادقين فى دعواكم تحريم لحم الإبل، فلم يستطيعوا، لخلو التوراة من ذلك، وكذبهم وتضليلهم.

وفى هذا دليل على صدق نبوة محمد ﷺ إذ أخبرهم بخلو التوراة من هذا التحريم الذى زعموه، ولم يكن ﷺ قرأ التوراة لأنه النبى الأمى ﷺ!!!

٢ – وإخبار من الله تعالى بأن من افترى على الله الكذب بعد هذا البيان – وبعد أن لزمتهم الحجة وسقطت دعاواهم الباطلة وشبهاتهم الكاذبة، وعجزوا عن إثبات صدق ما زعموا – فكانوا بذلك ظالمين لأنفسهم وللحق نفسه: «**فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون**»، وقد قررت الآية هذه الحقيقة من خلال أسلوب الشرط: «**فمن افترى على الله الكذب فأولئك هم الظالمون**». وتلك حقيقة مستمرة إلى يوم القيامة وفى كل أمة من الأمم لا فى اليهود وحدهم.

---

(١) ذلك إشارة إلى قول الله تعالى: «إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا...» الآية ٦٨ من هذه السورة وقد شرحناها آنفا.

٣ – وفى الآيات أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ بأن يخبر اليهود بصدق الله فيما أنباه به من عدم تحريم شيء على إسرائيل قبل أن تنزل التوراة، مما يؤكد صدق رسالته ﷺ، بدليل أنه عرف كذبهم وألزمهم الحجة. ﴿قل صدق الله﴾ أى فى كل ما أنبأ، مما يدينكم ويفضح كذبكم.

٤ – وفى الآيات أمر الله لرسوله ﷺ – بعد أن تبين كذب اليهود – بأن يقول لهم: اتبعوا ملة إبراهيم حنيفا، وقد كانت ملته خالية من الغلو وخالية من التقصير، لأن دينه دين الفطرة القويمة والإخلاص لله وإسلام الوجه له وحده.

فهذا هو إبراهيم عليه السلام الذى لم يشرك بالله شيئا: **﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾**.

٥ – ومن الشُبَه التى أثارها اليهود:

قولهم: إن الله وعد إبراهيم بأن تكون البركة فى نسله من ولده إسحق!!! وجميع الأنبياء الذين هم من ولد إسحاق كانوا يعظمون بيت المقدس ويصلون إليه ... فلو كنت يا محمد مثلهم وعلى ما كانوا عليه لعظمت ما عظموا، ولما تحولت عن بيت المقدس، وعظمت مكانا آخر واتخذته مصلى وقبلة – وهو الكعبة – فأنت بذلك قد خالفت الأنبياء!!!

* وقد رد الرسول ﷺ على هذه الشبهة بأخبار مؤكد فى قوله تعالى: **﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين﴾**.

أى أن البيت الحرام الذى نستقبله فى صلاتنا هو أول بيت وُضع معبدا لله تعالى يتعبد فيه الناس، وقد بناه إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام من أجل عبادة الله فيه.

أما بيت المقدس فقد بُنى بعد ذلك بقرون، إذ بناه سليمان بن داود عليهما السلام.

– فالنبى محمد ﷺ وهو يصلى إلى البيت الحرام على ملة إبراهيم.

– والأولوية للبيت الحرام على بيت المقدس أولوية زمان وأولوية مكانة وشرف.

* أما أولوية الزمان؛ فلأنه أول بيت وضع للناس ولم يسبقه فى ذلك بيت آخر لعبادة الله.

* وأما أولوية المكانة والشرف؛ فلأن الذى بناه هو إبراهيم أبو الأنبياء وولده إسماعيل، ورفعا قواعده، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) ﴾ [البقرة: ١٢٧].

ولايُستشكل على ذلك بالحديث النبوى الشريف الذى رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى ذر رضى الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أول بيت وضع للناس فقال: «المسجد الحرام، ثم بيت المقدس، فقيل كم بينهما؟ قال: أربعون سنة»، مع أن الفارق الزمنى بين إبراهيم وسليمان عليهما السلام أكثر من ألف سنة!!!

لايستشكل على ذلك بهذا الحديث الشريف؛ لأن هناك رواية تقول: إن إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى بيت المقدس بعدأن بنى البيت الحرام بمكة.

وهناك رواية تقول: إن يعقوب - إسرائيل - هو الذى بنى بيت المقدس، وأن سليمان عليه السلام جدّده فقط ولم ينشئه، والأربعون عاما تكفى لتكون فاصلا زمنيا بين إبراهيم ويعقوب عليهما السلام.

٦ - وقد وصف الله تعالى البيت الحرام فى هذه الآيات وحدد له خصائص هى:

أنه مبارك، وأنه هدى للعالمين، وأن فيه آيات بينات، وأن من دخله كان آمنا.

وبيان هذه الصفات الأربع كما يلى:

«مبارك» أى أفاض الله تعالى عليه من البركات والثمار، بل ثمار كل شيء على الرغم من أنه فى واد غير ذى زرع، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص: ٥٧]. وهذه هى الصفة الأولى.

«وهدى للعالمين» لأنه مهوى أفئدة الناس يأتونه للحج والعمرة مشاة وركبانا ومن كل فج بعيد، وكان هذا قبل الإسلام، أما بعد الإسلام فإنه القبلة التى يتجه إليها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها وهم يصلون الفرائض الخمس فى كل يوم وليلة.

وأى هداية أعظم من ذلك؟ لقد كان تلك دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ **رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وتلك هى الصفة الثانية.

والصفة الثالثة للبيت الحرام هى:

«وفيه آيات بينات»: أى دلائل ظاهرة لاتخفى على أحد، ومن هذه الدلائل ما يلى:

- **«مقام إبراهيم»** أى موضع قيامه فى العبادة والصلاة، والعرب يعرفون ذلك بالنقل المتواتر، وفى هذا دليل على أنه أول بيت وضع للناس ليعبدوا الله فيه، أو موضع قدم إبراهيم

عليه السلام وهو يبنى البيت، إذ كان يقف على حجر.

والصفة الرابعة:

هي: «ومن دخله كان آمنا» وتلك آية لايجادل فيها احد، وهي باتفاق قبائل العرب - قبل الإسلام - على احترام البيت وتقديسه وتعظيمه لنسبته إلى الله تعالى.

والمعنى أن من دخله كان آمنا، أى يأمن على نفسه من الاعتداء أو الأذى، بل يأمن أن يثأر منه من سفك هو دم أحد أوليائه، كان هذا فى الجاهلية وأقره الإسلام.

٧ - وفي هذه الآيات إيجاب الحج على كل مسلم يستطيع السبيل إلى البيت الحرام، والاستطاعة هى القوة على أداء المناسك والزاد والراحلة، وإمكان الوصول إليه، مع قضاء الديون ورد الودائع وتأمين نفقة من تجب نفقته عليه في فترة الحج، أوجب الله تعالى هذا بقوله تعالى: «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ...».

٨ - وفى الآيات الكريمة حكم بالكفر بإحدى الحقائق المتعلقة بما جاء فى القرآن الكريم عن البيت الحرام وهى:

- أنه أول بيت وضع للناس..
- وأن فيه آيات بينات..
- أو استحل حرمة من دخله فقتله أو آذاه..
- أو كفر بأن الحج واجب على المستطيع.

من جحد شيئا من ذلك أو جحده كله فقد كفر بما قال الله ووزره على نفسه، وإن الله تعالى لغنى عنه وعن إيمانه: «ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين».

٩ - وفى الآيات الكريمة أمر من الله لرسوله بأن يوبخ أهل الكتاب على كفرهم به، لعلمهم فى كتبهم بصدق نبوته ﷺ ومطالبة رسلهم وكتبهم لهم بأن يؤمنوا به ويتبعوه: «قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون».

* وآيات الله التى كفروا بها هى الدلائل على صدق نبوة محمد ﷺ، وعلى أن أول بيت وضع للناس هو البيت الحرام، وعلى أن محمدا ﷺ يحيى ملة إبراهيم عليه السلام، تكفرون بكل هذا، والله تعالى شهيد ومطلع على عملكم هذا، وعلى سائر أعمالكم ومجازيكم عنها، فكان ينبغى أن تخافوا عقابه.

* وهذا سبب التبكيت والتوبيخ.

* والاستفهام في قوله تعالى: «لم تكفرون بآيات الله»؟ خرج عن معناه الحقيقى إلى التوبيخ.

١٠- وفى الآيات الكريمة أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ بأن يقيم الحجة على أهل الكتاب لكذبهم، وأن يوبخهم على صدهم الناس عن الإيمان بدين محمد ﷺ، وزعزعتهم من آمن فعلا به بإلقاء الشبهات أمامهم، كل ذلك بسبب حسدهم وحقدهم على رسول الله ﷺ وحبا فى البغى وفى الفساد: ﴿ **قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون** ﴾.

* وفى صدهم المؤمنين عن الإيمان وبث الشبهات والفتن فيهم ما رواه ابن جرير فى تفسيره، «جامع البيان» بسنده عن زيد بن أسلم قال[1]: «مرّ شاس بن قيس - وهو شيخ من يهود قد عتا فى الجاهلية وكان عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم - مرّ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الاوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وإلفهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام - بعد الذى كان منهم من العدواة فى الجاهلية - فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم - إذا اجتمع ملؤهم بها - قرار، فامر فتى شابا من اليهود - كان معه - فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم وذكرهم يوم بعاث وماكان قبله، وأنشدْهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار - وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر للأوس على الخزرج - ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيّين على الركب - أوس بن فيظى أحد بنى حارثة بن الحارث بن أوس، وجبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج - فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة.

وغضب الفريقان وقالوا: قد فعلنا: السلاحَ السلاحَ، موعدكم الظاهرة - والظاهرة الحَرَّة - فخرجوا إليها وتحاور الناس، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية.

فبلغ ذلك النبى ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال

---

(١) هو زيد بن أسلم، ابوه أسلم كان مولى لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما، وزيد فقيه سكن المدينة، حافظ لحديث رسول الله ﷺ روى عنه الستة، وروى هو عن أبيه، وعن ابن عمر وعائشة وجابر رضى الله عنهم، وهو ثقة وثقه احمد وابو زرعة وابو حاتم ومحمد بن سعد والنسائى، توفى زيد بن أسلم سنة ١٣٦هـ.

لهم: يامعشر المسلمين، اللهَ اللهَ، أتدعون بدعوى الجاهلية وأنا بين اظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام؟ وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم من الكفر، وألف بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا؟

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس وما صنع.

قال ابن جرير فأنزل الله تعالى فى شاس بن قيس وما صنع: «**يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله...**» إلى آخر الآيتين السابقتين.

* وأورد الزمخشرى هذه الرواية فى تفسيره مختصره، وقال فى آخرها: فما كان يوم أقبح أولا وأحسن آخراً من ذلك اليوم.

١١- وفى الآيات تحذير للمؤمنين من ان يطيعوا بعض الذين أوتوا الكتاب فيرتدوا بهذه الطاعة لهم كافرين: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم ايات الله وفيكم رسوله...** ﴾.

* والمراد بالكفر فى هذه الآية هو العداوة والبغضاء التى كان الكفر سببا فيها.

* والمراد بالإيمان فى هذه الآية هو الألفة والمحبة التى هى ثمرة يانعة من ثمرات الإيمان.

ويكون المعنى بناء على ذلك: أن أهل الكتاب قد سلكوا سبل التأويل فى الكتاب فحرفوه، وانصرفوا عن هدايته إلى تقاليد وضعوها لأنفسهم، فإذا أطعتموهم وسلكتم مسالكهم فإنكم تكفرون بعد إيمانكم[1].

* وقد يكون المراد بالكفر حقيقته.

والمعنى: أن المؤمنين إذا أصغوا إلى ما يلقيه اليهود فى روعهم من مثيرات الفتن، واستجابوا لما يدعونهم إليه فأطاعوهم، فإن اليهود لا يقنعون منهم بالعودة إلى ما كانوا عليه من العداوة والبغضاء، بل يتجاوزن ذلك إلى ما وراءه وهو دعوتهم إلى الكفر الحقيقى وليس مجرد العداوة والتناحر.

---

(١) الشيخ محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا: تفسير المنار: ٤ / ١٧.

ويؤيد ذلك المعنى قوله الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ...﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقوله جل شأنه: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ (٦٩)﴾ [آل عمران: ٦٩]، وقد سبق أن شرحناها في هذا الكتاب.

١٢- وفي الآيات استفهام يحمل معنى الإنكار والاستبعاد موجه إلى المؤمنين، خشية أن يستجيبوا لليهود أهل الفتنة: ﴿**وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله**﴾؟

* هذا الأسلوب القرآني يستنكر على المؤمنين أن يطيعوا أهل الكتاب، ويتبعوا أهواءهم، مع أن المؤمنين لايجوز لهم ذلك لسببين:

أولهما: أن آيات الله تتلى عليهم، وهذه الآيات - وهي القرآن الكريم - هي التي تحفظ الإيمان وتساعد على الهداية.

والآخر: أن رسول الله ﷺ قائم فيهم يعلم ويبين ويهدى، ويسنّ لهم أحسن السبل وأفضل الطرق.

* فلا يجوز للمؤمنين أن يتبعوا ﴿أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾ [المائدة: ٧٧]

وهذه الآية الكريمة مرتبطة بقصة شاس بن قيس اليهودي التي ذكرناها آنفا، وعلى المسلمين أن يحذروهم ويحذروا الاستجابة لأهوائهم وضلالهم.

* قال قتادة في تأويل آية: ﴿**وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله**﴾: في هذه الآية علمان بيّنان: كتاب الله، ونبي الله.

فأما نبي الله فقد مضى..

وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهرهم رحمة منه ونعمة، فيه حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته»[1].

١٣ - وتختم هذه المجموعة من الآيات الكريمة بتقرير حقيقة كبرى هي: «**ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم**».

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم: ٤ / ١٥٦ ط الشعب دون تاريخ.

* والاعتصام: الاستمساك، وإنما يكون بكتاب الله إذ هو حبله الممدود، وتنزيله المحفوظ، والرسول ﷺ هو الذى بلغ هذا الكتاب، وسنته ﷺ هى المفصلة لما أُجمل فى القرآن الكريم.

* و﴿ **فقد هدى إلى صراط مستقيم** ﴾ يعنى هُدى إلى طريق لا يضل فيه السالك، حيث يترسخ إيمانه ويزكو إسلامه، فلا تروج عنده الشبهات ولاينخدع عن الحق بالأباطيل والترهات.

* وقد قُرِّرَتْ هذه الحقيقة من خلال أسلوب شرط أداته: من، وفعله: يعتصم، وجوابه: فقد هدى إلى صراط مستقيم، وجاء الجواب على صيغة الفعل الماضى؛ لتأكيد هدايتهم لما يدل عليه الفعل الماضى من الثبات والدوام وتحقق الوقوع.

اى من اعتصم بالله فقد تحققت هدايته.

- **المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يلى:**

١ - ان الأصل فى الطعام والشراب والملبس والمركب والمأوى هو الحل وجواز الاستمتاع به، ولايُستثنى من هذا الأصل إلا ما يضر الإنسان فى معاشه أو معاده، أو ما يترتب عليه خروج عن أمر الله ونهيه. لأن الله تعالى يحل الطيبات ويحرم الخبائث.

وهذا الأصل تترتب عليه أمور هامة، منها ما يلى:

* أن التحليل والتحريم ليس لأحد إلا لله سبحانه بما أوحاه إلى رسوله ﷺ.

* وأن الذين يحرمون على أنفسهم دون تشريع من الله مخطئون سواء أكانوا بهذا التحريم يضيقون على أنفسهم زهداً أم انصرافا عن الدنيا أم استطالة على مقام التشريع.

* وأن الذين يحلون لأنفسهم ما حرم الله يرتكبون نفس الخطأ.

٢ - ويتعلم المسلمون من الآيات الكريمة ان شأن اليهود دائما التضليل والكذب والتقوّل على الله سبحانه وتعالى وعلى أنبيائهم، وأن ما حرم عليهم من الطيبات، إنما كان عقوبة لهم وحدهم وتأديبا رادعا على ما ارتكبوا من جرائم في حق الله تعالى وحق رسله.

وان هذه العقوبة بتحريم بعض الطيبات لاتنسحب على المسلمين؛ لأنهم لم يجترحوا السيئات التى اجترحها اليهود.

٣ – ويتعلم المسلمون من الآيات طلب الدليل من المدّعى، ومجادلته بالتى هى أحسن حتى يتضح الحق. ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ أى فى دعواكم التى تدعون، وان من الظلم بل من أظلم الظلم افتراء الكذب على الله سبحانه وتعالى، فى صغير أو كبير من الأمر.

٤ – وان النبى ﷺ والمسلمين هم أولى الناس بإبراهيم وملته الحنيفية المبنية على الإخلاص لله وإسلام الوجه له، وأن ما يدعيه اليهود من مخالفة النبى ﷺ وملته باطل، وأنهم - أى اليهود - لو كانوا مؤمنين حقا لاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا، ولكنهم خرجوا بأعمالهم عن هذه الملة.

٥ – ويتعلمون من الآيات أن بيت الله الحرام هو أول بيت وضع للناس، لعبادة الله، وأن إبراهيم وولده إسماعيل هما اللذان بنياه، ورفعا قواعده، وأنه تميز عن غيره من الاماكن التى يُعبد الله فيها بأنه مبارك تتضاعف فيه أجور العمل الصالح من صلاة ونحوها، وتلك هى البركة المعنوية، وأنه يُجبى إليه ثمرات كل شىء وتلك هى البركة الحسية، وأنه هدى للعالمين، وأن فيه آيات بينات : مقام إبراهيم، وأَمْنُ مَنْ دخله ووجوب حجه على كل مستطيع.

٦ – ويتعلمون من الآيات أن من جحد شيئا مما جاء به الرسول ﷺ، أو جحد نعمة أنعمها الله عليه، فإنما يسيىء إلى نفسه، ولايضر الله فى شىء، لأن الله تبارك وتعالى ليس فى حاجة إلى طاعة طائع، ولاتضره معصية عاص، وإنما هى أعمال الناس يحصيها عليهم ثم يحاسبهم عليها.

تلك حقيقة مؤكدة بالنصوص الإسلامية الكريمة.

٧ – ويتعلمون من الآيات أن أهل الكتاب لهم صفات واضحة فى هذه الآيات يجب أن يعرفها المسلمون ويحذروهم من أجلها، وهى :

* أنهم يكفرون بآيات الله سواء منها ما كان دالا على نبوة محمد ﷺ، أم ما كان دالا على أن البيت الحرام أول بيت وضع للناس، أم ما كان دالا على صدق نبوة محمد ﷺ، أم ما كان دالا على أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفا مسلما ولم يك يهوديا ولا نصرانيا.

* وأنهم لايخافون الله تعالى لعلمهم أنه مطلع عليهم ومجازيهم.

* وأنهم يصدون عن سبيل الله من آمن، مستهدفين اعوجاج طريق المؤمنين.

* وأنهم يعرفون ان الطريق السليم والصراط المستقيم هو ما جاء به الأنبياء من توحيد الله وعبادته وفق ما شرع.

٨ - ويتعلمون من الآيات ان المؤمنين يجب عليهم الا يطيعوا احدا من هؤلاء اليهود، سواء في ذلك قدماؤهم أومعاصروهم ومن سيأتون بعد ذلك، فتلك طبائعهم.

* وأن المؤمنين الذين اخلصوا دينهم لله يستعصى عليهم ان يعودوا إلى الكفر بعد ان انقذهم الله منه لأسباب كثيرة منها:

أنهم تتلى عليهم آيات الله، وأنهم قد أكرمهم الله برسوله ﷺ بهديه وشريعته، بعد أن كان فيهم بشخصه.

٩ - ويتعلمون من الآيات الكريمة أن الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو الهدى وهو الصراط المستقيم.

وتلك حقيقة مؤكدة بنصوص إسلامية كثيرة، وهى صالحة للتعامل بها فى كل زمان ومكان.

- **والمواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى الآيات كثيرة نذكر منها ما يلى:**

١ - يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية أن عليهم أن يعلموا الناس أن أحدا من البشر - كائنا من كان - لايستطيع أن يزيد فى هذا الدين ولا أن ينقص منه، ولا أن يحرم أو يحل شيئا، لأن ذلك من شأن المشرِّع وحده، وكل دعوى من اى أحد فى هذا المجال مردودة تحمل أسباب رفضها.

وأن من يزعمون شيئا من ذلك أفاقون لايملكون على دعاواهم ادنى دليل.

٢ - ويتعلمون ان الكذب على الله والكذب عموما من اظلم الظلم، بل هو ردى لصاحبه وسبب من أسباب دخول جهنم. فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ... وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا».

والكذب ظلم، والظلم ظلمات يوم القيامة، فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الظلم ظلمات يوم القيامة».

٣ - وعلى الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية ان يعلموا الناس تعظيم البيت الحرام،

وحجه لمن استطاع إليه سبيلاً، وأن هذا البيت الحرام مبارك، فيه هدى للعالمين أجمعين، وانه أول بيت وضع للناس على خلاف ما يزعم اليهود، وأن تعظيم هذا البيت من الإيمان، وأن الله تعالى قد جعله مثابة للناس وأمنا، وقياما للناس وحاجزا يحجزهم عن الشر والجرم، حتى لو لقى أحدهم قاتل أبيه فيه.

٤ - وعليهم أن يعلموا الناس أداء حجة الإسلام التي فرضها الله على المستطيع، ويفقهوهم بأن من استطاع الحج فلم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا، وذلك أن الحج ركن من أركان الإسلام.

وحسب الحاج شرفا ومكانة عند الله تعالى، أنه إن حج من مال طيب ولم يرفث ولم يفسق عاد من حجته كيوم ولدته أمه، أى مغفورا له ما تقدم من ذنبه.

وحسبه برًا وأجرا أنه يعبد الله فى البيت الحرام عبادة لا تؤدى إلا فيه وهى الطواف بالبيت والصلاة فى مقام إبراهيم عليه السلام، والسعى بين الصفا و المروة.

وحسبه شرفا أن يستلم الحجر الأسود ويقبله، فذلك رمز لتجديد البيعة لله على الطاعة وإقامة الدين وإخلاص العمل لله.

ثم حسبه أن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة أو أجر.

ثم حسبه أن يرى إخوانه المسلمين من كل بقاع الأرض ليتعارف بهم ويتعاون معهم، ويقدم لهم ما يستطيع من عون، ويتبادل معهم الخبرات فى مجال العمل من أجل الإسلام.

٥ - ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية أن أهل الكتاب قديما بصفاتهم وطبائعهم هم أهل الكتاب حديثا، ليمارسوا معهم الدعوة إلى الله ويحاولوا هدايتهم دون أن ينخدعوا بهم، وبما يزورون من كلام، ولا بما ينصبون من شراك للإسلام والمسلمين.

إن الدعاة يجب أن يحرصوا على هدايتهم؛ لأن ذلك هو الأصل فى الدعوة إلى الله.

٦ - ويتعلم الدعاة والحركيون من الآيات الكريمة أن يكونوا على حذر وفى خوف من أن تتقلب قلوبهم، فيرتدوا عن الإيمان أو ينتكسوا أو يقعدوا عن الدعوة إلى الله، وكل ذلك وارد، وأبواب هذا الارتداد أو الانتكاس أو القعود كثيرة.

منها: الانخداع بما يزين الشياطين من الباطل سواء أكان هؤلاء الشياطين من الإنس أم من الجن.

ومنها: الإعجاب بأعمال الكفار وأقوالهم وتقليدهم فى ملابسهم ومآكلهم ومشاربهم وعاداتهم المخالفة للإسلام.

ومنها: الرغبة فى العيش بعيدا عن دار الإسلام، وإيثار بلاد الغرب على بلاد المسلمين فى الشرق أو فى الغرب.

ومنها: الانخداع بمقولات أعداء الإسلام وقبول الشبه والاباطيل التى يبثونها فى طريق المسلمين.

ومنها: الاستجابة لبعض الأضاليل التى يرددها غافلوا المسلمين وجهلتهم أو المنحرفون منهم عن سبيل الله.

٧ - ويتعلم الدعاة والحركيون أن الاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، هو المخرج من الضيق والحل لكل مشكل والنجاة من عذاب الله.

* وأن الاعتصام بكتاب الله ليس كلمة تقال أو شعارا يرفع وإنما هو عمل دائب وخطوات ثابتة راسخة فى سبيل الإصلاح بل منهج متكامل في إصلاح الدين والدنيا.

* وأن الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ يعنى مفردات هامة في حياة كل مسلم، نشير إلى بعضها فيما يلى:

أ - الالتزام بمنهج الإسلام فى القول والصمت والعمل والترك، بإلزام النفس بكل الفضائل التى دعا إليها الإسلام، مع اجتناب كل الرذائل التى نهى عنها.

ب - والحرص على أن يلزم الأهل والولد بالإسلام فى كل شئون حياتهم حتى يقوهم النار، كما أمرهم الله تعالى فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ... ⑥﴾ [التحريم: ٦].

جـ - والانتماء إلى كل ما دعا إليه الإسلام من قول أو عمل، بل الاعتزاز بهذا الانتماء، والفخر به بين الناس فى كل المواقف وكل الأحيان[١].

د - والأخذ بأسباب العلم والتقدم، بل التفوق فى مختلف مجالات العلوم والفنون، لأن من المسلمات أن الإسلام هو دين العلم، وأن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد رفعا من شأن العلم والعلماء، بل إن الإسلام جعل طلب العلم فريضة

---

(١) للتوسع فى مفهومى الانتماء والالتزام، انظر لنا: تربية الناشئ المسلم - نشر دار الوفاء - ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

على كل مسلم، ودعا للوصول إليه مهما كان بعيدا ولو كان فى الصين!!!.

هـ - وممارسة الدعوة إلى الله على بصيرة، والعمل على تربية الناشئين تربية إسلامية، وممارسة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر.

و - والإعداد للجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

ز - وتقوى الله والتقرب إليه بالعمل الصالح.

٧ - ويتعلم الدعاة والحركيون ان الاعتصام بالكتاب والسنة يعنى معايشة الكتاب والسنة والتلقى عنهما والاخذ بما فيهما، فقد روى الترمذى بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون فتنة، قيل: فما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لاتزيغ به الاهواء، ولا تلتبس به الالسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولايشبع منه العلماء، ولايمله الاتقياء، ولايخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته ان قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا. من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم».

١٥- الآيات من الثانية بعد المائة إلى التاسعة بعد المائة

أوصاف يجب أن تتحقق فى المؤمنين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (١٠٩)﴾ [آل عمران: ١٠٢ - ١٠٩].

- تشتمل هذه الآيات على عدد من الصفات التى يجب أن تتوفر فى المسلمين ليستمروا على الإسلام الصحيح حتى يلقوا ربهم سبحانه وتعالى، وقد جاءت هذه الصفات مرة بصيغة الأمر بالتحلى بها، وأخرى بصيغة النهى عن الاتصاف بأضدادها.

هذه الصفات عند التحلى بها أو التخلى عن مضاداتها تؤدى إلى الفلاح الدنيوى بالظفر بالسعادات التى تطيب بها الحياة الدنيا وهى: البقاء، والغنى، والعز، والعلم.

وتطيب بها الحياة الأخرى فتصبح بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزا بغير ذل، وعلما بلا جهل.

ولذلك قيل: لاعيش إلا عيش الآخرة، وقد جاء فى القرآن الكريم ما يؤكد هذا المعنى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وتوضح الآيات أن الفرقة والاختلاف بعد مجىء الآيات البينات تعقب عذابا فى الدنيا بضياع الهيبة وذهاب الكلمة، وعذابا فى الآخرة لعصيان أمر الله تبارك وتعالى، فقد أمر سبحانه بالاعتصام بكتابه، لما يؤدى إليه هذا الاعتصام من اتحاد وقوة.

وتقرر الآيات أن ما أمر الله به وما نهى عنه إنما هو لصالح الناس؛ لأن الله سبحانه لايريد ظلما للعالمين.

- وقد تضمنت الآيات الكريمة عددا من الأوامر، وعددا من النواهى وعددا من التقريرات، مما سنوضحه فيما يلى والله المستعان.

١ - تنادى الآية الأولى من هذه الآيات على المؤمنين بأن يتقوا الله حق تقاته آمرة بأن يتقوه كل التقوى بحيث لايتركون شيئا ما هو فى استطاعتهم.

وهذا الأمر يشبه ما جاء في قوله تعالى: «**فاتقوا الله ما استطعتم**»، وقد فسر العلماء هذه الآية تفسيرات عديدة نذكر منها مايلى:

أ - قال ابن جرير: «إن معنى «**حق تقاته**» أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر».

ب - وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا - أى قاموا الليل - حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تخفيفا عليهم: «**فاتقوا الله ما استطعتم**» فنسخت الآية الأولى.

جـ - وروى طاووس[1] عن ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير هذه الآية قوله: أن يجاهدوا فى الله حق جهاده، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم، فهذه الثلاثة الأمور - التى فسر بها ابن عباس رضى الله عنهما هذه الآية - مقررة فى القرآن بآيات أخرى هى:

- ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ** (٧٨) ﴾ [الحج: ٧٨].

- وقوله تعالى: ﴿ **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ** (٥٤) ﴾ [المائدة: ٥٤].

- وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ** (١٣٥) ﴾ [النساء: ١٣٥].

وعلى هذا التفسير فليست الآية منسوخة، ولو كان المعنى هو ما ورد عن ابن مسعود

(١) هو طاووس بن كيسان الخولانى (٣٣ - ١٠٦هـ) من أكابر التابعين فى الفقه والحديث وروايته، كانت له جراة على وعظ الخلفاء والملوك. وأصل أمه من فارس، وأبوه من النمر بن قاسط، ولد ونشأ فى اليمن وتوفى حاجا فى المزدلفة أو منى.

رضى الله عنه لكان ذلك تكليفا للناس بما لايطيقون، وذلك ممنوع فى شريعة الإسلام.

وبهذا الراى فى عدم نسخ الآية أخذ الشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا رحمهما الله فى تفسير المنار، وقال الشيخ رشيد رضا فى تعليقه على القول بنسخها: وإذا كانت الرواية بالنسخ ضعيفة بحسب الصناعة، فهى فى اعتقادى موضوعة ممن لم يفهم الآية.

٢ – وفى الآيات الكريمة نهى عن أن يموت الإنسان على غير الإسلام: **«ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون»** والمعنى: استمروا على دين الإسلام وما يتطلبه من عمل حتى الموت، وذلك فى مقابلة قوله تعالى فى الآية السابقة: **«وإن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين»**.

* فالآية الاولى من هذه الآيات تضمنت أمرا ونهيا:

أمرا بتقوى الله حق تقواه..

ونهيا عن الموت على غير الإسلام.

* وإنما يتحقق ذلك فى الآية التالية لتلك الآية وهى:

٣ – **«واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم....»** الآية.

* فتحقيق الأمر بتقوى الله حق تقاته، والنهى عن الموت على غير الإسلام يقوم على دعائم ثلاث هى:

الأولى:

الاعتصام بحبل الله اى بالقرآن الكريم، فقد روى ابن أبى شيبة فى مصنفه بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض». وروى الديلمى فى مسند الفردوس بسنده عن زيد بن أرقم رضى الله عنه(١): «حبل الله هو القرآن».

---

(١) هو زيد بن أرقم بن زيد خزرجى أنصارى (... – ٦٨هـ) روى عنه ابن عباس وانس رضى الله عنهم وروى عنه غيرهما، شهد مع الرسول ﷺ ١٧ سبع عشرة غزوة، ورُدّ يوم أحد لصغر سنه، وكان زيد يتيما رُبى فى حجر عبد الله بن رواحة رضى الله عنه، وهو الذي أخبر رسول الله بقول عبد الله بن أبى بن سلول: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل» فنفى عبد الله ذلك، فكذب رسول الله زيدا، ثم صدقه الله فانزل: «إذا جاءك المنافقون»، سكن الكوفة وبها توفى.

والاعتصام بالقرآن يعنى الأخذ بما فيه كله، والالتزام بأمره ونهيه.

والثانية:

الوحدة والاتحاد، بنبذ الفرقة والخلاف، لأن التفرق يذهب الوحدة، والوحدة قوة وعزة ومنعة وقدرة على مواجهة الأعداء، وقد نهانا الله فى هذه الآية وفى غيرها عن الفرقة، واتباع السبل المختلفة عن سبيل الله، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)** ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

* والتفرق والاختلاف منه ما هو غير ضار، ومنه ما هو ضار أبلغ الضرر.

فمن غير الضار:

اختلاف الرأى والفهم حول أمر من الأمور، وذلك ما لايمكن أن يحترز عنه الناس، لما بينهم من الفروق، بل إن هذا الاختلاف من فطرة الناس، وهو الذى لاينبغى أن يفسد الود بينهم، ولعل الآية الكريمة التالية تشير إليه وهى: ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ (١١٩)** ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

ومن الخلاف الضار:

الاختلاف الذى جاءت الأديان للقضاء عليه، وهو أن تُحكِّم الأهواء فى الدين وأحكامه، وهو أشد ضررا على الناس، لأنه يؤدى إلى الشقاق والتناحر والتعادى، وما يترتب على ذلك من ذهاب الكلمة وضياع القوة، والتشرذم، وطمع العدو المتربص.

وهذا التفرق والخلاف هو الذى أدى إلى سقوط دول وانهيار أمم وحضارات، وفيما حدث للمسلمين فى الأندلس عظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما لسماك الحنفى:[1] ياحنفى: «الجماعة الجماعة، فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها، أما سمعت قول الله عز وجل: **«واعتصموا بحبل الله جميعا**

---

(١) هو سماك بن الوليد الحنفى، كنيته «أبو زميل» اليمامى، من مشاهير التابعين ،كان متقنا ثبتا قدم البصرة فحدثهم بها فكتب عنه العراقيون، روى عن ابن عباس وابن عمر ومالك بن مرثد وعروة بن الزبير رضى الله عنهم. وروى عنه كثيرون من التابعين وتابعيهم. وثقه احمد ويحيى بن معين والعجلى، وقال عنه أبو حاتم: صدوق لاباس به، وذكره ابن حبان فى الثقات، وقال ابن عبد البر: أجمعوا على أنه ثقة.

ولاتفرقوا» ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

* فأوجب الله تعالى على المسلمين التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ والرجوع إليها عند الاختلاف، وأمر بالإجماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادا وعملا، وذلك بسبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات، الذى يتم به صلاح الدنيا والدين، وحذر من الفرقة التى حدثت لاهل الكتاب، فهذه الفرقة هى التى زلت بها الامم بعد عزها، وهوت بعد رفعتها، وهو الافتراق فى الدين وتمذهب اهله مذاهب جعلتهم شيعا واحزابا، وتحكمت فيهم الاهواء، فجرهم هذا إلى التعادى والتخاصم ثم الضياع.

والدعامة الثالثة:

من دعائم الاعتصام بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ هى: تذكر نعم الله العديدة على المؤمنين، فإن هذا التذكر يرقق القلب ويعين على المضى فى طريق الحق، ويملأ النفس ثقة فى الله تعالى.

ومن هذه النعم الواجب ان يتذكرها المؤمنون، ما اشارت إليه الآية الكريمة من الامور التالية:

أ - نعمة الإسلام واتباع خاتم الانبياء ﷺ، فبذلك زالت بينهم العداوة والفرقة وحلت محلها الاخوة والمحبة فى الإسلام، والتعاون على البر والتقوى: «**فألف بين قلوبكم**».

ب - والاخوة فى الدين، وهى من اكبر النعم إذ كانوا قبل الإيمان اعداء الداء، فالفت العقيدة بين قلوبهم فاصبحوا بنعمة الله إخوانا، كما كان الامر بين الأوس والخزرج حيث قيل إن العداوة استمرت بينهم اكثر من مائة عام «**إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا**».

جـ - ونعمة النجاة من النار، نار الدنيا بالخلاف والفرقة ونار الآخرة بالعذاب على هذه الفرقة، فقد كانوا بالشرك على شفا حفرة من النار، فانقذهم الله تعالى منه «**وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها**».

* وتذكر النعم الإلهية ليس هدفا لذاته، وإنما هو يستوجب شكر هذه النعم، وشكر هذه النعم على ثلاثة أنواع كلها واجبة وهى:

- شكر القلب وهو: تصور النعم والتفكر فيها.

- وشكر اللسان وهو: الثناء على المنعم سبحانه وتعالى.

- وشكر سائر الجوارح وهو: مكافأة النعمة بقدر استحقاق المنعم، أى الطاعة والالتزام بأمره ونهيه سبحانه وتعالى، لانه سبحانه قد بيّن لنا هذه الآيات لاجل الاهتداء **﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾**.

* وفى الآيات التى سبق ان شرحناها قبل هذه الآيات، عاب الله تعالى على أهل الكتاب كفرهم بآيات الله واستنكر ذلك عليهم: **﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ (٩٨) ﴾** الآية [آل عمران: ٩٨]، وعاب عليهم صدهم المؤمنين عن سبيل الله: **﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ (٩٩) ﴾** [آل عمران: ٩٩].

* وفى هذه الآيات التى نشرح الآن طولب المؤمنون بتقوى الله حق تقاته وبالا يموتوا إلا وهم مسلمون، وبان يعتصموا بحبل الله ولايتفرقوا...

٤ - وفى الآيات مطالبة المؤمنين بممارسة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾**.

* وكلمة ﴿منكم﴾ فى الآية ليست للتبعيض، وإنما هى لبيان الجنس، ونظيرها كلمة ﴿من﴾ فى قوله تعالى **﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ... (٣٠) ﴾** [الحج: ٣٠].

ولو كانت للتبعيض لكان المعنى ان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر يلزم بعض المسلمين دون سائرهم، وهذا ليس بصحيح لدليلين:

أولهما:

ان الله تعالى أوجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر على كل الأمة فى قوله تعالى: **﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾** [آل عمران: ١١٠].

والآخر:

انه لامكلف إلا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إما بيده أو بلسانه أو بقلبه، كما يجب عليه دفع الضرر عن النفس كما دلت على ذلك بعض الاحاديث النبوية الصحيحة، ومن ذلك ما رواه مسلم بسنده عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: ﴿سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿من راى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه،

فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(١).

٥ - وفى الآيات نهى صريح عن التفرق والاختلاف، وتحذير من اتباع أهل الكتاب فى هذا التفرق والاختلاف، وذلك فى قوله سبحانه وتعالى: «ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم».

* وذلك أن أهل الكتاب من يهود ونصارى قد حسدوا محمداً ﷺ واحتالوا فى إلقاء الشكوك والريب فى النصوص الدالة عندهم على صدق نبوة محمد ﷺ، فالله سبحانه يحذر المسلمين من مثل ما فعل أهل الكتاب حين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، والمقصود بالبينات التى جاءت المؤمنين: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

- والتفرق: تشتت الشمل والكلمة.

- والاختلاف: أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر فى حاله أو فى قوله، وذلك يقتضى التنازع.

والمعنى والله أعلم: أنهم تفرقوا بسبب استخراج التأويلات الفاسدة من النصوص، واختلفوا بأن حاول كل واحد منهم نصرة قوله ومذهبه، أو تفرقوا بأبدانهم بأن صار كل واحد من الأحبار رئيساً فى بلده، ثم اختلفوا بأن ادعى كل واحد منهم أنه وحده على الحق وأن غيره على الباطل.

* فهذا الذى يحذر الله تعالى منه المسلمين بعد ما أنعم عليهم بنعمة الإسلام والأخوة فى الدين، وأنزل عليهم القرآن الكريم.

«وأولئك لهم عذاب عظيم».

وهذا إخبار من الله تعالى عن جزاء من تفرقوا واختلفوا، لأن المتفرقين فى الدين يعدون من المشركين، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢ ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢] وهؤلاء هم أهل الكتاب.

٦ - وفى الآيات تقرير لما سيكون عليه حال المتفرقين المختلفين فى الآخرة أمام الله تعالى حيث تسودّ وجوههم: «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه».

---

(١) سوف نتحدث عن الأمر بالمعروف النهى عن المنكر عند تفسيرنا للآية الكريمة «كنتم خير أمة أخرجت للناس...» بعد قليل.

وقد يكون هذا البياض والسواد حقيقيا، وقد يكونان من المجاز، فيكون البياض دلالة على الفرح والسرور، والسواد دلالة على الغم والحزن.

والمعنى أن المتحدين المتآلفين تبيض وجوههم، وأن المتفرقين المختلفين تسود وجوههم عند الله. وقال بعض العلماء: إن ذلك يكون عند الميزان.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة، والذين اسودت وجوههم هم اليهود أو الكفار والمنافقون، والذين ابيضت وجوههم هم أهل طاعة الله والوفاء بعهده.

* ولكلٍّ جزاءٌ يناسبه:

فالذين اسودت وجوههم بما اقترفوا من تفرق واختلاف وتخاصم وتعاد، يقال لهم توبيخا وتبكيتا: **«أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون»**.

والذين ابيضت وجوههم من أهل الإيمان والطاعة، يقال لهم: أنتم: **«فى رحمة الله خالدون»** أى فى جنته.

٧ - وتقرر الآيات أن القرآن الكريم هو آيات الله وحججه وبيناته ودلائله جاءت إلى محمد ﷺ بالصدق والحق، وما الله تبارك وتعالى يريد ظلما لأحد من خلقه فيعذبه بغير ذنب أو دون أن يرسل إليه رسولا يأتيه بالبينات: **«تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق، وما الله يريد ظلما للعالمين»**.

والمعنى: أن الله تبارك وتعالى - بتشريعه وأمره ونهيه - لايريد ظلما للعالمين، وإنما يريد هدايتهم إلى ما تكمل به فطرتهم ويتم به نظام اجتماعهم، فإذا فسقوا عن أمره ونهيه وشرعه كانوا هم الظالمين لأنفسهم.

إن كل عاص لله تعالى يظلم نفسه فى الدنيا بتجرع ذل المعصية، ويظلمها فى الآخرة بأن يوردها مورد العذاب.

٨ - وفى الآيات تقرير أن الله تبارك وتعالى له ما فى السموات والأرض، وهو مالك العباد المتصرف فيهم الآمر لهم بما ينفعهم والناهى لهم عن كل ما يضرهم.

* وهو سبحانه - من خلال سننه وتشريعه - ترجع إليه أمور عباده جميعا، إذ لكل سنة غاية تنتهى إليها دون تبديل أو تحويل، أى لايطمع أهل التفرق والخلاف فى الوصول إلى غاية

أهل الإيمان والاتحاد.

* فهذه الآية الكريمة جاءت كالدليل على ما قبلها: أى الآية التى نفت أن الله سبحانه وتعالى لايريد ظلما للعالمين.

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات كثيرة، نذكر منها ما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من الآية الأولى من هذه الآيات:

أ - أن تقوى الله حق تقاته واجب شرعى، يُلزم كل مسلم بهذه الآية «اتقوا الله حق تقاته» وحق التقوى كما فسرها ابن عباس رضى الله عنهما: **الجهاد فى سبيل الله حق جهاده، وألا يأخذه فى الله لومة لائم، وأن يقوم لله بالقسط ولو على نفسه أو والده أو ولده والأقربين.**

ب - وأن تقوى الله حق تقاته مرهونة بحدود الاستطاعة؛ لأن الله تبارك وتعالى لايكلف نفسا إلا وسعها.

جـ - وأن المسلم مطالب بأن يستمر على إسلامه - فرائضه وأحكامه - طوال حياته بحيث يموت على ذلك **«ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون».**

٢ - ويتعلمون من الآيات أن الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ **هو الأمان ضد أى شر يقع للإنسان فى الدنيا والآخرة، ووقاية للمسلمين من كل عدو من داخل أنفسهم** كوسوسة الشيطان، ومن كل عدو من خارجهم كأولئك الذين يكيدون للإسلام والمسلمين، ويتربصون به وبأهله الدوائر: **«واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا».**

ونحب أن نذكُر هنا بحديث المعصوم ﷺ الذى رواه أحمد والنسائى وابن حبان والحاكم والبخارى - فى تاريخه - بأسانيدهم عن الحارث بن الحارث الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... وأنا آمركم بخمس أمرنى الله بهن: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد فى سبيل الله، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع...».

وروى الترمذى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لايجمع أمتى على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومن شذ شذ فى النار».

وروى أحمد والترمذى والحاكم بأسانيدهم عن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله

ﷺ : «عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة».

وروى البيهقى بسنده عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... والجماعة بركة والفرقة عذاب»، وفى رواية: «الجماعة رحمة والفرقة عذاب».

وروى النسائى بسنده عن عرفجة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون بعدى هنات وهنات، فمن رأيتموه فارق الجماعة أو يريد أن يفرق أمر أمة محمد كائنا من كان فاقتلوه، فإن يد الله مع الجماعة وإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض».

فالجماعة واجبة لأن نصوص الدين أمرت بذلك، ولأنها تقاوم الفرقة وتوحد صفوف المسلمين وتجعل لهم شوكة وقوة.

٣ – ويتعلم المسلمون من الآية الثانية: **«واذكروا نعمة الله عليكم...»** الآية، أن نعم الله على المسلمين فى الماضى والحاضر كثيرة، وأن أبرز هذه النعم: تأليفه سبحانه بين قلوب المسلمين، وتشريعه الأخوة فى الدين بينهم، وحفظهم برعايته من الوقوع فى المهالك، وكل تلك النعم من آيات الله التى يهدينا بها.

* وهذه النعم – وغيرها مما لم نذكره هنا – تجب المحافظة عليها والحرص على إبرازها فى حياة المسلمين، والاستمرار عليها، ومقاومة كل الأسباب التى تضعفها، فضلا عن أن تقضى عليها: **«واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها...»** الآية.

٤ – ويتعلم المسلمون من الآية الثالثة: **«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ...»** الآية. أن الله تعالى أمر المؤمنين جميعا بفعل الخير لأنفسهم وللناس، وبأن يأمروا بكل معروف كل أحد، وأن ينهوا عن كل منكر كل أحد، فى حدود ما أوضحت الشريعة من أحكام للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وآدابها.

* ويتعلمون من هذه الآية أنه لا فلاح لهم إلا بهذه الشروط الثلاثة:

الدعوة إلى الخير..

والأمر بالمعروف..

والنهى عن المنكر.

كما نصت على ذلك هذه الآية الكريمة.

٥ - ويتعلم المسلمون من الآية الرابعة إلى الآية السادسة: من قوله **﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا...﴾** إلى قوله تعالى: **﴿ففى رحمة الله هم فيها خالدون﴾**.

يتعلمون أن التفرق فى الدين حرام، وأن الأصل أن الأمة الإسلامية واحدة فى عقيدتها وعبادتها والتزامها بما أحل الله وما حرم.

* وعليهم أن يأخذوا من أهل الكتاب عظة وعبرة، إذ تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات فاستحقوا بذلك العذاب العظيم يوم القيامة، ذلك اليوم الذى تبيض فيه وجوه وتسود وجوه.

* وعليهم أن يتمسكوا بإيمانهم وأن يثبتوا عليه وأن يتجردوا له، حتى تبيض وجوههم - يوم تبيض وجوه وتسود وجوه - فيكونوا فى رحمة الله هم فيها خالدون، ولا يكون ذلك إلا بنبذ أسباب الفرقة والاتعاظ بأحوال الأمم السابقة.

٦ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: **﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين﴾**.

* أن كل ما أنزل الله على رسوله ﷺ حق، وأن هذا الحق يجب الالتزام به والتواصى عليه، والعمل به والصبر على تحمل النتائج فى التمسك به مهما أصاب الإنسان من أجله من محن ومتاعب.

* وأن الله تبارك وتعالى حين أنزل هذه الآيات بالحق لم يشق على الناس ولم يحرجهم فيكلفهم ما لايطيقون، فضلا عن أن يوقع أى ظلم بأى أحد من عباده، إذ يجب أن تكون الثقة مطلقة فى كل ما أنزل الله على رسوله، وأنه ملائم لهم ومحقق للعدل فيهم فى الدنيا والآخرة.

٧ - ويتعلم المسلمون من قوله سبحانه وتعالى: **﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾**.

* أن كل ما فى السموات وما فى الأرض من مخلوقات هو لله تعالى، بمعنى أنه يخضع لسننه ومنجهه وينقاد لمشيئته، بحيث لايملك أحد أو شىء أن يخرج عن هذا المنهج أو يشذ عن هذا النظام، وأن مصير كل أحد وكل شىء إليه ليحاسب ويجازى.

* وأن هذه السنن الإلهية فى الكون التى تنقاد لها المخلوقات ثابتة لا تتغير ولاتتبدل، إذ عليها نظام الكون الذى أراده له خالقه سبحانه وتعالى.

* وأن أهل التفرق والخلاف يخالفون هذا المنهج وتلك السنن ويحكمون أهواءهم بدلا من منهج الله تعالى، ومن أجل هذا التنكب لطريق الحق يستحقون العقاب، وأن من عوقب فى الدنيا بشيء من مصائبها فإن الله تعالى لم يظلمه وإنما هو الذى ظلم نفسه بخروجه عما أمر الله تعالى وعما نهى.

- والمواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى الآيات كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ - على الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يلزموا أنفسهم بتقوى الله حق تقاته، بمعنى أن يجاهدوا فى الله حق جهاده، وألا يخافوا فى الله لومة لائم، وأن يقوموا بالقسط ولو على أنفسهم أو الوالدين أو الأقربين، فإنهم إن التزموا بذلك وفُقوا فى أعمالهم وهُدوا إلى الصالح الطيب من أقوالهم، وكانوا بذلك على الطريق المستقيم وكل هذه مطالب أساسية لكى ينجح العمل فى مجال الدعوة إلى الله وفى مجال الحركة الإسلامية، وفى كل مجال من مجالات العمل الإسلامى الذى يوصل إلى التمكين لدين الله فى الأرض.

٢ - ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية أن تقوى الله هى خير زاد يتزودون به فى طريق العمل من أجل الإسلام، وأن هذه السبل مليئة بالعقبات، وطويلة تستغرق بالنسبة للمسلم عمره كله، وأن الاستمرار فى هذه السبيل واجب ويحتاج إلى زاد واستعداد، وأن خير الزاد له هو التقوى، وقد أمر الله تعالى بالتزود بهذا الزاد، فقال تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

* وتقوى الله - كما وردت فى القرآن الكريم - هى فعل الواجبات وترك المحظورات.

* وإنما كانت التقوى بهذا المفهوم خير زاد، لأن فعل ما أمر الله به يحقق للإنسان الأمن النفسى والاطمئنان إلى سلامة العمل وصحته، ومن كان آمنا مطمئنا فإنه ينجح فى أداء عمله ويستطيع تحقيق أهدافه، أما من فقد الأمن النفسى والاطمئنان إلى صحة عمله وسلامته، فهيهات أن يستمر فى العمل، فضلا عن أن ينجح فيه. ومن اجتنب ما نهى الله عنه عاش نقيا فى نفسه وبدنه وعمله والمجتمع الذى يعيش فيه، ومن فقد هذه الطهارة أخفق

فى كل عمل يمارسه، وعاد منه محملا بأوضار وأوحال، قلما يستطيع تحملها أو التعامل بها مع المجتمع.

* والداعى يحتاج فى عمله إلى أعمال كثيرة تعد من دعائم هذا العمل الذى لايقوم إلا بها وهى:

– العلم:

علم الدين بكل أصوله، والتفقه فى فروعه والاجتهاد فيما لانص فيه، وعلم الدنيا بكل ما يحمله من أسباب التقدم والحضارة. وطريق العلم تقوى الله، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أى أن العلم الذى يتسلح به الداعى إلى الله، طريق الوصول إليه هو التقوى لله، فإنه سبحانه إذا أُتقى مَنح العلم ووفق إليه.

– والعون والتوفيق:

وإنما يكون العون والتوفيق من الله تعالى، ولايستطيع الوصول إليه ولا الحصول عليه إلا من كان مع الله بقلبه وفكره وعمله، عندئذ يكون الله معه، ومن كان الله معه أمده بكل عون وتوفيق، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ومعية الله تعالى هى أهم أسباب النجاح بعد العون.

– والفلاح:

وهو فلاح دنيوى يتمثل – كما قلنا آنفا – فى الظفر بالسعادات التى تطيب بها الحياة الدنيا وهى البقاء والغنى والعلم.

وفلاح أخروى – كما أوضحنا آنفا – وهو البقاء بلا فناء والغنى بلا فقر والعلم بلا جهل.

وكل ذلك إنما يتحقق بتقوى الله تعالى، لأن تقوى الله هى معامل الفلاح كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٣٠) ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) ﴾ [المائدة: ٣٥]، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) ﴾ [المائدة: ١٠٠].

٣ – ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: «ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون» أمورا كثيرة من أهمها:

* طول النفس والصبر والاستمرار على الحق مهما تكن التضحيات من أجله، إذ من المقرر الا يموت حق يضحى صاحبه فى سبيله.

* والموت على الإسلام يعنى الثبات عليه مهما كانت مشقات الثبات عليه، وهى فى الحق مشقات كثيرة وعويصة وبخاصة فى عصرنا هذا الذى يتصدى للإسلام فيه ويتحداه ما يطلق عليه النظام العالمى الجديد بزعامة الولايات المتحدة الامريكية، حيث يصر هذا النظام على اتخاذ الإسلام والمسلمين عدواً بديلا عن عدو تقليدى للغرب كله وهو ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى.

* وربما كان السبب فى اتخاذ الإسلام عدوا للنظام العالمى الجديد بسبب تلك الصحوة الإسلامية التى تنمو، على الرغم من تحدى معظم الحكومات فى العالم الإسلامى لهذه الصحوة تحديا صارخا يبدأ بالتضييق ولا ينتهى إلا بالقتل والإبادة، وما بين ذلك من اعتقال وسجن وتعذيب وتشريد ونفى من البلاد!!!

* وإن الثبات على الإسلام والتجرد له: «ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون» يعنى استمرارا على حركة الإحياء والتجديد للإسلام التى بدأها عدد من المصلحين فى هذا العصر الحديث مثل:

جمال الدين الأفغانى..

ومحمد عبده..

وعبد الرحمن الكواكبى، وغيرهم ممن عاصرهم، حيث ساعدهم على ذلك اشتداد الضغط من دول الغرب والشرق على إسقاط دولة الخلافة الإسلامية فى تركيا على يد عدو الإسلام والمسلمين نصف اليهودى مصطفى كمال أتاتورك، الذى نكل بالمصلحين الإسلاميين وأحال تركيا إلى دولة معادية للإسلام تنتهج سياسة الغرب فى منهجها وقوانينها وفى معاداة الإسلام والمسلمين!!!

* وإن الثبات على الإسلام والاستمرار عليه، أصبح واجبا دينيا، دعويا وحركيا، وطنيا وقوميا، وبالنسبة للعالم الإسلامى كله، بعد أن تمزقت وحدة المسلمين وأضحوا دويلات تعانى كل منها من سيطرة الأعداء المنظورة وغير المنظورة، ومن فساد أنظمة الحكم التى تقهر المواطن وتحرمه من أبسط حقوقه الإنسانية.

* إن كل هذه الأمور التى حولت العالم الإسلامى إلى مستعمرات أجنبية يعيش فيها أبناؤها مواطنين من الدرجة الثالثة أو الرابعة، كان لابد أن تولد حركات إحياء وتجديد

وإصلاح، لمقاومة محاولات الغرب والشرق فى القضاء على الإسلام والمسلمين، وكان ذلك ترجمة للثبات على الإسلام؛ **ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون**.

* **وإن** تحالف دول العالم المعادى للإسلام على زرع إسرائيل فى قلب العالم العربى فلسطين، وأولى قبلتى العالم الإسلامى، كان لابد أن يلهب حماس المسلمين وأن ينفخ الروح فى الحركات الإسلامية فى العالمين العربى والإسلامى لتستعيد الأرض وتسترد الكرامة وتحد أو تمنع من إجرام إسرائيل فى التعامل مع العرب والمسلمين – نساء وأطفالا وأسرى حرب – بخسة ودناءة لاتقرها الإنسانية حتى لو كانت فى أدنى دركاتها، فى حملات عدوانية وحشية تستهدف اقتلاع كل معنى إنسانى من نفوس المعتدين اليهود، شعب الله المختار كما يزعمون!!!

إن هذه الحركات وتلك المحاولات التى لن تتوقف أبدا حتى يعود الحق إلى أصحابه هى التعبير الصحيح عن الثبات على عقيدة الإسلام ومبدئه، وترجمة دقيقة للآية الكريمة: **«ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون»**.

* **إن** الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية، وقد هالهم ما يخططه الغرب لضرب العالم الإسلامى سياسيا بتمزيقه وتجزئته واقتصاديا بإفقاره وجعله تابعا ذليلا محتاجا للخبز والسكر والقطن والآلة الصناعية والالة العسكرية، وليكون تابعا ذليلا فى الفكر والثقافة وكل ما يعادى الإسلام، وتابعا ذليلا فى المجال العسكرى ليخوض حروبا اصطنعها الغرب بسلاح ينتجه الغرب ويبيعه بأبهظ الأثمان وبأفدح الفوائد الربوية، وتابعا ذليلا أخلاقيا بتقبله لقيم الغرب وأخلاقه وفساده وانحلاله واختلال مفاهيمه عن الحق والعدل والفضيلة، وتابعا ذليلا إعلاميا بسيطرة وسائل الإعلام الغربية وما تحتويه من كل ما يدمر القيم الإسلامية.

إن هذه الهجمات الشرسة على كل ما هو إسلامى تجعل العمل من أجل الإسلام، وصحوة المسلمين عملا ضروريا لاحياة بدونه، وإن الإقناع بذلك هو واجب الدعاة والحركيين وكل مخلص لدينه ولوطنه.

إن كل ذلك يصرخ بالدعاة والحركيين وبالمسلمين جميعا أن يحيوا فى النفوس التمسك بالإسلام، والفقه الصحيح علما وعملا لقوله سبحانه وتعالى: **«ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون»**.

٤ – ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: **«واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا»** أمورا كثيرة، منها:

* انه لابد من التعاون والترابط والتناصر بين المسلمين جميعا، وانهم امة من دون الناس، يتواصون بالحق ويتواصون بالصبر، وأنهم بغير هذا التعاون والترابط والتناصر لا وزن لهم ولاخير يرجى من ورائهم، بل هو التمزق والفرقة والضياع.

* وأن المسلمين بترابطهم وتآلفهم يجب أن يصلوا إلى حد الاخوة فى الدين وما لهذه الاخوة من حقوق وواجبات وشروط وآداب(١).

* إن طريق هذه الأخوة هو الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إذ فى هذا الاعتصام ملاذ آمن للبشرية كلها فى كل زمان ومكان، لتخرج به من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، وتجد فيه لكل مشكلة إنسانية حلا. ولاعجب فى هذا فقد وصف الرسول ﷺ القرآن الكريم بأنه: «من ابغتى الهدى فى غير القرآن أضله الله».

* وأن على المسلمين أن يقاوموا كل أسباب الفرقة والخلاف، وأن يسعوا بكل وسيلة إلى نبذ الخصام والشقاق، لأن فى ذلك حياتهم وإرضاءهم لربهم سبحانه وتعالى.

وإنما يكون ذلك بإحسان الظن بالمسلمين وحبهم وحب الخير لهم، وفى تحبيبهم لفعل الخير، وتشجيعهم على الحماس للعمل من أجل الإسلام، وإقناعهم بأن المسلمين جميعا أمة واحدة وأنهم لا وزن لهم إلا بهذه الوحدة، وذلك هو ما يرضى الله سبحانه، ويحقق لهم سعادة الدنيا والآخرة.

تلك مهمة الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية، ما داموا قد فقهوا قوله تعالى: «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا».

* ومن أهم أعمال الدعاة والحركيين تبصير المسلمين بأن الامة الإسلامية ما ضعفت اليوم ولا تمزقت، ولاتحكم فيها أعداؤها ولا انتُقصت، ولا ذبح أبناؤها ونساؤها، ولا اعتُدى على أعرافها من الأسبان فى العصور الوسطى، ومن اليهود فى فلسطين فى العصر الحديث، إذ تحالف العالم مع اليهود ليذيق المسلمين كأس الهوان والمذلة ببقر بطون النساء وقتل الأطفال ودفن الأحياء بعد تكسير عظامهم فى حروب طاحنة يمولها الغرب بالمال والسلاح، وتستطيع إسرائيل بها أن تحتل كل يوم أرضا عربية وتقضى فى كل أرض تحتلها على إنسانية الإنسان، والعالم كله سعيد راض يشجع إسرائيل ويطلب منها المزيد!!!

وما فعلته إسرائيل ولا زالت تفعله، هو نفسه ما يفعله الصرب فى مسلمى البوسنة، من

(١) للتوسع: انظر للمؤلف: فقه الاخوة فى الإسلام، نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

أعمال وحشية، وتتمثل فى الإبادة العرقية واغتصاب النساء والقتل والهدم واحتلال الأرض وإجلاء أهلها عنها وقتل الأسرى! والعالم من وراء الصرب يؤيدهم ويفرض حظر السلاح على الفريسة ويسلح الصرب ويؤيد ظلمهم، وما أشك فى أن الصرب إن لم يكونوا يهودا فقد أخذوا الدرس من اليهود، والعالم كله لا يستطيع أن يفعل شيئا ضد الصرب كما لم يفعل شيئا ضد اليهود، ومع ذلك يزعمون أنهم أهل حضارة وتحكمهم قيم إنسانية!!!

إن كل ما حاق بالأمة الإسلامية ليس إلا نتيجة لتفرقها، إنها اليوم أمة لاتملك من إرادتها شيئا، فإن كثيرا من دولها لاتستطيع بحال أن تشجب ما يفعل اليهود أو الصرب إلا إذا استأذنت وعلمت أن هذا الشجب لايجرح مشاعر الغرب أو النظام العالمى الجديد أو هيئة الأمم المتحدة!!!

هذا فضلا عن أن تتحامق دولة إسلامية وتقطع صلاتها السياسية والاقتصادية بالصرب، أو ترفض تطبيع العلاقات مع اليهود: صرب فلسطين!!!

إن هذا التبصير هو واجب الدعاة والعاملين من أجل الإسلام، أين واقع الأمة الإسلامية الممزقة المتعادى بعضها مع بعض، بدلا من أن ترد كيد عدوها وعدوانه؟ أين ذلك الواقع المرير من قول الرسول ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، وشبّك بين أصابعه»؟

وقوله ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ. «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»؟ أين واقع المسلمين من ذلك؟

٥ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قول الله تعالى: «**واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا. وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها**» أمورا كثيرة نافعة، نذكر منها مايلى:

* أن نعم الله تعالى على المسلمين كثيرة، وأنها نعم يجب أن تُذكر فتُشكر، وشكرها مدعاة لأن يزيد الله فيها، وأن يحافظ عليها ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۝٧ ﴾ [إبراهيم: ٧].

* وعليهم أن ينظروا فى تاريخ أسلافهم، وكيف منّ الله عليهم بكثير من نعمه، إذ أحل الألفة فى قلوبهم محل الفرقة، وقوى هذه الألفة لتصل إلى الأخوة فى الله، وكيف كان الله

دائما معهم فأنقذهم من التردى فى مهاوى الخلاف والفرقة التى تصيب بمن يتصف بها بالذلة والهوان فى الدنيا، وبعذاب النار يوم القيامة.

كل تلك النعم يجب على الدعاة أن يتذكروها ويشكروها ويذكّروا بها المسلمين ليشكروا الله عليها.

* وأن الله تعالى الذى أنعم على الصحابة رضوان الله عليهم بهذه النعم، قادر على أن ينعم بها وبمثلها على المسلمين فى أى زمان ومكان إن هم اتقوا الله حق تقاته، فنعم الله كثيرة، ووعوده أكيدة، وآياته بينه، وهو سبحانه وتعالى يهدى بتلك الآيات من آمنوا واتقوا...

٦ - ويتعلم الدعاة والحركيون من الآية الكريمة: «ولتكن منك أمة يدعون إلى الخير...» الآية - أمورا أساسية فى مجال الأمر بالمعروف النهى عن المنكر منها:

* أن الدعوة إلى الخير وفعله واجب على كل مسلم، وليس واجب بعض المسلمين دون بعض، وأن فعل الخير أوجبته آيات أخرى فى القرآن الكريم وأطلقته من القيود، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) ﴾ [الحج: ٧٧] وقوله تعالى: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) ﴾ [البقرة: ١٥٨]. وقوله جل شانه: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ... (٢٠) ﴾ [المزمل: ٢٠].

* وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هما عنصرا النجاح والفلاح وأنهما واجب كل مسلم قادر عليهما متقيد بشروطهما وآدابهما التى أوضحتها الشريعة الإسلامية، لايستطيع أحد أن يبالغ فيهما ولا أن يقلل من شان أثرهما العميق فى صلاح المجتمع.

* وأن الأمر بالمعروف ركن رئيسى فى الدعوة إلى الله إذ لا دعوة بغير الأمر بالمعروف، لأن المعروف داخل فى الخير الذى أمر الله به عموما وأمر به كل مسلم، وكذلك شأن النهى عن المنكر، فإنه ينقى المجتمع من الأخطاء والمخطئين، كما يقوم الأمر المعروف بغرس بذور الخير فى المجتمع.

* والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يكمل أحدهما الآخر، ولايغنى أحدهما عن الآخر، وبهما يمارس الناس التعاطف والتواد والتراحم، وبهما تُدفع حاجة المحتاج ويُرعى كل من يحتاج إلى رعاية، وهما - عند التحقيق - جوهر الدعوة إلى الله، وهدفاها الكبيران.

٧ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قول الله تعالى: « ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا...»

الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ أمورا منها ما يلي:

* الحذر كل الحذر من أن يقعوا في فرقة أو خلاف، أو أن يسمحوا لأسباب الفرقة والخلاف أن تظهر في صفوف المدعوين، وذلك أن الداعية الحق هو الذي يحتوى المدعوين ويستوعب ما يثار لديهم من قضايا ومشكلات قبل أن تؤدى إلى الفرقة والخلاف، فإن فعل فهو الداعية الفقيه بدعوته وأهدافها ووسائلها ومراحلها ومتطلبات كل مرحلة.

وما لم يكن الداعية على هذا المستوى من الفقه، فإن عليه أن يُعنى بنفسه بأن يلجأ إلى التربية الذاتية حيث يربى نفسه بنفسه، وليس أحد من الناس أو الدعاة يكبر عند نفسه حتى يكف عن تربيتها تربية ذاتية، تمكنه من استيعاب مشكلات الناس وقضاياهم وما يثير بينهم أسباب الفرقة والاختلاف.

* والحرص كل الحرص على المحافظة على حسن العلاقة بين الدعاة وبين سائر الجمعيات والجماعات التي تعمل من أجل الإسلام وفق ما شرع الله، وأن تتسع صدورهم لأى خلاف يظهر في وسائل العمل من أجل الإسلام بين هذه التجمعات والجماعات، مادامت المحافظة على الأهداف قائمة.

ومن المسلَّم به عند سائر العقلاء أن الخلافات ومظاهر الفرقة بين الجماعات الإسلامية في الوطن الواحد أو الأوطان المتعددة هي أسوأ مايصاب به العمل الإسلامي من مرض، وأحسن ما يمكن أن يقدم لأعداء الإسلام من فرص تمكنهم من تشويه الإسلام نفسه برصد الخلاف والفرقة بين المسلمين، ورسم الخطط لضرب كل جماعة بأخرى تمهيدا لضرب الإسلام نفسه!!!

* وأن التفرق والاختلاف بين المسلمين أو بين الجماعات لامحل له ولا مكان، لأنهم جميعا قد جاءهم البينات في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والذين يختلفون من بعد ما جاءهم البينات سوف يكون مصيرهم كمصير أهل الكتاب الذين قال الله تعالى فيهم حين تفرقوا واختلفوا: ﴿أولئك لهم عذاب عظيم﴾.

* وليكن الدعاة والحركيون على حذر شديد من أن يغضبوا الله تعالى في شيء من أعمال الدعوة أو الحركة، أو أن يعطلوا شيئا مما يجب أن يتم في أى مجال من مجالات العمل الإسلامي، وذلك أن أى قصور أو تقصير في شيء من ذلك يغضب الله الذى أمر به،

وغضب الله عظيم فى الدنيا، إذ يؤدى إلى تخلى الله تعالى عن أولئك الذين أغضبوه، ويوم القيامة تسود وجوههم ويذوقون العذاب الأليم.

* وأن الذين أدوا واجبهم فى العمل من أجل الإسلام، وقدموا العمل الصالح الذى يترجم عن إيمانهم الصادق، وكانت لهم فى الدعوة والحركة قدم راسخة، هؤلاء تبيض وجوههم فى الدنيا والآخرة. أما فى الدنيا فبما يفيء الله عليهم من نعمه وعونه وتوفيقه فى كل ما يعملون وما يدعون، وأما فى الآخرة ففى رحمة الله هم فيها خالدون.

وتلك أوسع فرصة يحصل بها الدعاة والحركيون والعاملون من أجل الإسلام على رحمة الله لهم فى الدنيا بالعون والتوفيق وفى الآخرة بالخلود فى الجنة.

٨ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: «**تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق، وما الله يريد ظلما للعالمين**» أمورا كثيرة لها أهمية كبيرة نذكر منها ما يلى:

* أن ما نزل على رسول الله ﷺ من آيات قد اشتمل على كل ما لابد منه فى الدين، وهى قد أنزلت بالحق والعدل فى إثابة المحسن وعقاب المسيىء، فهى آيات نزلت بهذا الحق وبهذا المنهج، وفى هذا ما يطمئن كل داعية إلى الله على أنه على الحق ويدعو إليه وأن كل ذى فطرة سليمة يتقبل الحق، لأن هذا الحق لايمكن للناس أن يعيشوا إلا به، فلا أمن ولاسلام ولا ولاء لله ولاعداء للشيطان إلا باتباع الحق، ولا استقرار للمجتمع ولاتقدم له إلا بالحق.

وفى آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء: ١٠٥]. والحديث عن القرآن الكريم الذى هو منهج الحق.

* وأن الذى يدعو إلى الحق يكون ثقة فيما يدعو إليه، بل على ثقة من أن يستجيب له بعض الناس ممن هدى الله وسلمت فطرته، ولكن قليل ما هم.

ويتعلم الدعاة أن منهج الله الذى يدعو إليه بجميع مفرداته فى العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق والسلوك والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والجمالية والجهادية، بل الحضارية عموما هو فى صالح الإنسانية كلها فى معاشها ومعادها، ومن المستحيل شرعا وعقلا أن يكون فى الأخذ بأى مفردة من هذه المفردات ظلم لأحد من العالمين، مصداقا لقوله تعالى: «**وما الله يريد ظلما للعالمين**».

* أى ثقة تلك التى ينطلق منها الدعاة والحركيون والعاملون فى مجالات العمل الإسلامى كله، وهم يدعون إلى منهج الله وشريعته، تلك الشريعة التى أكملها الله تعالى وأتمها ورضيها للبشرية كلها دينا، وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ [الشورى: ١٣].

* إن هذا المنهج بهذا الكمال هو الذى يستحق الجهاد فى سبيله حتى يُطَبَّق فى الناس، ومع الجهاد لابد من تضحية، ومن وراء ذلك يكون عز الدنيا بسيادة شرع الله، ويكون أعظم الجزاء فى الآخرة.

٩ - ويتعلم الدعاة الحركيون من قول الله سبحانه وتعالى: «ولله ما فى السموات وما فى الأرض ....» الآية، يتعلمون أدبا رفيعا فى مجالى الدعوة والحركة، نذكر ببعض مفرداته فيما يلى:

* أن الذين يعتزون بما يملكون من مال أو جاه، فيصرفهم ذلك عن معرفة حق الله وحق عباده فيما يملكون، غافلون أشد الغفلة تشغلهم أعراض الدنيا عن الآخرة، ويلهيهم ما بأيديهم عن الحق والحقيقة الكبرى، التى هى أن كل ما فى السموات والأرض لله تعالى وحده، وأن ما فى أيديهم من مال أو عقار إنما هو فى الأصل لله تعالى، وفى أيديهم على سبيل العارية المستردة.

وللناس فى قارون عظة وعبرة إذ قال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي (٧٨) ﴾ [القصص: ٧٨]. إذ لم يمنعه ماله وكنوزه وجنده وعتاده من أن يضيع منه كل ذلك، وأن يخسف الله به وبداره الأرض، إن ذلك يعنى بدقة أن لله ما فى السموات وما فى الأرض.

* وأن الذين تخدعهم قوتهم أو يخدعهم سلطانهم وما يملكون من وسائل يقهرون بها الناس أو يظلمون أو يحولون بذلك بين أصحاب الحقوق وحقوقهم، هؤلاء واهمون ذاهلون لايدركون أنهم - وما لهم من قوة وسلطان - لله تعالى وحده، يعز من يشاء ويذل من يشاء ويعطى من يشاء ويمنع من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، إنهم يجهلون حقا أن لله مافى السموات وما فى الأرض، وأحيانا يزدادون عمى فى بصائرهم فيجهلون أنهم يجهلون هذه الحقائق.

* وأن الذين يخدعهم علمهم وما أوتوا، فيوهمون أنفسهم أنهم قادرون على خرق

النواميس الكونية بما يصلون إليه من مكتشفات وما تصل إليه عقولهم وعلومهم من مخترعات، بل يبلغ ببعضهم السفه إلى الحد الذى يجعل قائلهم يقول - بعد رحلة من رحلات الفضاء - إنه صعد السماء ووصل إلى وكذا وكذا من القمر وغيره لكنه لم ير الله!!!

* كان الأحمق من هؤلاء يتصور أن الله تعالى متحيز فى مكان!!! وكأن قليل العلم الذي أوتيه جعله موازيا لحقائق الدين بل حقائق الكون!!! وتلك ضلة قلب وزلة عقل لايفيىء منها صاحبها إلا أن يتدبر فى قوله سبحانه وتعالى: **﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض﴾** وأنه جل شأنه رب العالمين، لارب هذا العالم وحده، وأن هذا الكون الذى نعرف منه شيئا قليلا يجرى على سنن إلهية لايخرقها مرور الأيام وتعاقب الليالى وتطور العلم والبحث والاختراع.

١٠ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: **﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾** أمورا عظيمة الأثر جليلة النفع فى مجالى الدعوة والحركة، نذكر منها ما يلى:

* أن الخلق جميعا - وما يملكون من مال وجاه وقوة وسلطان وعلم واختراع - يرجعون إلى الله فى يوم لايستطيعون عنه حولا، ولا ينفذ فيه حكم إلا حكمه سبحانه وتعالى، ولايجرى فيه قضاء إلا قضاؤه جل شأنه.

* وأن هذا اليوم الذي ترجع فيه كل الأمور إلى الله يوم عصيب يجب التزود له بالتقوى وصالح الأعمال، مما يرضى الله تعالى.

* والدعاة والحركيون فى ذلك اليوم - شأنهم شأن غيرهم من الناس - لاينفعهم إلا الإيمان والعمل، وما قدموا من أجل الإسلام فى مجالات الدعوة والحركة والتربية والإعداد والتكوين والعمل على تمكين دين الله فى الأرض، وما تواصوا به من حق وما تواصوا به من صبر، وما احتسبوا عند الله من أجر.

* وحسب العاملين فى مجالات الدعوة والحركة والتربية مكانة وعظيم أجر عند الله أن يتسبب أحدهم فى هداية أحد الناس بنقله من الكفر إلى الإيمان أو من الضلال إلى الهدى، أو من الضياع إلى الانتماء إلى الإسلام والالتزام بمنهجه.

حسبهم فى ذلك قول الرسول ﷺ فيما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه:
«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئا».

وما رواه مسلم بسنده عن أبى مسعود عقبة بن عمرو الأنصارى البدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله».

١٦- الآيات من العاشرة بعد المائة إلى الخامسة عشرة بعد المائة

خيرية الأمة الإسلامية لها شروطها، ووصف لأهل الكتاب

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾ [آل عمران: ١١٠ - ١١٥].

- تصف هذه الآيات الكريمة الأمة الإسلامية بأنها خير أمة أخرجت للناس مادامت مؤمنة بالله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتصف أهل الكتاب فى حربهم ضد المسلمين، وفى قضاء الله فيهم بان ضُرب عليهم الذلة والمسكنة، وقد صنفتهم الآيات الكريمة إلى كثرة فاسقة، وإلى قلة صالحة، وأوضحت أن الله تعالى سوف يجازى كلا بما عمل.

- وفى الآيات الكريمة أكثر من خبر، وأكثر من شرط، وأكثر من موقف تربوى، مما سنوضحه بإذن الله تعالى فيما يلى:

١ - يخبر الله تعالى عن الأمة الإسلامية بأنها خير أمة أخرجت للناس، لا لذاتها ولا لجنسها ولا لموقعها من الزمان والمكان، ولا لأنها أمة خاتم الأنبياء محمد ﷺ، ولكن لتوفر صفات ثلاث فيها، حددتها الآية الأولى من هذه الآيات وهى:

أ - الأمر بالمعروف..

ب - والنهى عن المنكر..

جـ - والإيمان بالله تعالى.

هذه الصفات كانت فى أصحاب النبى ﷺ، فكانوا بها خير أمة أخرجت للناس، وعلى مر الأزمان فإن كل أمة مسلمة تتوفر لها هذه الصفات تصبح خير أمة أخرجت للناس، ويظل

هذا الباب مفتوحا إلى يوم القيامة.

* ولقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أن هذه الآية فى خاصة الصحابة ومن صنع صنيعهم.

* ويفهم من الآية الكريمة ان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر دليل الإيمان وسياجه وحفاظه.

* وإنما قدم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان للتعريض بأهل الكتاب حيث كانوا يدّعون الإيمان، ولا يمارسون الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل وصفهم الله فى آية اخرى بانهم كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه، فالآية الكريمة تعرّض بهم؛ والمعنى: مخاطبة اهل الكتاب بأنهم لو كانوا مؤمنين حقا لدل على إيمانهم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، لان هذين الامر والنهى هما ثمرة الإيمان.

وقال بعض العلماء: إنما صارت امة محمد ﷺ خير امة، لان المسلمين منهم أكثر، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر فيهم أفشى.

* وهذه الآية الكريمة: «كنتم خير أمة...» الآية، جاءت بعد الآيات الكريمة التى نهت المسلمين عن التفرق والاختلاف كما تفرق أهل الكتاب على الرغم مما جاءهم من البينات، وجاءت بعد ان أمر الله تعالى المسلمين بالدعوة إلى الخير والامر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبذلك الامر وتلك الاستجابة من المسلمين كانوا خير أمة أخرجت للناس، حيث جاء الامر بالمعروف ثمرة من ثمار الإيمان، والنهى عن المنكر اثرا من آثاره.

* والإيمان المقصود هنا ليس هو الإيمان الذى يدعيه اى قوم لهم دين وكتاب، وإنما المقصود به الإيمان الذي يؤدى إلى ممارسة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر.

* وبهذا تبطل دعاوى معظم اهل الكتاب في انهم مؤمنون، إذ لو كانوا مؤمنين حقا لامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر. ولو فعلوا لدخلوا فى الإسلام كما امرهم الله تعالى فى كتبهم، لكنهم لم يأمروا بالمعروف ولا نهوا عن المنكر، فنفوا عن انفسهم الإيمان الذي يدّعون، غير ان قلة منهم كانت تؤمن بالله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وهذا ما تقرر فى الآية الكريمة: **«ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون»**.

* ومن هذه الآية الكريمة: **«كنتم خير أمة أخرجت للناس...»** نعرف ان الامة الإسلامية لها رسالة هامة في الإصلاح والتصحيح، والاستمرار على ذلك فى مختلف الازمنة والامكنة

لنفع البشرية كلها بالامر بالمعروف: أى توصيل الخير إلى الناس، والنهى عن المنكر: أى كف الأذى عنهم.

* وإنما تفعل الامة الإسلامية ذلك لانها رسالتها، غير ان الامة الإسلامية لاتستطيع ان تفعل ذلك إلا إذا تسلحت بالعلم والثقافة ووسائل الدعوة والإعلام، وذلك ان الإسلام اعتبر الجهل منكرا، واعتبر القعود عن الدعوة منكرا كذلك.

* وليس فى الإمكان امر بمعروف ولا نهى عن منكر إلا بعلم وثقافة ودعوة وخلق وعدل وشورى، وجلب للمصالح، ودفع للمضار عن الناس اجمعين.

٢ - وتعليق الخيرية على الإيمان او اشتراط الإيمان من اجل الوصف بالخيرية، يفهم من قوله تعالى: **﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾.**

أى: لو آمنوا الإيمان الصحيح الذى تُترجم عنه الاعمال الصالحة - التي من اهمها الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، لكان خيرا لهم - كما كان ذلك الإيمان والامر بالمعروف والنهى عن المنكر خيراً للامة الإسلامية، بل كان سببا فى وصفهم بانهم خير امة اخرجت للناس، غير ان اهل الكتاب لم يكونوا كذلك.

* لقد كان أهل الكتاب فئتين:

- فئة قليلة العدد آمنوا بالله وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر **﴿منهم المؤمنون﴾.**

- وفئة كثيرة العدد لم يؤمنوا بالله، فلم يأمروا بمعروف ولا نهوا عن منكر، فكان أكثرهم فاسقين **﴿وأكثرهم الفاسقون﴾** .

* ومن الفئة القليلة المؤمنة: عبد الله بن سلام من اليهود، ومعه نفر من اليهود، ومن هذه الفئة القليلة المؤمنة النجاشى ورهطه من النصارى.

ومن الفئة الكثيرة التى لم تؤمن غالبية اهل الكتاب من يهود ونصارى، هؤلاء الذين كانوا غير امناء على كتبهم وما امرتهم به، فلا دخلوا في الإسلام كما أُمروا، ولا كانوا امناء فيما اخفوه مما جاء فى كتبهم متصلا بمحمد ﷺ.

٣ - وفي الآيات الكريمة وصف لاهل الكتاب فى تصديهم للمؤمنين وحربهم ضد الإسلام، فى قوله تعالى: **﴿لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لاينصرون﴾.**

فهذه الآية تصف أكثرية أهل الكتاب الفاسقين بعدد من الصفات هى:

- عجزهم عن إلحاق الضرر بالمسلمين، ضررا يلحق بالمسلمين الهزيمة.

– وقصارى ما يستطيعون ان يمارسوا مع المسلمين بعض الأذى بالكلام القبيح كالخوض في الأعراض ووصف النبي ﷺ بما لايليق به.

– وعجزهم عن مواجهة المسلمين فى حرب، فهم عند ملاقاة المسلمين يفرون مولين ادبارهم هاربين منهزمين.

* وقد يقال: إذا كان أمرهم كذلك فى قتال المسلمين، فما بال المسلمين قد انهزموا امامهم فى الحروب الصليبية فى أكثر من موقعة، وفى الاندلس حيث لقوا على أيديهم هزيمة منكرة، وفي فلسطين حيث انهزم العرب – وأكثرهم مسلمون – واستطاع اليهود أن يستولوا على فلسطين؟

* والجواب على هذا التساؤل هو: أن المسلمين الذين قاتلوا أهل الكتاب في الحروب الصليبية والأندلس وفلسطين لم يكونوا مؤمنين كاملي الإيمان، وإنما كان فيهم قصور وتقصير تمثل فى الفرقة والانقسام والتعادى الذي بلغ حد الاقتتال، وفى عدم الالتزام بالمنهج الإسلامى، وفى القصور فى الأخذ بالأسباب.

﴿ثم لاينصرون﴾ اى لاينصرون عليكم ما داموا غير مؤمنين ولا آمرين بالمعروف ولا ناهين عن المنكر، وما دمتم مؤمنين تمارسون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتلتزمون بالمنهج وتاخذون بالأسباب.

* وفى الآية الكريمة بشارات ثلاث من الإخبار بالغيب وكلها قد تحقق، وصدق الله وعده، وهذه البشارات هى:

– ان أهل الكتاب لم يضروا المسلمين إلا اذى اى بكلمات قبيحة وتهم باطلة.

– وأنهم إذا التقوا مع المسلمين فى حرب انهزموا وولوا الادبار.

– وأنهم لايُنصرون على المسلمين ماداموا على حالهم، ومادام المسلمون متمسكين بدينهم آخذين بالأسباب.

٤ – ومن قضاء الله فى اليهود ان ضرب عليهم الذلة، اى افقدهم السلطة والمكانة، بوقوعهم فى الهزائم المتلاحقة وتعرضهم للقتل والأسر وسبى الذرارى، وغنيمة أرضهم وأموالهم حيث وجدوا: **﴿ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا...﴾** وقد ضربت عليهم الذلة ابدا إلا أن يعتصموا بالإسلام فيدخلوا فيه، أو يدخلوا فى عهد وأمان، فالحبل من الله هو الإسلام، والحبل من الناس هو العهد والميثاق.

* ومن قضاء الله تعالى فيهم أن باءوا بغضب من الله، أى كانوا جديرين بهذا الغضب فرجعوا به.

* وأنه سبحانه قد ضرب عليهم المسكنة، وهى سكون عن ضعف، أو حاجة لايستطيعون قضاءها.

وإنما ضربت عليهم الذلة وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة لأسباب هى:

– أنهم كانوا يكفرون بآيات الله على الرغم من وضوحها، وعلى الرغم مما جاءهم من البينات.

– وأنهم كانوا يقتلون أنبياء الله، كما فعلوا بأكثر من نبى.

– وأنهم بهذا وذاك يخالفون شريعتهم، لأن شريعتهم لاتبيح لهم شيئا من ذلك.

* وما جرّأهم على ذلك إلا سبق المعاصى والاستمرار فى العدوان على محارم الله، وعلى الأنبياء.

وقد أوضح بعض الأسلاف من العلماء هذا التوغل فى الأخطاء، فقالوا محذرين ومنذرين:

– من ابتلى بترك الآداب وقع فى ترك السنن..

– ومن ابتلى بترك السنن وقع فى ترك الفرائض..

– ومن ابتلى بترك الفريضة وقع فى احتقار الشريعة..

– ومن احتقر الشريعة وقع فى الكفر.

وهذا ما كان فى اليهود ولايزال، وما كان فى النصارى ولايزال، وما هو وارد على بعض المسلمين اليوم.

* ونتيجة كل ذلك معروفة بل هى من السنن التى لاتتخلف ولايختلف عليها العقلاء.

٥ – وتقرر الآية الكريمة: ﴿ليسوا سواء...﴾ أن أهل الكتاب ليسوا متساويين فى هذه الأوصاف والأعمال القبيحة التى ذكرت عنهم فى الآية السابقة، ولكن منهم المؤمنون وهم قلة، ومنهم الفاسقون وهم كثرة.

* وفى الآيات السابقة ذكرت صفات الفاسقين – على نحو ما فصلناه – وهنا تذكر صفات القلة الصالحة منهم، وجملة هذه الصفات ما يلى:

- أن هذه القلة ثابتة على التمسك بالدين الحق ملازمة له، مستقيمة عليه، وفي هذا ما يدل على أن دين الله واحد على ألسنة جميع الأنبياء.

- وأنهم يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، سواء أكان هؤلاء التالون من اليهود أم من النصارى الذين دخلوا فى الإسلام، أم ممن كانوا على دينهم الحق قبل أن يحرّف، فهم يصلون لله تعالى، ويناجونه ويدعونه.

- وأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك الإيمان الحق الذى يعبرون عنه عمليا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمسارعة فى الخيرات، غير متثاقلين ولا متباطئين، لأن المتثاقلين المتباطئين عن فعل الخير هم المنافقون.

- وأن هذه القلة المؤمنة وهى تمارس تلك الاعمال تعد عند الله من الصالحين، الذين صلحت نفوسهم فاستقامت أحوالهم وحسنت اعمالهم «وأولئك من الصالحين».

- وأنهم مهما فعلوا من خير قليل فسوف يجزيهم الله به أحسن الجزاء، لأن الله تعالى لايضيع عنده جزاء عمل صالح مهما قل، ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين ﴾، أى لن يضيع ثواب عملهم عند الله سبحانه وتعالى، لأنه سبحانه عليم بهم وبما فعلوا، لا يضل ربى ولا ينسى.

المواقف التربوية العامة فى الآيات كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ - يتعلم المسلمون من الآية الأولى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس .... ﴾ أن التقرب إلى الله والحصول على رضاه وثوابه لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح، وأن الله تعالى فتح الباب أمام كل الناس من كل الأديان التى لم يدخلها تحريف.

٢ - وأن كل البشرية من أهل الأديان وغيرهم لو آمنوا بالله وعملوا الصالحات لكان خيراً لهم.

٣ - وأن الأمة الإسلامية خير الأمم بشروط، وأنها لم تُميز بذلك لسبب عرقى أو إقليمى أو لأنها أمة خاتم الأديان، وإنما لأنها تتوفر فيها شروط الخيرية أى الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإذا زالت عنهم تلك الصفات عادوا كغيرهم من الأمم، ولحقهم الذم وكان ذلك سبباً فى ضعفهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة.

٤ - وأن أهل الكتاب من يهود ونصارى إذا آمنوا بمحمد ﷺ كان ذلك خيراً لهم، وأن هؤلاء

غالبًا ما يكونون قلة ، وأن الكثرة منهم فاسقون .

٥ - ويتعلم المسلمون من ذلك أن أهل الكتاب لن يستطيعوا أن يلحقوا ضرراً بالمسلمين إلا أن يكون أذى بالكلام أو التجنّى .. وأنهم دائمًا ينهزمون أمام المسلمين ويولونهم الأدبار، ولا يستطيعون أن ينتصروا عليهم بحال . تلك قاعدة عامة .

وعندما تنخرم هذه القاعدة ، فليس انخرامها بسبب تخلف وعد الله ولا توقف سننه ، ولكن بسبب أن المؤمنين ليسوا على الأوصاف التى تجعل منهم المؤمنين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ملتزمين منهج الله ومعتصمين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

٦ - ويتعلم المسلمون من الآيات أن الله تعالى قد ضرب على أهل الكتاب الكافرين بمحمد ﷺ والأنبياء من قبله ، ضرب عليهم الذلة، فهم دائمًا مهزومون مخذولون أينما وجدوا، إلا أن يعتصموا من هذا الذل بأن يدخلوا فى الإيمان بما جاء به محمد ﷺ ، أو يدخلوا فى عهد أو ميثاق .

وأنهم بحكم كفرهم قد غضب الله عليهم وضرب عليهم المسكنة ، وإنما فعل الله تعالى ذلك بهم بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ، وذلك منهم عصيان يستحق أشد العقاب .

٧ - ويتعلم المسلمون من الآيات الكريمة أن أهل الكتاب على عهد رسول الله ﷺ ، يتلون آياته آناء الليل وهم يسجدون ، وكانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ، وقد عَدُّهم الله من الصالحين ، غير أن ذلك كان شأن القلة منهم ، أما أكثرهم فكانوا فاسقين .

وقد كان ذلك فى غير مَنْ حَرَّفوا دينهم وكتابهم وكفروا بنبوة محمد ﷺ ، وقد علم الله ما يفعل هؤلاء الصالحون من أهل الكتاب ، وهو سبحانه مجازيهم عن أى مثقال ذرة من خير يعملونه ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝﴾ [الزلزلة: ٧] .

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة كثيرة ، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى :

١ - يتعلمون من هذه الآيات الكريمة أن يتفقهوا ويفقهوا الناس بأن من أراد منهم أن يلحق بخير أمة أخرجت للناس فإن الطريق أمامه ممهدة وإن كانت غير يسيرة ، إذ تتطلب مع الإيمان بالله الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفق شروطهما وآدابها ، وأن تلك الطريق

مفتوحة امام المسلمين، وتلك نعمة من الله على المسلمين إلى يوم القيامة.

٢ - ويتعلم اهل الدعوة والحركة ان العمل من اجل الإسلام -اى من اجل تمكين منهجه ونظامه فى حياة الناس - هو الطريق إلى ان يكون المسلمون خير أمة أخرجت للناس، والطريق إلى إرضاء الله تعالى ومغفرته ورحمته، وان تَنَكُّب هذا الطريق أو القعود عن العمل فى مراحله المتعددة - دعوة وحركة وتنظيمًا وتربية وإعدادًا لتمكين دين الله فى عباد الله - إثم كبير ومعصية تستوجب عقاب الله فى الدنيا بالذل والتبعية، وفى الآخرة بعذاب النار. وان المسلمين بخير وعافيه وتقدم علمى وحضارى طالما استمروا على الإيمان بالله وبالامر بالمعروف والنهى عن المنكر، لان ذلك العمل هو لب الدعوة الإسلامية وجوهرها، واحد اهم أهدافها التى تؤمن المجتمع كله، جالبة له كل نفع ودافعة عنه كل ضر وكل شر وكل ما يغضب الله تعالى.

٣ - ويتعلم الدعاة والحركيون ان أهل الكتاب فى الماضى على عهد النبى ﷺ، لم يستطيعوا ان يلحقوا بالمسلمين ضررًا اكثر من اذى اللسان، وتطاول المفترين على الله الكذب، همزًا ولمزًا وتحريفًا، اما ما وراء ذلك من حرب وقتال فقد كان شانهم ان ينهزموا امام المسلمين مولين الادبار.

* وان شان اهل الكتاب اليوم قد اختلف بحيث أصبح اليهود والنصارى يشنون على المسلمين حملات صهيونية صليبية ينتصرون فيها على المسلمين، ويطردون بعضهم من ديارهم ليستولوا هم عليها، بل أصبحوا متحكمين فى مصائر العالم الإسلامى...

* وان بعض الغافلين قد يتصورون ان انتصار الضلالة على الهدى والكفر على الإيمان نقض لسنة الله تعالى وناموسه، ومخالف لما جاء فى كتاب الله عن اهل الكتاب من أنهم لن يضروا المسلمين ولن يهزموهم، وانهم ضربت عليه الذلة والمسكنة !!!

* هذا التصور غير صحيح لان اهل الكتاب يتغلبون على مسلمين ناقصى الإيمان، ليس التزامهم بمنهج الله التزامًا كاملاً، فهم بهذا التصور والتقصير يمكن ان ينهزموا من اهل الكتاب فى معركة أو اكثر.

* وذلك ان منهج الله تعالى عبادة وخلق وعمل وسلوك وإعداد للعدو بالاخذ بكل الاسباب المتاحة من مال وعلم وجهد ووقت، وكيد وحرب.

فهل يُعَدّ المسلمون اليوم كذلك ؟ اللهم لا.

وإلى أن يصبح المسلمون كذلك فسوف تكون تلك مهمة الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية وفى تربية الناس تربية إسلامية ، ويوم يصبح المسلمون كذلك فلن يهزمهم أهل الكتاب ولن يضروهم إلا أذى ، وسوف يولونهم الأدبار ، لأن الله تبارك وتعالى لا يقول إلا الحق .

٤ - ويتعلمون من هذه الآيات الكريمة أن فاسقى أهل الكتاب الذين حرفوا دينهم ، وكفروا برسالة محمد ﷺ قد ضرب الله عليهم الذلة فى الماضى وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة كذلك .

* وأن الله تعالى يمكن أن يضرب عليهم فى الحاضر أو المستقبل ذلة ومسكنة بسبب كفرهم بآيات الله ، وعصيانهم أمر الله تبارك وتعالى وعدوانهم على شرائع الله تعالى ، وأنهم لا ينجيهم من هذا وذاك إلا الإيمان بالله والدخول فى دين الحق خاتم الأديان ، أو أن يلوذوا بعهد وميثاق يحفظهم من هذه الذلة والمسكنة ، لكن متى يكون ذلك ؟

الجواب على ذلك السؤال هو : عندما يريد الله تعالى ، أى عندما يصبح المسلمون على الإيمان الصحيح والالتزام الجاد بمنهج الله تعالى والممارسة الحقيقية للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيكونون بتلك الصفات أهلاً لأن ينتصروا على أهل الكتاب الذين يضرب الله تعالى عليهم الذلة والمسكنة ، أى يجرى عليهم ما أجراه عليهم فى عهد رسول الله ﷺ ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

٥ - وأن يتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآيات أن رحمة الله شملت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالله وأمروا بالمعروف وَنَهَوا عن المنكر ، وسارعوا فى الخيرات، فَعُدُّوا بذلك من الصالحين ، ولم يُكَفروا - بفضل عدل الله - من أعمالهم الخيِّرة شيئًا ، وفى ذلك علم ومعرفة وثقافة يجب أن يستفيد منها المسلمون فى التعامل مع أهل الكتاب اليوم ، فإن تلك هى حقيقتهم كما تحدث عنها القرآن الكريم ، وأن قدامى أهل الكتاب من يهود ونصارى كمُحْدَثيهم اليوم يجوز أن تكون منهم أمة مقتصدة تؤمن بخاتم الأديان ولكن أكثرهم من الفاسقين .

١٧ـ الآيات من السادسة عشرة بعد المائة إلى العشرين بعد المائة

موقف الكفار والمشركين من محمد ﷺ ودعوته

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) ﴾ [آل عمران: ١١٦ - ١٢٠] .

توضح هذه الآيات الكريمة موقف الكفار من حرب الله ورسوله ﷺ ، وتبين ما لهم ، وتحذر المؤمنين من أن يركنوا إلى الكفار والمنافقين، وأن يثقوا فيهم ويتخذوهم من خاصتهم، لما يضمر هؤلاء للمسلمين من شر ، وإن بدا في أفواههم غير ذلك ، ويطالب المسلمين بالصبر عليهم وتقوى الله سبحانه ، للاستعانة بذلك على إذهاب كيدهم .

وقد اشتملت الآيات على عدد من الأخبار جاء بعضها مؤكداً وبعضها عارياً من التوكيد، وعلى نداء ونهى وأكثر من شرط ، وأمر . وسوف نوضح ذلك فيما يلى والله المستعان .

١ ـ يخبر الله تعالى عن الكفار الذين يكيدون للإسلام والمسلمين ، ويغترون بما يملكون من مال وولد ، منصرفين عن الدخول فى الإسلام والاهتداء بهديه ، ظانّين أن أموالهم وأولادهم سوف تجعلهم فى حرز من عذاب الله يوم القيامة .

* وتؤكد الآية الكريمة أن الأموال مهما يكن قدرها ـ والأولاد مهما يكن عددهم ـ لا يمكن أن تقى صاحبها من عذاب الله ، إن هو رفض الدخول فى دين الحق ﴿ **إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ .

* و « الذين كفروا » فى هذا السياق تتناول كل كافر من أهل الكتاب ، وكل كافر من

العرب؛ وذلك أن اليهود اغتروا بأموالهم ، واغتر مشركوا العرب بأموالهم وأولادهم فانصرفوا جميعًا عن الدخول فى الدين الخاتم ، وأخذوا يكيدون له مغترين بما يملكون .

ولفظ ﴿ الذين كفروا ﴾ عام يتناول هؤلاء وأولئك ، ولا وجه لأن يخصص يهود بنى قريظة وبنى النضير - كما قال بذلك بعض المؤلين - لأن مشركى مكة مثل : أبى جهل وأبى سفيان وغيرهما كانوا كذلك فى حرب الإسلام والكيد له ، منخدعين بما يملكون من مال وولد .

٢ - وفى الآيات تشبيه أعمال هؤلاء الكفار - فى عدائهم للإسلام وكيدهم له وإنفاق أموالهم وتسخير أبنائهم فى إيذاء الرسول ﷺ وصحبه - ، بجائحة تهلك جميع ما فعلوا من أعمال الخير فى مجالات أخرى كإغاثة الملهوف وإطعام الطعام وحماية الجار ونحوها .
أى مثَّلتْ الآيات أعمالهم الضائعة بما تفعله ريح شديدة البرد فى إفساد الحرث والزرع .

والمعنى : أنّ مثل ما ينفقون فى كونه مبطلاً لما أتوا به قبل ذلك من أعمال البر ، كمثل ريح شديدة باردة أهلكت كل شىء .

* وصفهم الله تعالى ﴿ بأنهم ظلموا أنفسهم ﴾ أى عصوا الله تبارك وتعالى بكفرهم وسوء أعمالهم فاستحقوا هلاك حرثهم عقوبة لهم ، وإنما ظلموا أنفسهم لأنهم تسببوا فى ضياع حرثهم فى الدنيا والآخرة ، أما حرث المؤمنين فقد يذهب فى الدنيا ولكنه لا يذهب فى الآخرة ، وإنما يثاب على صبره على ذهاب حرثه .

* ﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ والمعنى أن الله تعالى لم يظلمهم بعدم قبول نفقاتهم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم ، حيث أتوا بهذه النفقات مقرونة بما يؤدى إلى عدم قبولها، وهو كفرهم وحربهم للإسلام والمسلمين .

٣ - وفى الآيات الكريمة نداء على المؤمنين ونهى لهم عن اتخاذ بطانة من الكافرين :
﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالاً، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم، الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ .

- وبطانة الرجل خاصته .

- ولا يألونكم خبالاً : أى لا يَدّعون الجهد فى إفسادكم .

- ومن دونكم : أى من غيركم .

- ودوا ما عنتم : أى أنهم يرغبون فى كل ما يشق عليكم .

- وقد بدت البغضاء من أفواههم : أى ظهرت العداوه والكراهية والتكذيب لكم من أفواههم .

- وما تخفى صدورهم أكبر : أى أن ما يبطنون من كراهية المسلمين أكبر مما يظهرونه .

والمعنى والله أعلم: أن الله تعالى نهى المؤمنين عن أن يتخذوا من اليهود والكفار وأهل الأهواء أصدقاء وأولياء، وبطانة خاصة لهم يستشيرونهم فى الآراء ، ويسندون إليهم أمورهم.

فقد روى أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

* وقد وصفت الآية الكريمة هؤلاء المنهى عن اتخاذهم أولياء أو بطانة بصفات منها:

- أنهم من غير المسلمين «من دونكم».

- وأنهم لا يتوانون عن عمل كل ما يفسد المسلمين «لا يألونكم خبالا».

- وأنهم يحبون أن يصيبوا المسلمين بالعنت والمشقة والشر «ودوا ما عنتم».

- وأنهم يظهرون الكراهية والبغضاء للمسلمين من أفواههم وبكلماتهم.

- وأنهم يخفون من كراهتيهم للمسلمين وبغضهم أكثر مما يظهرون.

* ومن كانت هذه صفاتهم فكيف يتخذهم المسلمون بطانة: أى أصدقاء وأولياء، أو خلصاء مستشارين فى مهام الأمور؟.

* والأصل فى البطانة أن تشير بالخير أو تزين الشر، ومن هنا كان الحذر عن اتخاذ البطانة من غير المسلمين لعدم أمانتهم، فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تامره بالخير -وفى رواية بالمعروف- وتحضه عليه، وبطانة تامره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصمه الله تعالى».

* وقوله تعالى: «قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون» أى أوضحنا لكم النهى عن اتخاذ الأولياء والأصدقاء من غير المسلمين، وبينا لكم صفاتهم، فاستجيبوا لما نُهيتم عنه إن كنتم من أهل العقل والفهم والدراية، أو إن كنتم تعقلون التفريق فى التعامل مع الأولياء والأعداء.

٤ – وفى الآيات الكريمة تحذير آخر للمؤمنين، ينهاهم عن مخالطة أعداء الإسلام أو موالاتهم: **«ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم، وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور».**

حيث ذكرت فى الآية الكريمة أسباب ثلاثة لتحذير المؤمنين من مخالطة هؤلاء الأعداء، وهى:

الأول: أنكم معشر المسلمين تحبون لهم الخير - وهو الدخول فى الإسلام - وهم يحبون لكم بقاءكم على الكفر **«تحبونهم ولا يحبونكم»** أو يكون المعنى: تحبونهم بسبب ما بينكم من قرابة، ولا يحبونكم بسبب دخولكم فى الإسلام، أو تحبونهم بسبب ما يظهرون لكم من أنهم على الإسلام – وهم المنافقون – ولا يحبونكم لأنهم يضمرون لكم الكراهية ويبطنون الكفر المستقر فى نفوسهم.

والثانى من هذه الأسباب:

أنكم معشر المسلمين تؤمنون بسائر الكتب السماوية «بالكتاب» أى بجنس الكتب السماوية دون تفرقة، وهم لا يؤمنون بكتابكم ولا بشىء منه.

*** والثالث من هذه الأسباب:**

أنهم منافقون لا ينبغى أن يثق فيهم المسلمون: **«وإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ»**. وهؤلاء منافقون أيضا يظهرون أمامكم الإيمان، وإذا خلا بعضهم إلى بعض أظهروا شدة العداوة وعنف الغيظ، حتى يصل الغيظ بهم إلى عض الأنامل ضيقا وغيظا من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم.

٥ – وتوضح الآية الأخيرة من هذه الآيات الكريمة بعض صفات المنافقين الذميمة وأفعالهم القبيحة، ليكون المؤمنون على معرفة بهم وحذر منهم، كما توضح للمؤمنين كيفية التعامل مع هؤلاء المنافقين.

*** ومن أبرز الصفات التى تتضح فى هؤلاء المنافقين ما يلى:**

- أنهم عندما يرون المسلمين – وقد مستهم حسنة أى منفعة مادية أو معنوية كانتشار الإسلام ودخول الناس فيه أو انتصار المسلمين على عدوهم – فإن ذلك يسوءهم ويغيظهم

ويحرك فيهم الحسد والحقد: **«إن تمسسكم حسنة تسؤهم»**.

– وأنهم عندما يرون المسلمين وقد أصابتهم مضرة، كاختلاف بينهم أو انتصار عدوهم عليهم أو وقوع أى ضرر مادى أو معنوى لهم؛ فإن ذلك يسرهم ويعجبهم: **«وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها»**.

* أما كيفية التعامل معهم فهى – كما وردت فى الآية – كما يلى:

– الصبر على طاعة الله تعالى فى أمره ونهيه، ليكون الله تعالى مع المسلمين فى كل أمر من أمورهم.

– والصبر على عداوة هؤلاء الأعداء باتقاء شرهم دون خوف منهم أو ضعف عن مواجهتهم.

– وتقوى الله بالامتناع عن اتخاذ بطانة منهم أو موالاتهم دون المسلمين؛ لأن الله تعالى نهى عن اتخاذ بطانة من غير المسلمين.

وتتضح كيفية التعامل معهم فى قوله تعالى: **«وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط»**.

* إن التعامل معهم بتلك الطريقة يجعل المسلمين بعيدين عن أن يلحق بهم ضرر من هؤلاء المنافقين والكفار الذين يحشدون للمسلمين ويكيدون لهم.

* وإنما أمر الله تعالى بالصبر على عداوة هؤلاء المبغضين الكائدين وأمر باتقاء شرهم، ولم يأمر بمقابلة شرهم بشر مثله، لأن ذلك هو خلق القرآن الكريم، وهو مبدأ عام فيه، يفهم هذا الخلق وذاك المبدأ من قول الله تعالى: ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** (٣٤) ﴾ [**فصلت**: ٣٤].

فمن مفهوم هذه الآية الكريمة تجرى محاولة تحويل العدو إلى محب أو ولى، عن طريق دفع سيئاته بالتى هى أحسن، وإن كان ذلك لا يمنع دفع السيئة بمثلها بغير بغى ولا اعتداء، وقد كان ذلك موقف النبى ﷺ من يهود بنى النضير، حيث حالفهم ووادهم – أى دفع لهم الديات – فنكثوا عهودهم وخانوا الأمانة حتى إنهم أعانوا على المسلمين أعداءهم من قريش، ثم أعانوا الأحزاب، ثم هموا بقتل رسول الله ﷺ، فاستحالت معاملتهم بالمودة، فكان قتالهم وإجلاؤهم كما هو معروف.

– والكيد فى الآية الكريمة هو العداوة أو الاحتيال، والمعنى الإجمالى للآية الكريمة: أن كل من صبر على أداء أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، وتقواه سبحانه وتعالى فى هذا وذاك، كان فى حفظ الله تعالى، فلا يضره كيد أعدائه ولا احتيالهم.

* وفى الآية الكريمة تأكيد علم الله بما يعمل الكفار والمنافقون فى عدائهم للإسلام والمسلمين وعقابه إياهم ﴿**إن الله بما يعملون محيط**﴾.

وفى قراءة ﴿بما تعملون﴾ يكون المعنى: إن الله عالم محيط بما تعملون من الصبر والتقوى، فيفعل بكم ما أنتم له أهل.

– المواقف التربوية العامة فى الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ – يتعلم المسلمون من الآية الاولى أن المال نعمة من الله تعالى، وأن إنفاقه يجب أن يكون فى أوجه الخير، وإلا عاد على صاحبه بالخسران والبوار، وأن الولد نعمة من الله تعالى، وأن الآباء، ملزمون بأن يربوا أبناءهم تربية إسلامية تؤهلهم لحمل أعباء العمل من أجل الإسلام، وإلا عادوا على ذويهم بأوخم العواقب.

هذا هو شأن الإسلام فى التعامل مع المال والبنين.

٢ – ويتعلمون من نفس الآية والتى تليها أن أهل الكفر والنفاق يسيئون استخدام هاتين النعمتين، فينفقون أموالهم ويوجهون أبناءهم للكيد للإسلام وحربه، وأن هذه الأموال والاولاد لن تغنى عنهم من الله شيئا، ولن يصلوا من وراء سوء التعامل معهما لا على شيء، وإنما يكون مصيرهم بذلك دخول النار والخلود فيها.

* وأن هؤلاء الكفار الذين ينفقون فى الإضرار بالإسلام لن يصلوا إلى ذلك، وإنما هم فى الحقيقة يهلكون كل عمل طيب، كانوا قد قاموا به أو يقومون الآن به، وليس فى ذلك لهم أدنى ظلم، ولكن هم الذين يظلمون أنفسهم.

٣ – ويتعلم المسلمون من الآية الثالثة ما يلى:

* أنه لا يجوز لأحد من المسلمين أن يتخذ بطانة من غير المسلمين يواليهم ويستشيرهم، لأن غير المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم لا يخلصون لمسلم، وإنما يعملون على إلحاق الضرر به، وإن كانت ألسنتهم أحيانا تظهر غير ذلك.

* وأن الاستجابة لأمر الله تعالى فى رفض اتخاذ البطانة من غير المسلمين دليل عقل وفهم ودراية، ووزن للناس بميزانهم الصحيح.

٤ - ويتعلمون من الآية الرابعة والتى بعدها أن رفض موالاة غير المسلمين والحذر منهم، يجب أن يترتب عليه أمور أخرى من أهمها:

- قطع العلاقات بهم مهما كانت درجة العلاقة أو القرابة التى توجب المحبة، وإنما وجبت تلك القطيعة لأن هؤلاء تلازمهم صفات معينة هى:

- أنهم لا يحبون المسلمين..

- ولا يؤمنون بالكتب السماوية وبخاصة القرآن الكريم..

- وأنهم منافقون يظهرون خلاف ما يبطنون..

- وأنهم يحسدون المسلمين فيسؤوهم أى خير يناله المسلمون، ويفرحون بأى شر يقع عليهم.

٥ - ويتعلم المسلمون من الآية الأخيرة من هذه الآيات الخمس أن عليهم دائما فى تعاملهم مع أى عدو من الكفار: أهل كتاب أو غيرهم من المنافقين، عليهم أن يتحلوا بصفتين أساسيتين هما:

- الصبر على عداوة أعدائهم، ودفع أذاهم بالتى هى أحسن.

- وتقوى الله فى القول والعمل وخوف المخالفة عن أمر الله تبارك وتعالى.

وعند توفر هاتين الصفتين فيهم فلن يضرهم كيد أعدائهم شيئا.

* وعلى المؤمنين أن يوقنوا بأن الله تعالى محيط بكل شىء علما، محيط بأعمال الكافرين أعداء الإسلام والمسلمين ومجازيهم عليها من جنس عملهم الخبيث، ومحيط بأعمال المؤمنين ومجازيهم عليها بما يستحقون، إن هذا اليقين يزيد المؤمن اطمئنانًا ورضا ويرشد عمله وسلوكه.

- والمواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى الآيات كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ - أن يفقهوا الناس فى إنفاق الأموال فى الأوجه التى أمر الله بها أو ندب إليها، وأن

يحذروهم من الإنفاق فيما يعود بالضرر على المسلمين، أو فيما لا يعود على المسلمين بفائدة.

* وأن يعلموا الناس كيف يربون أبناءهم تربية إسلامية. ونحتاج هنا إلى ضرب المثل حتى يكون الدعاة على علم بالإيجابيات والسلبيات فى مجالى إنفاق المال، وتربية الأبناء، فنقول:

- الذى يسرف فى إنفاق ماله حتى لو كان فى غير ما حرم الله تعالى مخطئ لوقوعه فى الإسراف نفسه وهو حرام لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف: ٣١].

- والذى يقتر فى الإنفاق مخطئ حتى لو كان تقتيره على نفسه وذويه لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٩].

والإسراف والتقتير كلاهما سوء تعامل مع المال، وهو سلوك يعود بالضرر على المسرف أو المقتر وذويه والمجتمع الذى يعيش فيه بل العالم الإسلامى كله.

- والذى ينفق ماله من غير أن يأخذ فى اعتباره الأولويات الواجب اتباعها، كأن ينفق المال فى بناء ناد اجتماعى وليس فى هذا الحى مسجد أو مدرسة أو دار لرعاية الأيتام، لاشك أنه فى ترك الأولويات قد أخطأ، وإن فعل خيرا.

- والذى ينفق المال فى أوجه الخير المندوب إليها، ويرغب فى أن يشير الناس إليه ويشيدوا به مخطئ كذلك، إذ الأصل فى هذا الإنفاق فى أوجه الخير ألا تعلم شماله ما أعطت يمينه، أما فى الفروض كالزكاة فالجهر بها أفضل.

- وهؤلاء الأولاد من نعم الله ومن زينة الحياة الدنيا، يمكن أن يربيهم أباؤهم تربية غير إسلامية، كتلك التربية التى لا تعرفهم بخالقهم ولا تطبعهم على القيم الإسلامية، ولا تعودهم الاعتماد على النفس والجدية فى القول والعمل وتحمل المسئولية بأمانة وصدق، من فعل ذلك من الآباء فقد تعب وأخطأ، وكان أبناؤه غير بررة به وغير نافعين لأنفسهم ولا لغيرهم.

- والذى يربى أبناءه تربية روحية فقط، تولد فيهم العزوف عن الحياة، والزهد فيما أحل الله من الطيبات، ولا تكون لهم - بهذه التربية - مكانة فى الدنيا ولا فى الدين ... هؤلاء يخطئون كذلك ويبتعدون عن التربية الإسلامية الصحيحة.

- والذى يربون أبناءهم تربية رياضية بحتة تشغلهم عن جوهر الإنسان وأنه روح وعقل وبدن، ويصبح كل همهم تربية بدن الإنسان وعضلاته، هؤلاء أيضا مخطئون على الرغم من أن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف؛ لأن القوة قوة الروح والعقل والبدن: أى قوة الإنسان لا قوة بدنه فحسب.

- وكذلك شأن الذين يربون أبناءهم تربية عقلية - يعطون فيها لهذه التربية أكبر أهمية، متجاهلين الروح والبدن، مفتونين بالعقل - مخطئون كأولئك؛ لأن العقل إذا نما على حساب الروح والبدن كان مصدر إزعاج لصاحبه.

* إن التربية الإسلامية تعتمد على التوازن فى هذه المجالات التى تكوّن الإنسان: روحه وعقله وبدنه.

وإن مهمة الدعاة إلى الله هى تبصير الناس بهذا التوازن فى تربية أبنائهم: التوازن النابع من منهج الإسلام فى التربية، بحيث تتكامل شخصية الإنسان روحيا وخلقيا وعقليا وبدنيا ودينيا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وجهاديا وجماليا[1]، وما لم يكن ذلك كذلك فإن تربية الأبناء تكون وبالا عى المجتمع كله.

* إن الدعاة مطالبون بأن يعلموا الناس التوازن والتكامل فى كل أمر من أمور حياتهم، وليس أمر الأموال والأولاد فحسب.

٢ - ويتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآيات أن توجيه الأموال والأولاد فى غير هذا التوجه الإسلامى، إنما يعود عليهم، وعلى أولادهم والمجتمع الذى يعيشون فيه بأوخم العواقب، إذ هم بذلك يسيئون إلى دينهم ودنياهم.

٣ - ويجب أن يتنبه الدعاة والحركيون، وأن ينبهوا الناس إلى أن الولاء والصداقة وطلب النصح والمشورة إنما يكون من المسلمين لا من غيرهم، لأن غير المسلمين يضمرون للإسلام والمسلمين الشر والضرر والفتنة، ولأن المسلمين أمة من دون الناس.

* غير أن رفض اتخاذ غير المسلمين بطانة لا يعنى الإساءة إليهم فى المعاملة، لأن الإسلام يطالب بالإحسان فى كل شىء، ومع كل أحد، ولا يرضى الإساءة إلا ردا على إساءة، بل

---

(١) لنا سلسلة مفردات التربية الإسلامية، وقد أحصينا منها عشرة أنواع من التربية: صدر منها: التربية الروحية والتربية الخلقية. وعما قريب تصدر التربية العقلية. ونسأل الله أن تكمل هذه السلسلة إذ تعد المدخل الصحيح إلى التربية الإسلامية.

يفضل الصفح فى هذه الحالة، لان المبدأ الذى أقره هو : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت: ٣٤]. كما أوضحنا ذلك آنفا.

٤ - ويتعلم الدعاة - ويجب عليهم أن يعلموا الناس - أن الله تبارك وتعالى عندما يأمر وينهى، فإنما يبين لنا الآيات ويقيم علينا الحجج والبراهين. والعقلاء الفاهمون من المسلمين هم الذين يلتزمون بهذه الاوامر والنواهى، والغافلون هم الذين لا يأخذون الأمر والنهى مأخذ الجد والاهتمام.

٥ - ويتعلم الدعاة والحركيون تصنيف أعداء الله: أعداء الإسلام تصنيفًا يهتدون فيه بهدى القرآن الكريم، وتلك الاصناف التى وضحت من الآية الكريمة هى:

- صنف يحبهم المسلمون لقرابات بينهم وبين المسلمين، أو لمصالح تربطهم بهم، مع أنهم لا يحبون المسلمين.

- وصنف ينكر كتاب الله، بل كتب الانبياء جميعا وهم الملحدون الذين لا يعترفون بالاديان ولا يدينون بما أخبر الله به من غيبيات، ويتندرون بذلك ويزعمون أنها ظلاميات!

وما أظلمت إلا قلوبهم وعقولهم!!!.

- وصنف ينافقون ويظهرون غير ما يبطنون، ويحبون الشر للمسلمين ويحسدونهم على أى نعمة ينعم بها الله عليهم.

- وصنف يسوؤهم أن ينال المسلمون خيرا أى خير، حسداً من عند أنفسهم.

- وصنف يفرحون ويشمتون فى المسلمين إذا أصابهم ضرر أو انتصر عليهم عدو، حقدا على المسلمين كذلك.

* وتصنيف الناس على هذا النحو يريح الدعاة والحركيين، ويتيح لهم فرصة التعامل مع كل صنف بما يناسبه، ومَنْ يناسبه، وبغير هذا التصنيف يظل الدعاة والحركيون يعاملون الناس جميعا على أنهم سواء، مع أن المقطوع به أنهم فى عدائهم للدعوة والحركة ليسوا سواء كذلك.

* ولن يرشد العمل من أجل الإسلام إلا إذا دقق الدعاة إلى الله والحركيون فى هذا التصنيف، ولهم أن يزيدوا عليه ما تقتضيه ظروف العصر الذى يعيشون فيه، إذ قد يوجد

صنف أو أصناف ممن يكيدون للإسلام، ولم يرد لهم ذكر فى هذه الأصناف الشائعة.

وعلى سبيل المثال فلهم أن يصنفوا أنواعا جديدة فيما يلى:

- أولئك الذين لا يتقيدون بالقيم الخلقية الإسلامية، فيقبلون على ما حرم الله من خمر وميسر وزنى ولواط، وكذب وغش. وما إلى ذلك من رذائل حرمها الإسلام على الناس، هؤلاء بهذه الصفات صنف من أصناف أعداء الإسلام وأعداء الله وأعداء أنفسهم ومجتمعاتهم.

* لابد من معرفة هؤلاء وحصرهم وحصارهم بالقيم الخلقية الإسلامية، ولابد من التعامل معهم بما يجب أن يعاملوا به وفق أحكام الشريعة الإسلامية.

- وصنف يؤثرون مصالحهم ومنافعهم على الدين، ويريدون أن يتخذوا من الإسلام وسيلة للزيادة فى منافعهم وما يحبون، وهم بذلك يعادون الدين والحق والمجتمع كله، ولابد أن تكون لهم معاملة خاصة بهم تصلحهم وتريح الناس من سوء عملهم.

- وصنف ينظرون إلى العمل من أجل الإسلام على أنه رجعية وتخلف وتعويق لتطوير المجتمع ورقيه!! ومن أجل ذلك يحاربون كل عمل من أجل الإسلام ويشوهون العاملين فيه، بل يحاربونهم حربا صريحة!! ولابد لهؤلاء من معاملة تناسبهم.

١٨- الآيات من الحادية والعشرين بعد المائة

إلى التاسعة والعشرين بعد المائة

فى غزوة أحد والإعداد لها، وتذكير المؤمنين بنعم الله عليهم

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) ﴾ [آل عمران: ١٢١ - ١٢٩].

- هذه الآيات الكريمة جزء من حديث ضاف عن غزوة أحد، حيث تتعاقب آيات كثيرة فى الحديث عن غزوة أحد أيضا.

وقد تحدثت هذه الآيات عن الإعداد لغزوة أحد، رجالا وعتادا، كما تتحدث عن الانشقاق الذى وقع من المنافقين فرجعوا، ولم يشاركوا فى المعركة، وتشير إلى فتنة بعض المسلمين وهمهم بأن يتراجعوا عن خوض المعركة، ولكن الله هداهم فخاضوها.

والآيات تذكر بنعم الله على المؤمنين فى غزوة بدر إذ نصرهم، وهم قلة فى العدد والعدة، إذ أنزل عليهم الملائكة ليبشرهم، ويطمئن قلوبهم، ويرد الكافرين خائبين، ويعلم الرسول ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم والمسلمين من بعد ألا ييأسوا من هداية أحد، لأن ذلك متروك أمره لله تعالى الذى له ما فى السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

- وقد اشتملت الآيات الكريمة على عدد من الأخبار وعدد من أساليب الشرط، وعلى بعض الأوامر، وبعض البشارات وبعض الأحكام، ونستطيع بعون الله أن نوضح ذلك فيما يلى:

١ - إخبار عن عمل الرسول ﷺ فى الإعداد لغزوة أحد: «وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين

مقاعد للقتال والله سميع عليم﴾.

* والراجح لدى علماء السيرة النبوية ومفسرى القرآن الكريم أن هذه الآيات نزلت فى غزوة أحد.

وقد لخص الإمام الرازى فى تفسيره الكبير: «مفاتيح الغيب» خبر غزوة أحد تلخيصا جيدا استقاه من كتب السيرة وكتب التفسير قال فيه: «روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله ﷺ ودعا عبد الله بن أبى بن سلول، ولم يدعه قط قبلها فاستشاره:

فقال عبد الله وأكثر الأنصار: يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، والله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخل علينا عدو إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا؟ فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر موضع، وإن دخلوا قتلهم الرجال فى وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين.

– وقال آخرون: اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب، لئلا يظنوا أنا قد خفناهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنى قد رأيت فى منامى بقرا تذبح حولى، فأولتها خيرا، ورأيت فى ذباب سيفى ثلما، فأولته هزيمة، ورأيت كأنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها: المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم»؟.

– فقال قوم من المسلمين من الذين فاتتهم «بدر» – وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد–: اخرج بنا إلى أعدائنا... فلم يزالوا حتى دخل فلبس لأمته، فلما لبس ندم القوم، وقالوا: بئسما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ والوحى يأتيه!!! فقالوا له: اصنع يا رسول الله ما رأيت، فقال: «لا ينبغى لنبى أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل».

– فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة، وأصبح بالشِّعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال، فمشى على رجليه، وجعل يصُفّ أصحابه للقتال، كأنما يقوم بهم القدح، إن رأى صدرا بارزا قال له: تأخر.

* وكان نزوله فى جانب الوادى، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وأمَّر عبد الله بن جبير على الرماة وقال: ادفعوا عنا بالنبل حتى لا يأتونا من ورائنا، وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه –أى أصحاب عبد الله بن جبير قائد الرماة–: اثبتوا فى هذا المقام، فإذا عاينوكم ولوكم الأدبار، فلا تطلبوا المدبرين ولا تخرجوا من هذا المقام.

* ثم إن رسـول الله ﷺ لما خـالف رأى عـبـد الله بن أبى شق عليـه ذلك، وقـال: أطاع الولدان وعصاني، ثم قال لأصحابه: إن محمدا إنما يظفر بعدوه بكم، وقد وعد أصحابه أن أعداءه إذا عاينوهم انهزموا، فإذا رأيتم أعداءهم فانهزموا فيتبعوكم فيصير الأمر خلاف ما قاله محمد -عليه الصلاة والسلام.

* فلما التقى الفريقان انهزم عبد الله بالمنافقين.

* وكان جملة عسكر المسلمين ألفا، فانهزم عبد الله بن أبى مع ثلاثمائة، فتبقيت سبعمائة، ثم قواهم الله مع ذلك حتى هزموا المشركين، فلما رأى المؤمنون انهزام القوم، وكان الله تعالى بشرهم بذلك، طمعوا أن تكون الوقعة كوقعة بدر، فطلبوا المدبرين، وتركوا ذلك الموضع وخالفوا أمر رسول الله ﷺ بعد أن أراهم ما يحبون.

* فأراد الله تعالى أن يعظهم عن هذا الفعل لئلا يُقْدموا على مخالفة الرسول ﷺ، وليعلموا أن ظفرهم إنما حصل يوم بدر ببركة طاعتهم لله ولرسوله، ومَنْ تركهم الله مع عدوهم، لم يقوموا له.

* فنزع الله الرعب من قلوب المشركين، فكثر عليهم المشركون، وتفرق العسكر عن رسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ..... (١٥٣)﴾ [آل عمران: ١٥٣].

* وشُج وجه رسول الله ﷺ وكُسرت رباعيته، وشُلَّت يد طلحة دونه، ولم يبق معه إلا أبو بكر وعلى والعباس وسعد، ووقعت فى العسكر: أن محمدا قد قتل، وكان رجل يكنى أبا سفيان من الأنصار نادى الأنصار، وقال: هذا رسول الله، فرجع إليه المهاجرون والأنصار.

* وكان قتل -من المسلمين- سبعون وكثر فيهم الجراح، فقال رسول الله ﷺ: رحم الله رجلا ذب عن إخوانه وشدّ على المشركين بمن معه حتى كشفهم عن القتلى والجرحى، والله أعلم».

ثم يواصل الرازى قائلا: «والمقصود من القصة أن الكفار كانوا ثلاثة آلاف، والمسلمين كانوا ألفا أو أقل، ثم رجع عبد الله بن أبى مع ثلاثمائة من أصحابه، فبقى رسول الله ﷺ مع سبعمائة، فأعانهم الله حتى هزموا الكفار، ثم خالفوا أمر رسول الله ﷺ، واشتغلوا بطلب الغنائم، فانقلب الأمر عليهم وانهزموا ووقع ما وقع، وكل ذلك يؤكد قوله تعالى: «وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا» وأن المقبل من أعانه الله،

والمدبر من خذله الله»(١).

* وقد غدا رسول الله ﷺ من بيته فمشى على رجليه إلى أُحد، ثم اخذ يحدد مواقع وأماكن للمجاهدين في سبيل الله، كما اوضحنا انه حدد مكانا للرماة فوق الجبل لحماية ظهور المسلمين، كما حدد موقعا للفرسان وآخر لسائر المقاتلين.

* وكلمة «**والله سميع عليم**» في ختام الآية الكريمة تعني: ان الله سميع لاقوالكم فيما اشرتم به على النبي ﷺ من بقاء في المدينة أو خروج منها لمواجهة العدو، عليم بنواياكم عند طلب النبي ﷺ مشورتكم.

– وأخبرت الآيات عن نعمة أنعمها الله على المؤمنين في هذه المعركة، وهي أن طائفتين حدثتا أنفسهما بالتراجع عن القتال، وهما: بنو سلمة، وبنو حارثة من الأنصار، ولكن الله تعالى ثبتهما وصرف عنهما الفشل والانخداع بما فعل عبد الله بن أبي عندما رجع بثلث الجيش، فكانت تلك نعمة أنعم الله بها على المؤمنين، وذلك واضح من قوله تعالى: «**إذا همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما...**».

– وفي الآيات تقرير لحقيقة كبيرة هي أن المؤمنين يتوكلون على الله مع أخذهم بالأسباب، غير مغترين بقوتهم ولا أنصارهم وحلفائهم، وذلك تدل عليه الآية الكريمة: «**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**».

– وتتأكد هذه الحقيقة – وهي أن المؤمنين إذا توكلوا على الله تعالى وأخذوا بالأسباب كفاهم ونصرهم مهما كانوا قلة – بما حدث في معركة بدر: «**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون**».

– وتتحدث الآية الكريمة: «**إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة...**» إلى قوله تعالى: «**مسومين**» عن وعد من الله لرسوله ﷺ يوم أحد: أن المؤمنين إذا اتقوا وصبروا أمدهم بخمسة آلاف من الملائكة. هكذا روى عن الضحاك(٢).

وروى نحوه عن زيد بن أسلم(٣) حيث قال: قالوا لرسول الله – وهم ينظرون المشركين– أليس الله يمدنا كما أمدنا يوم بدر؟ فقال رسول الله ﷺ: «ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم

---

(١) الإمام الرازي: التفسير الكبير: ٨/ ١٨٠ مرجع سابق.

(٢) هو الضحاك بن مزاحم البلخي الخرساني (.. – ١٠٥هـ) من علماء التفسير المشهورين، وكان معلما يؤدب الأولاد، وكان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي، وله كتاب في التفسير.

(٣) هو زيد بن أسلم: تقدمت ترجمته في هذا الكتاب. ص: ١٩٣.

بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، وإنما أمدكم يوم بدر بألف؟»

قال: فجاءت الزيادة: «بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين».

* والإمداد أنواع:

- منه ما يكون بالمال.
- ومنه ما يكون بالرجال.
- ومنه ما يكون بالعدة والعتاد.
- ومنه ما يكون بتخذيل العدو..
- ومنه ما يكون بالملائكة.

والملائكة تستطيع ما لا يستطيعه الإنسان، وقد ثبت أن الملائكة عاونت المسلمين فى غزوة بدر.

ولا مانع -عقلا ولا شرعا- من أن تعين الملائكة المؤمنين فى أى وقت فى معاركهم مع أعدائهم بأنواع من العون المعنوى أو المادى، فلله تعالى جنود لا يعلمها ولا يعلم قدراتها إلا هو، وهو سبحانه يؤيد بها المؤمنين الذين يعملون الصالحات إذا شاء.

- وهذا الإمداد الممكن أو الحادث بالفعل الذى وعد الرسول ﷺ به المسلمين، إنما جعله الله تبارك وتعالى للمؤمنين ليحقق لهم فائدتين، كما دلت على ذلك الآية الكريمة.

«وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به..».

فالفائدة الأولى:

بشرى لهم وعدة بنصر يتحقق بإذن الله إن هم صبروا واتقوا.

والثانية:

أن تطمئن قلوبهم بهذا الوعد الذى وعدهم به.

والمعنى - والله أعلم - هو: ما جعل الله ذلك الوعد أو القول الذى قاله الرسول ﷺ وهو: «ألن يكفيكم..» الآية إلا بشرى تهدئ من روعكم، وتطمئن به قلوبكم التى طرقها الخوف من كثرة عدد الأعداء وعدتهم بالنسبة لعددكم وعدتكم.

– وتؤكد الآية الكريمة حقيقة أخرى هي أن النصر من عند الله، وأن المقاتلين إنما يأخذون بأسباب النصر، «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم» أى أن توكل المؤمنين يجب أن يكون على الله وحده، فهو وحده العزيز الكامل القدرة، الحكيم الكامل العلم، وكل من اعتقد ذلك أعانه الله ونصره.

– وتعلل الآية الكريمة: «ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين» النصر الذى يجريه الله على أيدى المؤمنين الذين يمدهم أنواع الإمداد لينتصروا على الكفار أعداء الله، وذلك للأسباب التالية:

* ليقطع طرفاً – أى جانباً – من الذين كفروا بهزيمتهم والقضاء على بعضهم والإبادة.

* أو ليخزيهم ويغيظهم ويظهر هزيمة باطلهم وكفرهم.

* وليرجعوا من تلك المعارك خائبين: أى محرومين مما كانوا يتوقعون من ظفر ونصر على المؤمنين.

– وفي الآيات إخبار من الله تعالى بأن الأمور كلها بيد الله يهدى من يشاء من الناس؛ لسابق علمه سبحانه وتعالى، وليس للنبى ﷺ من مصالح عباد الله شيء إلا ما أوحاه الله إليه.

أى: ليس له من مسألة إهلاكهم بشيء؛ لأنه تعالى أعلم بالمصالح، فربما تاب عليهم.

أو: ليس لك فى أن يتوب الله عليهم ولا فى أن يعذبهم شيء.

«ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون».

* روى أحمد والبخارى والترمذى والنسائى بأسانيدهم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم أحد: «اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية»، فنزلت هذه الآية فتيب عليهم كلهم.

* وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة نحوه.

* وروى أحمد ومسلم بسنديهما عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشُج فى وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم

وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فانزل الله: **﴿ليس لك من الأمر شيء...﴾** الآية. ذكر ذلك السيوطى فى لباب النقول.

ولا تناقض بين الحديثين، بل التوفيق بينهما ظاهر، وهو انه ﷺ قال ما قال حين أدموه، ثم لعن رؤساءهم.

*** وقال ابن جرير فى تفسير قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾:**

ليس إليك يا محمد من أمر خلقى إلا أن تنفذ فيهم أمرى، وتنتهى فيهم إلى طاعتى، وإنما أمرهم إلىّ والقضاء فيهم بيدى دون غيرى أقضى فيهم وأحكم بالذى أشاء من التوبة على مَنْ كفر بى وعصانى وخالف أمرى، أو العذاب إما فى عاجل الدنيا بالقتل، وإما فى آجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بى».

* فإن عذب الله هؤلاء ولم يتب عليهم فهم ظالمون يستحقون العذاب، وكل مشرك ظالم **﴿فإنهم ظالمون﴾**.

- ومما يؤكد حقيقة أن ليس لرسول الله ﷺ من أمر عباد الله شيء فى أن يعذبهم الله أو يتوب عليهم، وأن الأمر كله لله، قول الله تعالى: **﴿ولله ما فى السموات وما فى والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾** أى من كان له ملك السموات والأرض كان حقيقا أن يكون له الأمر كله فى السموات والأرض ولا يمكن أن يكون لأحد من أهل السموات والأرض شركة معه ولا رأى ولا وساطة ولا تأثير فى تدبير أى أمر من أمور السموات والأرض، إلا من سخره الله للقيام بشيء من ذلك حتى لو كان نبيا رسولا!!!

- المواقف التربوية العامة فى الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من الآية الأولى: **﴿وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال...﴾** الآية: ما يلى:

* أن كل أمر من الأمور يجب أن نعد له ونأخذ له بأسبابه، بل نخطط له مسبقا بتحديد الهدف واختيار الوسيلة وتوضيح الجهد ورسم المواقع ومعرفة من يقوم على كل موقع وتحديد واجباته فيه.

* واليقين بأن الله تعالى سميع لكل ما يقال، عليم بكل ما يخالج النوايا، ومحاسب على هذا وذاك.

٢ – ويتعلمون من قوله تعالى: «إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون» ما يلى:

* أن النكوص والتراجع عن المضى فى طريق الحق وارد على الناس، وأن الشيطان يوسوس للإنسان بما يضره، وأن على الإنسان أن يحذر تلك الوسوسة ويمضى فى طريق الحق معتصماً بالذكر والدعاء والإخلاص لله تعالى.

* وأن التوكل على الله من صفات المؤمنين، ولكنه لا يعنى التواكل والتراخى، أو الاكتفاء بالدعاء دون العمل، وإنما يجب الأخذ بالأسباب والإعداد الجيد قبل كل عمل.

٣ – ويتعلمون من قوله تعالى: «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون» ما يلى:

* أن نصر الله للمؤمنين لا يتوقف على قدرتهم واستعدادهم فحسب، وإنما قد يكون النصر مع قلة العدد وضآلة العتاد، ما دام الإيمان قويا، والاعتماد على الله – بعد الأخذ بالأسباب – منهجا فى تناول الأمور.

* وأن تقوى الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه هى التى تهيئ للمؤمن أن يكون فى مقام الشكر على النعم التى يمنحها الله تعالى لعباده فالشكر واجب ولكن طريقه التقوى.

٤ – ويتعلمون من قوله تعالى: «إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين...» الآيتان ما يلى:

* فتح باب الأمل فى الله تبارك وتعالى – فهو سبحانه الذى نصر المؤمنين فى بدر، وهم فى قلة من العدد والعدة – قادر على أن ينصرهم فى أحد على الرغم من تخاذل بعضهم، وهمّ بعضهم بالتراجع، فالأمر كله لله والنصر منه وحده.

* وأن الصبر على المكاره، وتقوى الله تعالى سببان حيويان فى زيادة عطاء الله وإمداده ونصره.

* وأن مدد الله تعالى لا ينقطع عن عباده المؤمنين، وأن هذا المدد يتنوع ويأخذ أشكالا غير متناهية، بحيث يمكن أن يكون صبرا وثباتا، وحسن تدبير، وإعدادا وقوة إيمان ويقين، أى قد يكون مددا معنويا أو ماديا، بل قد يكون غير معروف ما أُمدّ به إلا بعد حين!!! كما قد يكون المدد –كما أسلفنا– بإلقاء الرعب فى قلوب الأعداء، وقد يكون.. وقد يكون...

٥ – ويتعلمون من قوله تعالى: «وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به، وما

النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم» ما يلى :

* أن الله تعالى له من أنواع الإمداد ما يبشر به المؤمنين ويسرهم ليكونوا دائما على صلة بالله قوية، وتقوى له على كل حال، وأن هذا الإمداد لطمأنة قلوب المؤمنين بأن وعد الله حق، وقد وعد الله المؤمنين بالنصر، ومن نصره الله تعالى لأنه امتثل أمره واجتنب نهيه، فهو أهل لهذا النصر.

* وأن النصر على الأعداء فى كل معركة فى أى زمان ومكان هو من عند الله أصلا، لكمال قدرته تعالى، وكمال علمه، ولكن هذا النصر يستحقه المؤمنون الآخذون بالأسباب المتوكلون على الله تعالى.

٦ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: «ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين» ما يلى :

* أن الله تعالى يحقق النصر للمؤمنين ليقضى على طائفة من الكافرين بهذا النصر، أو ليطمئن به قلوب المؤمنين.

* وأنه سبحانه ما لم يقض على طائفة من الكفار أعدائه فإنه يخزيهم، ويذلهم ويلعنهم، فيصبحون بهذا أو ببعضه محرومين من النصر الذى كانوا يتوقعونه لكثرة أعدادهم وعتادهم.

٧ - ويتعلمون من قوله تعالى: «ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون» ما يلى :

* أن المؤمن حين يقع به من الضيق والأذى ما لا يُحتمل مثله - كما حدث للنبى ﷺ فى أحد - فإنه ما ينبغى أن يحمله ذلك على أن يفقد هدوءه فيتوعد أو يدعو على من تصور أنهم أسباب ما حل به من أذى أو ضيق، وإنما عليه أن يدع ذلك لله تعالى خالق الخلق الذى يؤول إليه أمرهم فيجازيهم كما يشاء.

* يُتعلم هذا الدرس من مخاطبة الله تعالى لخاتم رسله ﷺ بقوله تعالى: «ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم...».

* وأن المشركين ظالمون، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان: ١٣]. وأن العصاة ظالمون، لأنهم ظلموا أنفسهم بمعصية الله تعالى إذ وضعوها فى موضع الإثم والعقاب.

٨ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: «ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء والله غفور رحيم» ما يلى:

* ان كل ما فى السموات والأرض من ناس وأشياء ملك لله تعالى، وانه سبحانه وحده له ان يأمر وان ينهى وان يشرع وان يثيب من أطاعه وان يعذب من عصاه، وانه سبحانه غفور رحيم.

إن المسلم إذا تدبر ذلك علم كم يورط نفسه بالمعصية، وكم يعزها بالطاعة ويحول بينها وبين عقاب رب غفور رحيم.

* وأن الله تبارك وتعالى عندما يعاقب عاصيا فإنما يعاقبه على المعصية والمخالفة، وأن فى ذلك تمام العدل، وعندما يثيب طائعا فإنما يتفضل عليه سبحانه بمغفرة منه ورحمة.

– المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ – على الدعاة والحركيين فى مجالات العمل من اجل الإسلام ان يجعلوا الشورى دَيْدَنَهُم فى صغير الامور وكبيرها، أسوة بمحمد ﷺ، فقد استشار فى الخروج إلى العدو أو التحصن بالمدينة المنورة، ثم اخذ بما كان عليه راى أكثر الصحابة رضوان الله عليهم، وليعلمنا ان الشورى اساس فى التعامل مع كافة الاحداث –طالما لم يكن هناك نص– ونحب ان نؤكد أن التعامل بالشورى عبادة لله تعالى –كما سنوضح ذلك فيما بعد.

٢ – وعلى الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية، ان يعدوا لكل مرحلة من مراحل العمل عدتها وان يتدبروا فى موقف النبى ﷺ، وهو يعدهم للمعركة «... تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال» وهو يدقق فى إعدادهم وتأمين ظهورهم بجعلها إلى الجبل واختيار الرماة وامرهم بعدم مغادرة اماكنهم إلا بأمر منه.

عليهم أن يتدبروا ذلك كله ليتعلموا منه فى مجالات عملهم ما يلى:

* دراسة المكان الذى يمارسون فيه عملهم من أجل الإسلام دراسة جيدة تعرف بطبيعته وظروفه وكل ما يحيط به.

* ومعرفة كل من يشارك فى العمل من أجل الإسلام معرفة جيدة تمكن من التعاون معهم، أو على الاقل عدم الاصطدام بهم، وليكن فى موقف الرسول ﷺ من المنافقين الذين انشقوا على المسلمين ورجعوا إلى المدينة خير درس يُتعلم.

* ومعرفة المدعوين الذين يتحرك فيهم العاملون من أجل الإسلام معرفة تمكن من خطابهم بما يفهمون، والتعامل معهم بما ينبغى أن يكون، ومطالبتهم بما يطيقون، وعذرهم فيما لا يستطيعون.

* ودرس مراحل الدعوة إلى الله فى ضوء واقع المدعوين، لكى لا تختلط عليهم المراحل بتجاوز أو تداخل(١).

* ودرس ظروف الحركة الإسلامية فى الماضى القريب وفى الحاضر والتأمل فى متطلباتها المعاصرة بعد ثورة الاتصالات وسرعة المواصلات.

* ودرس ظروف الأعداء فى خارج العالم الإسلامى وفى داخله، ومعرفة إمكاناتهم، وما يملكون من وسائل تعويق العمل من أجل الإسلام، لمواجهة مخططاتهم بما يبطلها ويحول بينها وبين أن تبلغ أهدافها.

٠ - كل ذلك يمكن أن يتعلمه الدعاة والحركيون من تدبرهم لقول الله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : **﴿وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال...﴾**.

٣ - ويتعلم أهل الدعوة والحركة من قوله تعالى: **﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** ما يلى:

* أن أسباب الفشل والتراجع عن أداء الواجب قائمة فى نفوس الناس، وأن شياطين الجن والإنس يزينون للناس هذا التراجع مرغبين فى السلامة والعافية، أو منفرين من التعرض للمتاعب وأن المنافقين فى قلوبهم مرض، والمعوقين يقومون بأعمال تخذل المؤمنين أحيانا وتفك ارتباطهم بالهدف فى بعض الأحيان.

* وعلى الدعاة والحركيين أن يكونوا على حذر من هؤلاء الشياطين وأولئك المنافقين والمعوقين، فإن طريق العمل من أجل الإسلام محفوفة بالعقبات والعراقيل والمعوقات، وأن على رأس كل مرحلة من مراحل الدعوة والحركة شيطاناً أو منافقاً أو معوقاً يزين القعود ويغرى بالتراجع والنكوص.

* ويتعلمون أن الله تبارك وتعالى ولى للمؤمنين يحول بينهم وبين الوقوع فى حبائل

---

(١) فى هذه المراحل وطبيعتها وأهدافها ووسائلها و... انظر للمؤلف: فقه الدعوة إلى الله، جزءان، نشر دار الوفاء بمصر: ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

شياطين الجن والإنس والمنافقين والمعوقين، وأن على كل مؤمن أن يجدد إيمانه ويقويه بالإقبال على الله تعالى بالطاعات والعمل الصالح، مع صدق النية والإخلاص، عندئذ يتولاه الله ويوفقه ويحول بينه وبين أعدائه.

* وأن التوكل على الله صفة المؤمنين، وأن هذا التوكل يعنى الأخذ بالأسباب وانتظار الفرج من الله تعالى، فمن توكل على الله كفاه كل مؤونة وكان معه فى كل أمره، ذلك أن الله تعالى يحب المتوكلين، ومن أحبه الله أجرى الخير على يديه.

٤ – ويتعلمون من قول الله تعالى: «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون» ما يلى:

* أن نصر الله تعالى قد يكون لقلة مؤمنة على كثرة غير مؤمنة، خارقا بذلك قوانين القوى وموازناتهما كما حدث مع المسلمين فى غزوة بدر الكبرى، فقد كان المسلمون يعانون من قلة العدد وقلة العتاد، وكثرة العدو عددا وعتادا، ومع كل هذه الملابسات نصر الله القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة.

* وأن الأهلية لتنزل النصر على المؤمنين هى فى كلمة واحدة: «التقوى» «فاتقوا الله» وتقوى الله فى مصطلحات علماء الإسلام هى:

حفظ النفس عما يؤثم، وإنما يكون ذلك بطريقين:

– ترك ما أمر الله بتركه أى ترك المحظور..

– وترك بعض ما لا بأس به حذرا مما به بأس.

* وأن يتأملوا فى أهلية من يستحقون نصر الله ليهتدوا من خلال هذا التأمل إلى أن أهلية النصر تكمن فيما يلى:

– فعل ما أمر الله به، فهو سبحانه لا يأمر إلا بخير..

– وفعل ما ندب إليه من نوافل؛ لأن ذلك يقرب إلى الله وإلى حبه للمتنفلين، ومن أحبه الله كان سمعه وبصره ويده...

– وترك ما نهى الله عنه، وهو سبحانه لا ينهى إلا عن شر.

– والإحسان بمعنى أن يعبد الله كأنه يراه، وبمعنى الإجادة والإتقان لكل شىء أو عمل يقوم به.

وقد نبه إلى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه؛ إذ كتب إلى سعد بن أبى وقاص بوصية قائلا: «واعلم أن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه، وأن النصر مع الصبر...»

٥ – ويتعلمون من قوله تعالى: **«إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بلى إن تصبروا وتتقوا.........»** ما يلى:

* أن العاملين فى مجال العمل الإسلامى من المدعوين عندما تضعف نفوسهم ويهابون أعداء الدعوة ويرونهم أكثر منهم عددا وعدة، عند ذلك يكون واجب الدعاة هو أن يعدوا هؤلاء بأن الله تعالى سوف يمدهم بما شاء من مدد، فى الزمان وفى المكان اللذين يراهما ملائمين، بشرط واحد هو أن يكونوا أهلا لنصر الله كما أوضحنا فى هذه الأهلية آنفا.

* وأن الدعاة والحركيين فى مثل هذه الظروف لا حرج عليهم فى أن يقولوا لجمهور المؤمنين: **«ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم...»** وذلك قدوة بالمعصوم ﷺ حين قال ذلك لأصحابه رضى الله عنهم.

* وينبغى أن يكون جل اهتمام الدعاة هو أن يبعثوا فى نفوس الناس الأمل والثقة بالله وتأييده ونصره للمخلصين من عباده.

* وأن المدد الإلهى يحتاج من المسلمين إلى الصبر والتقوى. الصبر على طاعة الله والصبر عن معاصيه والصبر على لقاء أى عدو، كما يحتاج مع الصبر إلى التقوى بكل معنى من معانيها التى ذكرناها آنفا.

* ومن كان من الدعاة والحركيين يشق طريق الدعوة إلى الله، وفى سلوكه هذا الصبر على مشقات الطريق وفى قلبه تقوى الله، هانت أمامه العقبات، ونجح فى تقبل كل ما تجرى به الأقدار، بل استعذب ما يناله فى سبيل الله واحتسب عند الله فكان من الرابحين.

٦ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قول الله تعالى: **«وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم»** ما يلى:

* أن العون الإلهى – والمدد الربانى – حين يأذن به الله تعالى ويؤيد به عباده المؤمنين، ليس لمجرد تحقيق العون والمدد، ولكنه مدد يخدم هدفا ويحقق وظيفة، ذلك الهدف وتلك الوظيفة هى:

* بشرى للمؤمنين بالنصر تؤكد لهم أن الله تعالى معهم يشد من أزرهم ويقوى عزائمهم، والمؤمن المستبشر الذى يحس بمعية الله تعالى ينطلق فى العمل من أجل الإسلام تحدوه الثقة، ويحركه الأمل مع العمل، ويرضى بكل ما يلاقيه فى سبيل الله من متاعب.

* وطمأنة لقلوب المؤمنين يتضح منها أن الله تعالى منجز ما وعد به من مدد وعون، حتى تسكن هذه القلوب ولا تهاب كثرة عدد الأعداء ولا قوة عتادهم، وتنزاح عن هذه القلوب وسوسات الشياطين، وتستيقن بأن النصر من عند الله.

* ويتعلمون أن الله يعالى يحب أن يرى الدعاة إليه جميعا، وقد استبشروا بما يقومون به من عمل - مهما بدا هذا العمل شاقا - واطمأنوا إلى أنهم على الحق وعلى الطريق المستقيم، وأنهم بعون الله ومدده منصورون، ومعنى هذا أن يزداد المؤمنون إيمانا وأن يستمسك الدعاة والحركيون بالحق الذى يدعون إليه ويجاهدون فى سبيله ما داموا يرون من سنن الله أن يمد عباده المؤمنين.

* وأن النصر على وجه الحقيقة من عند الله، وأن الأسباب - ومنها المدد - لا تؤدى بالضرورة إلى إحراز نصر.. كما حدث مثلاً فى معركة حنين، إذ انهزم المسلمون على الرغم من كثرتهم! لأن النصر على وجه الحقيقة من عند الله العزيز الحكيم.

٧ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قول الله تعالى: «ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين» ما يلى:

* أن النصر - الذى جاء من الله تعالى بعد عون ومدد، وكان بشرى للمؤمنين وطمأنة لقلوبهم - ليس لمجرد الظفر على العدو أو لتباهى المسلمين به وإنما له إلى جانب ذلك وظيفة أخرى هى:

- قطع طرف من الكافرين بهذا النصر، بتقليل قوتهم وإضعاف شأنهم، لأن ذلك يثبت الحق ويعلى شأنه.

- وأن هذا النصر يكبت الكافرين ويخزيهم، فلا يجدون لهم أعوانا ولا أنصارا ، وذلك شأن كل هزيمة للكفر أمام الإيمان، إذ فى ذلك إذلال للكافرين وتأكيد لخيبتهم.

- وأن الله سبحانه وتعالى مع الحق وأهله ينزل عليهم النصر، ليحق الحق ويبطل الباطل ويزهقه، وأن الدعاة إلى الله هم دعاة الحق الذادة - أى المدافعون - عنه فى كل زمان ومكان، وأن فرحتهم الكبرى هى فى أن يقطع الله دابر الكافرين أو طرفا منهم.

٨ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قول الله تعالى: **«ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون»** ما يلي:

* أن الرسول ﷺ عندما اصابه ما اصابه في معركة احد، وما كاده به رؤوس الكفر آنذاك، دعا عليهم فقال: **«اللهم العن فلانا.. وفلانا...»** الحديث نزل عليه الوحي بأن اللعن وهو الطرد من رحمة الله ليس له ولا ينبغي أن يدعو به على أحد، حتى لو كان رأسا من رؤوس الكفر والنفاق، لأمر الناس جميعا من حيث قبول توبتهم أو تعذيبهم هو من شأن الله تعالى وحده، يتوب على من يشاء فيهديه أو يعذب من يشاء لكفره وضلاله عن الحق.

* وإذا كان الدعاء على الكفر ورؤوسه لم يُبَح لرسول الله ﷺ، فكيف يتُصور من غيره ﷺ؟

إن الاصل في الدعاة إلى الله أن يدعوا الناس إلى الله لا أن يدعوا عليهم بالطرد من رحمة الله، لأن الله تعالى هو وحده الذى يهدى من يشاء ويتوب عليه أو يعذبه.

* إن الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية يمارسون عملهم حسبة لوجه الله تعالى، وعليهم أن يتحملوا من المدعوين ما يتحملون متواصين بالحق متواصين بالصبر، ومهما واجههم به الاعداء من تحد أو إعنات بل تعذيب وإعنات وفتنة في الدين فإنهم يدعون لهم بالهداية، وليس لهم أن يدعوا عليهم باللعنة، وذلك استجابة للتدبر في قول الله تعالى: **«ليس لك من الأمر شيء......»**.

وقد روى أن النبي ﷺ ظل يقنت شهرا يدعو فيه على أقوام غدروا ببعض أصحابه فقتلوهم غدرا، فنزلت عليه هذه الآية: **«ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون»**.

٩ – ويتعلمون من قول الله تعالى: **«ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم»** ما يلي:

* أن كل ما في السموات والأرض ملك لله تعالى، فله وحده سبحانه أن يغفر لمن يشاء من عباده ويعذب من يشاء منهم فلا يسأل سبحانه عما يفعل.

والمعنى: تأكيد ما ذكرته الآية الكريمة: **«ليس لك من الأمر شيء...»** وإنما الأمر لمن له الملك تبارك وتعالى.

على هذا المعنى جرى كثير من المفسرين منهم ابن جرير وغيره.

* وان الله تعالى غفور يستر ذنوب من أراد أن يستر عليه ذنوبه تفضلا منه سبحانه وتعالى، وانه سبحانه رحيم بعباده؛ إذ يترك عقوبتهم المعجلة مع عظيم ما يقترفون من المآثم.

ومع هذه المغفرة فإن العاقل من ابتعد عن الذنوب والمعاصى، والأرشد عقلا من ندم على ذنبه وتاب لله توبة نصوحا إن أغواه الشيطان فوقع فى ذنب.

* بهذه القيم – التى يتعلمها الدعاة من هذه الآيات – يجب أن يتعاملوا بعضهم مع بعض، ومع المدعوين، حتى يمضى موكب الدعوة فى طريقه محاطا بكل هذه الحوافظ الاخلاقية السامية، بحيث يأمن فيه العاملون فى مجال التمكين لدين الله فى الأرض من العثار، فضلا عن التوقف دون الوصول إلى الهدف.

١٩ - الآيات من الثلاثين بعد المائة إلى السادسة والثلاثين بعد المائة
مطالب من المؤمنين ليزدادوا إيمانا

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)﴾ [آل عمران: ١٣٠ - ١٣٦].

- هذه الآيات الكريمة تتضمن مطالب، يطلبها الله تعالى من المؤمنين ليزدادوا إيمانا وليحظوا - إذا تحلوا بالصفات التى طولبوا بها - بمغفرة الله تعالى، وجنات تجرى من تحتها الانهار مع الخلود فيها، وذلك أجر الله للمؤمنين العاملين، وقد تضمنت هذه المطالب ترهيبا وترغيبا، إذا استجاب لها المؤمنون أزدادوا إيمانا.

- وقد اشتملت الآيات الكريمة على نهى واحد، وعدد من الاوامر، وعلى وصف للمتقين، وإخبار عما ينتظرهم من أجر عظيم، مما سنوضحه فى النقاط التالية والله المستعان.

وقد جاءت هذه المطالب فى الحديث عن معركة أحد، مما يتصوره بعض الناس مقحما فى ثنايا الحديث عن هذه المعركة، وعند التامل فى ذلك فى هذه السورة، وفى غيرها من السور - عندما تأتى آيات كريمة تتحدث عن أمر ونهى أو ترغيب وترهيب أو تبشير وإنذار - نجد مثل هذه الآيات لها صلة، بل صلة وثيقة بالموضوع العام الذى جاء فى السياق.

* وعلماء التفسير يفطنون لهذا دائما ويربطون الآيات لاحقها بسابقها ربطا وثيقا لا تكلف فيه ولا تمحل، وقلما يخلو كتاب من كتب التفسير من هذا التعليل.

ولنذكر ما قاله الرازى فى هذه الآيات - التى تبدو كما لو كانت مقحمة فى الكلام عن معركة أحد:

قال: «اعلم أن من الناس من قال: إنه تعالى لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق

بإرشادهم إلى الأصلح لهم من أمر الدين وفى أمر الجهاد، أتبع ذلك بما يدخل فى الأمر والنهى والترغيب والتحذير فقال: «يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا...» وعلى هذا التقدير تكون هذه الآية ابتداء كلام لا تعلق لها بما قبلها.

وقال القفال[1] رحمه الله: «يحتمل أن يكون ذلك متصلا بما تقدم من جهة أن المشركين إنما أنفقوا على تلك العساكر أموالاً جمعوها بسبب الربا، فلعل ذلك يصير داعيا للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر، فيتمكنوا من الانتقام منهم، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك»[2].

ولنشرع فى تفسير هذه الآيات الكريمة والله الموفق:

١ - ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾.

* نداء على المسلمين ينهاهم الله تعالى من خلاله عن أكل الربا، وإنما خص الربا دون سائر المعاصى لشناعته وإضراره بالناس، ولذلك آذنَ الله فيه بالحرب وذلك فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]. والحرب تؤذن بالقتل، فكأنه يقول: إن لم تتقوا الربا هُزِمتهم وقُتلتم، فمن حكمة الله ورحمته بالناس أن حرم الربا ولعن آكله وموكله وكاتبه وشاهديه، وآذَن من لم يتركه بحربه وحرب رسوله ﷺ، ولم يجئ مثل هذا الوعيد فى كبيرة غير الربا، ولهذا عُدَّ الربا من أكبر الكبائر[3].

* والنهى عن أكل الربا فى هذه الآية كالأمر بتركه فى آية سورة البقرة وإن كانت آية سورة البقرة الآمرة بتركه نزلت قبل هذه الآية.

- والأضعاف المضاعفة فى الربا هى أنهم كانوا فى الجاهلية إذا كان الرجل له دين على آخر، فأجَّل الدين قال له: أتقضى أم تربى؟ فيزيده المدين فى المال ضعفا، حتى يزيده الدائن فى الأجل سَنَةً، فإذا حل الأجل قال له: أتقضى أم تربى؟ فيزيده ضعف الضعف، فيؤجله الدائن سنة... وهكذا، فربما أصبحت المائة مئات.

* وذلك من سوء الاستغلال لحاجة المدين وعجزه عن السداد، لذلك نهى الله عنه

---

(١) القفال: سبقت الترجمة له فى هذا الكتاب ص ١٧٤.

(٢) الرازى: التفسير الكبير: ٩/٣ مرجع سابق.

(٣) للفقهاء تفصيلات كثيرة فى الحديث عن الربا وأقسامه: انظر أى كتاب من كتب الفقه الجامعة «باب الربا».

وحرمه، وآذن من تعامل به بالحرب.

٢ – وفى الآية أمر من الله للمؤمنين بالتقوى فى أهل الحاجة والبؤس ﴿ **واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ أى اتقوا الله فى هؤلاء المحتاجين، فلا تحملوهم من الدَّين تلك الأضعاف المضاعفة، افعلوا ذلك لعلكم تفلحون فى دنياكم بالتراحم والتعاون، فيؤدى ذلك إلى المحبة والمودة، وهى من الضروريات للحياة الإنسانية حيث لا تستقيم حياة مجتمع إلا بهذه المودة والرحمة، وقد جاء هذا الأمر بالتقوى من أجل الفلاح.

٣ – وفى ترك الربا نجاة من النار والعذاب، ولذلك جاء فى الآية الكريمة أمر باتقاء هذه النار: «**واتقوا النار التى أعدت للكافرين**». وفى الآية إشارة إلى أن آكلى الربا الذين قست قلوبهم واستحوذ عليهم الطمع والبخل فكانوا فتنة للفقراء والمساكين، وأعداءً لهم ولكل بائس ذى حاجة.

قال كثير من المفسِّرين: هذا الوعيد لمن استحل الربا، ومن استحله فإنه يكفر ويُكَفَّر، فيستحق النار التى أعدت للكافرين.

٤ – وفى الآيات أمر إلهى بطاعة الله والرسول، إذ فى هذه الطاعة نجاة من كل شر، واستفادة من كل خير: ﴿ **وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون** ﴾، أى أطيعوا الله فى الفرائض وأطيعوا الرسول فى السنن، وقيل أطيعوا الله فى الفرائض وأطيعوا الرسول فيما بلغكم من التحريم.

* و ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ أى فى الدنيا بما تفيدكم الطاعة من صلاح حالكم، وفى الآخرة بحسن الجزاء على أعمالكم، فإن الراحمين يرحمهم الرحمن كما ورد فى الحديث الشريف.

روى أبو داود بسنده عن ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى .. ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء».

٥ – وفى الآيات أمر بالمسارعة فى فعل المأمورات وترك المنهيات أى فعل الخير وترك الشر: ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾.

* وهذه المسارعة إلى فعل الخيرات وترك المنكرات هى الطاعة لله عز وجل، وهى الطريق إلى المغفرة والجنة، لأن الطاعة هى سبب المغفرة والجنة.

* والمغفرة هى أن يزول العقاب عن المسارعين فى الخير.

* والجنة هي أن يصل إليهم الثواب.

* والمكلف مطالب بالاثنين معًا: بما يزيل عنه العقاب، وهو ترك المعاصي والإقبال على الطاعات، وما يوصله إلى الثواب وهو الصدق والإخلاص في ترك المعاصي وفعل الطاعات.

* وعرضها السموات والأرض أي واسعة جدا. قال الكلبي: «الجنان أربعة:

جنة عدن، وجنة المأوى، وجنة الفردوس، وجنة النعيم. وكل جنة منها كعرض السماء والأرض لو وُصل بعضها ببعض»(١).

* وأعدت للمتقين: أي هيئت لهم، وفيه دليل على أنها مخلوقة وأنها خارجة عن هذا العالم، وظاهر اللفظ: «أُعدت» يدل على أن الجنة مخلوقة الآن.

وبين العلماء في ذلك خلاف، لكنه خلاف لا معنى له، ولا ينبغي أن يدعو إلى فرقة أو تنازع.

٦ - وقد وصف الله تعالى المتقين الذين أُعدت لهم الجنة بصفات خمس جاءت في قوله تعالى: أعدت للمتقين:

- «**الذين ينفقون في السراء والضراء**، (وهاتان صفتان)..

- **والكاظمين الغيظ**..

- **والعافين من الناس، والله يحب المحسنين**..

- **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله، فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله**».

* والمنفقون في السراء والضراء أكثر تقوى لله، لأن إنفاق المال شاق على النفس، ونافع للناس، والإنفاق أهم صفة تفيد المجتمع وتدفع حاجة المحتاجين.

وكظم الغيظ إخفاء أثره وضبط الألم الذي يدعو صاحبه كثيرا إلى الانتقام.

والعفو عن الناس أي التجاوز عنهم أي عن عيوبهم وأخطائهم بترك مؤاخذتهم، وتلك مرتبة عالية في ضبط النفس تعلو مرتبة كظم الغيظ، وكلاهما يفيد في غرس المودة بين الناس.

---

(١) القرطبي: جامع البيان: ٤/٢٠٤، مرجع سابق.

* ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ أى أنهم محسنون والإحسان مرتبة أعلى من العفو عن الناس ومن كظم الغيظ، فالإحسان فى ثقافتنا الإسلامية يعنى: عبادة الله كأننا نراه، ويعنى الإجادة والإتقان ويعنى الإحسان إلى الناس، ومنه: أن يأخذ الإنسان أقل مما له، وأن يعطى أكثر مما عليه.

* ومن صفاتهم - عند الوقوع فى الخطأ - المبادرة إلى التوبة والندم والاستغفار، وعدم العودة إلى الخطأ، فضلا عن الإصرار عليه.

٧ - وفى الآيات حديث عن جزاء المتقين: ﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتهم الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾.

* وإنما كان أجر أصحاب هذه الصفات على هذا القدر من العطاء - وهو الجنة بعد مغفرة الذنوب - لأنهم قاموا بأعمال جليلة هى دائمًا فى صالح سائر المسلمين كالإنفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس والإحسان إليهم والتوبة والندم والاستغفار عند الوقوع فى أى خطأ، بل العاقل من استغفر حتى من غير خطأ.

- المواقف التربوية العامة فى الآيات الكريمة: كثيرة، نذكر منها ما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من آية: ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا . . . ﴾ ما يلى:

* أن الربا كله يفسد العلاقة بين الناس، لأنه يقوم على استغلال الغنى للفقير، وكان الواجب أن يقرضه قرضا حسنا؛ لأن جزاء القرض الحسن عند الله عظيم.

* وأن تحريم أكل الربا أضعافا مضاعفة لا يمنع تحريمه إذا كان مجرد زيادة، ولا يمنع تحريم أكله، وتجريم آكله وموكله، وكاتبه وشاهديه.

* وأن الفلاح - وهو الفوز والظفر سواء أكان فى متاع الدنيا أم فى زاد الآخرة - موقوف على تقوى الله تعالى: ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾.

٢ - ويتعلمون من الآية الثانية: ﴿ واتقوا النار التى أعدت للكافرين ﴾ ما يلى:

* أن اتقاء النار وخوف الوقوع فيها مطلب شرعى طولب به كل الناس فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم: ٦].

* وأن اتقاء النار يكون بطاعة الله فى كل ما أمر به واجتناب كل ما نهى عنه الله، أى نبذ المعاصى، والإقبال على الطاعات.

* وأن النار أعدت للكافرين، فما ينبغي لمؤمن أن يعمل عملا يدخله النار أو يغضب الله عليه.

٣ – ويتعلمون من الآية الثالثة: ﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾ ما يلي:

* وجوب طاعة الله تعالى في كل ما أمر به وفي كل ما نهى عنه، وطاعة الرسول ﷺ في كل ما جاء به: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ⑦ ﴾ [الحشر: ٧].

* وأن رحمة الله تعالى متوقفة على طاعة الله ورسوله.

٤ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ ما يلي:

* وجوب المسارعة إلى فعل الخيرات والمبادرة إليها، وإلى ترك المحظورات، فقد روى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا: يبيع دينه بعرض من الدنيا».

* وأن طلب المغفرة إنما يكون بزوال أسباب العقاب، وأن زوال هذه الأسباب إنما يكون بفعل الطاعات وترك المعاصي، وكل مسلم مطالب بأن يسارع بطلب المغفرة على هذا النحو.

فقد روى الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال سبعا، هل تنتظرون إلا فقرا منسيا أو غنى مطغيا أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر».

* وأن الجنة وما فيها مما أعدَّ الله لعباده المتقين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، هذه الجنة أعدت للمتقين، وكل مسلم يحاول أن يكون من المتقين.

٥ – ويتعلم المسلمون من الآية الكريمة: ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس... ﴾ الآية ما يلي:

* أن صفات المتقين عند الله من أهمها ما يلي:

– الكرم والسخاء والإنفاق في السراء والضراء سرا وعلنا..

– والهدوء وكظم الغيظ أي الصبر على المتاعب المادية والمعنوية..

- والتسامح والعفو عن المسيء..

- والإحسان إلى الله وإلى الناس وإلى النفس وإلى الأشياء..

- وذكر الله والإنابة إليه والتوبة عند الوقوع فى الخطأ، والندم والاستغفار، وترك الإصرار على ذنب مهما كان صغيرا.

٦ - ويتعلم المسلمون من الآية الكريمة: ﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى....﴾ الآية ما يلى:

* أن الله تعالى يجزى على الإحسان إحسانا، وانه يتفضل على الناس أكثر مما يعاملهم بالعدل.

* وأن غفران الذنوب بيد الله تعالى؛ مادامت هناك توبة وندم واستغفار.

* وأن من كرم الله تعالى أن يدخل عباده الصالحين الجنة، لأن ذلك ليس فى مقابل العمل الصالح وإنما هو فضل من الله تعالى.

فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يُدخل أحداً الجنة عملُه، فقالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال ﷺ: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنى أحدكم الموت، إما محسن فلعله يزداد خيرا، وإما مسيء فلعله أن يستعتب».

- **المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:**

١ - يتعلم الدعاة والحركيون من الآيات الثلاثة الأولى ما يلى:

* أن المؤمن قد يقع فى الأخطاء، وأنّ نجاته من ذلك أمام الله هى تقوى الله سبحانه وتعالى، وأن الدعاة إلى الله عليهم أن يعلموا أنفسهم ويعلموا الناس كيف تكون تقوى الله عمليا؟

* وأن التقوى تبدأ بخطوات معينة هى:

- أن يحسّ الإنسان أن الله يراقبه فى كل أمره، فيجب أن يستحيى من أن يراه الله على معصية.

- وأن يُشرِبَ قلبه خوف الله وعقابه، فيقبل على الطاعة وينأى عن المعصية.

- ثم يلزم نفسه بكل ما أمر الله به، ويجنبها كل ما نهى الله عنه فيصبح؛ ذا سمت

إسلامى فى قوله وفعله وصمته وتركه.

– ثم يجاهد نفسه ليكون مع ما ندب الله إليه من صالح الأعمال ومع ما حبب فيه رسول الله ﷺ.

– ثم يجاهد نفسه ليكون متورعا عن المكروهات حيث يدع – أحيانا – ما لا بأس به حذرا مما به بأس.

* ويعلمون الناس أن تقوى الله هى سبب الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة، يربون الناس على ذلك وفق منهج التربية الإسلامية الذى يعنى بكل جوانب الشخصية فى الإنسان: روحه وعقله وبدنه ودينه وحسّه الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والجمالى والجهادى.

* ويتعلمون ويعلمون الناس أن الله طالبهم باتقاء النار التى أعدها للكافرين وأمثالهم من العصاة.

وإنما يكون اتقاء النار بالتباعد والامتناع عن كل ما يدخل الإنسان النار، وذلك فى إيجاز شديد هو ما يلى:

– البعد عن المعصية أيا كان قدرها، والإقبال على الطاعة.

– والاقتناع بأن النار أعدت للكافرين وأمثالهم، وما ينبغى لمسلم أن يضع نفسه بحيث يستحق عذاب النار.

* ويتعلمون من الآيات الكريمة أن طاعة الله ورسوله هى الباب الذى يؤدى إلى رحمة الله تعالى، وأنه لا رحمة منه لخلقه إلا بهذه الطاعة.

– والرحمة من الله تعالى لعباده هى الإحسان إليهم والإنعام والتفضل عليهم.

– والرحمة من الناس للناس رقة وتعطف، وقد ركزها الله تعالى فى طباع الناس، وانفرد هو سبحانه بالإحسان.

– وعلى الدعاة إلى الله أن يعلموا الناس الرحمة، لأن بها يتعاطف الناس ويتعاونون، ويذكرونهم فى هذا المجال بقول الرسول ﷺ فيما رواه الترمذى بسنده عن ابن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء، والرحم شجنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله» رواه أحمد والحاكم بهذا اللفظ.

* إن الدعاة إلى الله والعاملين من أجل الإسلام إذا علموا الناس طاعة الله ورسوله، قطعوا

بذلك معظم الطريق، وتزودوا فيه وفى الباقى منه بخير زاد، وهانت عليهم المصاعب والعقبات، لان المتزود بطاعة الله يكون فى معيته، ومن كان الله معه كان فى خير على كل حال.

٢ - ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من الآيات الاربعة الاخيرة ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم...** ﴾ إلى آخر الآيات، دروسا كثيرة منها ما نذكره فيما يلى:

* ان المسارعة - بالطاعات - إلى مغفرة الله تعالى أمر إلهى واجب على كل مسلم مكلف، وان هذه المسارعة بالطاعات لابد ان يسبقها اجتناب للمعاصى، فبهذا وذاك - مع فضل الله ورحمته - يمكن الوصول إلى تلك الجنة التى عرضها السموات والارض، والتى أعدها الله لعباده المتقين.

* وأن الإنسان فى هذه الحياة لا يستحق العيش إذا لم يعمل على تجنب معاصى الله ومحارمه، ويقبل على طاعة الله، إذ الحياة الدنيا فى حقيقتها مزرعة للآخرة ومعبر إليها، والدار الآخرة هى الحياة الحقة السرمدية التى لا تنتهى، ومن خسر الباقية بالفانية فذلك هو الخسران -- أعاذنا الله منه .

- إن الدعاة إلى الله يجب أن يفقهوا الناس بالمعنى الحقيقى للحياة الدنيا، وهى فى كلمات معبر إلى الآخرة ودار تزود بالعمل الصالح، وقد سخرها الله لنا وأنعم علينا فيها بنعم كثيرة أحلها لنا، وطالبنا بإعمارها، ومع ذلك كله فهى فانية، وهى دار تَزَوُّد للآخرة. هذا هو فقهها الصحيح.

- وعلى الدعاة إلى الله ان يربوا الناس على التعلق بالجنة وحب العمل من أجلها واعتبارها أهم هدف يرغب المسلم فى الوصول إليه.

* ويتعلم الدعاة من هذه الآيات الكريمة وصف المتقين الذين يستحقون الجنة، ولهم صفات - ذكرناها آنفا - يجب ان يتصف بها كل مسلم يرغب فيما عند الله، وقد ذكرنا هذه الصفات من قبل، وكل صفة منها وجدت فيها أحاديث نبوية شريفة نذكر منها ما وفق الله إليه فيما يلى:

- روى البخارى ومسلم بسنديهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها».

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله

ﷺ : «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا».

– وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى أمامة صُدىّ بن عجلان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ياابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى».

* وكظم الغيظ.. وردت فيه أحاديث نبوية كثيرة، منها ما يلى:

– روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال : يارسول الله : إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى وأحسن إليهم ويسيئون إلى، وأحلم عنهم ويجهلون على، فقال ﷺ : «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله تعالى ظهير عليهم ما دمت على ذلك».

– وروى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله».

– وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال : «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف، وما لا يعطى على سواها».

* وفى العفو عن الناس، نذكر الأحاديث النبوية التالية:

– روى الماوردى بسنده عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «إذا كان يوم القيامة نادى مناد : من كان أجره على الله فليدخل الجنة، فيقال : من ذا الذى أجره على الله؟ فيقوم العافون عن الناس يدخلون الجنة بغير حساب».

– وروى الترمذى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب هين لين سهل».

– وحدث ابن المبارك[1] قال : كنت عند المنصور جالسا، فأمر بقتل رجل، فقلت : ياأمير المؤمنين.. قال رسول الله ﷺ : «إذا كان يوم القيامة نادى مناد بين يدى الله عز وجل : من كانت له يد عند الله فليتقدم، فلا يتقدم إلا من عفا عن ذنب» فأمر بإطلاقه.

* وفى الإحسان وردت أحاديث كثيرة نذكر منها ما يلى:

---

(١) هو عبدالله بن المبارك المروزى ابو عبدالرحمن (١١٨–١٨١هـ) شيخ الإسلام الحافظ، جمع فى علمه الحديث والفقه والعربية وأيام الناس، والشجاعة والجهاد في سبيل الله، من سكان خراسان، وقد مات بهيت على الفرات فى منصرفه من غزو الروم، وهو أول من صنف في الجهاد.

– روى مسلم بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته».

والإحسان مكتوب – أى مفروض – على كل شيء، وله معان عدة:

– روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

فالإحسان هنا مُراقبة لله تعالى، وشعور بأنه سبحانه يراقبنا.

– وروى أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اجعلنى من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا».

فالإحسان يدعو المحسن إلى الاستبشار والرضى والسعادة.

– وروى أحمد بسنده عن أم الفضل رضى الله عنها أن النبى ﷺ دخل على العباس رضى الله عنه وهو يشتكى، فتمنى – أى العباس – الموت فقال ﷺ: «ياعباس يا عم رسول الله لا تتمن الموت.. إن كنت محسنا تزداد إحسانا إلى إحسانك، وإن كنت مسيئا، فأن تؤخر تستعتب من إساءتك خير لك».

– وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة: كن ورعا تكن أعبد الناس، وكن قنعا تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلما، وأقل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب».

فالإحسان إلى الجار علامة من علامات الإسلام، أو من علامات حسن الإسلام، وحب الناس علامة على الإيمان، وليس حب الناس سوى الإحسان إليهم.

* وفى الاستغفار من الذنب عندما يقع وردت أحاديث نبوية كثيرة نذكر منها ما يلى:

– روى الطيالسى فى مسنده بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: حدثنى أبو بكر – وصدق أبو بكر – أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يذنب ذنبا ثم يتوضأ ويصلى ركعتين، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له، ثم تلا هذه الآية: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم..﴾ الآية، والآية الأخرى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠)﴾ [النساء: ١١٠]،

- وروى الترمذى بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يأوى إلى فراشة: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه.. ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر، وإن كانت عدد ورق الشجر، وإن كانت عدد رمل عالج، وإن كانت عدد أيام الدنيا».

وفى رواية للترمذى أيضًا: «... وإن كان قد فر من الزحف».

٣ - ويتعلم الدعاة ويجب أن يعلموا الناس أن الإصرار على الذنب هلاك للمُصِّر، والمؤمن لا يجوز له أن يصر على ذنب، وإنما عليه أن يتوب ويستغفر، إذ الإصرار على الذنب يفوق المعصية نفسها؛ لما يدل عليه من تحد لأوامر الله.

وفى هذا المجال نحب أن نذكر الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية ببعض الحقائق الهامة فيما يلى:

* طريق الدعوة إلى الله قلما يخلو من أخطاء السائرين فيه، إذ هو طريق المتاعب والمكاره والتحدى والصراع بين الحق والباطل، بين أولياء الله وأعدائه وأعداء منهجه ونظامه، ومن أجل هذا كله توجد الأخطاء بل تكثر أحيانا...

والذى أذكر به هنا أنه إذا وُجد الخطأ جاءت المسارعة بالتوبة إلى الله والندم والاستغفار، إن ذلك ينقى الصف من الأخطاء ويدنى من النصر فى هذه المعارك، لأن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه - كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

* وقد يكون الخطأ من المدعوين، لأنهم شُداة فى طريق الدعوة إلى الله ويخوضون التجارب لأول مرة، وإذا كان بعض الدعاة الذين رسخت أقدامهم فى الدعوة عرضة لهذه الأخطاء لأن كل ابن آدم خطاء، فليس لهم أن يستبعدوا مخطئا من الصف، وإنما عليهم أن يعينوه على التوبة والاستغفار، وأن يفقهوه بأن خير الخطائين التوابون.

والذى أحب أن أذكر به فى هذا المجال هو أن استبعاد مخطئ من المدعوين من الصف، يزيده بعدا عن الحق وقربا من الباطل ويزيد الصف خلخلة واضطرابا.

وطريق التوبة مفتوح إلى يوم القيامة ومعروف المعالم لكل مسلم.

- روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ - فيما يحكى عن ربه عز وجل - قال: «أذنب عبدٌ ذنبا فقال: اللهم اغفر لى ذنبى، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال: أى

رب .. اغفر لى ذنبى، فقال تبارك وتعالى: عبدى اذنب ذنبًا، فعلم ان له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، ثم عاد فاذنب، فقال: اى رب اغفر لى ذنبى، فقال تبارك وتعالى: اذنب عبدى ذنبا فعلم ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك»(١).

* وواجب الدعاة – الذى ما ينبغى أن يتوقفوا عن أدائه أبدا، مادامت الذنوب مستمرة باستمرار حياة الناس – هو أن يفقهوا الناس فى قضية الذنوب والمعاصى، على النحو الذى فصله أسلافنا من العلماء رحمهم الله حيث قالوا:

الذنوب التى يتاب عنها نوعان:

– كفر، وهو أقبحها.

– وغير كفر – وهو ما دون الكفر.

* فتوبة الكافر تكون بإيمانه وندمه على ما سلف من كفره، ومداومته على ترك هذه المعصية، اى مداومته على الإيمان بكل متطلباته.

* والتوبة عما هو أقل من الكفر من الذنوب نوعان:

– ما كان حقا لله تعالى، وهذا تكون التوبة عنه بالترك مع الندم، فإن كان الذنب ترك صلاة أو صوم، وجب على المذنب قضاؤه مع التوبة النصوح. وإن كان الذنب حنثا فى يمين أو فى ظهار وجبت عليه الكفارة الخاصة بكل منهما، مع التوبة النصوح.

* والتوبة، عما هو من حقوق الناس، يشترط فيها ان تصل الحقوق إلى اصحابها أولا، مع التوبة النصوح.

فإن لم يوجد أصحاب الحقوق تصدّق بحق من لم يجده.

ومن كان معسرا لا يستطيع ردّ الحقوق إلى اصحابها فعفو الله تعالى مأمول، وفضله مرجو.

هذا التفقيه واجب الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية نحو أنفسهم ونحو غيرهم من الناس، ولهم على ذلك - ولمن استجاب لهم - عند الله أجر عظيم.

---

(١) الاحاديث القدسية: ١ / ٢٣٣ ط مؤسسة جمال بيروت، دون تاريخ.

٢٠ - الآيات من السابعة والثلاثين بعد المائة

إلى الثامنة والأربعين بعد المائة

من دروس معركة أحد: مطالبة المؤمنين بالقوة والصبر والدعاء

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾

[آل عمران: ١٣٧ - ١٤٨].

- هذه الآيات الكريمة تتحدث عن مواقف فى معركة أُحد، وتشير بل تعلم المسلمين أن سنن الله ماضية فى خلقه، وأن السعيد من اتعظ بغيره وأفاد مما يحدث له.

وتطالب الآيات الكريمة المسلمين بالجلد وترك الضعف والعجز والفشل، والصبر على المصائب، وتسليهم الآيات عما حدث لهم فى معركة أُحد، فالنصر دائما لعباد الله المؤمنين، وهذا النصر يحتاج إلى صبر وطاعة لله تعالى، فإن كانت هزيمة فللاختبار والاعتبار، وليعلم الله وهو بكل شيء عليم - الذين آمنوا وصدقوا الله من غيرهم، وليصطفى الشهداء، ويمحص صفوف المؤمنين، ويهزم الكافرين.

وقانون الابتلاء والاختبار من سُنن الله تعالى.

وفى الآيات درس للمسلمين فى صفاء الإيمان ونقاء العقيدة والإخلاص لله تعالى، حتى لو مات الرسول ﷺ أو قتل، فما ينبغى أن ينقلب أحد من الإيمان إلى الكفر.

والآيات تحض على الجهاد فى سبيل الله، وعدم خوف الموت لأن الموت آتٍ لا محالة للمجاهد والقاعد، والجهاد ربح فى الدنيا بالنصر والغنائم، وربح فى الآخرة بالأجر العظيم.

وسنة الله أن كل نبى من أنبيائه يقاتل معه المؤمنون ويتحملون أعباء الجهاد دون وهن أو قعود عن العدو أو استكانة، وإنما هو الصبر والدعاء، وعلى الله تعالى التوكل ومنه الإجابة.

– وقد اشتملت الآيات على عدد من الأخبار والتقريرات، وعدد من الأوامر والنواهى، وعلى أكثر من أسلوب شرط، كل ذلك لتوجيه المسلمين إلى أخذ الدروس من هذه المعركة الكبيرة التى خالف فيها بعض المسلمين أمر رسول الله ﷺ – مجتهدين – فكان ما كان من أحداث.

ومن أجل توضيح هذه المعانى وتفصيل تلك الأحداث والاستفادة من هذه الدروس، نقول - وعلى الله التوكل ومنه التوفيق - :

١ – فى الآية الكريمة: ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ طلب بالتأمل فى أحوال أهل القرون الماضية، فى مجال طاعة الله أو معصيته، أى أحوال المؤمنين والكافرين، فالمؤمن يبقى بعد موته الثناء الجميل، ويجد عند الله تعالى الثواب الجزيل، والكافر تلاحقه الهزائم فى الدنيا ويحل به عذاب عظيم فى الآخرة.

* والسّنن جمع سنة وهى الإمام المتبع الذى يؤتم به، يقال: سنَّ فلان سنة حسنة أو سيئة إذا عمل عملا اقتدى به فيه من خير أو شر.

* و «قد خلت من قبلكم سنن» يعنى مضت وذهبت.

– وبعض المفسرين يرى أن السنن التى يجب التأمل فيها هى سنن الهلاك والاستئصال لتكذيب الأنبياء والمرسلين، وقد هلكوا وبقيت منهم آثارهم التى هى عبرة لمن اعتبر، وهذا تذكير لمن خالف النبى ﷺ فى أحد.

٢ – وإخبار من الله تعالى لتقرير حقيقة كبرى هى أن سنة الله وشرعه بيان للناس وهدى وموعظة: ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾.

* والبيان هو الدلالة التى تزيل الشبهة بعد أن كانت الشبهة حاصلة وهو للناس جميعا

مؤمنهم وكافرهم.

* والهدى هو: بيان لطريق الرشد ليسلكه الناس دون سواه، اى دون طريق الغى.

* والموعظة هى: الكلام الذى يفيد الزجر عما لا ينبغى فى طريق الدين.

- والبيان: للناس عموما.

- والهدى والموعظة للمنتفعين بهما وهم المتقون، اما سواهم فالهدى والموعظة كأنهما عدم.

* والإشارة فى كلمة «هذا» إلى القرآن الكريم، أو إلى أمر الله ونهيه ووعده ووعيده، أو حال الامم الخالية.

٣ - وفى الآيات نهى عن الضعف وأسبابه ودواعيه: «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين».

* فقد نهاهم سبحانه وتعالى عن الضعف والجبن فى جهاد اعداء الله والدين والحق ﴿ولا تهنوا﴾.

* ونهاهم عن الحزن لما أصابهم من هزيمة وما وقع بهم من مصيبة، ﴿ولا تحزنوا﴾.

* وبشرهم بأنهم الأعلون أى الذين تكون لهم العاقبة بالنصر والظفر إن كانوا مؤمنين بصدق، فقد وعد الله بنصر المؤمنين. ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾.

* وفى الآية الكريمة بيان لفضل هذه الامة، لأنه سبحانه خاطب المسلمين بما خاطب به الانبياء المرسلين، فقد قال لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه: ٦٨].

وقال لهذه الامة: ﴿وأنتم الأعلون﴾ وهذه اللفظة مشتقة من اسمه سبحانه وتعالى: ﴿الأعلى﴾ كما قال بذلك بعض المفسرين.

٤ - وفى الآية الكريمة: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس...﴾ الآية: تسلية للمسلمين ومواساة لهم عما أصابهم فى معركة أحد - كما سنوضح -.

* والقَرْح: الجراح ذاتها.

والقُرْح: ألم الجراح وقيل هما لغتان ومعناهما واحد.

- والمعنى: أن ما أصاب المسلمين من جراح وقتل وهزيمة يوم أحد ما ينبغى أن يوقف

جدهم واجتهادهم، وجهادهم لأعداء الله، وذلك لان ما أصابهم فى أحد من جراح، أصاب مثله الكفار يوم بدر، فإذا كانوا ـ مع باطلهم ـ وسوء عاقبتهم لم يَفْتُروا فى حربكم والكيد لكم، فأنتم الأجدر بأن لا يلحقكم الفتور فى مواجهة العدو وجهاده لأنكم على الحق!!!

* ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ الأيام هنا: الوقائع، وهى تكون فى الغالب يوما للإنسان ويوما عليه، وتلك من سنن الله تعالى، إذ المعنى: أن أيام الدنيا دول بين الناس، لا تدوم مسراتها ولا تبقى مضراتها، ولا تستمر على حال، أى أن الله تعالى يشدد المحنة على الكفار تارة، وعلى المؤمنين أخرى، ليعتبر كل مؤمن وكل كافر، أما الكفار فإن هذه المحن قد تدعوهم إلى ترك الكفر والدخول فى الإيمان، وأما المؤمنون فتصقلهم وتزيدهم إيمانا.

* وفى نصر الله تعالى لدينه وللمؤمنين الموالين للحق، يتحقق قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾ [المائدة: ٥٦].

* وفى نصر الكافرين دليل على أن المؤمنين قد عصوا، وفى ذلك ابتلاء لهم وتمحيص، بل ومغفرة لذنوبهم.

* ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين﴾ ومعنى ذلك ما يلى:

– أن تداول الأيام بين الناس، إنما هو من أجل تمييز المؤمن الصابر المحتسب من المنافق المذعور المستيئس، ليظهر ذلك للناس وليعلم كل فريق حقيقة موقفه من هذا التداول للأيام.

* ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ أى يكرم بعضكم بالشهادة فى سبيله، وإنما سمى الشهيد شهيدا؛ لأنه يشهد على الناس بأعمالهم..

أو لأنه مشهود له بالجنة..

أو لأنه شاهد حاضر للجنة.

* ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ أى المشركين، لأن الشرك ظلم عظيم، والله تعالى وإن أنال الكفار من المؤمنين فهو سبحانه لا يحب الكفار، وإن أحل بالمؤمنين الجراح والألم، فإنه سبحانه يحبهم.

* ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾.

– التمحيص: الاختبار، أو التطهير من الذنوب، أى ليبتلى المؤمنين فيثيبهم ويخلصهم

من ذنوبهم، أو يمحصهم بالشدائد، وفى هذا تربية لهم.

- ويمحق الكافرين: أى يستأصلهم، أو يصيبهم باليأس ويذهب عزائمهم.

- وقد تجلى أثر تمحيص الله تعالى للمسلمين فى غزوة حمراء الأسد، عقيب غزوة أحد حيث أمر الرسول ﷺ الا يخرج لقتال المشركين معه أحدٌ - إلى حمراء الأسد- إلا من شهد القتال فى أُحد، فامتثلوا لأمره بقلوب مطمئنة، وعزائم قوية وهم على ما هم عليه من الجراح والآلام.

* والأصل الا يبقى للكافرين المبطلين وجود مع المؤمنين الصادقين، وإنما ينخرم هذا الأصل فيكون لهم وجود وتأثير إذا لم يقم المؤمنون - أهل الحق والعدل - بمقاومتهم ورد باطلهم.

٥ - وفى الآيتين الكريمتين: ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون** ﴾ دعوة إلى التدبر والتأمل فى سنن الله تعالى.

والمعنى: هل تدبرتم سنن الله، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وأنتم إلى الآن لم تجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده، ولم تصبروا على متاعب الجهاد كما يجب أن يكون الصبر، والجنة إنما تنال بالجهاد والصبر؟ لو أنكم قمتم بذلك لعلمه الله تعالى منكم وجازى عليه بالنصر والظفر.

* ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت...** ﴾ الآية: أى لقد كان كثير من المؤمنين يتمنون الشهادة فى سبيل الله فى هذه المعركة، حتى إنهم ألحوا فى الخروج إليها، وكان النبى ﷺ لا يرى الخروج للمشركين، بل يستعد لهم فى المدينة... فكان من نتيجة إلحاحهم أن خرج بهم فكانت الهزيمة، وتولى بعضهم وعصى بعضهم أمر الرسول ﷺ، وكان الشباب منهم يقولون: لئن لقينا العدو لنفعلن، ولنفعلن، فابتلوا بذلك فما ثبت منهم إلا من عصم الله فأنزل الله تعالى: ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت...** ﴾ الآية، وفى ذلك عقاب لهم على هذا الموقف، أو توبيخ لمن انهزم ولاسيما من كانوا يلحون على الخروج ليفعلوا ويفعلوا- كما كانوا يقولون-.

* فها قد رأيتم المواقف التى تؤدى إلى الموت فى سبيل الله، فماذا فعلتم؟ ولماذا انهزمتم؟

٦ - وفى الآية الكريمة: ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل**

انقلبتم على أعقابكم...﴾ الآية: ترسيخ للإيمان بالعقيدة والمبدأ، وأن المسلمين يعبدون الله، ولا يتراجعون عن ذلك إذا مات الرسول ﷺ أو قتل.

وقال المفسرون: فلما انهزم المسلمون فى أحد صاح الشيطان: قد قتل محمد، فقال بعض الناس: قد أصيب محمد فاعطوهم بأيديكم، فإنما هم إخوانكم!!!

وقال بعضهم: إن كان محمد قد أصيب، الا تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى تلحقوا به؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل...﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين﴾.

* والمعنى: أن محمدا ﷺ رسول كبقية الرسل الذين سبقوه، ليسوا جميعا بباقين فى الحياة الدنيا، وأنه يجب التمسك بما جاءت به الرسل، وإن انتهت حياة الرسول منهم بموت أو قتل.

فهذه الآية عتاب وتوبيخ للذين انهزموا، أى ليس لهم أن ينهزموا حتى لو مات محمد ﷺ أو قتل: ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾.

* وفى الآية الكريمة تقرير حقيقة من سنن الله تعالى، وهى: أن «من ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا» وإنما يضر نفسه، لأن الله تعالى كما لا تنفعه طاعة الطائعين لا تضره معصية العصاة.

* وفيها تقرير حقيقة أخرى وهى: أن الله تعالى ﴿سيجزى الشاكرين﴾ من الذين جاهدوا وصبروا واستشهدوا فى سبيله، فيعطيهم أعظم الثواب على صبرهم وعدم انهزامهم، أو يؤتيهم من الرزق فى الدنيا، لئلا يُتَوهم أن الشاكرين يحرمون ما قسم لهم مما يعطاه الكافرون فى الدنيا.

٧ - وفى الآية الكريمة: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين﴾ تقرير لحقيقة كبرى عن الموت والحياة.

* والآية الكريمة تؤكد أن الموت لابد منه وأن كل إنسان - مقتول أو غير مقتول - ميت إذا بلغ أجله المكتوب له.

* وأن من الناس من يقبلون على الدنيا، وإن انساهم هذا الطلب الآخرة، وفى ذلك تعريض بمن تركوا أماكنهم فى أحد، ونزلوا من مواقعهم ناظرين إلى الغنائم.

* وأن من الناس من يريد ثواب الآخرة، ويؤثر ما عند الله، فيعطيه الله الأجر المضاعف كما وعد، وفي هذا إشارة - كما يقول علماء التفسير - إلى عبد الله بن جبير رضى الله عنه قائد الرماة الذى لزم مكانه فوق الجبل ومعه قليل من الصحابة رضى الله عنهم، فقاتلوا حتى قُتلوا ومضوا إلى ربهم شهداء مغفورا لهم.

* ﴿ وسنجزى الشاكرين ﴾ أى نعطيهم الثواب الأبدى؛ جزاءً لهم على الثبات وعدم الانهزام، وعلى الإقبال على ما عند الله.

* وفى الآية الكريمة تأكيد أن الجبن والخوف لا ينجيان من الموت؛ لأن أحدا لن يموت حتى يستوفى أجله المكتوب له عند الله تعالى، كما تؤكد الآية الكريمة أن من يقبل على الله يريد بعمله هذا ثواب الله فى الآخرة، فإن له عند الله جزاء الشاكرين.

٨ - وفى الآيات الكريمة: من قوله تعالى: ﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ وصف جامع لأتباع الأنبياء عليهم السلام - كما سنوضح بعد قليل هذه الصفات.

* قال الزهرى[1]: صاح الشيطان يوم أحد: قُتل محمد فانهزم جماعة من المسلمين، قال كعب بن مالك[2] فكنت أول من عرف رسول الله ﷺ، رأيت عينيه من تحت المغفر تزهران فناديت بأعلى صوتى: هذا رسول الله ﷺ، فأومأ إلىّ أن اسكت، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا... ﴾.

- والربيون هم: الربانيون، وقيل: الألوف، أو الجماعة الكبيرة.

* وفى الآيات الكريمة تشجيع للمؤمنين، وأمر بالاقتداء بمن تقدم من خيار أتباع الأنبياء.

والمعنى: أن كثيرا من الأنبياء قتل معهم ربيون كثير، أو مات هؤلاء الأنبياء فلم يرتد أصحابهم.

---

(١) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهرى (٥٨ - ١٢٤هـ) من بنى زهرة بن كلاب من قريش، أول من دوّن الحديث الشريف وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، تابعى من أهل المدينة كان يحفظ ألفين ومائتى حديث نصفها مسند، وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: عليكم بابن شهاب؛ فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه.

(٢) هو كعب بن مالك بن عمرو البدرى الأنصارى الخزرجى صحابى من شعراء الرسول ﷺ، شهد بدرا والوقائع كلها (٠٠٠ - ٥٠ هـ) وعاش سبعا وسبعين سنة.. أي ولد سنة ٢٧ قبل الهجرة تقريبا، ناصر عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم ثار عليه الثوار. روى عنه علماء الحديث النبوى ثمانين حديثا.

* وأما صفات هؤلاء الذين قاتلوا مع أنبيائهم عليهم السلام فهى - كما وردت فى الآية الكريمة:

- ما وهنوا عند قتل النبى أو موته، أو عندما أصابهم ألم الحرب وجراحها..

- وما ضعفوا عن الجهاد بعد ما أصابهم ما أصابهم..

- وما استكانوا - أى استسلموا - للعدو.

وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند إشاعة قتل النبى ﷺ، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين، واستكانتهم للكفار حتى أراد بعضهم أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبىّ، وأراد بعضهم أن يطلب الأمان من أبى سفيان بن حرب.

* ومن صبر على تحمل الشدائد فى طريق الله فإن الله، تعالى يحبه.

- ومن صفاتهم التى تضمنتها الآيات الكريمة: ﴿ **وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾، أى أنهم أهل دعاء وتضرع إلى الله تعالى.

* فقد بينت الآيات الكريمة أنهم كانوا مستعدين عند ذلك للتصبر والتجلد مستعينين على ذلك بالدعاء والتضرع بطلب الإمداد والإعانة من الله، والغرض من ذلك أن تقتدى بهم فى هذه الطريقة أمة محمد ﷺ، فإن من عوّل فى تحصيل مهماته على نفسه ذلّ، ومن اعتصم بالله فاز بالمطلوب.

* وقد أوضحت الآيات أن الله تعالى لما ضمن النصرة للمؤمنين، فإذا لم تحصل النصرة، وظهرت أمارات استيلاء العدو على المؤمنين وانتصاره عليهم، دل ذلك على صدور ذنوب من المؤمنين.

ولهذا المعنى وجب تقديم التوبة والاستغفار على طلب النصرة، فبين الله تعالى أنهم:

- بدأوا بالتوبة عن كل المعاصى، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ **ربنا اغفر لنا ذنوبنا** ﴾، فدخل فيه كل الذنوب سواء كانت من الصغائر أم من الكبائر.

- ثم إنهم خصوا الذنوب الكبيرة بالذكر، لعظيم عقابها، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ **وإسرافنا فى أمرنا** ﴾، لأن الإسراف فى كل أمر هو الإفراط فيه.

* ثم إنهم لما فرغوا من ذلك سألوا ربهم أن يثبت أقدامهم، وذلك بإزالة الخوف عن

قلوبهم، وإزالة الخواطر الفاسدة عن صدورهم.

* ثم سألوا الله بعد ذلك أن ينصرهم على القوم الكافرين، لأن هذه النصرة لابد فيها من أمور زائدة على ثبات الأقدام، وهذا الشيء الزائد يشبه الرعب الذى يلقيه الله فى قلوب الأعداء، أى إحداث أحوال سماوية أو أرضية توجب انهزام العدو أمام المسلمين.

* ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين ﴾ والمعنى: أن الله تعالى أعطاهم الثوابين معًا:

- ثواب الدنيا بالنصر والغنيمة وقهر العدو، وثناء الله عليهم..

- وثواب الآخرة، ولا شك هو الجنة وما فيها من النعيم المقيم.

* ولما اعترفوا بأنهم مذنبون مسرفون على أنفسهم، واستغفروا ربهم كانوا بذلك محسنين، فسماهم الله تعالى محسنين، أو أنهم لما أرادوا الإقدام على الجهاد وطلبوا أن يثبت الله أقدامهم فى دينه، وأن ينصرهم على عدوهم، فسماهم محسنين؛ لأن هذه الأعمال لا تصدر إلا من محسن.

* وقد صرح عدد من المفسرين بأن هذه الآيات الكريمة تضمنت تأديبًا للمؤمنين، وتوبيخًا لمن فرّط منهم فى شيء، وقال الشيخ محمد رشيد رضا فى ذلك: «والأمر كالشمس فى الضحى أو أشد ظهورا»(١).

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ مايلى:

* ضرورة النظر والتأمل والتدبر - أى إعمال العقل - فى أحوال من تقدمهم من الأمم الصالحين أو المكذبين، ليتعظوا بما آل إليه أمر هؤلاء وأولئك.

- فإن سلكوا سبيل الأمم الصالحة كانت لهم مثل عاقبتهم، وهى الجنة.

- وإن سلكوا سبيل الأمم التى كذبت كانت لهم مثل عاقبتهم، وهى النار.

* ولا نبالغ إن قلنا إن من أساليب القرآن فى تربية الناس مطالبتهم بالسير فى الأرض والنظر والتدبر فى أحوال السابقين، لأن فى ذلك العبرة والعظة، والقرآن الكريم كله عظة وعبرة.

---

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار: مرجع سابق. تفسيره الآية المذكورة.

* وقد بحثت عن الآيات القرآنية الكريمة التى جاء فيها طلب الله من الناس السير فى الأرض لأخذ العبرة فوجدتها ثلاث عشرة آية: ست منها جاءت بصيغة الأمر، وسبع جاءت بغير صيغة الأمر.

*أما ما جاء منها بصيغة الأمر فهى:

- ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا ...﴾ [آل عمران: ١٣٧].
- ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا ....﴾ [النحل: ٣٦].
- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا ....﴾ [النمل: ٦٩].
- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا ....﴾ [الروم: ٤٢].
- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ....﴾ [الأنعام: ١١].
- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا ....﴾ [العنكبوت: ٢٠].

* وأما ما جاء منها على غير صيغة الأمر فهى:

- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا ....﴾ [يوسف: ١٠٩].
- ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا ....﴾ [غافر: ٢١].
- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا ....﴾ [غافر: ٨٢].
- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا ....﴾ [محمد: ١٠].
- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ....﴾ [الحج: ٤٦]
- ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا ....﴾ [الروم: ٩].
- ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا ....﴾ [فاطر: ٤٤].

* وأن السير فى الأرض بهذا الأسلوب يعد من وسائل المعرفة التى تمد الإنسان بالعلم وتهديه إلى ما يصلح شأنه فى الدين والدنيا، وتقيم أمام قلبه وعقله الاعتبارات والمواعظ.

٢ - ويتعلم المسلمون من قول الله تعالى: ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ ما يلى:

* ان الله تعالى بين للناس عموما مؤمنهم وكافرهم، إلى ما ينبغى ان يفعلوا بآياته البينات، فهذا البيان حجة على الناس كافة، حيث بين لهم سننه فى السابقين، وعاقبة المؤمنين والكافرين.

* وان الهدى والاهتداء والاتعاظ إنما هو للمتقين خاصة، لانهم هم الذين يهتدون بهذه السنن ويتعظون بما جرى على السابقين.

* وان المسلمين اليوم إذا لم يعتبروا باحوال السابقين مؤمنهم وكافرهم، صالحهم وطالحهم، فقد تركوا هدى القرآن الكريم، ولم يعملوا بما فيه، وتنكبوا طريق الحق، وخالفوا ما أمر الله به وأتوا ما نهى عنه، لان القرآن الكريم أمر بذلك فى الآيات التى ذكرناها آنفا.

* وان الذين لا يسيرون فى الارض ولا يتعظون بما جرى من سنن الله فى السابقين ليسوا من المتقين، اى ليسوا من القائمين بحقوق الإيمان وواجباته، كما اوضحت ذلك الآيات القرآنية التالية: ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④﴾ [البقرة: ١ - ٤].

٤ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ مايلى:

* الا يضعف المسلم فى عبادته أو عمله أو مواجهة عدوه، لان المسلم المتمسك بدينه على الحق دائما، ومحب للخير دائما ومحسن للتعامل مع غيره باستمرار.

ومن كان كذلك فلا ينبغى أن يضعف، فإن ضعف فى شيء من ذلك، فما هو بمؤمن ذلك الإيمان الذى يرضى عنه ربه، ويحقق له الفوز فى الدنيا والآخرة.

* والا يحزن لمصيبة أصابته مهما يكن قدرها، ولو كانت انهزاما امام عدو، لان الحرب سجال، والنصر من عند الله لعباده المؤمنين، والهزيمة إنما تتسبب فيها مخالفات الله ورسوله.

* والهزيمة تربى وتعلم، وتمكن الإنسان من تلافى أسباب القصور فى المعارك الآتية، فهى دروس لمن كان من المعتبرين.

* وان ما حدث للمسلمين فى معركة أحد لا ينبغى ان يصيبهم بالضعف والقعود عن مواجهة العدو، ولا بالحزن لما أصابهم من قتل وجراح، وإنما الواجب ان تكون الهمة إلى إقامة

الحق والعدل فى الدنيا، ومن خلال ذلك يحظون بسعادة الدنيا والآخرة.

* وأن الصبر والثبات من أهم صفات المؤمن، وأنهما من أبرز علامات الإيمان.

وأن طلب النصر والشهادة فى كل معركة هو هدف المسلم الذى يخوض المعارك من أجله، فردا يحاسب على عمله، وجماعة يجب أن يشد بعضها أزر بعض، وأمة إسلامية يجب أن تكون أمة من دون الناس، وأن إحدى الحسنيين مطلب للفرد والجماعة والأمة.

٥ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس...﴾ الآية، ما يلى:

* أن التعزية والتسلية للمؤمنين عما أصابهم فى معركة أحد من جراح وآلام، هى سنة يجب أن يتبعها المسلمون فى كل معركة يخوضونها إذا تعرضوا لهزيمة، فلن تكون إحدى معاركهم هى الاخيرة ولن تكون هى التى تصيبهم باليأس، وإنما يخوض المسلمون معاركهم بروح تستشعر النصر من الله وتأخذ بأسبابه.

* وأن سنة الله فى الناس أن يداول الأيام بينهم فى النصر والهزيمة، والغنى والفقر ونحو ذلك، فما ينبغى أن تفت الهزيمة فى العضد، ولا أن يصيب النصر بالغرور، وإنما تكون العظة والعبرة فى أى نصر أو هزيمة.

* وإنما كانت سنة الله كذلك فى مداولة الأيام بين الناس لعدد من الأمور كلها مفيد للناس ومعلم لهم، ومن هذه الأمور ما يلى:

– أن يميز الله سبحانه وتعالى الذين آمنوا من الذين نافقوا؛ إذ لا يكشف معادن الناس مثل التقلب فى الأحوال بين نصر وهزيمة وغنى وفقر.

– وأن يتخذ الله الشهداء الذين يقتلون فى المعارك بين الحق والباطل، كما حدث فى معركة أحد، وكما يحدث فى أى معركة بين الحق والباطل فى أى زمان ومكان.

* وأن الذى يخالف أمر الله فى هذه المواقف وغيرها يكون ظالما لنفسه بهذه المخالفة، إذ يستحق العقاب، وما كان أغناه عنه لو أطاع.

٦ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ مايلى:

* أن الله تعالى يمحص الذين آمنوا، فيختبرهم ويطهرهم من الذنوب بما يقع عليهم من

هزيمة أو مصيبة.

* وأنه سبحانه يمحق الكافرين، بأن يجعل هزيمتهم بأيدى المؤمنين، وعندئذ يصاب الكافرون باليأس من مقاومة المؤمنين.

* وأن حكمة الله بالغة فى كل موقف، بحيث لو تدبر المؤمنون لعلموا أن فى كل نصر أو هزيمة، وفى كل خير أو شر يلحق بهم فائدة لهم تمحص إيمانهم وتعززه وتقويه؛ إن هم تقبلوا ما تجرى عليهم به الأقدار.

٧ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين... ﴾ الآيتان، ما يلى:

* فى هاتين الآيتين توضيح لسنة الله فى عباده المؤمنين من أجل أن يدخلوا الجنة، عطفا على سنته فى مداولة الأيام بين الناس؛ ليميز المؤمن من المنافق ويتخذ الشهداء ويمحص المؤمنين ويمحق الكافرين.

وسنته سبحانه وتعالى مع المؤمنين ليدخلوا الجنة هى:

– أن يعلم الله تعالى الذين جاهدوا من المسلمين، مخلصين فى جهادهم، بعيدين عن معصيته سبحانه وتعالى إن تراجعوا عن المعركة أو خالفوا ما أمروا به أو ما نهوا عنه.

– وأن يعلم سبحانه – وهو بكل شىء عليم – الصابرين الثابتين على الحق وعلى التضحية بالنفس فى سبيل الحق، وعندئذ يكون دخولهم الجنة، وهو قمة أهداف المؤمن بعد هذا الاختبار.

* وأن المسلم ما ينبغى أن يتمنى شيئا لايدرى ماذا يكون موقفه منه كما فعل الذين لم يحضروا بدراً من الصحابة رضى الله عنهم، فكانوا يتمنون يوما يكون فيه قتال، فألحوا فى الخروج إلى أحد ليكون لهم صبر ونزال، فلما كانت المعركة انهزم بعضهم وخالف أمر النبى ﷺ بعضهم، وما تجلد منهم وصبر وثبت إلا القليل الأصفياء المخلصون، وكان منهم: أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنهما - فإنه - كما تروى كتب السيرة – قال عندما انكشف المسلمون: اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء. - يعنى المشركين - وأعتذر إليك صنع هؤلاء - يعنى المؤمنين - .. وباشر القتال، وقال: إنها ريح الجنة إنى لأجدها من دون أحد، ومضى حتى استشهد، قال أنس رضى الله عنه: فما عرفناه إلا ببنانه، ووجدنا فيه بضعا وثمانين جراحة.

* وأنه لابد للمسلمين من اتقاء الغرور، بحديث النفس والتمنى والتشهى.

* وأنه يجب على كل منهم أن يمتحن نفسه بالعمل الشاق، وعدم الثقة بما دون الجهاد والصبر على المكاره فى سبيل الحق، حتى يكون فى مأمن من الدعاوى الخادعة، فضلا عن الدعاوى الباطلة، فالدعوى الخادعة أن يدعى الإنسان ما يتوهم أنه صادق فيه، مع الغفلة أو الجهل بعجزه عنه، وأما الدعوى الباطلة فغير خافية على أحد.

٨ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم... ﴾ الآيتان ما يلى:

* أن الأشخاص إلى زوال ولو كانوا من الأنبياء، وأن البقاء لله وحده، وأن الاستمرار لمنهجه سبحانه وتعالى، لأنه سبحانه قد تكفل بحفظه - وهو القرآن الكريم والسنة شارحة له ومفصلة - ولقد عبر عن هذه الحقيقة أنس بن النضر أصدق تعبير فى مقولته - عندما أشيع أن النبى ﷺ قد قتل - يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ. اللهم إنى اعتذر اليك مما يقول هؤلاء، وابرأ اليك مما جاء به هؤلاء. ثم حد سيفه وقاتل حتى قتل.

* وأن الرسل عليهم السلام بشر يجرى عليهم ما يجرى على البشر من موت وحياة، فتلك سنة الله فى خلقه، فما ينبغى لمسلم أن يفزع من ذلك أو يتراجع، أفإن مات محمد - كما مات موسى وعيسى - أو قتل - كما قتل زكريا ويحيى عليه السلام - تنقلبون على أعقابكم راجعين عن إيمانكم بالله تعالى؟

* وأن من ضعف عقله وفسد قلبه فارتد عن دينه أو ترك الجهاد فى سبيل الله - لتكون كلمة الله هى العليا - بسبب موت الرسول ﷺ أو قتله، فإنما يضر نفسه ويحول بينها وبين الإيمان الصحيح، فضلا عن موت زعيم أو قائد أو نحوهما.

* وأن الموت أو القتل إنما يكون بإذن الله تعالى ومشيئته، فما ينبغى أن يصرف خُوف الموت الناسَ عن الجهاد فى سبيل الله تعالى، ولا يجوز أن يقف الجبن حائلا بين أحد المسلمين وأداء واجب مما أوجب الله تعالى.

وأن من يقصد بعمله فى جهاد الأعداء ثواب الدنيا والغنيمة، فإن الله تعالى يؤتيه من ذلك ما قصد، ومن يرد بعمله وجهاده رضى الله تعالى وثواب الآخرة يؤته الله تعالى من

ذلك ما قصد؛ لأن الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى. وإيثار ما عند الله تعالى هو عمل من فطنة المؤمن وكياسته.

٩ – ويتعلمون من قوله تعالى : ﴿وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله....﴾ الآيات إلى قوله تعالى : ﴿والله يحب المحسنين﴾ ما يلى :

* إن أصحاب المبدأ يقاتلون عن مبدئهم – وبخاصة إذا كان هذا المبدأ صحيحا وحقا – أى من عند الله – دون أن يصيبهم الوهن فى سبيل مبدئهم، ودون أن تعتريهم رغبة فى القعود عن أعدائهم وأعداء الحق، أو يتسرب إلى قلوبهم ذل الانكسار إذا واجهوا عدواً ذا كثرة ووفرة، وإنما يواجهونه بالصبر ، والله تعالى يحب الصابرين.

* ويتعلمون أنهم مهما حققوا من نصر على عدوهم أو وقعت بهم هزيمة فى سبيل الله فليس لهم كلام يلهجون به إلا الدعاء والتوجه إلى الله تعالى :

ربنا اغفر لنا ذنوبنا، أى الصغائر..

وإسرافنا فى أمرنا، أى الكبائر..

وثبت أقدامنا، فلا نتراجع ولا نفر..

وانصرنا على القوم الكافرين، أى أعزنا بدينك وأعزه بنا.

* وأن من يتوجه إلى الله بهذا الدعاء خالصا به قلبه، بعد أن يأخذ بالأسباب التى فى مقدمتها «وأعدوا لهم...» فإن الله تبارك وتعالى يحقق له ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة. أى النصر على العدو فى الدنيا والجنة فى الآخرة، لأنهم بهذا قد أحسنوا والله يحب المحسنين.

– والمواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يلى:

١ – يتعلمون من الآيتين الأوليين : ﴿قد خلت من قبلكم سنن..﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وموعظة للمتقين﴾. أمورا من أهمها ما يلى :

* أن لله تعالى سننا لا تتخلف فى زمان أو مكان، وأن من هذه السنن أن يقوم صراع بين الإيمان والكفر، وأن على المؤمنين أن يصبروا ويحتسبوا فى هذا الصراع مهما تكن نتائجه، وأن يعملوا ما وسعهم على تجنب أسباب الهزيمة فإن وقعت لم ييأسوا وأن لا يطغيهم النصر.

* وأن أمة محمد ﷺ سوف تواجه المكذبين لدين الله ومنهجه، وعليها أن تتدبر فى شأن الأنبياء والسابقين وأممهم التى كذبت حتى تستفيد لدينها ودنياها من هذا التدبر فى الأمم التى سلفت.

* وأن من سنن الله أن ينصر المؤمنين ويخذل الكافرين، فإن حدث غير ذلك فهو الاختبار والابتلاء ريثما يستعيد المؤمنون صلاحيتهم للحصول على نصر الله وتأييده.

* وأن المؤمنين جميعا والعاملين من أجل التمكين لهذا الدين بخاصة، يجب أن لا ينعزلوا عن النظر فى التاريخ والتدبر فى أحداثه وأخذ العظة والعبرة مما تجرى به هذه الأحداث، فتلك هى الموعظة للمتقين.

٢ – ويتعلمون من الآيات الكريمة : ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا....﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ويمحق الكافرين﴾ ما يلى :

* أن الوهن وإيثار الراحة والدعة فى معركة الحق مع الباطل، منهى عنه بنص القرآن الكريم ﴿ولا تهنوا﴾ أى لا تضعفوا عن جهاد أعدائكم، فى أى معركة.

* وأن الحزن لوقوع الهزيمة منهى عنه أيضا بنص القرآن الكريم ﴿ولا تحزنوا﴾ فلا يجوز للمسلمين أن يهنوا ولا أن يحزنوا وهم الأعلون. وقد كان من دعاء رسول الله ﷺ فى أحد، عندما أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين ليعلو الجبل على المسلمين : «اللهم لا يعلن علينا اللهم لا قوة لنا إلا بك، اللهم ليس يعبد بهذه البلدة غير هؤلاء النفر» فأنزل الله تعالى هذه الآيات. روى ذلك ابن عباس رضى الله عنهما.

* وأن المسلمين لابد أن يصيبهم فى مجال عملهم فى الدعوة والحركة متاعب وقروح، وأن عليهم أن يصبروا ويحتسبوا، فتلك سنة الله تعالى.

* وأن المؤمنين معرضون للهزيمة أحيانا، منصورون أحيانا، حسب ما يشاء الله وحسب ما يأخذوا به من أسباب أمر الله تعالى بالأخذ بها، وكل ذلك ابتلاء للمؤمنين بالخير حينا وبالشر حينا.

* وأن من سنن الله تعالى فى معارك الحق والباطل أن يتخذ من المؤمنين شهداء، وحسب الشهيد مكانة أن يغفر له ما تقدم من ذنبه – إلا ما كان من حقوق العباد – وأنه يحشر مع النبيين والصديقين.

---

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن: ٤ / ٢١٧ مرجع سابق.

٣ - ويتعلمون من الآيات الكريمة : ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة....﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وسنجزى الشاكرين﴾ ما يلى :

* أن الحصول على الجنة ليس سهلا، وإنما يتطلب جهدا فائقا، وعملا صالحاً مستمراً، وذلك مفهوم من قول الرسول ﷺ فيما رواه أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وهو يقول بيده هكذا - فأومأ أبو عبد الرحمن بيده إلى الأرض - «من أنظر معسرا أو وضع له، وقاه الله من فيح جهنم، الا إن عمل الجنة حزن بربوة - ثلاثا - الا أن عمل النار سهل بسهوة، والسعيد من وقى الفتن، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد إلا ملأ الله جوفه إيمانا». ولهذا تحتاج الجنة إلى جهاد وصبر.

* وأن ادعاء الجلد، وحديث النفس وتمنيها دخول المحنة أو المعركة، كل ذلك غرور ليس من أخلاق المسلمين، وأن ما دار فى معركة أحد فى هذا المجال درس يجب أن يتعلمه الدعاة والحركيون، فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تتمنوا لقاء العدو، وإذا لقيتموهم فاصبروا».

٤ - ويتعلمون من قوله تعالى : ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل...﴾ الآية ما يلى :

* أن مصيبة مّا - بالغة ما بغلت من الفداحة - لا ينبغى أن تصرف المسلمين عن أهدافهم الشرعية فى الدعوة والحركة والعمل من أجل التمكين لدين الله فى الأرض، حتى لو كانت هذه المصيبة هى موت النبى ﷺ أو قتله!!!

* وأن يكون من أهم أعمال الدعاة والحركيين ربط المدعوين بالعقيدة والمبدأ، لا بالأشخاص والقادة والزعماء، لأن هؤلاء إلى زوال، والمبدأ والمنهج إلى بقاء واستمرار، فتلك هى التربية الإسلامية الصحيحة.

* وأن التراجع عن الحق أو عن المضى فى ركب الدعوة - لأى سبب من الأسباب التى يخافها الناس من متاعب ومحن ونحو ذلك - إنما هو انقلاب من الإيمان إلى الكفر، وعن الثبات من أجل الحق إلى الزعزعة، وذلك ليس من أخلاق الشاكرين لله على نعمه، والشاكرون عند الله لهم أعظم الجزاء، «وسيجزى الله الشاكرين».

٤ – ويتعلمون من قوله تعالى : ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله .....﴾ الآية، ما يلى :

* أن الموت والحياة بيد الله وحده، وأن لكل أجل كتابًا لا يتجاوزه بزيادة أو نقصان، فتلك من سنن الله تعالى.

* وأن أحدا لا يجوز له أن يقعد عن واجب الدعوة والحركة والتمكين لدين الله فى الأرض، خوف الموت أو القتل، فذلك حمق وسفه؛ لأن لكل أجل كتابا.

* وأن كل إنسان يجازيه الله على عمله بحسب نيته؛ فمن أراد الدنيا أعطى فى الدنيا ومن أراد الآخرة أعطى فى الدنيا والآخرة.

٥ – ويتعلمون من قوله تعالى : ﴿وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا...﴾ إلى آخر الآيات وهو قوله تعالى: ﴿والله يحب المحسنين﴾ ما يلى :

* أن سنة الله تعالى فى أنبيائه عليهم السلام أن يهيئ لهم المناصرين – الربيين أو الربانيين – المنسوبين إلى الرب سبحانه، أو من العلماء الصابرين، كما فسرها بذلك الحسن رحمه الله.

ومن صفات هؤلاء الربيين أنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا لما أصابهم من هزيمة أو نحوها، وإنما يصبرون على كل ذلك.

* وأن الله تعالى مع الصابرين «والله يحب الصابرين» والصابر هو الذى يحبس نفسه على ما يقتضيه العقل والشرع، وله عند الله أحسن الجزاء، كما دلت على ذلك آيات كثيرة من القرآن الكريم(١).

* والصابر فى مجالى الدعوة والحركة، والعمل من أجل الإسلام لا يستطيع أن يتخلى عن الصبر على ما يصيبه فى سبيل الله، وأن ما يصيبه لكثير، لأن أعداء الحق كثيرون، ولا وسيلة للتعامل معهم إلا والصبر أساس فيها.

* والصبر يعنى فى مجال العمل الإسلامى التخلى عن الضعف والجبن أو الاستكانة لعدو، فضلا عن التراجع عن الحق أو التوقف فى الطريق، وإنما شأنهم أن يدعوا الله ويبتهلوا إليه طالبين مغفرة الذنوب صغيرها وكبيرها، وتثبيت الأقدام فى معارك الحق مع الباطل

---

(١) ومن ذلك سورة البقرة : ١٥٣، ١٥٥، ٢٤٩، وسورة الأنفال: ٤٦ : وسورة النحل : ٩٦، وسورة المؤمنون: ١١١ وسورة الفرقان: ٧٥ – ٧٦.

وطلب النصر من الله على القوم الكافرين.

* وأن الأصل الذى يقوم عليه الجدير بالإجابة هو الإخلاص لله تعالى والاعتماد عليه، والاعتراف بالذنب، وطلب المغفرة منه سبحانه وطلب الثبات والنصر على العدو منه وحده، عندئذ يكون هذا الدعاء جديراً بالإجابة، ويكون الداعون - وهم على هذه الصفات - محسنين، والله تبارك وتعالى «يحب المحسنين».

٢١- الآيات من التاسعة والأربعين بعد المائة إلى الآية الستين بعد المائة
تحذير من الله للمؤمنين من الكافرين، وابتلاء للمؤمنين وتحذير من التولي يوم الزحف، وإقرار لمبدأ الشورى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)﴾ [آل عمران: ١٤٩ - ١٦٠].

وفي هذه الآيات الكريمة:

* تحذير للمؤمنين من طاعة الكافرين والمنافقين الذين يطلبون منهم أن يرجعوا إلى دين

آبائهم بعد هزيمة أحد، زاعمين لهم أن الله تعالى لو كان معهم لنصرهم!!!

* وطمأنة المؤمنين على أن الله تعالى سيؤيدهم بأن يلقى فى قلوب الكافرين الرعب بسبب شركهم بالله ما لم ينزل به سلطانا، ويجعل مصيرهم فى الآخرة إلى النار التى هى مثوى كل ظالم.

* وامتنان من الله تعالى على المؤمنين بأنه نصرهم فى بداية معركة أُحد، ثم خالف بعضهم أمر رسول الله ﷺ فوقعت بهم الهزيمة، وفر بعضهم ثم عفا الله تعالى عنهم. وكل تلك من أفضال الله تعالى عليهم.

* وتذكير للمؤمنين بانهزام بعضهم وفرارهم، مما آذى رسول الله ﷺ، فأثابهم الله غما هو القتل والجراح، وغما ثانيا هو الإرجاف بقتل النبى ﷺ، فكان ذلك من الشدائد العظيمة التى مروا بها.

* والامتنان عليهم بما أنزل الله عليهمْ من نعاس، حتى لقد نام أكثرهم، فكان ذلك أمناً لهم، وأزال عنهم الخوف لأن الخائف لا ينام، وبيان أن من كانوا خرجوا إلى أحد طمعا فى المال لم يشعروا بهذا الأمن ولا أفادوا من هذا النعاس.

* وتبشيع للتولى أمام العدو.

* ونهى للمؤمنين أن يكونوا كالمنافقين الذين يخذلون المؤمنين، ويقولون : لو لم يشترك المقاتلون فى هذه المعركة ما قتلوا!!! وذلك خطأ، لأن الله تعالى هو وحده الذى يحيى ويميت.

* وتأكيد للمؤمنين بأن من قُتل منهم فى سبيل الله يغفر الله تعالى له ذنوبه؛ لأن المرجع إلى الله والثواب أو العقاب إليه وحده، وأن من رحمة الله تعالى بهم أن لانّ لهم النبى ﷺ، ولرحمته بهم أيضاً طالب الله تعالى رسوله ﷺ بالعفو عنهم، والاستغفار لهم، ومشاورتهم فى الأمر.

وامتن عليهم بأن النصر من عنده سبحانه، وأن من فقد نصر الله فلن تغنى عنه قوة ولا عدد ولا عتاد، وامتدح توكلهم على الله تعالى.

– وفى الآيات الكريمة أكثر من نداء على المؤمنين، وفيها أخبار عديدة، وأوامر ونواه، وحديث عن نعم الله تعالى، وفيها أكثر من أسلوب شرط، وفيها إقرار لمبدأ الشورى فى حياة المسلمين بل الأمر به، وفيها دعوة صريحة إلى التوكل على الله سبحانه وتعالى.

وسوف نوضح هذا فيما يلى، والله المستعان :

١ - ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين، بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾.

* فى هذه الآية تحذير للمؤمنين بسوء عاقبتهم إن هم أطاعوا الذين كفروا، فقد ينقلبون بهذه الطاعة كافرين، فيخسرون كل شىء.

والكفار الذين حُذر المؤمنون من طاعتهم هم المشركون -أبو سفيان وصحبة من مشركى العرب، وقيل هم المنافقون - عبد الله بن أُبى ومن معه - والأولى أن الآية الكريمة محذرة من الكفار والمنافقين معا، فكلاهما عدو للإسلام والمسلمين.

* وفى الآية طمأنة للمسلمين على أن الولى هو الله وحده، وكل ولاية مع سواه تؤدى إلى الخسران، وكل ولاية له فهى النصر والتمكين ما دام أولياؤه مؤمنين يأخذون بالأسباب ويحسنون التوكل عليه.

٢- ﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين ﴾.

* وفى هذه الآية الكريمة توضيح لبعض ما يمكن أن يؤيد الله تعالى به المؤمنين، وهو إلقاء الرعب فى قلوب الأعداء، وكل مشرك بالله، معتقد الألوهية فى صنم أو نحوه، فقد ألغى عقله، ومن كان كذلك خوى قلبه وكان عرضة للقلق والاضطراب والرعب.

وقد ألقى الله تعالى فى قلوب المشركين الرعب، قال السدى[1] : لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين إلى مكة انطلقوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ندموا، وقالوا: بئس ما صنعنا !!! قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم !!! ارجعوا فاستأصلوهم فلما عزموا على ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به.

* وفى الآية الكريمة إخبار عن مصير هؤلاء الكفار يوم القيامة، وهو نار جهنم التى هى مثوى الظالمين.

٣- ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ الآية.

* وفى هذه الآية رد على أولئك الذين هالتهم الهزيمة فى أحد فتصوروا أن الله قد تخلى عنهم وطمأنة لهم.

---

(١) هو إسماعيل بن عبد الرحمن، تابعى جليل من أهل الحجاز، سكن الكوفة، وهو من علماء التفسير والمغازى والسير، كان إماما عارفًا بالوقائع وأيام الناس، توفى سنة ١٢٨هـ.

قال الواحدى: قال محمد بن كعب القرظى: لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد أصيبوا بما أصيبوا به يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده...﴾ الآية، إلى قوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا...﴾ يعنى الرماة – الذين تركوا أماكنهم وفعلوا ما فعلوا يوم أحد (١).

* وفصل السدى هزيمة أحد بقوله: «لما برز رسول الله ﷺ إلى المشركين بأحد أمر الرماة، فقاموا بأصل الجبل فى وجوه خيل المشركين وقال: لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا قد هزمناهم، فإنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير، ثم إن طلحة ابن عثمان صاحب لواء المشركين قام فقال: يا معشر أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار، ويجعلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل منكم أحد يعجله الله بسيفى إلى الجنة أو يعجلنى بسيفه إلى النار؟

فقام إليه على بن أبى طالب فقال: والذى نفسى بيده لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفى إلى النار، أو يعجلنى بسيفك إلى الجنة، فضربه على فقطع رجله، فسقط فانكشفت عورته، فقال: أنشدك الله والرحم يا ابن العم، فتركه، فكبر رسول الله ﷺ وقال لعلى أصحابه: ما منعك أن تجهز عليه؟ قال: إن ابن عمى ناشدنى حين انكشفت عورته فاستحييت منه.

ثم شد الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود على المشركين فهزماهم وحمل النبى ﷺ وأصحابه فهزموا أبا سفيان. فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وهو على خيل المشركين حمل، فرمته الرماة فانقمع.

فلما نظر الرماة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فى جوف عسكر المشركين ينتهبونه، بادروا الغنيمة، فقال بعضهم: لا نترك أمر رسول الله ﷺ، فانطلق عامتهم فلحقوا بالعسكر، فلما رأى خالد قلة من الرماة صاح فى خيله، ثم حمل على أصحاب رسول الله ﷺ، فلما رأى المشركون أن خيلهم تقاتل تنادوا فشدوا على المسلمين فهزموهم وقتلوهم.

* وقال محمد بن كعب القرظى: «لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أحد وقد أصيبوا، قال بعضهم لبعض: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فنزلت هذه الآية، وذلك أنهم قتلوا صاحب لواء المشركين، وسبعة نفر منهم بعده على اللواء، وكان الظفر

---

(١) الواحدى: أسباب النزول: ٧٢ ط الحلبى مصر ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٨م.

ابتداء للمسلمين، غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة وترك بعض الرماة أيضاً مركزهم طلبا للغنيمة، فكان ذلك سبب الهزيمة».

فهذا معنى: ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، أى تقتلونهم.

* «حتى إذا فشلتم» أى جبنتم وضعفتم.

* «وتنازعتم» اختلفتم، يعنى الرماة حين قال بعضهم لبعض: نلحق الغنائم، وقال بعضهم: بل نثبت فى مكاننا الذى أمرنا النبى ﷺ بالثبوت فيه.

* «وعصيتم» أى خالفتم أمر رسول الله ﷺ فى الثبوت.

* «من بعد ما أراكم ما تحبون» يعنى من الغلبة التى كانت للمسلمين يوم أحد أول أمرهم، وذلك حين صُرع صاحب لواء المشركين طلحة، وذلك أنه لما صرع انتشر النبى ﷺ وأصحابه وصاروا كتائب متفرقة فحاسوا العدو ضربا، وحملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات كل ذلك تُنضَح بالنبل فترجع مغلوبة، وحمل المسلمون على المشركين فنهكوهم قتلا.

فلما أبصر الرماة الخمسون أن الله عز وجل قد فتح لإخوانهم قالوا: والله ما نجلس ههنا لشىء، قد أهلك الله العدو، وإخواننا فى عسكر المشركين، وقال طوائف منهم: علام نقف وقد هزم الله العدو؟ فتركوا منازلهم التى عهد إليهم النبى ﷺ الا يتركوها، وتنازعوا وفشلوا وعصوا الرسول ﷺ فاوجفت الخيل فيهم قتلا»(1).

* «منكم من يريد الدنيا» يعنى الغنيمة، قال ابن مسعود رضى الله عنه: ما شعرنا ان أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا وعرَضَها حتى كان يوم أحد.

* «ومنكم من يريد الآخرة» وهم الذين ثبتوا فى مركزهم ولم يخالفوا أمر نبيهم ﷺ مع أميرهم عبد الله بن جبير، فحمل خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل عليه، وكانا يومئذ كافرين فقتلوه مع من بقى، رحمهم الله.

والعقاب مع من انهزم لا مع من ثبت، فإن من ثبت فاز بالثواب، وهذا كما أنه إذا حل بقوم عقوبة عامة فاهل الصلاح والصبيان يهلكون ولكن لا يكون ما حل بهم عقوبة، بل هو

---

(1) القرطبى: الجامع لاحكام القرآن الكريم: 4/236-237، مرجع سابق.

سبب المثوبة. والله أعلم»(1).

* «ثم صرفكم عنهم ليبتليكم» أى بعد أن استوليتم عليهم ردكم عنهم بالانهزام، وقيل معناه: لم يكلفكم طلبهم.

* «ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين» أى لم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة.

٤- «إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم» أى عفا عنكم، إذ تصعدون أى تفرون، كما فسرها ابن عباس رضى الله عنهما.

* «تلوون» تعرجون أى لا يلتفت بعضكم إلى بعض هربا.

* «والرسول يدعوكم فى أخراكم» قال ابن عباس رضى الله عنهما كان دعاء النبى ﷺ: «أى عباد الله ارجعوا» وكان دعاؤه تغييرا للمنكر، ومحال أن يرى رسول الله ﷺ المنكر -وهو الانهزام- ثم لا ينهى عنه.

* «فأثابكم غما بغم» الغم الأول: القتل والجرح.

والغم الثانى: الإرجاف بقتل النبى ﷺ.

وقيل: الغم الأول: ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والثانى: ما أصابهم من القتل والهزيمة.

وقيل: الغم الأول: الهزيمة، والثانى: إشراف أبى سفيان وخالد عليهم فى الجبل، فلما نظر إليهم المسلمون غمهم ذلك وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم، فأنساهم هذا ما نالهم، فعند ذلك قال النبى ﷺ: «اللهم لا يعلن علينا».

* «لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون» أى: عفا عنكم لكى لا تحزنوا على ما فات من الغنيمة ولا ما أصابكم من الهزيمة، والله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شىء من أعمالكم أو نياتكم.

* «ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم» الأمنة: الأمن وهو ضد الخوف.

والنعاس: فتور يسبق النوم، وكل ذلك ليستريحوا ويأمنوا، روى البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه أن أبا طلحة رضى الله عنه قال: «غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم

---

(1) السابق: ٤/ ٢٣٧.

أحد، قال: فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه، ويسقط وآخذه» وتلك هى الطائفة التى آمنت واستراحت بالنعاس.

«وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية» وتلك الطائفة هى ضعاف المؤمنين.

وقيل هى: المنافقون وهم -كما قال المفسرون- : مُعَتِّب بن قشير وأصحابه، وكانوا خرجوا طمعًا فى الغنيمة وخوف المؤمنين فلم يغشهم النعاس، وجعلوا يتأسفون على الحضور، ويقولون الأقاويل والوجه الأول: أولى.

* **«يظنون بالله غير الحق»** أى يظنون أن أمر محمد ﷺ باطل، وأنه لا ينصر، وذلك ظن أهل الجاهلية.

«يقولون هل لنا من الأمر شىء» أى ليس لنا أمر الخروج أو أمر النصر على الأعداء، وإنما خرجنا كرها، وهو قول ضعاف المؤمنين أو قول المنافقين أو الكافرين، ويمكن أن يكون هذا قول المؤمنين أى متى يكون الفرج.

وقيل: إن الاستفهام فى الآية إنكارى، أى أنهم ينكرون أن يكون لهم من الأمر شىء.

«قل إن الأمر كله لله» وهذا رد على الشبهة الباطلة أو هذا الباطل.

«يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك» أى يخفون من الشرك والكفر والتكذيب، ما لا يظهرون لك.

«يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا» وهو قول المنافقين، قالوا: لو كان لنا عقل ما خرجنا إلى قتال أهل مكة، ولما قتل رؤساؤنا وعشائرنا، ويمكن أن يكون قول الضعاف من المؤمنين، فرد الله عليهم بقوله تعالى:

«قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم» أى إلى مصارعهم.

والمعنى: لا يغنى حذر من قدر، وأن التدبير لا يرد التقدير، لأن الذين قدر عليهم القتل لابد أن يقتلوا.

﴿وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾، أى حدث ما حدث من هزيمة فى أحد ليختبر الله صبركم، وليمحص عنكم سيئاتكم إن تبتم

واخلصتم، وفى هذا القتال وما ادى إليه من هزيمة نوعان من المصلحة هما:

الاول: ان يتميز الموافق من المنافق وان تزول الشبهات.

والآخر: ان يظهر ما فى النفوس من ضعف الإيمان او قوته، وليرقى المؤمن فى مجال إيمانه.

٥- ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا، ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾.

وفى الآية الكريمة:

* إخبار من الله تعالى عن الذين تولوا يوم أحد من الرماة الذين تركوا الجبل؛ إذ ظنوا انه لا رجعة للمشركين، فترخصوا فى ذلك، وهذا الترخص هو الذى جعل للشيطان سبيلا عليهم فاستزلهم ببعض ما كسبوا.

ويمكن ان يكون الذين تولوا هم الرماة وغيرهم، لان كثيراً من المؤمنين قد فروا من المعركة، وما بقى مع النبى ﷺ إلا القليل منهم، فقد زين لهم الشيطان اعمالهم، وقد قيل لهم لم يكن الانهزام معصية لانهم أرادوا التحصن بالمدينة.

* «ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم» اى ان الله تعالى عفا عن هؤلاء الذين تولوا يوم التقى الجمعان عفوا خاصا بهم، وليس عفوا عاما عن كل من تولى يوم الزحف.

* وقد كان ذنبهم فى احد - إذ تولوا - من شأنه ان يُعذبوا عليه فى الدنيا والآخرة، فشاء الله تعالى ان تكون عقوبتهم الدنيوية على هذا الذنب تربية وتمحيصاً، وعفا عنهم فى الآخرة، فهو سبحانه غفور حليم.

٦- ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا، وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير، ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون، ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾.

* يحذر الله المؤمنين ان يكونوا كالكافرين فى قولهم -المبنى على الجهل بالدين والدنيا معا- لإخوانهم فى النسب أو المذهب أو المودة، قولهم: لو كانوا مقيمين عندنا ما ماتوا إذا ضربوا فى الأرض للتجارة ونحوها، وما قتلوا لو خرجوا الجهاد ونحوه، فذلك جهل فاضح؛ لان من كتب عليه الموت مات عندما يحين أجله اقام أو سافر، وقعد عن الجهاد أو جاهد،

ولا يغنى حذر من قدر، ولا يردّ تدبيرٌ تقديراً كما قلنا آنفا.

* نهت الآية الكريمة المؤمنين عن قول مثل قول الكافرين -وهم أهل النفاق- حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أهل الكفر والنفاق من تكذيب بالدين وبالخالق المحيى المميت، ومن مخالفة للمعقول والمنطقى من الامور، إذ الموت نهاية حتمية لكل حى، فكيف لو بقى الإنسان دون سفر أو غزو ولم يمت؟

* **﴿ ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ﴾** أى لا تكونوا مثلهم فى هذا الاعتقاد الباطل فى الموت والحياة، فإن موقفكم هذا من إيمانكم بحقيقة الحياة والموت يغيظهم ويصيبهم بالحسرة، لإيمانكم وكفرهم ورضاكم وحزنهم أو : لا تكونوا مثلهم لكى تظلوا متميزين عليهمّ فى فهمكم وتقبلكم موت من مات منكم أو قتله، فيصيبهم ذلك بالحسرة على من فقدوا . **﴿ والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير ﴾** وتلك سنة من سنن الله فى الكون، بحيث يهيئ أسباب الحياة وأسباب الموت، ولا يخلد على الدنيا أحداً ولا شيئاً من خلقه.

٧- ﴿ ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون، ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾ .

تؤكد هذه الآية الكريمة أن الإنسان - كل إنسان - لابد أن يموت أو يقتل، ولا مفر من ذلك، فإن الموت أو القتل فى سبيل الله، وسبيل الله فى أوسع معانيها هى طريق الحق والخير، وبعد موته يحشر إلى يوم القيامة حيث مغفرة الله تعالى؛ لأنه مات أو قتل فى سبيل الله تعالى.

* ثم يبشرون فى الآية الثانية : **﴿ ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾** بأنهم يحشرون إلى الله تعالى وتلك درجة أعلى من سابقتها.

* وفى الآية الكريمة تدرج فى العطاء من الله تعالى يناسب أحوال المتعبدين:

- فالمغفرة أنسب لمن كان يعبد الله خوفاً من عقابه.
- والرحمة أنسب لمن كان يعبد الله طمعاً فى ثوابه.
- والحشر إلى الله أنسب لمن يعبد الله لمجرد الربوبية والعبودية لا خوفا ولا طمعاً، وتلك هى المقامات العليا.

٨- ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

* كان من رحمة الله بالمسلمين عندما انهزموا فى أحد أن الرسول ﷺ لم يخاطبهم بالتغليظ والتشديد، وإنما خاطبهم بالكلام اللين. «لنت لهم».

* ولما أرشدهم الله تعالى فى الآيات المتقدمة إلى ما ينفعهم فى معاشهم ومعادهم، وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم.. زاد هنا فى الفضل والإحسان عليهم بأن طلب من الرسول ﷺ أن يعفو عنهم، وأن يستغفر لهم.

* ولولا هذا اللين الذى صادف محله فى المؤمنين لتفرقوا عن النبى ﷺ وعن الدين نفسه.

والمعنى - كما قال علماء التفسير -: يا محمد لولا رفقك بالمؤمنين فى موقعة أحد، لمنعهم توليهم فى المعركة من القرب منك والالتفاف حولك.

* «فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر».

هذه الأوامر الثلاثة متدرجة على نحو منطقى نوضحه فيما يلى:

- أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يعفو عن المسلمين فيما له عليهم من تبعة خاصة به، أى يعفو عن كل ما يخصه نحوهم، فلما كانوا بهذه الدرجة..

- أمره الله تعالى بأن يستغفر لهم فيما لله عليهم من تبعة لفرارهم وعصيانهم الرسول ﷺ، فلما صاروا بهذه الدرجة، صاروا أهلا للاستشارة فى الأمور، فقال له:

- «وشاورهم فى الأمر».

قال ابن عطية [1] : «والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وهذا ما لا خلاف فيه، وقد مدح الله المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ۝٣٨﴾ [الشورى: ٣٨] [2].

- وقال ابن خويز منداد: «واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدين، يستشيرون وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس

---

(١) هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى الغرناطى أبو محمد (٤٨١-٥٤٢هـ)، عالم جليل مفسر، فقيه عارف بالأحكام ومن علماء الحديث بالأندلس، ومن أهل غرناطة تولى قضاء المرية، وكان يكثر الغزوات فى جيوش المسلمين وتوفى بلورقة، ومن كتبه: «المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» فى عشرة مجلدات - لا يزال مخطوطاً - وله: «برنامج» فى ذكر مروياته وأسماء شيوخه.

(٢) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٢٤٩. مرجع سابق.

فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها».

وقد روى عن الحسن والضحاك قالا: «ما أمر الله نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما فى المشاورة من الفضل ولتقتدى به أمته من بعده»[1].

* وفى الشورى وأهميتها ووجوبها ووجوب الأمانة فيها وردت أحاديث نبوية شريفة نذكر منها ما يلى :

– أخرج الخطيب بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله: الأمر ينزل بعدك لم ينزل فيه قرآن، ولم يسمع منك فيه شىء؟

قال: «اجمعوا له العابد من أمتى واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوا فيه برأى واحد».

– وروى الترمذى بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم أسخياءكم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأمركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها».

– وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه».

* وهذا الحديث الشريف يوجب الشورى على كل من استشير.

– وروى الترمذى بسنده فى الأوسط عن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «المستشار مؤتمن، فإذا استشير أحدكم فليشر بما هو صانع لنفسه».

* وهذا الحديث يؤكد أمرين فى الشورى:

وجوبها على من استشير.

والأمانة والإخلاص فى إبداء المشورة.

– وروى البيهقى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «عليكم بالجماعة، فإن الله لن يجمع أمة محمد على ضلالة حتى يستريح برٌّ أو يستراح من فاجر».

---

(١) السابق: ٤ / ٢٣٠.

– وروى عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما شقى عبد بمشورة وما سعد باستغناء رأى» [١].

* وقد جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة –وهى من أعظم النوازل– شورى.

* وقال البخارى: «وكانت الأمة بعد النبى ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها» [٢].

* وقال الحسن البصرى [٣] : ما تشاور قوم بينهم، إلا هداهم لأفضل ما يحضر بهم» [٤].

* وقال الفخر الرازى: «الفائدة فى أنه تعالى أمر الرسول ﷺ بمشاورتهم وجوه:

– أنه ﷺ وإن كان أكمل الناس عقلا، إلا أن علوم الخلق متناهية، فلا يبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح ما لا يخطر بباله، لا سيما فيما يفعل من أمور الدنيا، فإنه عليه السلام قال: «أنتم أعرف بشئون دنياكم وأنا أعرف بأمور دينكم»، ولهذا السبب قال ﷺ: «ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم».

* وقال الحسن البصرى وسفيان بن عيينة [٥] : إنما أُمر بذلك ليقتدى به غيره فى المشاورة، ويصير سنة فى أمته.

– وأنه ﷺ، شاورهم فى وقعة أحد فأشاروا عليه بالخروج، وكان ميله ألا يخرج، فلما خرج وقع ما وقع، فلو ترك مشاورتهم بعد ذلك، لكان ذلك يدل على أنه بقى فى قلبه منهم بسبب مشاورتهم بقية أثر، فأمره الله تعالى بعد تلك الواقعة بأن يشاورهم ليدله على أنه لم يبق فى قلبه أثر من تلك الواقعة [٦].

---

(١) السابق : ٤ / ٢٥١.
(٢) السابق: ٤ / ٢٥١.
(٣) هو الحسن بن يسار البصرى ابو سعيد (٢١–١١٠هـ) تابعى جليل، ولد بالمدينة وشب فى كنف على بن ابى طالب رضى الله عنه وسكن البصرة وكان إمامها، عالم فقيه فصيح شجاع فى الحق لا يهاب فيه أحداً، لقب حبر الأمة. والبصرى نسبة إلى البصرة.
(٤) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن: ٤ / ٢٥٢ مرجع سابق.
(٥) وسفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى الكوفى، كان أعور فكان يقال له: الأعور (١٠٧–١٩٨ هـ) من مشاهير التابعين بمكة ولد بالكوفة وانتقل إلى مكة وكان من الحفاظ المتقنين ومن أهل الورع فى الدين. له الجامع فى الحديث، وكتاب فى التفسير.
(٦) فخر الدين الرازى: التفسير الكبير، مرجع سابق.

* ﴿**فإذا عزمت فتوكل على الله**﴾ أى إذا عزمت بعد المشاورة فى الأمر على إمضاء ما ترجحه الشورى، وأعددت له عدته فتوكل على الله فى إمضائه، وكن واثقاً بمعونته وتأييده لك فيه، ولا تتكل على حولك وقوتك[1].

* ﴿**إن الله يحب المتوكلين**﴾ أى على حوله وقوته، مع العمل فى الأسباب بسننه.

* وقال سفيان الثورى [2] فى الشروط التى يجب أن تتوفر فى أهل الشورى: «ليكن أهل مشورتك: أهل التقوى، والأمانة، ومن يخشى الله تعالى».

٩- وفى الآية الكريمة: ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم**﴾ طمأنة للمؤمنين على أن الله تعالى ناصرهم ومعينهم.

وقد شرح العلماء هذه الآية بما يوضح أسباب النصر وأدواته فقالوا إن المعنى: إن ينصركم الله بالعمل بسننه، وما يكون لكم من القوة والثبات، ومع الاتكال عليه تعالى، وعلى توفيقه. ومعونته فلا غالب لكم.

فأسباب النصر وأدواته هى:

* الالتزام بالعمل بسنة الرسول ﷺ وهى سنة الله التى أوحى لرسوله ﷺ.

* والأخذ بكل ما هو ممكن من أسباب القوة عدداً وعُدداً وإعدادا وتربية وإعلاما ودعاية وإلقاء الرعب فى قلوب الأعداء.

* والثبات على الحق وعلى معاركه مع الباطل مهما تكن التضحيات من أجله، والثبات إنما يكون نتيجة لإيمان قوى والتزام بمنهج الله.

---

(١) يرى بعض المتعالمين أن قوله تعالى ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ يعنى انه بعد أخذ الشورى فإن الرسول ﷺ له أن يخالفها ويأخذ برأيه أو عزمه، وكذلك الشأن فى كل قائد أو رئيس، وهو رأى فائل يدل على سوء فهم، لأن الأخذ به يهدم مبدأ الشورى من أساسه ويجعل المشاورة عملا للتجمل لا للاستفادة.
ولا قائل بذلك من العلماء وأهل الذكر فيما قرأت فى هذا المجال، ولو كان قال به واحد من العلماء لم أطلع على رأيه، فإنه يكون قد اعتسف فى فهم الآية الكريمة، وتجاهل ما عليه جمهور العلماء من المشتغلين بتفسير القرآن الكريم وتأويله.

(٢) هو سفيان بن مسروق الثورى أبو عبد الله (٩٥-١٦١ هـ) من أتباع التابعين بالكوفة، كان من الحفاظ المتقنين والفقهاء والمتمكنين لزم الحديث وواظب على الورع والعبادة، وكان علما يرجع إليه فى الأمصار، ولقب بأمير المؤمنين فى الحديث. له: الجامع الكبير، والجامع الصغير فى الحديث، وطلبه الخليفة المنصور والعباسى على أن يلى العمل فى الحكم فأبى، وخرج إلى الكوفة ١٤٤هـ ثم سكن مكة والمدينة ثم طلبه المهدى فتوارى، وانتقل إلى البصرة فظل بها مستخفيا حتى مات رحمه الله تعالى.

* والتوكل على الله وعلى توفيقه فى أى نصر، وترك التوكل على العمل والأسباب، لأن الحقيقة أن النصر من عند الله يعطيه من يشاء.

* «وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون» ومعناها والله أعلم: إن يخذلكم بما كسبت أيديكم من دواعى الفشل، وعصيان النبى ﷺ -كما فعل بعض الرماة فى أحد -متأولين- أو يخذلكم بما يصيبكم من الغرور والاعتماد على القوة وحدها- كما كان الشأن يوم حنين- إن يخذلكم لمثل هذه الأسباب، فمن ذا الذى يستطيع أن ينصركم وقد خذلكم الله تعالى؟

- وهذا الاستفهام فى الآية الكريمة يحمل معنى النفى، أى إن خذلكم الله فلن يستطيع أحد نصركم.

- «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» أى لا يتوكلون على غيره، لأن النصر بيده وحده وهو الموفق لأسبابه ودواعيه.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يلى:

١- يتعلم المسلمون من الآيات الأولى من هذه الآيات: الحذر من طاعة الكافرين فيما يدعون المؤمنين إليه أو يقترحونه عليهم؛ لأنهم غير مأمونين على شىء مما يقولون أو يقترحون، وذلك الحذر أصل أصيل فى ديننا أقره القرآن الكريم، فى قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم كافرين..» وقوله تعالى فى آية أخرى: ﴿ولا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران: ٧٣]. فالمسلم لا يطيع أحداً إلا أن يكون من أهل دينه، وبشرط ألا تكون الطاعة فى معصية.

٢- ويتعلمون أنهم بمعصيتهم للكافرين لن يخسروا شيئاً، ولن ينهزموا فى معركة، لأن الله تعالى مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم إلا أن يكون الشيطان؛ ومن كان الله مولاه نصره وأيده ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [آل عمران: ١٥٠].

٣ - ومهما كثر عدد الكافرين أو تعاظمت عدتهم، فإن الله تعالى سيلقى فى قلوبهم الرعب بسبب إشراكهم بالله تعالى، ثم يكون مصيرهم إلى جهنم وهى بئس المثوى للظالمين، والشرك ظلم عظيم كما دلت على ذلك آيات القرآن: ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا..﴾ الآية.

٤ - ويتعلم المسلمون من معركة أحد، وما جرى فيها من موقف كثير من المسلمين أمورا كثيرة من أبرزها ما يلى:

* أن النصر من الله، وأنه يأتى مع الإيمان والطاعة والصبر، وأن الله أنعم بالنصر على المسلمين فى بدايات معركة أحد، ولكنهم لما عصوا الرسول ﷺ، وأرادوا الغنائم -متصورين أن المعركة قد انتهت بعد الجولة الأولى التى كانت للمسلمين على الكافرين- وقعت بهم الهزيمة؛ إذ كل هزيمة معها معصية، وذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه.

* وأن الفشل والتنازع من أسباب الهزائم فى أُحد وفى غيرها من معارك الحق والباطل، وإن هذه الهزائم ابتلاء من الله تعالى لإيمان المؤمن وطاعته وصبره: «حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكمْ...»

* وأن عفو الله قريب من المؤمنين إذا تابوا وأخلصوا لله نواياهم وعادوا للطاعة، ولقد عفا الله تعالى عن أسلافنا رضى الله عنهم فى أحد، ويعفو عن المؤمنين فى كل الظروف المماثلة، لأنه سبحانه وتعالى ذو فضل على المؤمنين: ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾.

٥ - ويتعلمون مما حدث من المسلمين فى أحد، ومما حدث من الرماة على وجه الخصوص، أن الله تعالى عامل المسلمين بالتفضل والعفو لكيلا يحزنوا على ما فاتهم من الغنائم ولا على ما أصابهم من الهزيمة، وكان من فضله عليهم أن جعلهم يشعرون بالنعاس ليأمنوا وتزول عنهم متاعب الحرب وآلامها، وتلك كانت منة من الله تعالى على طائفة من المؤمنين.

* وأن طائفة أخرى حُرمت هذا النعاس المؤدى إلى الأمن، لأنها من ضعفاء المسلمين أو من المنافقين الذين يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، وهو ظن يقوم على ادعاء أن دعوة محمد ﷺ باطل وأنه غير منصور هو وأصحابه، وإنما كان ذلك الظن باطلا؛ لأن النصر بيد الله سبحانه.

* ومن مقولاتهم الباطلة قولهم: لو كان لنا من الامر شيء ما خرجنا للقتال، وما قتلنا هذه المقتلة، مع أن من كتب عليه القتل فسوف يقتل ولو كان فى حصن حصين.

إنهم منافقون يظهرون خلاف ما يبطنون، ذاهلين عن أن الله تعالى يريد بهذه الهزيمة أن يبلى ما فى الصدور ويمحص ما فى القلوب: ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم..﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿عليم بذات الصدور﴾.

٦ - ويتعلمون من الآيات الكريمة ان الذين تولوا منهزمين يوم الجمع إنما اغراهم الشيطان بذلك وخدعهم عن موقف أمروا فيه بالثبات، ولكن الله تعالى عفا عنهم فى الآخرة وجعل هزيمتهم تربية لهم وتعليما : ﴿**إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان..**﴾ الآية.

٧ - يتعلمون الا يفعلوا كما فعل الكافرون حين رددوا قولهم المبنى على الجهل بالدين وحقائق الحياة، متوجهين بهذا القول إلى إخوانهم فى النسب أو المذهب : ﴿**لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا**﴾ وهم فى هذا القول جد مخطئين؛ لان الموت والحياة بيد الله وحده، وما ينال من يردد مثل هذا القول إلا حسرة وندما.

* ومعنى ذلك ان يقبل المسلم على خوض معاركه فى سبيل الله مؤمنا بان ما يصيبه فى هذه المعركة هو عين ما كتبه الله تعالى عليه ولن يجد عنه معدلا لان المؤمن فى هذه المعارك إن قتل أو مات فهو فى مغفرة ورحمة من الله : ﴿**يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم لو كانوا عندنا ما ماتوا....**﴾ الآية.

٨ - ويتعلمون ان النبى ﷺ قد سنَّ سنة حسنة فى معاملة المخطئين باللين، وان الله تعالى جعل ذلك من رحمته بهم ثم أمر رسول الله ﷺ بان يعفو عنهم فى كل خطأ فى هذا الموقف، وان يطلب لهم من الله المغفرة، وأمره ان يشاورهم على الرغم من انهم أخطئوا وهم يشيرون عليه بالخروج: ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر...**﴾ الآية.

* ويتعلمون ان الشورى أصل أصيل فى الإسلام، وان النبى ﷺ - وهو المعصوم الموحى اليه - قد أُمر بان يشاورهم على الرغم مما كان منهم.

* وان الشورى إنما تكون فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة، وان الاخذ بها واجب، وان التوكل على الله والاخذ بما تفضى إليه الشورى هو الاصل، مع العزم والتوكل على الله تعالى.

٩ - ويتعلمون من الآية الاخيرة من هذه الآيات ان النصر بيد الله وانه سبحانه لا يعطيه إلا لمن يستحقه، وان من حُرم هذا النصر فلن ينصره أحد مهما اوتى من الأسباب. ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده...**﴾ الآية.

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة. كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات الحذر كل الحذر من خداع أعداء الدين، بما يزوقون من مقترحات ظاهرها الرحمة والفائدة، وباطنها العذاب والأحقاد على الإسلام والمسلمين.

* وفى تاريخ الدعوة إلى الله كثير من المواقف التى تعرض فيها المسلمون لمكر الأعداء وكيدهم، ومواجهتهم لهذا الكيد والحقد أو انخداعهم بمعسول الكلام ووقوعهم فى الشراك المنصوبة لهم.

* وأقرب مثال لذلك تلك الحركات المنحرفة عن الإسلام التى زينها أعداء الإسلام من المستعمرين وانطلت على غافلى المسلمين، فانساق بعضهم وراءها، وخسروا كثيرا، وهذه الحركات منها ما نذكر أسماءها فيما يلى :

- القاديانية.

- والبابية.

- والبهائية.

- وحركة القرآنيين الذين لا يعترفون بالسنة النبوية.

وغير ذلك من الحركات التى روج لها أعداء الاسلام من الغرب الذى استعمر كثيرا من بلدان العالم الإسلامى فى أفريقيا وآسيا، إذ هى عشرات إن لم تكن مئات.

* إن واجب الدعاة أن يحذروا هذه الحركات والدعوات ويحذروا منها كل من يتعاملون معه.

* وإن معنى ذلك معاداة هذه الحركات وإبطال كيدها، وفى المقابل موالاة الحركات الإسلامية الصحيحة مهما اختلفت الوسائل وخطط العمل مادامت الاهداف صحيحة، والعمل غير مخالف لشرع الله تعالى ، وإذا والوا دعاة الحق فإن الله ناصرهم ومولاهم : ﴿بل الله مولاكم وهو خير الناصرين﴾.

٣ - ويتعلمون أن موالاة الله تعالى لأوليائه ناموس عام لا يتخلف فى عصر من العصور.

* وتاريخ المسلمين والحركات الإسلامية الصحيحة ملىء بالانتصارات التى تكفل الله تعالى فيها بنصر أوليائه، وهذا مما يَبث الاطمئنان فى قلوب الدعاة والحركيين وفى قلوب

المسلمين عموما.

* إن على الدعاة أن يؤكدوا للناس -على الدوام- أنهم لا يخوضون معاركهم وحدهم، وإنما يرافقهم تأييد الله ونصره -إن هم والوا الله ونصروه وأخذوا بالأسباب، ووضعوا نصب أعينهم «وأعدوا.....».

* وتلك حقيقة ثابتة بنصوص قرآنية كثيرة منها قول الله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج: ٤٠] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧] وقوله جل شانه: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم: ٤٧].

٤ - ويتعلمون من الآيات أن الذنوب والمعاصى والتنازع والتفرق من أسباب الفشل والهزيمة فى أى معركة.

* ومعنى ذلك أن يجتنب الدعاة أسباب الفشل، ومن أهم هذه الأسباب الذنوب والمعاصى والتنازع والتفرق.

* وأن يأخذوا بأسباب القوة والإعداد، مع التوكل على الله تعالى.

* ولابد أن نسلم بأن موكب الدعوة وركب الدعاة لا يخلو من مقصرين أو عصاة، ولكن من رحمة الله أن جعل التوبة النصوح تكفيرا عن كل معصية أو تقصير، وأن العمل من أجل الإسلام جهاد مع عديد من الأعداء، وأن الصبر على متاعب هذا الجهاد، وأن طاعة الله تعالى مفتاح هذا الصبر، وأن مما يعين على كل هذا التدبر فيما رواه الواقدى بسنده عن النبى ﷺ أنه قال فى خطبته يوم أحد قبل المعركة: «إن جهاد العدو شديد كربه، قليل من يصبر عليه إلا من عزم الله له وشده، فإن الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه...»[1].

٥ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **إذ تصعدون ولا تلوون على أحد..** ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ **ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم** ﴾ ما يلى:

* أنه من الممكن أن يفر المسلمون من معركة مع الباطل مدبرين فى فرارهم لا يلوون على شىء، مهما كانت هذه المعركة ذات أهمية، ومهما كانت قيادة هذه المعركة تشجع وتحمس وتستثير، لأن الشيطان يزين للإنسان الفرار والحرص على حياة أى حياة، ويستزل الناس

(١) الواقدى: مغازى رسول الله ﷺ: ١/ ٢٢١.

ببعض ما كسبوا من اعراض الدنيا، كل ذلك ممكن ولكن الاوبة إلى الحق وإلى الدفاع عنه والتضحية فى سبيله عمل المؤمنين الصادقين الراغبين فى الإنابة إلى الله.

* وتاريخ الدعوة إلى الله ليس خاليا عبر القرون من المعارك والصراعات، والمحن والابتلاءات.

ونحاول هنا أن نوضح بعض الأسباب التى تشجع الناس على الفرار أو التراجع أو النكوص، ومنها ما يلى :

أ – حب الدنيا وأعراضها، وكراهية الموت..

ب – وخشية العنت والمشقة بتوقع المحنة والبلاء..

جـ – وخوف الظلم والظالمين والطغاة..

د – ورهبة العدو لكثرة عدته وعديده..

هـ – وسوء الفقه وسوء الفهم لطبيعة الصراع بين الحق والباطل..

و – وسوء فقه الموازنات والأولويات..

ز – والتشاؤم والنظرة اليائسة(1).

وكل هذه الأسباب وغيرها مما لم نذكر – وهو كثير – دليل على ضعف الإيمان بالله وضعف التوكل عليه والإيمان بقضائه وقدره.

* وعلاج ذلك كله التوبة والندم والاستغفار.

* وان الإحساس بالأمن –مهما تعددت المعارك، واشتدت ضراوتها– ينعم الله به على من يحسنون التوكل عليه، حتى لو كانوا فى محنة وبلاء، وأن النصر أقرب إلى العاملين من أجل الإسلام، أقرب إليهم مما يتصورون.

٦ – ويتعلمون من قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض.. ﴾ الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ ... لإلى الله تحشرون ﴾ ما يلى :

---

(1) لمعرفة تفصيل هذه الاسباب، انظر للمؤلف : فقه الاخوة فى الإسلام من ص ٢٢٧ إلى ص ٢٤٦ نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م.

* ان تشبيط همم الدعاة وتخذيل العاملين من اجل الاسلام والمجاهدين فى سبيل الله بمختلف الوسائل والأساليب عمل مستمر فى حياة الدعوة والدعاة، وله مروجوه من شياطين الإنس والجن وانهم يجعلون ذلك من أهم أهدافهم.

* وأن على الدعاة أن يحذروا هذا التثبيط والتخذيل، وألا ينخدعوا بما يردده المثبطون والمخذلون من دعواهم الإشفاق على الدعاة من الاصطدام بالسلطة الزمنية وتعرضهم للسجن والتعذيب وربما الموت.

* وعلى الدعاة أن يدركوا أن المثبطين والمخذلين قد يكونون ممالئين للظالمين، ولأعداء العمل الإسلامى، وقد يكونون كارهين للإسلام والمسلمين لكفرهم أو كونهم من عصاة المؤمنين، وقد يكونون منافقين يتقربون إلى الحكام الظالمين المعادين للإسلام، وقد يكونون وقد يكونون....

* والجديد فى هؤلاء المثبطين أنهم قد يكونون من أنصار الإلحاد والشيوعية المنهارة والاشتراكية التى أعلنت إفلاسها، وقد يكونون من أنصار ما يعرف بالنظام العالمى الجديد الذى تقوده الولايات المتحدة الأمريكية ضد كل حركة إسلامية، تامينا لمصالحها فى السيطرة على العالم الإسلامى فى عمل صليبى صهيونى يعادى الإسلام والمسلمين جهارا ودون خجل من إعلانه لمبادئ خلابة كحقوق الإنسان، ونبذ التعصب والتفرقة اللونية أو الدينية!!!

* ومن الراغبين فى القضاء على كل حركة إسلامية، هيئة الامم المتحدة ضد الدول الضعيفة أو الدول التى لا تملك حق النقض، وتتلقى المعونات من صندوق النقد الذى يغرق الدول المدينة فى بحر من المشكلات والاحتياج المستمر إلى الخبز والسلاح، وهؤلاء يثبطون كل عمل إسلامى ويدينون أصحابه ويتهمونهم بالإرهاب والتطرف والعنف!!!

* ومن المثبطين من يقفون للإسلاميين عقبة كأداء، ويحولون بينهم وبين التعبير عن أنفسهم فى أى برنامج سياسى، لأن المسلمين فى نظرهم أقل قيمة وأهمية من أى طائفة فى المجتمع، حتى ولو كانت من الشاذين المنحرفين عن الفطرة السرية!!

* ومن المثبطين من يغرون بعض الحكومات فى العالم الإسلامى بضرب الحركات الإسلامية، ومقاومة حركات الإحياء والتجديد الإسلامية خشية على أنفسهم وعلى مصالحهم من تيار إسلامى يجرف أمامه الزبد، ولا يبقى إلا ما ينفع الناس.

ومن أعجب العجب وأظلم الظلم أن الإسلاميين -الذين رضوا باتخاذ الديمقراطية أسلوبا

فى تفكيرهم وانحازوا لمنهجها وتعاملوا مع وسائلها فى المشاركة فى الحكم، واقروا بما فى دساتير بلادهم من نظم وقوانين لا تخالف الاسلام، وأبدوا استعدادهم للمشاركة فى تنمية مجتمعاتهم، وكان لهم حضور غير منكور فى كثير من المواقع والمؤسسات فى بلادهم- قد رفضتهم حكوماتهم، وحوربوا وضربوا باسم الديمقراطية أيضا، وحيل بينهم وبين أن يعبروا عن أنفسهم فى أى برنامج سياسى أو وسيلة إعلامية وضُيق عليهم إلى حد الاعتقال والسجن، فضلا عن إهدار الحق فى الإنسانية فى كثير من بلدان العالم الإسلامى، ومن أعجب العجب أن بعض الحكومات العلمانية التى تدعى الديمقراطية تتنكر فى التعامل معهم لأى قيمة خلقية مما تتشدق به هذه الحكومات.

* وبغض النظر عن صواب هؤلاء الإسلاميين فى مسلكم مع الديمقراطية أو خطئه - لأن ذلك يتطلب دراسة عميقة وتحليلا مفصلا لسلبيات هذا الموقف وإيجابياته - فإن حكومات كثيرة ترفض أن تكون الديمقراطية صادرة من الإسلاميين!!!

٧ - ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى : **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم...﴾** إلى قوله تعالى : **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** ما يلى :

* أن التعامل بين المسلمين دعاة ومدعويين يجب أن يكون باللين والرحمة والأخوة والمودة، لأن الغلظة والفظاظة تؤدى إلى انفضاض الناس عن الحق، وخروجهم عن الصف. وربما أدت إلى انحيازهم إلى صفوف المثبطين والأعداء، ودليل ذلك قوله تعالى: **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك..﴾**

* وأن الدعاة إلى الله مطالبون بالصبر الجميل، والأمل الكبير فى أن ينصلح غير الصالحين، ويعتدل غير المعتدلين، وذلك أن أسوأ ما يفعله الدعاة هو أن تضيق صدورهم بمن أخطأ أو قصر، فيهجروه، وربما اعتبروه عدوا أو مثبطا، فاهملوه أو عادوه، وهذا وإن كان قليل الحدوث إلا أنه ينافى اللين والرحمة، ويختلف مع المنهج الصحيح فى الدعوة إلى الله.

وكم من أحكام يصدرها بعض الدعاة على بعض المدعوين تكون نتيجتها أن يخسر الصف عدداً من أفراده، وقدرا من عدته وعتاده، فيطول الطريق، ويتباعد الوصول إلى الهدف، وتتناثر فى الطريق العقبات ويصعب التمكين لدين الله فى الأرض!!!

* وللدعاة إلى الله فى قصة أحد وما دار فيها أعظم دروس الشورى، والشورى - كما هو معروف - أساس متين فى بناء المجتمع المسلم المفضى إلى الحكومة المسلمة، ومن أهداف

الدعوة إلى الله أن تتأصل الشورى فى نفوس المسلمين، بحيث يتعاملون بها فى حياتهم اليومية، فضلا عن أن تكون منهجا ونظاما لأى حكومة إسلامية.

* ومن المعروف لدى المسلمين أن ممارسة الشورى عبادة الله تعالى؛ لأن الله تبارك وتعالى وصف المسلمين بصفات كلها تعود إلى العبادة وجاء من بينها وصفهم بأن أمرهم شورى بينهم، كما جاء ذلك فى سورة قرآنية سميت «الشورى» قال الله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨)﴾ [الشورى: ٣٦ - ٣٨]. فهذه الآيات وما بعدها إلى الآية الثالثة والأربعين تصف المؤمنين بصفات الإيمان والتوكل على الله واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والتسامح والالتزام بأمر الله ونهيه وإقامة الصلاة وممارسة الشورى، والإنفاق فى سبيل الله، ورفض السكوت على الظلم، والانتصاف العادل، والعفو والاصلاح، وأخذ الحق مغالبة، والصبر والمغفرة.. هذه الصفات جميعا يتعبد بها ويُتقرب بها إلى الله تعالى.

* وإذا جاء الأمر من الله تعالى إلى رسوله ﷺ بأن يشاور أصحابه - وهو المعصوم المؤيد بالوحى - فما بالنا بسائر المسلمين الذين ليسوا من أهل العصمة ولا ممن يوحى إليهم؟

* ولا يفقد أهلية الشورى من استشير فأخطأ المشورة، فالذين طُلب من الرسول ﷺ أن يستشيرهم كانوا قد أخطأوا فى مشورتهم عليه بالخروج إلى أحد، فحدث ما حدث من معصية الرماة وفرار كثير من المقاتلين، وفى ذلك دعم للشورى فى كل موقف، حتى ولو أخطأ المشيرون، بل الأدب النبوى الذى يتعلمه الدعاة من ذلك الموقف فى أحد أن يعفوا عن أخطائهم، وأن يطلبوا لهم المغفرة من الله تعالى «**فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر**».

* إن هذا الخلق فى مجال العمل من أجل الاسلام يجعل العلاقة بين المسلمين على أعلى مستوى إنسانى رفيع.

٨ - ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ ما يلى:

*أن النصر فى كل معركة مع النفس أو مع الشيطان أو مع الناس إنما هو من الله وحده على الرغم من الإعداد والأخذ بالأسباب. إن هذه حقيقة لا تقبل جدلا، ونستطيع أن نبين ذلك فيما هو مُشاهَد فى مجال العمل الإسلامى على الأصعدة التالية :

- على صعيد الدعوة إلى الله ونشرها فى الناس، والتوسع الأفقى فى عدد المدعوين والمستجيبين للحق والهدى، والمنضمين إلي الصف. فتلك معركة يحتاج الدعاة فيها إلى نصر الله، هى معركة بين الكفر والإيمان، والضلال والهدى والمعصية والطاعة والالتزام والضياع، والاستقامة والاضطراب.

- وعلى صعيد الحركة والاختلاط بالناس وحبهم وحب الخير لهم، وتصنيف الناس، وترقيتهم بعد انتقائهم، وهذا من التوسع الأفقى، كذلك بكثرة من ينخرطون فى سلك العمل من أجل الإسلام، وتلك معركة يحتاج الحركيون فيها إلى نصر الله كذلك.

- وعلي صعيد التربية والتكوين والإعداد العلمى المدروس للفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم، والتربية توسع رأسى نوعى يقوم على اصطفاء العناصر الصالحة ممن مورست معهم الدعوة والحركة لتكوينهم تكوينا إسلاميا فى جوانب الروح والخلق والعقل والبدن والدين والحسّ الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والجمالى والجهادى، والتربية من أضرى معارك العمل الإسلامى إذ هى صراع ضد القيم الفاسدة ومناهج التعليم الوافدة على المسلمين التى تحمل قيما لا تصلح للمسلمين، وكل ذلك يحتاج أكثر من غيره إلى نصر الله تعالى وتأييده.

* النصر من الله تعالى على كل مستوى من مستويات هذه المعارك ابتداء من الصراع مع النفس لتستقيم على الحق، وانتهاء بالصراع مع حكومات البطش والطغيان التى ترفض كل ما هو إسلامى، إن كل هذه المعارك تحتاج إلى الإعداد والاستعداد والأخذ بالأسباب، ثم التوكل على الله ليكون النصر منه تعالى للمؤمنين، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

* ويتعلمون من هذه الآية القانون الصحيح للنصر وهو : أن من ينصره الله فلا غالب له بحال ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ ويُفهم من هذا القانون ما يلى :

- إن أصبحتم أهلا لنصر الله فلن يغلبكم غالب مهما كان أقوى منكم أو أكثر أسبابا وأعدادا وإعدادا.

- وإن أصبحتم أهلا لنصر الله فلن يغلبكم غالب مهما كانت الظروف أو المتغيرات.

* والصورة المقابلة لاهلية النصر هي فقد هذه الاهلية، وعندئذ يكون من فقد هذه الاهلية عرضة للخذلان، ومن خذله الله فلن يجد له نصيرا.

* وفقد اهلية النصر له أسباب لا يجهلها المسلمون، نشير هنا إلى بعضها فيما يلي:

ـ التخلي عن نصر الله باقتراف المعاصي والمخالفات لامره ونهيه سبحانه وتعالى، لان ذلك من شانه ان يزعزع الإيمان، ومن تزعزع إيمانه فقد اهلية النصر، والله تعالى يقول: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم: ٤٧].

ـ وترك الاخذ بالاسباب، لان الله تعالى أمر بالاخذ بالاسباب في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ... ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ـ وترك الاعتماد على الله والتوكل عليه، ثقة في الاسباب واعتمادا على الإعداد والقوة، ولنا فيما حدث يوم حنين عبرة، إذ اعجبت المسلمين كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئا، قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ٢٥].

* إن فيما قدمنا لدرسا عظيما للدعاة والعاملين في مجال الحركة والتربية، وفي كل ميدان من ميادين التمكين لدين الله في الأرض، يعرفون من خلاله كل ما يجب أن يعرفوا عن النصر شروطه واهلية من نصرهم الله وقانون النصر والخذلان، في كل المعارك من أجل الإسلام، وما أكثرها وما أحوجها إلى معرفة هذا القانون.

٢٢- الآيات من الحادية والستين بعد المائة إلى الرابعة والستين بعدها بعض صفات النبى ﷺ وبعض وظائفه

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)﴾ [آل عمران: ١٦١ - ١٦٤].

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن تبرئة النبى ﷺ من الغلول، وفيها توضيح لعقوبة الغَالّ يوم القيامة، ثم بينت موقف الناس من اتباع رضوان الله أو الوقوع فى سخطه، وجزاء هذا وذاك، ثم امتن الله تبارك وتعالى على المؤمنين بأن بعث فيهم الرسول ﷺ، الذى وصفه الله تعالى بصفات حددت وظيفته فى الدعوة إلى الله، فهو ﷺ من أنفسهم، ويتلو عليهم آيات الله، وأنه يزكيهم، وأنه يعلمهم الكتاب والحكمة.

وبينت الآيات ما كان عليه الناس قبل النبوة من ضلال مبين.

- وقد اشتملت الآيات الكريمة على أكثر من خبر، وعلى استفهام يفيد النفى، وعلى شرط وجزاء، مما سنوضحه بعون الله تعالى فيما يلى:

١ - نفى الغلول - وهو السرقة - عن رسول الله ﷺ مما يؤكد حرمته على كل مسلم، فقد روى الكلبى ومقاتل أن الرماة فى معركة أحد قالوا حين تركوا أماكنهم التى وضعهم فيها رسول الله ﷺ: نخشى أن يقول النبى ﷺ: «من أخذ شيئا فهو له»، وأن لا يقسم الغنائم، كما لم يقسمها فى بدر، فقال النبى ﷺ: «أظننتم أن نغل ولا نقسم»، فنزلت هذه الآية.

والمعنى: ما كان من شأن نبى من الأنبياء جميعا ولا من سيرته أن يغُل، لأن الله تعالى عصم الأنبياء من ذلك.

* وبيان عقاب الغالّ يوم القيامة حيث يطالب أن يأتى بما غلَّ يحمله على ظهره ورقبته مُعَذَّبًا بحمله وثقله، ومرتعبا من صوته، وموبخا بإظهار خيانته على رءوس الأشهاد: ﴿ومن

يغلل يأت بما غل به يوم القيامة﴾ سواء أكان إتيانه بما غل وحمله إياه حقيقيا، أو مجازا بمعنى أنه يعلم ما يحمله.

وقد روى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيبا، فذكر الغلول فعظّمه وعظّم أمره ثم قال: الا لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، فيقول: يارسول الله اغثني، فاقول له: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة فيقول يارسول اغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول يارسول الله: اغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول يارسول الله اغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك».

* والغلول كبيرة من الكبائر، بدليل هذه الآية الكريمة التي نشرحها..

- وبدليل الحديث الشريف الذى أوردناه آنفا..

- وبدليل ما رواه الإمام مالك بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر، فلم نغنم ذهبًا ولا ورقًا - اى فضة - إلا الاموال: الثياب والمتاع. قال فاهدى رفاعة بن زيد رضى الله عنه لرسول الله ﷺ غلامًا أسود يقال له مِدْعَم، فوُجِّه رسول الله ﷺ إلى وادى القرى، حتى إذا كنا بوادى القرى، بينما مدعم يحط رحل رسول الله ﷺ، إذ جاءه سهم عائر - أى غير معروف من رمى به - فأصابه فقتله، فقال الناس: هنيئا له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفسى بيده إن الشملة التى أخذ يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً».

فلما سمع الناس ذلك جاء رجل بشراك أو شراكين إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «شراك -أو شراكان- من نار» وأخرجه البخارى ومسلم والنسائى.

- وبدليل رفض النبى ﷺ أن يصلى على ميت غَلَّ خرزات، فقد روى أبو داود بسنده عن زيد بن خالد الجهنى أن رجلا - هو صاحب الخرزات - من أصحاب رسول الله ﷺ، توفي يوم خيبر وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «صلوا على صاحبكم» فتغيرت وجوه الناس لذلك، فقال: «إن صاحبكم غلَّ فى سبيل الله» ففتشنا متاعه فوجدنا خرزا من خرز يهود لا يساوى درهمين. وأخرجه ابن ماجة.

* وقد قال معظم الائمة والفقهاء: إذا غلَّ الرجل في المغنم ووجد ما غَلّ، أُخذ منه وأدب، وعوقب بالتعزير، وقال بعضهم: يحرق متاعه باستثناء سلاحه والحيوان الذى معه.

ويرى الإمام مالك وأبو حنيفة والشافعى وأصحابهم، أنه لا يحرق متاعه.

* وإن الحقيقة التى تقررها الآية الكريمة هى : ﴿ثم تُوفَّى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون﴾.

٢ – وتقرر الآية الكريمة: ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم....﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون﴾ تقرر –عن طريق الاستفهام الإنكارى– أنه لا يستوى من اتبع رضوان الله ومن باء بسخطه.

* والمعنى: انّ من جعل ما يرضى الله من فعل وترك إمامًا له، فجدّ واجتهد في فعل الخيرات، واتقى الغلول وغيره من الفواحش والمنكرات حتى زكت نفسه فوفى أحسن الجزاء، ليس كمن غلَّ وخان فباء بسخط من الله، وهذا الصق بموضوع الآيات.

* وقيل: الذين اتبعوا رضوان الله هم : المهاجرون.

والذين باءوا بسخطه هم : المنافقون.

* وقيل: هم المؤمنون والكافرون.

* وقيل: هم الطائعون والعصاة.

وكل هذه التفسيرات تحتملها الآية الكريمة.

فالغَالُّون والمنافقون والكافرون والعصاة فى جهنم وبئس المصير، في حين ان الامناء والمؤمنين والطائعين فى رضوان الله وجنته.

وهؤلاء وأولئك لهم عند الله درجات من الثواب أو العقاب، كل على قدر ما قدم من عمل صالح، أو عمل سيىء، والله تبارك وتعالى بصير بما يعمل هؤلاء وأولئك.

٣ – واخبرت الآيات الكريمة ان الله تعالى مَنّ على المؤمنين مِنَّةً عظيمة بهذا النبى الكريم الخاتم: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾.

* وسبب المنّ على المسلمين ببعث محمد ﷺ فيهم؛ أنه يحمل إلى البشرية خاتم الاديان واتمها واكملها وارضاها لله تعالى لتدين به البشرية كلها.

* وقد وصفت الآيات الكريمة رسول الله ﷺ بالصفات التالية:

اللين، والرحمة، والبراءة من التهم التى رددها ضده المشركون، مثل تهمة الغلول وغيرها...

* ثم أخذت الآيات تصف محمدا ﷺ بصفات أخرى تؤكد - عند التأمل فيها - أنه ﷺ أهل لأن يمنَّ الله به على المؤمنين، وعلى العرب وعلى البشرية كلها، ومن هذه الصفات ما نذكره فيما يلى:

- أنه ﷺ من أنفسهم أي من جنسهم - جنس العرب الذين وُجِّه إليهم الإسلام بلغتهم التى نزل بها القرآن الكريم.

وهذه الصفة -وهى أنه ﷺ عربى- لا تتنافى مع كونه أُرسل للعالمين، بل رحمة للعالمين، كما جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

* قال الفخر الرازى: اعلم أن بعثة الرسول ﷺ إحسان إلى الخلق، ثم إنه لما كان الانتفاع بالرسول أكثر، كان وجه الإنعام فى بعثة الرسول ﷺ أكثر.

وبعثة محمد - ﷺ - كانت مشتملة على الأمرين:

الأول: المنافع الخاصة من أصل البعثة.

والثانى: المنافع الحاصلة بسبب ما فيه من الخصال التى ما كانت موجودة فى غيره.

* وقال أبو عبدالله الحليمى[1]: وجه الانتفاع ببعثة الرسل، ليس إلا فى طريق الدين، وهذا الانتفاع من وجوه:

الأول: أن الخلق جبلوا على النقصان وقلة الفهم وعدم الدراية، فهو ﷺ أورد عليهم وجوه الدلائل ونقحها، وكلما خطر ببالهم شك أو شبهة أزالها وأجاب عنها.

والثانى: أن الخلق وإن كانوا يعلمون أنهم لابد لهم من خدمة مولاهم، لكنهم لا يعرفون كيف يخدمونه، فجاء الرسول ﷺ ليشرح لهم ذلك.

والثالث: أن الخلق جُبلوا على الكسل والغفلة والتوانى والملالة، والرسول ﷺ يورد

---

(١) هو الحسن بن الحسن بن محمد بن حليم البخارى الجرجانى أبو عبدالله (٣٣٨-٤٠٣هـ) فقيه شافعى، قاض، كان رئيس الحديث فيما وراء النهر، ولد فى جرجان وتوفى فى بخارى.
ومن أهم مؤلفاته: المنهاج فى شعب الإيمان، يقع فى ثلاثة أجزاء جمع فيه أحكاما كثيرة، ومعانى جليلة لا يُظفر بها فى غيره من الكتب، كما قال ذلك بعض العلماء.

عليهم الترغيبات والترهيبات حتى إنه كلما عرض لهم كسل أو فتور، نشطهم للطاعة ورغبهم فيها.

والرابع: أن أنوار عقول الخلق تجرى مجرى أنوار البصر، ومعلوم أن الانتفاع بنور البصر لا يكمل إلا عند سطوع الشمس، ونور الرسول ﷺ يجرى مجرى طلوع الشمس، فيقوى العقول بنور عقله، ويظهر لهم من لوائح الغيب ما كان مستترا عنهم قبل ظهوره.

فهذه إشارة حقيقية إلى فوائد أصل البعثة.

* وأما المنافع الحاصلة بسبب ما كان فى محمد ﷺ من الصفات فأمور ذكرها الله تعالى فى هذه الآية:

أولهـــا :

أنه ﷺ ولد ونشأ بين العرب، وكانوا عارفين بأحواله، ما عرفوا عنه كذبا ولا خيانة، بل هو الصادق الأمين العفيف، فلما ادعى النبوة وهو على هذه الصفات صدقه العقلاء وآمنوا برسالته.

ثانيها:

أن العرب كانوا يعرفون عنه أنه لم يتعلم على يد أحد، ولم يقرأ كتابا، وأنه -إلى تمام الأربعين من عمره- لم يذكر النبوة ولا الرسالة وبعد الأربعين نبئ وظهر على لسانه من العلوم والمعارف وقصص الأولين ما ميزه وجعل له خصوصية وأكد أنه وحى يوحى.

ثالثهـا :

أنه ﷺ بعد ادعاء النبوة عرضوا عليه الاموال والزوجات والمكانة فلم يستجب لشيء من ذلك، بل أصر على النبوة وإن كان معها الصبر على الشدائد والفقر والاضطهاد، فلما دخل الناس في دين الله أفواجا لم يتخذ سمة الملوك ولا أخلاق الجبارين، وإنما استمر على التواضع والزهد، فدل ذلك على صدقه ومصداقيته.

رابعهـا :

أن الكتاب الذى جاء به قرر التوحيد لله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق به، وأمر بالعدل والإحسان ومكارم الأخلاق، وإيثار الحق والخير، فكان ذلك دليل صدقه وأمانته وكمال الشريعة التى جاء بها.

خامسها:

انه ﷺ جاء بالدين الكامل الذى استطاع به أن ينقل الناس من البداوة، والأمة من الأمية إلى أمة أصبحت بهذا الدين خير أمة أخرجت للناس، وعلى جانب عظيم من العلم والتقدم والحضارة التى استفادت منها الدنيا كلها.

* وهذه الميزات هى التى جعلت وصفه بقوله تعالى: ﴿ ومن أنفسهم ﴾ يحمل معنى المنة عليهم بهذا الرسول العظيم الذى ابتعثه فيهم.

* وقوله تعالى: ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ تتضمن نعمة أخرى انعمها الله على المؤمنين بالرسول الخاتم ﷺ، وبيان ذلك فيما يلى:

- الآيات فى هذه الآية هى آيات الكون الدالة على قدرة الله تعالى وبالغ حكمته ووحدانيتها.

- وتلاوة الآيات اى بيانها والاعتبار بها، وذلك هو القرآن الكريم الذي أوحاه الله إليه فبلغه للناس، وهو آيات لاولي الالباب ولقوم يعقلون. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾ [آل عمران: ١٩٠]

وقال جل شانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ [البقرة: ١٦٤]

- ﴿ ويزكيهم ﴾ اى يطهرهم من العقائد الفاسدة والوثنيات الضالة فيربى نفوسهم، ويربى عقولهم وأخلاقهم، ويربى أبدانهم وحسهم الاجتماعى، يربيهم على الحق وعلى الخير وعلى المعانى الإنسانية العالية، وبهذه التزكية، يستحق الإنسان فى الدنيا الأوصاف المحمودة، وفى الآخرة الاجر والمثوبة.

- ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ قال الإمام مالك: الكتاب هو القرآن، والحكمة هي المعرفة بالدين والفقه فى التاويل والفهم الذي هو نور من الله.

- وقيل: الكتاب هو: الكتابة حيث اضطرهم إيمانهم بهذا الدين إلى تعلم الكتابة بالقلم، وإلى الخروج عن الأمية إلى المعارف وأصول المدنية كلها. وقد شجع الرسول ﷺ

على ذلك ودعا إليه، بل أمر به أمرا صريحا فى قوله ﷺ: «قيدوا العلم بالكتاب» فيما رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك بسنديهما عن ابن عمرو رضي الله عنهما، ورواه الرامهرمزى والخطيب وابن عساكر بأسانيدهم عن ابن عمرو رضى الله عنهما ايضا. ورواه الحكيم وأبو نعيم وابن عبدالبر بأسانيدهم عن أنس رضي الله عنه.

– والكتاب فى الحديث بمعنى الكتابة.

– «والحكمة» فى الآية هى: أسرار الأمور وفقه الأحكام.

وقيل هى السنة، وقيل هى العمل الذى يوصل إلى فقه الأحكام.

* ﴿ وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ اى أنهم كانوا قبل هذه النعمة –نعمة النبوة– فى ضلال واضح، من عبادة الأصنام واتباع الأوهام، ومن هنا يتضح معنى المنة والنعمة وهى النبوة لأنها أنقذتهم من هذا الضلال، كشأن اى نعمة تأتى بعد محنة حيث يكون الإحساس بها أعظم وأمتع.

– **المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يلى:**

١ – أن عدالة الله تعالى مطلقة وأن حسابه لعباده على أخطائهم يستوى فيه الناس جميعا إذ يحاسب كلاً بما عمل، حتى لو كان نبيا من أنبيائه – إن جاز عليهم الخطأ – ولكنه سبحانه ما أرسل من رسول إلا حال بينه وبين الخيانة والغدر والغلول وكل ما لا يليق بالنبوة. كما أوضحت ذلك الآية الكريمة: ﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾.

٢ – وأن الخيانة –وإن كانت أقل خيانة– محرمة فى شريعة الإسلام، فقد روى أحمد بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: تناول رسول الله ﷺ وبَرَةً من بعير بين أنملتيه فقال: «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط واكبر من ذلك واصغر، ولا تغلوا، فإن الغلول نار وعار على أصحابه فى الدنيا والآخرة».

٣ – وأن الفرق بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال واضح لكل ذى بصر، لأن الحصول على رضا الله تعالى وجنته لابد أن يسبقه إيمان وهدى، والوقوع فى سخط الله وناره لابد أن يسبقه كفر وضلال ﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾.

٤ - وأن الناس فى حقيقتهم درجات أى مختلفون في ذواتهم - كما يرى ذلك بعض الحكماء - فمنهم الذكى والبليد، وذو القلب المشرق أو المظلم، ومنهم الخير والشرير وهم درجات عند الله والله بصير بما يعملون، ويعزز هذا المعنى ما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس معادن، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا....» وما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا...».

* وأنهم درجات عند الله من حيث طاعتهم لله ومعصيتهم له، حيث يرفع الله درجات الطائعين، ويكثر من حسن جزائهم على ما قدموا من صالح الأعمال، وكذلك درجات العصاة متفاوتة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]

٥ - وان الرسول الخاتم ﷺ من أكبر نعم الله تعالى على المؤمنين وعلى الناس جميعا، وما دام الأمر كذلك فقد وجب الحرص على كل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، بل الحرص الشديد، لأن فى هذا الالتزام سعادة الدنيا والآخرة، وفى التمسك بما جاء به عصمة من الكفر والضلال والحيرة والاضطراب والضعف والفرقة والهزيمة، ومن هنا كانت المنة به على المؤمنين: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته....﴾ الآية.

- روي الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم علي أنبيائهم».

- وروى الحاكم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول ﷺ: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتى، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض».

* ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿يتلو عليهم آياته﴾ وجوب التدبر في ملكوت الله وفى خلقه، وفي كتابه وسنة نبيه ﷺ، وان هذا التدبر يوقظ الإيمان ويحسن الإسلام عند المتدبر، وينمى الطاعة ويهدى إلى محاسن الأخلاق، وإلى حسن التعامل مع الناس.

* ويتعلمون من قوله تعالى: «ويزكيهم» أن كل سنة الرسول ﷺ من قول أو عمل أو

تقرير إنما هى لتطهير الإنسانية من ادرانها وأوجاعها، ومن هنا وجب التمسك بهذه السنة المطهرة.

* ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ أن المهمة الاولى للمسلمين فى هذه الحياة الدنيا هى: التعلم والعلم والتعليم، وعلى رأس ما يجب تعلمه وعلمه وتعليمه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، إذ فيهما سعادة الدنيا والآخرة.

* ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ أن الوحى الذى أنقذ البشرية من الشرك والوثنية والظلم والعدوان، يمكن أن ينقذ البشرية على الدوام من عيوبها المعاصرة كالوثنية المقنعة والشرك المسمى علمانية حينا وتقدمية حينا، ومن الظلم والعدوان واستغلال الاقوياء للضعفاء والفقراء للأغنياء، وتنقذها من: المروق من الاديان والأخلاق ومن سيطرة الشهوات، ومن القروض الربوية!! ومن هيئة الامم المتحدة ضدّ الامم الضعيفة أو النامية، هيئة الامم الخمسة التى منحت نفسها حق الاعتراض على كل ما لا يعجبها ويحقق مصالحها!! وينقذها من النظام العالمى الجديد الذى يستهدف غزوا عسكريا مبررا لأى بلد لا يعجب الولايات المتحدة الامريكية!! وينقذها من عبث الأصابع الخفية التى تثير الحروب وتؤيد الانقلابات العسكرية وتغرق الدول الضعيفة فى الديون ذات الفائدة الربوية المتفاقمة.

* إن الوحى قادر على علاج كل ذلك فى الحاضر كما استطاع ذلك فى الماضى، وتلك وظيفة المسلمين فى كل زمان ومكان.

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة كثيرة أيضا فى هذه الآيات، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة والحركيون من الآية الأولى: ﴿ وما كان لنبى أن يغل ... ﴾ الآية ما يلى:

* أن أى خيانة فى العمل من أجل الإسلام دعوة وحركة وتنظيما وتربية، كبيرة من الكبائر لا تليق بمسلم، فضلا عن داعية أو حركى يعمل من أجل التمكين لدين الله فى الأرض.

ولنضرب بعض الأمثلة على بعض هذه الخيانة فيما يلى:

أ - من الخيانة للعمل من أجل الإسلام، أن يعمل الإنسان وهو على غير علم بما يعمل، فإذا

جهل الداعية طبيعة الدعوة إلى الله ومراحلها وأهدافها ووسائلها، أو جهل طبائع المدعوين أو واجبات الدعاة، ولم يكن على علم بكل ذلك، فقد خان العمل، وكان أحد الأسباب فى تعويقه.

ب - ومن خيانة العمل من أجل الإسلام فقدُ الإخلاص فيه، فالعمل الذى يفقد صاحبه الإخلاص فيه لا جدوى من ورائه إلا الندامة والعقاب[1].

جـ - ومن خيانة العمل من أجل الإسلام الغرورُ بتصور أن الآخرين من العاملين على خطأ، لأن هذا يؤدى إلى الخلافات بين العاملين من أجل الإسلام، وذلك يؤدى بدوره إلى الفرقة والبعد عن الوصول إلى الأهداف.

ء - ومن الخيانة سوء فهم النصوص الإسلامية أو الاعتساف فى فهمها، والخطأ فى تنزيلها على الواقع الذى يعيشه المسلمون اليوم؛ إذ أن حسن فهم النصوص الإسلامية وحسن تنزيلها على واقع المسلمين من صميم فقه الدعوة إلى الله، وما لم يكن فقها صحيحا للدعوة فكيف يمكن الوصول إلى التمكين لدين الله؟

هـ - ومن خيانة العمل من أجل الإسلام تجاهل فقه الموازنات وما يترتب عليه من فقه أولويات العمل، ونتيجة ذلك معروفة وهى البدء بما لا يستحق أن يُبدأ به وتأخير ما من شأنه الصدارة، وما يلى ذلك من اضطراب وتبديد للجهود وبعد عن الأهداف.

و - ومن خيانة العمل من أجل الإسلام التوقف عن التوسع الأفقى فى الدعوة والحركة، وعن التوسع الرأسى والنوعى فى التربية والإعداد؛ وذلك أن هناك مسلمة معروفة لدى المهمومين بالعمل من أجل الإسلام هى: ضرورة مضاعفة أعداد العاملين كل عام، وضرورة الانتقاء والارتقاء بنصف هذا العدد سنويا. وما لم يكن ذلك فإن العمل يصاب بالجمود، فى حين تصاب المنابع بالجفاف، ووسائل التربية بالعجز[2].

ز - ومن خيانة العمل: الفتور والكسل عن المضى فى طريق الدعوة ومجالات الحركة، لأن الفتور أو الكسل يعوق العمل إن لم يقض عليه قضاء تاما.

---

(1) للتوسع فى فقه الإخلاص: انظر لنا: الإخلاص في مجالات العمل الإسلامي- نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

(2) للتوسع فى معرفة ذلك: أنظر لنا: فقه الدعوة الفردية - نشر دار الوفاء ط ثالثة ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

وأسباب الفتور والكسل كثيرة أشرنا إليها مفصلة فى بعض كتبنا(١)، ونذكر هنا ببعضها، وهى:

- حب الدنيا والتعلق الزائد بها وبأعراضها..
- وخشية العنت والمشقة وإيثار الراحة..
- وخوف الظالم مما يؤدى إلى السلبية والقعود عن العمل..
- وسوء الفهم لسنة العمل فى الدعوات..
- والتشاؤم، ورفض الواقع..
- وتضخيم أخطاء العمل والعاملين..
- والاستبداد بالرأى وإهمال الشورى..

* كل ذلك يتعلمه الدعاة من قوله تعالى: ﴿ **وما كان لنبى أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾.

٢ - ويتعلم الدعاة من قوله تعالى: ﴿ **أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير، هم درجات عند الله والله بما يعملون بصير** ﴾ ما يلى:

أ - وجوب التعلق بكل قول وبكل عمل فيه مرضاة الله تعالى، وهذا القول أو ذاك العمل فى مجالى الدعوة والحركة كثير، وحسبنا فى التعرف على ذلك القول أو العمل قول الله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)** ﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٥].

ب - وجوب الاستمساك بكل عمل يدعم التفاهم والتعاون بين كل العاملين من أجل الإسلام، فليس يضر العمل الإسلامى شىء مثل التنافر والتباعد بين العاملين، إن ذلك من أعظم المكاسب التى يحققها أعداء الإسلام، بل يعملون جاهدين على إثارتها بين العاملين من أجل الإسلام.

جـ - ويتعلمون أنهم بالقيام بهذين الواجبين السالفين يصبحون درجات عند الله على قدر

---

(١) انظر لنا: فقه الأخوة فى الإسلام. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

ما يفعلون وعلى قدر ما يخلصون فى أعمالهم سواء أكانوا قيادات فى مجال العمل الإسلامى أم أفراداً، والله تبارك وتعالى بصير بما يعملون ومحاسبهم على أعمالهم.

٣ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ ما يلى:

أ - أن رسالة محمد ﷺ ومنهجه فى الحياة الدنيا الذى جاء به من عند الله تعالى هو نعمة كبرى من الله تعالى يجب أن تُقدَّر وتُلتزَم، وأن الدعاة إلى الله هم حملة هذه الرسالة، الداعون إليها، المدافعون عنها، المضحون فى سبيلها، المتواصون من أجلها بالحق والصبر على ما يصيبهم فيها بالغا ما بلغ.

ب - وأن ما تميز به الرسول ﷺ من أنه من أنفس قومه العرب، يجب أن يعنى بالنسبة إلى الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يكونوا من الشعوب التى يمارسون فيها الدعوة، وأن يحدثوهم بلغتهم وبما يعرفون، ومن خلال ما يحسون به من مشكلات، فتلك صفات أساسية فى الدعاة من فقد شيئا منها صعب عليه أن يمضى فى طريق الدعوة إلى الله، أو أن يحقق النجاح الذى يرجوه.

جـ - ويتعلمون من الآية الكريمة أن وظائفهم فى العمل من أجل الإسلام هى امتداد لوظائف الرسول ﷺ وهى فى إجمال مايلى:

- تلاوة الآيات: أى «شرح دعوة الإسلام شرحا دقيقا يوضحها ويردها إلى فطريتها وشمولها، ويعرضها عرضا يوافق روح العصر ويرد عنها الأباطيل والشبهات»[1].

- وتزكية نفوس المدعوين لأن ذلك امتداد لعمل الرسول ﷺ، وذلك إنما يكون بمايلى:

* وصل هذه الأرواح بخالقها جل وعلا بأداء النوافل والإحساس بمراقبة الله تعالى.

* والتشجيع على التقرب إلى الله بكل الوسائل التى شرعها مثل: الصدقات وفعل الخيرات عموما والتودد إلى الناس وتقديم العون لهم حسبة لوجه الله تعالى.

* والتشجيع على قيام الليل - ولو كان ذلك مرة كل أسبوع - وعلى صيام التطوع

---

(١) القانون الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين الصادر فى ١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م، وانظر لنا: منهج التربية عند الإخوان المسلمين. نشر دار الوفاء ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

- ولو كان ذلك ثلاثة أيام من كل شهر - وحسب ذلك القائم لليل والصائم شرفا وعزا أنه أقرب إلى الله.

* والتشجيع على الاقتداء برسول الله ﷺ فى كلامه وصمته وفعله وتركه وتعامله مع الأولياء والأعداء، فهو الرحمة المهداة للبشرية كلها.

ء - ويتعلمون من الآية الكريمة وجوب تعليم الناس الكتاب والحكمة أى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، تعليما نظريا وعمليا وسلوكيا، وتلك هى المهمة الكبرى فى أعمال الدعاة والحركيين، والذين يمارسون التربية الإسلامية فى الناس، ولا ينفكون عنها بحال ماداموا مؤمنين يعملون الصالحات.

ولابد من أجل اليقين بهذه الحقيقة من أن نوضح فيما يلى أن ذلك من صميم عمل الدعاة إلى الله تعالى كما يلى:

* أن هذا التعليم كان مهمة رسول الله ﷺ طوال حياته، وكان وصيته لمن جاء بعده من المسلمين.

* وأن هذا التعليم كان مهمة الصحابة رضوان الله عليهم ومهمة التابعين وتابعيهم رضى الله عنهم، وأنهم بهذا التعليم نشروا الإسلام فى بقاع العالم التى وصلوا إليها.

* وأن هذا التعليم كان مهمة الدعاة إلى الله فى مختلف عصور الإسلام، تلك العصور التى عاش الناس فيها صحوة إسلامية وإصلاحا وتجديدا لأمر الدين، لأن كل ذلك إنما قام على التعليم الذى أخلص المؤمنون فى أدائه.

* ويجب أن يَظَلَّ تعليم الإسلام للناس مهمة الدعاة والحركيين لا يتحولون عنه بحال، ولا يصرفهم عنه ظلم ظالم ولا كيد عدو ولا ما يجدون فى الطريق من عوائق وعقبات وعناء ومشقات، لأن تلك سنة الله فى الدعاة إليه.

هـ- ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من هذه الآية الكريمة أن العمل للإسلام قائم على دعائم ثلاثة بالنسبة لكل من يتصدى له، تلك الدعائم هى:

- التَّعَلُّم من القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة الرسول ﷺ مع الفقه لهذه المصادر الكريمة ومعرفة المقاصد والغايات منها.

– والعلم : أى التحصيل والاستيعاب والإحاطة بما فى هذه المصادر الكريمة من أهداف ووسائل، والتمسك بكل القيم التى فيها وإلزام النفس بها على كل حال.

– والتعليم للغير حسبة لوجه الله تعالى، مع تبسيط ما جاء فى هذه المصادر وحسن عرضه بحيث يستفيد منه كل أحد، مع الاستمرار فى هذا التعليم حتى يأتى أمر الله.

وبهذا يكون الدعاة على مستوى من يعلمون الناس الكتاب والحكمة فيهيئونهم بذلك لسعادة الدنيا والآخرة.

٢٣- الآيات من الخامسة والستين بعد المائة إلى التاسعة والسبعين بعدها في معركة أحد: ابتلاء وتمحيص، وبيان لمكانة الشهداء عند الله، وتوضيح لحرب الدعاية وتحذير من نتائجها

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)﴾ [آل عمران: ١٦٥ - ١٧٩]

تتضمن هذه الآيات عددا من الموضوعات نشير إليها فيما يلي:

* كشف الشبهات التي وقعت للغزاة حين انهزموا يوم أحد.
* والرد على المنافقين وبيان ضلالهم في أقوالهم وأفعالهم.
* وتقرير أن الموت أو القتل إنما يكون بقضاء الله وقدره.

* وتأكيد أن المقتولين في سبيل الله أحياء عند ربهم فرحين بما يقربهم من الله، ومستبشرين بكل شهيد في سبيل الله يلحق بهم.

* وثناء على المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول فخرجوا إلى حمراء الأسد عقيب هزيمة أحد وأن لهم عند الله أعظم أجر.

* وثناء على المؤمنين الذين لم يتأثروا بالشائعات، وإنما مضوا لأمرهم متوكلين على الله قد ازدادوا إيمانا.

* وطمأنة للرسول ﷺ وأصحابه ومطالبتهم ألا يحزنوا من المسارعة إلى الكفر التي يمارسها المشركون بحشد الأعداء ضدهم، أو تلك المسارعة إلى الكفر التي يمارسها اليهود والمنافقون.

* وتهديد للكفار بأن إملاء الله لهم وعدم تعجيله بأخذهم ليس لصالحهم، وإنما هو ليزدادوا إثما وعذابا.

* وبيان لسنة من سنن الله تعالى، هي: أنه سبحانه لا يدع المؤمنين مختلطين بالمنافقين دون أن يميز بينهم.

– وفي الآيات الكريمة أساليب استفهام عديدة كلها مجازي، وفيها جملة أخبار بعضها مؤكد وبعضها منفي، وعدد من أساليب الشرط، وأكثر من أمر وأكثر من نهي، مما سنوضح أهدافه ومراميه فيما يلي والله ولي التوفيق:

١ – استفهام للتقريع والتوبيخ في قوله تعالى: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا﴾؟... الآية.

– أي لا يليق بكم هذا القول وهو تعجبهم من أنهم على الحق ومعهم الرسول ﷺ ثم ينهزمون: «قلتم أنى هذا»؟ والمعنى أن المسلمين لما هزموا في أحد قالوا متعجبين، نحن ننصر الإسلام الذي هو دين الحق ومعنا رسول الله ﷺ، والكفار ينصرون الشرك بالله والكفر فكيف صاروا منصورين علينا؟

– و﴿أصبتم مثليها﴾ أي أصبتم من أعدائكم المشركين ضعف ما أصابوا منكم في أحد، حيث قتلوا منكم سبعين في أحد، وقتلتم منهم سبعين في بدر، وأسرتم سبعين آخرين – والأسير في حكم القتيل لأن آسره قد يقتله – أي لِمَ نسيتم نصر الله إياكم في بدر وذكرتم هزيمة أحد؟

* وسبب الهزيمة منكم ومن مخالفتكم للرسول ﷺ، فقد اخطاتم بخروجكم من المدينة، واخطاتم بان ترك الرماة أماكنهم، مخالفين بهذا الترك ما أمرهم به الرسول ﷺ.

* وإخبار مؤكد بان الله تعالى ﴿على كل شيء قدير﴾ اى قادر على نصركم إن ثبتم وصبرتم، وعلى التخلى عنكم إن خالفتم وعصيتم.

٢ – وإخبار من الله تعالى بان ما اصاب المؤمنين يوم احد إنما كان بإرادة الله تعالى وقضائه السابق بان تكون السنن العامة جارية فى الأسباب والمسببات: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا.... ﴾ الآية.

والمعنى: أن كل مخطئ أو مخالف لرسول الله ﷺ قد يصيبه من الهزيمة ما اصابكم أو أشد منه، تلك سنة من سنن الله تعالى.

– وتلك الهزائم أو المحن إنما هى من أجل ان يعلم الله تعالى حال المؤمنين وحال المنافقين، حتى يكون حسابهم بعد ان يعلموا هم مواقفهم وما يستحقون عند الله تعالى.

– ومن مقولات المنافقين التى قررها القرآن الكريم عندما طلب منهم القتال دفاعا عن الحق والدين وأهله، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلو لقاتلنا معكم، ولكنا نرى أن الأمر ينتهى بغير قتال.

ولو قيل لهم قاتلوا دفاعا عن أنفسكم وأهليكم راوغوا وقالوا: لو نعلم قتالا لاتبعناكم.

– وتقرير انهم بهذه المقولات اقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان، وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم نفاقا وجبنا، وأن الله تعالى يعلم ما يكتمون من الكفر والكيد للمسلمين.

٣– ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا، لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾.

– وتلك من مقولات المنافقين ايضا: اى قالوا عن الشهداء فى أحد، وهم إخوة فى النسب للمنافقين: لو أطاعونا وقعدوا عن الخروج للحرب ما قتلوا.

– ولو صدق المنافقون فى مقولتهم، فليدفعوا هم عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين فى دعاواهم، وما هم بقادرين على ذلك، فهم إذن كاذبون فى مقولاتهم، إذ الموت والحياة لا ارتباط لهما بالخروج للحرب أو القعود عنها.

٤ - وفى الآيات تقرير أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، ﴿ **فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾.

- الشهداء فى سبيل الله متميزون عن غيرهم من القتلى أو الموتى، فهم أحياء عند ربهم وهم يفرحون ويسرون مما يدل على أن حياتهم حياة حقيقية، كما تؤيد ذلك بعض الأحاديث النبوية الشريفة، التى نذكر منها ما يلى:

* روى أحمد وأبو داود بسنديهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وتقبلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء فى الجنة نرزق، لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم: فأنزل الله: ﴿ **لا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا . . .** ﴾ الآية. إلى آخر الآيات.

* وروى ابن ماجة، والترمذى وحسّنه، والحاكم وصححه وغيرهما بأسانيدهم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: لقينى رسول الله ﷺ فقال: يا جابر، ما لى أراك منكسا مهتما؟ قلت يارسول الله: استشهد أبى وترك عيالا وعليه دين، فقال: «ألا أبشرك بما لقى الله به أباك؟ ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كفاحا، فقال: يا عبدى تَمَنَّ علىّ أعطك، قال: رب: تحيينى فأقتل فيك ثانية، فقال الرب تبارك وتعالى: إنه سبق منى أنهم إليها لا يرجعون، قال يارب فأبلغ من ورائى» فأنزل الله عز وجل: ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا . . .** ﴾ الآيات.

- ومن أوصاف الشهداء كما أوضحته الآيات ما يلى:

* أنهم أحياء عند ربهم يرزقون..

* وأنهم فرحون بما آتاهم الله من فضله وعطاياه.

* وأنهم مسرورون بالذين لا يزالون فى الدنيا من إخوانهم، لأنهم سوف يلحقون بهم، فهم بهذه الشهادة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون..

* وأنهم يستبشرون بنعمة من الله، وهى أنهم أحياء يرزقون، ويستبشرون بفضل هو الفرح والسرور بتكريم الله تعالى إياهم.

– وهذه الآية الكريمة تدل على فضل الشهيد وعظيم ثوابه، حتى إنه تُغفر له كل ذنوبه إلا الدَّين، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن ابن عمرو رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «القتل فى سبيل الله يكفر كل خطيئة إلا الدَّين»: وفى رواية لهذا الحديث عن زيد رضى الله عنه جاء فيه: «كذلك قال لى جبريل عليه السلام آنفا».

* وروى أحمد والترمذى وابن ماجة بأسانيدهم عن المقدام بن معد يكرب – أبو كريمة – قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله سبع خصال: يغفر له فى أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلَّى حُلَّة الإيمان، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويشفَّع فى سبعين إنسانا من أهل بيته.

٥ – وفى الآيات الكريمة حديث عن المؤمنين الذين استجابوا لطلب الرسول ﷺ منهم أن يخرجوا إلى حمراء الأسد – وهى على بُعد ثمانية أميال من المدينة – على الرغم مما أصابهم من جراحات فى أحد «الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم».

– ولتوضيح ذلك نقول مجملين ما سبق أن فصلناه فى بداية الآيات التى تحدثت عن غزو أحد: ﴿وإذ غدَوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال.... ﴾ الآيات؛ بعد هزيمة أحد وانصراف المشركين خاف النبى ﷺ أن يرجع المشركون فقال: «من ينتدب لهؤلاء حتى يعلموا أن بنا قوة» قال: فانتدب أبو بكر والزبير فى سبعين، فخرجوا فى آثار القوم، فسمعوا بهم، فانصرفوا، وكان ذلك من نعمة الله على المسلمين.

– وفى البخارى قال رسول الله ﷺ: «مَن يذهب فى إثرهم»، فانتدب منهم سبعون رجلا، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير حتى بلغ حمراء الأسد مرهبا للعدو، فربما كان فيهم المثقل بالجراح لا يستطيع المشى ولا يجد مركوبا، فربما يحمل على الأعناق، وكل ذلك امتثالا لأمر رسول الله ﷺ ورغبة فى الجهاد.

– والذين أحسنوا منهم هم الذين عملوا على أحسن وجه ممكن، والذين اتقوا هم الذين اتقوا الإساءة والتقصير فى العمل، وهؤلاء من الذين استجابوا أى خرجوا بالفعل إلى حمراء الأسد، لأن عددا منهم لم يخرجوا، وما أخطأوا، لأن هذا الخروج لم يكن أمراً من النبى ﷺ – كما كان مع الرماة – ولكنه كان نَدبًا.

٦ – ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل... ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾.

– روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة وعكرمة أن الآية نزلت فى غزوة أحد، وذلك أن أبا سفيان قال حين أراد أن ينصرف من أحد: يامحمد موعد ما بيننا وبينك موسم بدر القابل إن شئت، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك بيننا وبينك إن شاء الله»، فلما كان العام القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية «مر الظهران» وقيل بلغ «عسفان» فألقى الله تعالى الرعب فى قلبه، فبدا له الرجوع، فلقى نعيم بن مسعود الأشجعى – وكان لا يزال على الشرك – وقد قدم نُعيم مكة معتمرا، فقال أبو سفيان: إنى واعدت محمدا وأصحابه بموسم بدر، وإن هذا عام جدب، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن وقد بدا لى أن أرجع، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا، فيزيدهم ذلك جراءة، فالحق بالمدينة فثبطهم ولك عندى عشرة من الإبل أضعها فى يدى سهيل بن عمرو.

فأتى نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبى سفيان فقال لهم: ما هذا بالرأى، أتوكم فى دياركم وقراركم فلم يفلت منكم إلا شريد، فتريدون أن تخرجوا إليهم، وقد جمعوا لكم عند الموسم؟ فوالله لا يفلت منكم أحد، فوقع هذا الكلام فى قلوب قوم منهم، فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لأخرجن إليهم ولو وحدى فخرج ومعه سبعون راكبا يقولون: «حسبنا الله ونعم الوكيل» حتى وافى بدرا فأقام بها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان، فلم يلقوا أحدا، لأن أباسفيان رجع بجيشه إلى مكة، فسماه أهل مكة جيش السويق، وقالوا لهم: إنما خرجتم لتشربوا السويق.

وقال بعضهم: وافى المسلمون سوق بدر وكانت معهم نفقات وتجارات فباعوا واشتروا أدَما وزبيبا وربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين.

وقال الإمام الشافعى: إن الذين أرادوا تخذيل المسلمين هم ركب من عبد القيس مروا بأبى سفيان فَدَسَّهم إلى المسلمين ليجبنوهم وضمن لهم على ذلك جُعلا.

– وكان من نتيجة ذلك أن حقق المسلمون المكاسب التالية:

*زادهم ذلك الموقف إيمانا وإقبالا على مواجهة الأعداء سواء فى حمراء الأسد أو فى بدر الصغرى.

* واتخذوا الله تعالى وكيلا وحسيبا، واصروا على التوجه إلى العدو، فقد روى البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم... إلى قوله: وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ قالها إبراهيم الخليل عليه السلام حين ألقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم».

– وأن المسلمين لما فوضوا أمرهم لله تعالى واعتمدوا عليه أعطاهم الله أربعة أنواع من الجزاء هى:

* النعمة : وهى السلامة والعافية.

* والفضل: وهو الربح الذى حصلوا عليه من التجارة، أو هو فضل معنوى وهو ثواب الآخرة.

* ولم يمسسهم سوء: أى لم يصبهم قتل ولا جراح.

* واتبعوا رضوان الله: وهو أعظم ما يرضيه وتُستحق به كرامته.

– والذين حملوا إلى المسلمين الأنباء التى تثبطهم عن مواجهة الكفار هم شياطين، لعتوهم وتأييدهم لأهل الباطل، وتخذيلهم لأهل الحق، والشيطان إنما يخوف من والاه، وهؤلاء هم المنافقون، أما المؤمنون فلا ينبغى أن يخافوا إلا الله تعالى.

٧ – ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا، يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم، إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم، ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين، ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾ ومن هذه الآيات الكريمة نعلم ما يلى:

– لما هزم المسلمون فى أحد أظهر بعض المنافقين كفرهم قالوا: لو كان محمد صادقا ما هزم، وسارع هؤلاء فى إظهار كفرهم الذى كانوا يسرّونه وسارعوا إلى تثبيط المؤمنين عن نصر الإيمان، لظنهم أن المسلمين قد قضى عليهم بهذه الهزيمة، وهذا قد أحزن النبى ﷺ فنهته الآية عن الحزن.

* وقيل: المسارعون فى الكفر هم كفار قريش.

وقيل : هم جماعة قد ارتدت من المسلمين.

وقيل: هم اليهود.

* والأولى أن يكون المعنى فى الآية الكريمة شاملا كل مسارع فى الكفر فى أى زمان ومكان، لأن هذا هو ما ينبغى أن يحزن المؤمنين.

– وهؤلاء الذين يسارعون فى الكفر لن يضروا الله ولن ينقصوا من سلطانه وملكه شيئا، ولن يستطيعوا ضرر الدين ولا ضرر النبى ﷺ، فما ينبغى الحزن على ذلك، فإن لهؤلاء المسارعين فى الكفر حرماناً من أى نصيب فى الآخرة، ولهم فى الدنيا عذاب عظيم، حين ينصر الله تعالى دينه ودعاته فيعذبهم بذلك النصر عذابا عظيما أى كبيرا ضخما.

– والذين يشترون الكفر بالإيمان ويؤثرون الباطل على الحق لن يضروا الله تعالى شيئا، مثلهم فى ذلك مثل الذين يسارعون فى الكفر، ولهؤلاء الذين اشتروا الكفر بالإيمان عذاب أليم أى مؤلم موجع.

– وقد يتصور بعض الغافلين أو الشامتين الحاقدين أن ما حدث فى معركة أحد كان خيرا للكفار وشرا على المؤمنين، وهذا وهم وخطأ، لأن الحق أن ما حدث كان تمحيصا للمؤمنين – كما بينا آنفا – وكان إملاء للكافرين ليزدادوا به معصية وإثما ويستحقون عليه العذاب المهين: أى المخزى المذل لصاحبه: **﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين﴾**.

– وليس من سنن الله تبارك وتعالى أن يترك المؤمنين على مثل هذه الحال من الهزيمة حتى يميز الخبيث من الطيب، وذلك أن الهزيمة من الشدائد التى مرت بالمسلمين، وإنما يتميز المؤمنون من المنافقين والمتخاذلين بهذه المواقف، أما غير الهزيمة من المواقف التى فيها رخاء ويسر أو تكليفات كالصلاة والصيام والصدقة فذلك مما يقبله المنافقون ولا يمكن تمييزهم عن غيرهم به.

– وليس من سنن الله تبارك وتعالى أن يطلع الناس على الغيب، لأن فى إخفاء الغيب على الإنسان مصلحة له حيث يندفع إلى العمل والاجتهاد، والأمل فى ثواب الله ورضاه.

غير أن الله تعالى يختار من رسله من يشاء فيطلعهم على ما شاء من الغيب، وهو ما

يكون فى تبليغه للناس مصلحة لهم ومنفعة فى الإيمان بالغيب، كصفات الله تعالى والملائكة واليوم الآخر وما فيه: ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء... ﴾..

* وفى الآية الكريمة مطالبة للمؤمنين بالإيمان بالله ورسله، وبما أخبر به الرسل عليهم السلام من وحى لله تعالى ينظم لهم حياتهم أو يحدثهم عن أمور الغيب.

ومطالبتهم بأن يقرنوا هذا الإيمان بالتقوى أى ترك ما نهى الله عنه وفعل ما أمر به، وعند ذلك يستحقون الأجر العظيم الذى لا يقدر قدره: ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾.

- المواقف التربية العامة فى الآيات، وهى كثيرة نذكر منها ما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من الآية الأولى: ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة... ﴾ أمورا كثيرة من أهمها ما يلى:

أ - أن المؤمن ما ينبغى له أن يتعجب أو يندهش عندما تصيبه فى سبيل الله مصيبة، فهذا غير مستبعد، بل هو أحيانا كثيرة يتسبب فى صقل الإيمان.

ب - وأن على المؤمنين إذا أصابتهم مصيبة أن يتذكروا نعم الله عليهم وهى كثيرة أهمها أن هداهم للإيمان فضلا عما أنعم عليهم من نعم الحياة الدنيا وهى كثيرة أيضا، إنهم عندما يتذكرون ذلك يحمدون الله ويشكرونه وهذا أليق بالمؤمنين، وأقرب إلى رضا الله تبارك وتعالى.

جـ - وأن على المؤمنين أن يدركوا أن كل مصيبة تقع بهم فإنما يكونون هم السبب فى وقوعها بخطئهم أو عصيانهم لأن المصيبة أمر سيئ، والمقرر فى القرآن الكريم أن ما يصيب الإنسان من خير وعافية ونعمة فمن الله، وما يصيبه من شر أو شدة أو مشقة أو مكروه فمن نفسه بتقصيره ومعصيته ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً (٧٩) ﴾ [النساء: ٧٩].

ء - وعلى المؤمنين أن يوقنوا بأن الله تبارك وتعالى على كل شيء قدير وقد يمتحن المؤمن ويبتليه بالشر والخير.

٢ - ويتعلم المسلمون من الآيات الثلاث التالية: ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله

وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا... ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ ما يلي:

أ - أن ما يصيب المؤمنين من مصيبة أو هزيمة فبإذن الله تعالى وإرادته، فالسنن العامة لا تتخلف، فمن أخطأ أو عصى الله تعالى خُلّى بينه وبين عدوه فهزم، ومن أطاع الله ونصره نصره الله على عدوه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47) ﴾ [الروم: ٤٧]

ب - وأن هذه المصائب وتلك الهزائم التى تقع بالمسلمين إنما تقع ليميز الله المؤمنين من المنافقين، فيجازى كلا بما عمل بعد أن يرى كل عامل من الناس ما عمل.

جـ - وأن المثبطين القائلين لإخوانهم لو قعدتم فلم تخرجوا للقتال ما أصابكم ما أصابكم واهمون فى تثبيطهم، ولو كانوا جادين أو صادقين لدفعوا الموت عن أنفسهم هم، وليس أحد بقادر على ذلك أبدا، فبطلت مقولتهم.

ء - وأن الذين يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم منافقون لا يخفى أمرهم على الله تعالى، وأنه سبحانه وتعالى مجازيهم على هذا النفاق بما يستحقون.

٣ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون... ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ يتعلمون من هذه الآيات ما يلى:

أ - أن الذى يقتل فى سبيل الله «الشهيد» هو فى أعلى مكانة عند الله تعالى، كما ورد فى الحديثين الشريفين اللذين ذكرناهما آنفا، وحسب الشهداء كرامة وتكريما أن الله تبارك وتعالى يكلمهم كفاحا - أى من غير حجاب بينه وبينهم - وأنهم أحياء يرزقون فى الجنة، وأن هؤلاء الشهداء فى سبيل الله يفرحون بما أعطاهم الله من الفضل والنعمة، وأنهم مسرورون بإخوانهم الذين لم ينالوا القتل فى سبيل الله بأنهم سوف ينالونه ليحظوا بما حظوا هم به.

ب - وأن الشهداء عموما ينتفى عنهم الخوف والحزن، أى لا خوف عليهم فى الدنيا من أن يستأصلهم الأعداء أو يظفروا بهم، ولا هم يحزنون فى المستقبل البعيد عندما يقدمون على ربهم فى الآخرة، أو لا يخافون مما هو آت، ولا يحزنون على ما فات.

جـ - وأن المؤمنين الذين يتقربون إلى الله بما فرض عليهم، وبصالح الأعمال - وعلى رأسها الشهادة فى سبيل الله - لا يضيع لهم عند الله تعالى أجر، بل يجزيهم أحسن الجزاء.

ء - ويتعلمون من الآيات ان دليل الإيمان وبرهانه هو الاستجابة لله والرسول بمعنى الطاعة مهما تكن الظروف، مادامت هذه الطاعة فى وسع الإنسان ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم** ﴾ وذلك كما استجاب المؤمنون للرسول ﷺ فخرجوا معه إلى حمراء الأسد على الرغم مما كان بكثير منهم من جروح.

هـ - وأن المؤمنين المحسنين الذين يؤدون العمل على الوجه الحسن، والمتقين الذين يتوقون الإساءة فى اى عمل، أولئك لهم عند الله تعالى أجر عظيم اى كبير كثير، وقد أحسن الشهداء واتقوا فنالوا هذا الأجر العظيم.

٤ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله . . .** ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ يتعلمون من هذه الآيات الكريمة ما يلى:

أ - ان المؤمنين لا ينبغى لهم ان يخافوا أو يثبطهم احد عن المضى فى العمل الصالح المترجم عن الإيمان الصحيح، مهما خوفهم الجبناء أو المتخاذلون المثبطون، بإطلاق الإشاعات وإثارة الشبهات وشَنّ حملات الإعلام المضللة.

ب - وأن علاج الخوف، وحفز النفوس على العمل إنما يكون بالأخذ بالأسباب مع قولهم: ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ لفظا وعملا وسلوكا، فهى مقولة إبراهيم عليه السلام يوم ألقى فى النار فكانت عليه بردا وسلاما بأمر الله، وهى مقولة محمد ﷺ وأصحابه يوم قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فأفادوا من ذلك أن انقلبوا بنعمة من الله وفضل. . .

جـ - وأن نتيجة الأخذ بالأسباب، مع التوكل على الله سبحانه والاستجابة لأمره ونهيه، كانت أحسن نتيجة فى غزوة أحد فكان لهم من المكاسب ما يلى:

* انقلبوا بنعمة من الله وهى السلامة من العدو.
* وبفضل منه وهو ما ربحوه من تجارة.

* ولم يصبهم قتل أو جراح.

* ونالوا رضا الله تعالى وهو أعظم مكسب.

ء - ويتعلم المسلمون أن لا يخافوا أحداً إلا الله مهما خُوِّفوا ومهما ثبطوا، وذلك أن الشياطين من الإنس والجن يخوفون أولياءهم، أما أولياء الله المؤمنون فهم أكبر من أن يخوفوا أو يثبطوا: ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾.

٥ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم** ﴾ يتعلمون ما يلى:

أ - ما ينبغى للرسول ﷺ ولا للمؤمنين أن يحزنوا من أجل إعراض الناس عن دين الله أو تحديهم لدعاة الحق وأنصاره والمتواصين به، وذلك أن هؤلاء المسارعين فى الكفر لن يستطيعوا أن يضروا الله شيئا، بل لا يستطيعون أن يضروا الحق فى شىء!!!

تلك حقيقة مؤكدة لا يمارى فيها إلا جاهل أو منافق.

لكن قد يقال: فما لهؤلاء المسارعين فى الكفر يحققون بعض الانتصارات على المؤمنين؟ وما لهم على الدوام يستطيعون تحدى الحق ودعاته؟

والجواب أن هذا لو حدث فهو غير مستمر ولا يحمل شرا ولا ضرراً للمسلمين بقدر ما يمحصهم ويجلوهم. وهو يحقق نصرا مؤقتا للأعداء ليملى الله لهم ثم يأخذهم بعد أن يكون المسلمون قد تأهلوا للنصر.

ب - وأن المسارعين فى الكفر لا يحاربون المؤمنين وحدهم ولكنهم يحاربون الله تبارك وتعالى ويحاربون دينه، ويحاربون الحق، ولذلك فإن أكبر الهزائم لهم من قبل الله تعالى هى ألا يجعل لهم حظا من ثواب فى الآخرة، ويهيئ لهم فى الدنيا ما يؤدى إلى عذاب عظيم فى الآخرة.

٦ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم، ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين** ﴾ يتعلمون ما يلى:

أ - ان الذين يختارون الكفر على الإيمان ويرضون به، ويرونه أنفع لهم من الإيمان، هؤلاء أيضا كالذين سارعوا فى الكفر لن يضروا الله شيئا، ولن يضروا الإيمان ولا الحق فى شىء، ولهم عذاب أليم.

ب - وليس بجائز ولا هو بصحيح أن يظن الكفار عموما المسارعون فى الكفر أو الذين اشتروا الكفر بالإيمان، أن يظنوا أن سكوت الله تعالى عليهم وعدم قصمهم فى الدنيا من باب الخير لهم، إنما هو إملاء ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين.

وتلك سنة الله فى كفار أى زمان ومكان.

جـ - ويتعلمون أن الرضا بالكفر خسارة فى الدنيا والآخرة، وأن انخداع الكفار بصبر الله عليهم غفلة وضلال.

٧ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ وما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء، فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾ يتعلمون ما يلى:

أ - ان من رحمة الله بالمؤمنين فى أحد أن وقعوا فى هذه الشدة وهى الهزيمة والقتل وتراجع من تراجعوا إلى المدينة - وهم المنافقون - ليتميز المؤمنون عن المنافقين وتنكشف حقيقة المنافقين الذين ثبطوا وخذلوا وغالطوا وضللوا بقولهم: ﴿ لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ هذا الكشف للمنافقين من رحمة الله بالمؤمنين، ﴿ وما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ﴾ أى على تلك الحالة حتى يكشف لهم عن المنافقين بهذه الأحداث التى كانت فى معركة أحد.

ب - وأن من سنة الله تعالى أن يبتلى بالشدة والبأساء كما قد يبتلى باليسر والرخاء، وهدف الابتلاء فى الحالين هو كشف المنافقين أمام المؤمنين ليكونوا منهم على حذر، وقد كان الابتلاء فى أحد بالشدة والبأساء والمحنة والبلاء، ولكن كان من وراء ذلك النفع العظيم وتنقية صفوف المؤمنين.

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من الآية الأولى من هذه الآيات الكريمة ما يلى:

أ - أن العاملين من أجل الإسلام معرضون دائما للبلاء والمحن وإلى مصائب مادية وهزائم، وتلك سنة الله فى الدعاة إلى الحق فى كل زمان ومكان، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ومن هنا فليس لأحد العاملين من أجل الإسلام أن يستغرب ما يقع عليه من محن وشدائد، وليس له أن يتساءل قائلا: كيف حدث هذا؟ لأن منطق القرآن الكريم أن: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)﴾ [الشورى: ٣٦].

ب - وأن على الدعاة الذين يتساءلون: كيف حدث هذا؟ أن يذكروا ما أنعم الله به عليهم من نعم مادية ومعنوية لا تحصى، وعلى قمة هذه النعم أن أورثهم الكتاب، وجعل عملهم ودعوتهم إلى الله امتدادا لعمل الرسول ﷺ، وفى هذا من التكريم الذى انبنى على الاصطفاء ما فيه، وعند تذكر هذا يحدث الرضا ويعظم الأجر ويزكو الإيمان.

جـ - وعليهم أن يتهموا أنفسهم فى أسباب كل مصيبة تقع بهم، وأن يذكروا دائما قوله تعالى: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ والكيِّس من دان نفسه.

ء - وأن الله تعالى على كل شيء قدير لا يعجزه شيء ولا أحد، وأن الله تعالى ينصر من ينصره، فإن انهزم المسلمون فذلك من عند أنفسهم، وبسبب مخالفتهم ومعصيتهم ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ...﴾ [النساء: ٧٩]

٢ - ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من هزيمة المسلمين في معركة أحد درسا عظيما فى كشف نوايا المنافقين، فيعرف أمامهم المؤمن من المنافق والطيب من الخبيث، فالقاعدون عن العمل من أجل الإسلام أو المثبطون إنما يظهر منهم ذلك للدعاة والحركيين عند وقوع المحنة والتعرض للبلاء، عندئذ يمتاز الخبيث من الطيب، والقاعد من المجاهد، والخائف المرتعد من الثابت الجلد.

وفى هذا دروس فى أدب الابتلاء نذكر منها ما يلى:

أ - الصبر على المكاره، والثبات على المبدأ، وتحمل ما قد يتعرض له العاملون من أجل الإسلام من عنت ومشقة، بحيث لا يصرفهم ذلك عن المضى في طريق الحق - كما كان موقف الصحابة الذين خرجوا إلى حمراء الأسد على الرغم مما فيهم من جراح، والذين ذهبوا إلى بدر الصغرى كذلك - فهذا درس عميق فى الابتلاء والصبر عليه.

ب – وأن الهزيمة للعاملين من أجل الإسلام تتيح لضعاف النفوس من العاملين أن يتشككوا فى القيادة قائلين: مادمنا على الحق فلماذا هزمنا؟

وهذا التشكك فى القيادة أو العمل نفسه غفلة عن الحق، وضعف فى الإيمان، وكل ذلك يجب أن يحذره العاملون من أجل هذا الدين.

جـ – وأن الهزيمة للعاملين من أجل الإسلام قد تولد فى نفوس بعضهم شعورا بالفشل، وتصورا لسوء السياسة!!!

وهذا وهم فإن حسن السياسة وحسن الإعداد ليس بالضرورة أن يكون معهما نصر.

وإنما الموقف الصائب هو تصور أن أسباب الهزيمة قد تكون بسبب ارتكاب المعاصى، وقد تكون لإنضاج الصف وتنقيته وتسديده على الطريق.

د – وأن عصيان القائد من شأنه أن يخلى بين المسلمين وبين عدوهم دون عون من الله ومدد، وتلك سنة الله فى المجاهدين فى سبيله، فهو سبحانه قد يقضى بالهزيمة ليتعلم المسلمون الطاعة – كما حدث من بعض الرماة فى أحد.

٣ – ويتعلم الدعاة والحركيون من الآيات الكريمة التى تتحدث عن الشهداء أمورا كثيرة على جانب كبير من الأهمية، نشير منها إلى ما يلى:

أ – للشهداء فى سبيل الله أعلى مكانة وأسمى منزلة عند الله، إذ هم أحياء عنده يرزقون كما يرزق الأحياء فى الدنيا، ومعنى ذلك أن الموت فى سبيل الله حياة وشرف ومكانة لاينالها إلا من اجتهد وشمر وجاهد لينال الشهادة.

ب – وأن ما يلقاه الشهداء عند ربهم من تكريم يجعلهم فى فرح وسرور بما هم فيه، مستبشرين بإخوان لهم لم يلحقوا بهم بعد ولكنهم يحاولون لينالوا من الكرامة والتكريم عند الله ما ناله من سبقوهم.

جـ – وأن الشهداء الراغبين فى الشهادة فى سبيل الله لايخافون من شىء أو أحد، ولايتصورون أن أحدا يستطيع أن يوقع بهم شرا أو ضررا فى حاضرهم أو مستقبلهم، وبالتالى فهم لايحزنون على شىء وقع بهم، وذلك غاية ما يرجوه الإنسان من صحة نفسية وشعور بالأمن والرضى «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ..» الآيات إلى قوله تعالى: «وأن الله لايضيع أجر المؤمنين».

٤ – ويتعلمون من قول الله تعالى: «الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا..» الآيات إلى قوله تعالى: «إن كنتم مؤمنين» يتعلم الدعاة والعاملون من أجل الإسلام من هذه الآيات ما يلى:

أ – أن العمل من أجل الإسلام، ومن أجل تمكينه فى الأرض ما ينبغى أن يفتر عنه العاملون مهما ووجهوا به من تحد وإعنات، ومهما أصابهم فى سبيله من آلام وجراح، وإنما شأنهم دائما أن يستجيبوا لما يطالبهم به العمل من أجل تمكين دين الله فى الأرض.

ب – وأن العمل من أجل الإسلام والاستجابة له يحتاج مع هذه الإجابة إلى إحسان العمل وإتقانه بحيث يؤدّى على أحسن الوجوه وأكملها، كما يحتاج إلى التقوى بمعنى اتقاء الله سبحانه فى العمل بما أمر به واجتناب ما نهى عنه، واتقاء الإساءة فى العمل من أجل الإسلام أو التقصير فيه، فضلا عن القعود عنه.

جـ – ويتعلمون من الآيات ألا يأبهوا لما يثيره أعداء الإسلام من شائعات وما يعمدون إليه من تخويف وتهديد وكيد، وما يروجونه من زعم بأن الناس قد جمعوا للمسلمين الأعداء والأسباب ليقضوا عليهم.

إن الدعاة والعاملين من أجل الإسلام ما يجوز أن يأبهوا لكل ذلك وإنما يمضون فى طريقهم وقد ازدادوا إيمانا بدينهم ومنهجه لاينفكون –متخذين الأسباب– متوكلين على الله قولا بنطقهم: «حسبنا الله ونعم الوكيل» ومتوكلين على الله عملا باتخاذ الأسباب واتخاذ الله وكيلا وكافلا ونصيرا ومعينا، وذلك بطاعة الله سبحانه، وبالتقرب إليه بالنوافل وبصالح الأعمال.

د – وعلى الدعاة إلى الله أن يطمئنوا العاملين من أجل الإسلام إلى أن توكلهم على الله توكلا صحيحا سليما – كما أوضحنا – يحقق لهم نتائج عديدة أوضحتها الآيات الكريمة وهى:

– السلامة من كيد الأعداء وتلك هى: «فانقلبوا بنعمة من الله».

– والربح الدنيوى مع الربح الأخروى: «وفضل»..

– والسلامة من أى سوء أو أذى: «لم يمسسهم سوء».

– والحصول على رضا الله تعالى عنهم وهو أعظم ما يحظى به المسلم فى الدنيا والآخرة:

«واتبعوا رضوان الله».

– وأن هذا التخويف وأولئك الذين يخوفون هم من شياطين الإنس أو الجن، ليس لهم سلطان على عباد الله المؤمنين، وإنما سلطانهم على أوليائهم من الكفار والعصاة والمنافقين، وأنه من علامات إيمان المؤمن ألا يخاف مما توحى به الشياطين.

* وأن الدعاة إلى الله عليهم أن يثبتوا هذه المعانى فى نفوسهم أولا، ثم فى نفوس الناس بعد ذلك، حتى يمضى ركب الدعوة فى طريقه بين تلك المعالم البارزة بحيث لايضل ولايُضل، ولايني ولا يتخاذل، وإنما يحتسب أجره وثوابه عند الله تعالى على كل ما يقدم من عمل وتضحية.

* وأن يؤكدوا فى كل حين أن أولياء الشياطين هم المترددون الخائفون القاعدون عن العمل لاتفه الأسباب وأضعف الشائعات، وأن أولياء الله هم أصحاب الإرادة القوية والعزيمة الماضية الذين يدركون أن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

* إن الدعاة وهم يؤكدون هذه المعانى إنما يمهدون طريق الدعوة إلى الله ويضمنون للساعين فى هذه الطريق درجة عالية من النقاء والصفاء، والصبر والاحتساب عند الله، وبغير هذه المعانى لا يستطيع موكب الدعوة أن يشق طريقه، ولا أن يتزود الساعون فيه بخير الزاد وخير العتاد.

٥ – ويتعلمون من قوله تعالى: «ولايحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا، يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم» ما يلى:

أ – أن كل مجتمع قد يوجد فيه من يسارعون إلى الكفر، بإعراضهم عن الإيمان، أوطعنهم فى القرآن، أو اعتراضهم على منهج الإسلام، أو زعمهم أن الإسلام ومنهجه غيبيات وظلاميات ورجعية وجمود وتطرف ... وأن هؤلاء مهما أوتوا من السلطان، ومهما ملكوا من وسائل الضغط على العاملين من أجل الإسلام، فإنهم يتحدون الله سبحانه وتعالى، ويرفضون منهجه الذى أكمله وأتمه ورضيه دينا للناس جميعا.

ب – وأن أعداء الله لن يضروا الله شيئا، ولن ينالوا من دينه ومنهجه شيئا، وأنهم بذلك إنما يضرون أنفسهم أولا وأخيرا، وهيهات أن ينالوا من الحق، فضلا عما يخسرونه فى الحياة الآخرة وهو عظيم، حيث لايكون لهم أدنى حظ مما فى الآخرة

من نعيم، وكيف يكون لهم شيء من حظ وقد فسدت فطرتهم وأسِنَت قلوبهم وانحرفت عقولهم، فأصبحوا بذلك أعداء لله وللحق ولأنفسهم في الدنيا والآخرة؟

جـ- ومثل هؤلاء الذين يتحدون الله ورسوله ويشوهون منهجه ونظامه ويرفضون شريعته وأحكامه وآدابه، هؤلاء ما ينبغي أن يحزن المؤمنون عليهم أو من أجلهم أسفا على سوء أعمالهم أو سوء مصيرهم، لأن الرسول ﷺ لم يحزن على أمثالهم يوم أحد، ولنا فيه أسوة حسنة.

٦ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم﴾ يتعلمون منها ما يلي:

أ - أنّ في كل مجتمع من الناس من بلغت بهم الغفلة حدّ أن يشتروا الكفر بالإيمان، وأن يؤثروا الباطل على الحق، والهدى على الضلال، ولايكون لهم عمل، أو لديهم هدف مثل تحدى الحق وإيذاء أنصاره ومؤيديه.

ب - وأن هؤلاء الذين اشتروا الكفر بالإيمان يتحدون الله تعالى كأولئك الذين سارعوا إلى الكفر، وأنهم جميعا لن يضروا الله شيئا، ولن يضروا الحق في شيء، وأنهم بكفرهم وجهلهم وفساد قلوبهم وعقولهم لا قيمة لهم على وجه الحقيقة، ولا قيمة لأعمالهم حتى يخاف المؤمنون منهم أو يحزنون عليهم.

جـ- إن على الدعاة أن يؤكدوا هذه المعاني في نفوس المدعوين حتى تستقيم نظرتهم إلى الحق الذي ينخرطون في سلكه ويسعون مع ركبه، ولكي يتضح لهم أن الطريق إلى التمكين لدين الله في الأرض طويل وشاق ومراحله عديدة بعضها يواكب بعضا أو يواليه، وأن كل مرحلة من هذه المراحل لها متاعبها وأعداؤها الألداء، حتى يكونوا على بينة من أمرهم واثقين من خطواتهم مطمئنين إلى سنة الله تعالى في الدعوات، أهلا لأن ينالوا على ذلك عظيم أجر الله وثوابه.

٧ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ولايحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين﴾ يتعلمون من هذه الآية الكريمة ما يلي:

أ - على الدعاة والحركيين أن يؤكدوا لأنفسهم وللعاملين في مجال التمكين لدين الله

الا ينخدعوا بما يرون عليه الكفار أحيانا من حول وطول ونعمة وقدرة على إلحاق الأذى بالمسلمين، فإن ذلك لا علاقة له بما لهم عند الله من أنواع العذاب فى الآخرة، فذلك وهم وخداع، إذ الحقيقة أن الله تعالى - كما يفهم من هذه الآية - يعطيهم من هذه الأسباب ليملى لهم فيزدادوا بهذا الإملاء إثما، ويمد لهم فى الحبل ليزدادوا وقوعا فى عقده وثنياته.

ب - وأن سنة الله فى خلقه أن يكون ما يصيب الإنسان من خير أو شر هو ثمرة عمله، ومن مقتضى هذه السنة العادلة أن يكون الإملاء للكافر علة لغروره وسببا لاسترساله في فجوره، فيوقعه ذلك فى الإثم الذى يترتب عليه العذاب المهين.

جـ - وعلى الدعاة أن ينتبهوا إلى أن هذه الآية الكريمة عظة للمؤمنين وتهديد للكافرين، فعظة المؤمنين أنهم عندما يرون ظاهرة تطاول الكفار على المؤمنين لاينخدعون فى ذلك ولا يصيبهم من جرائه يأس أو قنوط، إيمانا منهم بسنة الله المطردة فى الحق وأهله.

وأن الكافرين عندما يرون سطوتهم على الحق وأهله يعلمون أنها سطوة سوف تعقبها نكسة، وأن ما بأيديهم من الأسباب هو من قبيل الإملاء، وأن مصيرهم إلى العذاب المهين عند الله تعالى.

* وفى هذه الواجبات التى يقوم بها الدعاة إلى الله، ما يزيد المؤمنين إيمانا وفهما وحسن إدراك، وابتعاداً عن الخداع والاغترار، وفيه ما يزيد الكافرين خوفا وهلعا، ومعرفة لما ينتظرهم من عذاب مهين.

٨ - ويتعلمون من قوله تعالى: «وما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب، ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسوله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم» يتعلمون منها ما يلى:

أ - أن من سنة الله تعالى أن يجرى الأحداث كما يشاء وأن يأذن بحدوث النعماء والبأساء، والعافية والابتلاء للمؤمنين، بل قد يشاء لهم الهزيمة فى الحروب، حتى لو كان معهم الرسول الخاتم ﷺ، لكى يميز الخبيث من الطيب، فما ينبغى أن يضيق مؤمن بسنة الله، مهما حدث له، وبخاصة إذا علم أن ما أصابه من خير فمن الله، وما أصابه من شر فمن نفسه.

ب – وأن يؤكد الدعاة لأنفسهم ولمن يدعونهم، أن الشدائد تميز بين صاحب الإيمان القوى وغيره، فهى التى ترفع ضعيف العزيمة إلى مرتبة قوة العزم، وتزيد المؤمنين إيمانا، وتوثق صلة المؤمن بربه، إذ يلجأ إليه فى الشدة كما كان يلجأ إليه فى الرخاء.

وفى كل ذلك تربية عظيمة للمؤمنين، وهذا هو أهم عمل للدعاة إلى الله.

جـ – وأن يوضحوا للناس أن علم الغيب قد استأثر به الله تعالى، وأنه سبحانه لايطلع عليه إلا من ارتضى من رسول، وفى إخفاء المغيبات عن الإنسان درس عظيم له، يفتح أمامه باب العمل والأمل، ويستحثه على طاعة الله والالتزام بما جاء به الرسول ﷺ، ولعل فى هذا ردًا على أولئك الغافلين الذين يرون فى الإيمان بالغيب عيبا ونقيصة!!!

د – وأن يؤكد الدعاة إلى الله للناس أن الإيمان بالغيب مطلب قرآنى فى عديد من الآيات الكريمة:

مثل قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ ﴿٣﴾ ﴾ [البقرة: ٣].

وقوله جل شأنه: ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴿٩٤﴾ ﴾ [المائدة: ٩٤].

وقوله جلا وعلا: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴿١١﴾ ﴾ [يس: ١١]

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك: ١٢].

* يؤكد ذلك قوله تعالى: «وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم» فالإيمان لايكمل إلا بالإيمان بالغيب، ولايمكن التعبير عن الإيمان إلا بالعمل الصالح، وبتقوى الله تعالى فى كل أمر.

* تلك هى أعمال الدعاة إلى الله، والعاملين فى الحركة الإسلامية، وهى أعمال لابد منها، حتى نضمن للعمل من أجل الإسلام النضج والاستمرار، والقدرة على مواجهة التحدى، والصبر على المكاره، إيمانا من العاملين لتمكين دين الله فى الأرض بأن تلك هى سنة الدعوات.

* إن الدعوة إلى الله والحركة الإسلامية لاتستطيع أن تصل إلى التمكين لدين الله فى الأرض حتى تستوعب هذه الدروس تمام الاستيعاب وتؤهل نفسها لتحمل الشدائد، صابرة محتسبة ترجو ما عند الله تعالى.

وتلك هى مهمة الدعاة إلى الله كما أوضحنا غير مرة.

٢٤- الآيات من الثمانين بعد المائة إلى الرابعة والثمانين بعدها
بيان حال البخلاء واليهود وفضح أكاذيبهم

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴾ [آل عمران : ١٨٠ - ١٨٤].

- تتحدث هذه الآيات الكريمة عن حال البخلاء، وأنهم يبخلون على الله بما آتاهم من مال، وتوضح موقف اليهود فى دعواهم أن الله تعالى فقير يحتاج إلى أموالهم، وذلك منهم تعلل وتعليل لبخلهم، ثم تبين الآيات الكريمة قبائح أفعال اليهود، وهى قتلهم الأنبياء وتكذيبهم محمدا ﷺ، وتواسى الآيات رسول الله ﷺ فى تكذيب اليهود وعنادهم.

- وقد تضمنت الآيات الكريمة نهيا وأكثر من خبر مؤكد، واستفهاما إنكاريا، وأكثر من شرط، وسوف نفصل ذلك بعون الله تعالى فيما يلى:

١ - من البخلاء من يبخلون بأنفسهم فلا يبذلونها فى سبيل الله فى الجهاد، لتكون كلمة الله هى العليا، ومنهم البخلاء بأموالهم كأولئك الذين يبخلون ببذل المال فى سبيل الله، متوهمين أن ذلك البخل خير لهم، والحق أنه من أسوأ ما يضرهم إذ يبخلون بما لا يملكون على وجه الحقيقة، وإنما المال الذى فى أيديهم هو من عطاء الله تعالى وفضله عليهم، «ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم، بل هو شر لهم».

* وهم يتوهمون أن فى إمساكهم المال عن الإنفاق فى سبيل الله فائدة لهم ونفعا، وذلك لغفلتهم وجهلهم، لأن الحق أن هذا الإمساك عن الإنفاق ردى لهم ووقوع فى عذاب الله تعالى.

* والبخل من أسوأ صفات الإنسان، فقد روى البخارى ومسلم وأحمد بأسانيدهم عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... وأىّ داء أدوى من البخل؟».

* والفرق بين البخل والشح كما قال العلماء هو:

أن البخل امتناع عن إخراج ما حصل عندك،

والشح هو البخل مع حرص.

* وروى مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».

* وروى النسائى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لايجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى رجل مسلم أبدا، ولايجتمع شح وإيمان فى قلب رجل مسلم أبدا».

* والبخيل سيطوق بما بخل به يوم القيامة، أى سيلزمه إثم بخله فى الآخرة.

٢ - وإخبار من الله تعالى بأن لله ميراث السموات والأرض، وذلك أن الأموال والأشياء عارية فى أيدى أصحابها، فإذا ماتوا ردت العارية إلى صاحبها الذى كانت له فى الأصل: «ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير».

* والمعنى أن الملكية الحقيقية تؤول إلى الله، ثم يجازى كلا بما عمل؛ لأنه سبحانه لايخفى عليه شىء.

* وتطويق البخيل بما بخل به قد يكون على وجه الحقيقة، أى يصبح كالطوق يحيط بمن بخل بشىء، كما ورد فى السنة النبوية المطهرة.

* فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالا فلم يؤد فيه زكاته مُثّل له شجاع (نوع من الثعابين) أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، فيأخذ بلهزمتيه (شدقيه) يقول: أنا مالك، أنا كنزك» ثم تلا هذه الآية «سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة».

٣ - وقوله سبحانه وتعالى: «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا» فيه إخبار مؤكد بمقولة اليهود الباطلة المضللة التى زعموا فيها أن الله تعالى

-إذ يأمر بالبذل والكرم فقير يحتاج إلى أموال الأغنياء من اليهود.

* وقد كان من مقولات اليهود ما ذكر فى كتب السنة والسيرة ما نذكر بعضها فيما يلى:

- لما نزل قول الله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً (٢٤٥)﴾ [البقرة: ٢٤٥].

فقالوا: يامحمد: فقير ربك يسأل عباده القرض، فأنزل الله: «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ...» الآية، ونسب هذا القول إلى حيى بن أخطب من يهود بنى النضير، ونسب مثله إلى فنحاص من يهود بنى قينقاع.

* وقال بعض اليهود: لما نزل قول الله تعالى: «من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا..» الآية: نرى إله محمد يستقرض منا، فنحن إذن أغنياء وهو فقير، وهو ينهانا عن الربا ثم يعطينا الربا، يريدون قوله تعالى: «فيضاعفه له أضعافا كثيرة».

* وأن اليهود كانوا إذا أرادوا التقرب إلى الله بأموالهم تجىء نار من السماء فتحرق تلك الأموال.

ولما طلب منهم رسول الله ﷺ بذل المال فى سبيل الله، قالوا له: لو كنت نبيا لما طلبت الأموال لهذا الغرض، فإنه تعالى ليس بفقير حتى يحتاج فى إصلاح دينه إلى أموالنا، بل لو كنت نبيا لكنت تطلب أموالنا لأجل أن تجيئها نار من السماء فتحرقها، فلما لم تفعل ذلك عرفنا أنك لست بنبى!!!

* فاليهود فى مجموعهم رددوا هذه الأقوال، وإن نسب بعضها إلى أفراد معينين منهم، والذين لم يقولوا ذلك بأفواههم منهم قالوه بلسان حالهم.

* وأن الله تعالى سيكتب عليهم ما قالوا ويحاسبهم به الحساب العادل، وذلك فى صحائف أعمالهم.

ويمكن أن يكون المعنى -كما قال الرازى: سنكتب عنهم هذا الجهل فى القرآن حتى يعلم الخلق يوم القيامة تعنت هؤلاء وجهلهم، وجهدهم فى الطعن فى نبوة محمد ﷺ بكل ما قدروا عليه.

٤ - وفى قوله تعالى: «وقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقول ذوقوا عذاب الحريق، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد» نفهم مايلى:

* أى سنكتب عليهم قتلهم الأنبياء، أى رضاهم بقتلهم، والمراد ما فعله أسلاف اليهود من قتل بعض الأنبياء عليهم السلام.

« وعن الشعبى أن رجلا ذكر عند عثمان رضى الله عنه، وحسّن قتله، فقال له الشعبى: صرت شريكا فى دمه، ثم قرأ الشعبى: «قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين» فنسب لهؤلاء قتلهم »[1].

* وقد سجل عليهم القرآن الكريم فى هذه الآية جريمتين لاتقل إحداهما شرا عن الأخرى، وهما:

– زعمهم أن الله فقير وأنهم هم أغنياء.

– وقتلهم الأنبياء أى رضاهم بقتلهم ظلما وعدوانا.

ولذلك توعد عليهما معا، بعد كتابة ذلك عليهم وإثباته ضدهم، توعد بأن يذوقوا عذاب الحريق، يقال لهم ذلك : «ذوقوا عذاب الحريق» ويعاينونه يوم القيامة.

* وأن استحقاقهم العذاب إنما كان بما ارتكبوا من ذنوب، وخصّ الأيدى بفعل الذنوب ليدل على أنهم تولوا هذا الذنب مباشرة وأخذوه كما يأخذ الإنسان الشىء بيديه ليتمكن منه.

وهذا الذنب الذى مارسوه بأيديهم هو زعمهم أن الله فقير، وقتلهم الأنبياء ظلما، على الرغم من أن الأنبياء جاءوهم بالبينات.

٥ – وفى قوله جل شأنه: «الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين» نفهم ما يلى:

* « فى الآية إخبار عن أقوال اليهود وأفعالهم الشائنة وهروبهم من اتباع الحق، وتعليلهم هذا الهروب بباطل التعليلات، وقد قالوا بهتانا من القول وزورا على السنة عدد منهم –كما ذكر ذلك الأسلاف من العلماء – وهؤلاء القائلون من اليهود هم: كعب بن الأشرف، ومالك بن الضيف، ووهب بن يهوذا، وفنحاص بن عازورا، وجماعة ... جاءوا إلى النبى ﷺ فقالوا له: أتزعم أن الله أرسلك إلينا، وأنه أنزل علينا كتابا عهد إلينا فيه ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدقناك، فأنزل الله تعالى هذه

---

(١) فخر الدين الرازى: التفسير الكبير: ٩ / ٩٦، مرجع سابق.

الآية، فقيل: كان هذا في التوراة، ولكن كان تمام الكلام: حتى يأتيكم المسيح ومحمد، فإذا أتياكم فآمنوا بهما من غير قربان»[1].

* وقيل: «كان أمر القرابين ثابتا إلى أن نسخت على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام، وكان النبي فيهم يذبح ويدعو فتنزل نار بيضاء لها دوي وحفيف لادخان لها، فتأكل القربان، فكان هذا القول دعوى من اليهود، إذ كان ثمّ استثناء فأخفوه، أو نسخ، فكانوا في تمسكهم بذلك متعنتين.

* ومعجزات النبي ﷺ دليل قاطع على إبطال دعواهم، وكذلك معجزات عيسى عليه السلام، ومن وجب صدقه وجب تصديقه»[2].

٦ - وأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يقول لليهود: «**قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين**».

* والمقصود بهؤلاء الأنبياء الذين قتلهم أسلاف اليهود ورضوا هم عن قتلهم: زكريا ويحيى وشعيب عليهم السلام، وسائر من قتلوا من الأنبياء عليهم السلام دون أن يؤمنوا بهم.

* والقربان: ما يتقرب به إلى الله تعالى من نسك وصدقة، وعمل صالح.

* وقد جاءهم رسل قبل محمد ﷺ بالبينات وبالذي قالوا: وهو القربان الذي تأكله النار، فلم يغنهم هذا ولم يرد تعنتهم ولا منع غرورهم، وإنما قتل أسلافكم الأنبياء وشاركتم أنتم في دمائهم برضاكم عن قتلهم، وقد لزمتهم الحجة.

٧ - وفي الآية الكريمة: «**فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير**» في هذه الآية الكريمة:

تسلية لرسول الله ﷺ عن تكذيب قومه إياه، وبيان لأن تلك هي سنة الله في تكذيب الناس للرسل، على الرغم من أن الرسل جاءوهم بالبينات وبالكتب المكتوبة والكتب الواضحة الجلية المنيرة.

* أي أن تلك طبائع الناس، وطبائع الكفار في كل زمان ومكان، على الرغم من أن

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٢٩٥ مرجع سابق.

(٢) السابق: ٤/ ٢٩٦.

الرسل يأتون إلى أقوامهم بالبينات والحجج والمعجزات.

* والزبور: كل كتاب ذى حكمة.

* والكتاب المنير: هو القرآن الكريم، ويتميز عن الكتب السابقة بأنه كتاب ومعجزة، وبأنه قد اشتمل على الشريعة كاملة، وأنه باق أبد الدهر قد تكفل الله بحفظه بينما استحفظ الناس على الكتب الأخرى.

- المواقف التربوية العامة فى الآيات الكريمة كثيرة يتعلم منها المسلمون كثيرا، نذكر بعضها فيما يلى:

١ -يتعلم المسلمون من هذه الآية الأولى من تلك الآيات ما يلى:

أ - أن البخل والشح وإمساك المال عن وجوهه ومصارفه مهما حقق للبخيل من رغبته فى الاحتفاظ بالمال، وتصور أن ذلك خير له، فإنه فى الحقيقة شر له وأى شر؟، وحسبه أنه أغضب الله بهذا البخل، وحسبه أنه سيطوق بما بخل به يوم القيامة، كما ورد ذلك فى الحديث النبوى الشريف الذى ذكرناه آنفا.

ب - وأن المال على وجه الحقيقة هو لله وهو فى أيدى الناس عارية مستردة، ومن الحمق والغفلة أن يبخل الإنسان بمال الله على الجهات والمصارف التى شرعها الله وأمر بالإنفاق فيها أو ندب إلى ذلك. وأن أحدا من الناس لايستطيع أن يضمر فى هذا المجال شيئا، لأن الله تعالى بما يعمل الناس خبير.

٢ - ويتعلم المسلمون من الآيتين التاليتين ما يلى:

أ - أن اليهود يفترون على الله الكذب، ويهرفون بالباطل فى حق الله تعالى كقولهم:

إن الله فقير ونحن أغنياء..

وإن الله يحرم علينا الربا ويعطينا إياه.

وهذا يوردهم موارد الهلاك عند الله.

ب - وأن الله تعالى سيكتب عليهم كل ما قالوا وكل ما فعلوا ليحاسبهم عليه أشد الحساب.

جـ - وأنه سبحانه سوف يحاسب اليهود على قتلهم الأنبياء ظلما وعدوانا، وعلى رضاهم بهذا.

د – وأن الله تعالى سوف يكلف من يقول لهم يوم القيامة – جزاء على كفرهم وافترائهم على الله الكذب– : «ذوقوا عذاب الحريق» وأن ذلك العذاب بالحريق هو نتيجة لما قدمت أيديهم من أخطاء، وما مارسته من أعمال، وأن الله تعالى حين يعذب أحدا على جرمه لايظلمه، وإنما يعامله بالعدل، فما الله تعالى بظلام للعبيد.

٣ – ويتعلم المسلمون من الآيتين الأخيرتين من هذه الآيات ما يلى:

أ – أن اليهود هم أكثر الناس عنادا ومخالفة للرسل، وأنهم أكثر الناس أكاذيب ومزاعم، فهم يعللون كفرهم برسول الله ﷺ بأنهم لايؤمنون به، لأن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا برسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار.

ب – وأن اليهود موصوفون فى التوراة بأنهم شعب غليظ الرقبة، وأنهم قساة القلوب لايفقهون الحق، ولايذعنون له، وأنهم يتعللون بسائر التعليلات حتى لايؤمنوا بمحمد ﷺ.

جـ – وأن شأن اليهود كان دائما العناد مع أنبيائهم والمكابرة بل المغالطة، والكذب، حتى وصل بهم هذا الخلق السيىء إلى قتل الأنبياء الذين جاءوهم بالبينات، وهم إلى يومنا هذا أقدر الناس على العناد والمكابرة، والمغالطة والكذب، ومن شاء أن يجد على ذلك الدليل فلينظر إلى مفاوضاتهم مع الفلسطينيين لإتمام اتفاق أوسلو الذى وافقوا عليه بمحض إرادتهم.

د– وفى الآيات درس عظيم للمسلمين فى المعرفة الدقيقة بطبائع اليهود وأخلاقهم وصفاتهم الملازمة لهم منذ كانوا وإلى أن يشاء الله، ليكونوا منهم على حذر، وليتعاملوا معهم عن علم بهم وبما يضمرون.

– المواقف التربوية فى مجال الدعوة والحركة فى الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ – يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من الآية الأولى من هذه الآيات: **«ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ...»** الآية ما يلى:

أ – أن الدعوة إلى الله والعمل من أجل الإسلام يحتاج إلى الكرم والسماحة، وذلك أن الإيمان نفسه سماحة، ولقد كان الرسول ﷺ قدوة فى الكرم والسماحة.

وكيف تقبل صفة البخل من العاملين من اجل تمكين دين الله فى الارض، وكل اعمالهم تضحية بالوقت والجهد والمال، وجل اعمالهم خدمات يؤدونها للمدعوين؟

ب – وان على الدعاة أن يوقظوا فى نفوس الناس فضيلة الكرم والسماحة وحب البذل والتضحية،لان هذه الاخلاق هى التى توثق الصلة بين المسلمين وترقق قلوبهم وتعطف بعضها على بعض وتجعل منها الجسد الواحد الذى إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

جـ – وعلى الدعاة أن يتنبهوا دائما إلى أن البخيل غافل جاهل، لانه يبخل بمال الله على عباد الله، فيوقع نفسه فى عقاب لن يطيقه يوم القيامة إذ سيطوق بما بخل به، ويكلف هناك بأن يحمل على عنقه كل ما بخل به!!!

٢ – ويتعلمون من قوله تعالى: «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء...» إلى قوله تعالى: «وأن الله ليس بظلام للعبيد» مايلى:

أ – ان كل من نطق بكلمة تغضب الله أو تخالف الحق، فإن الله تعالى يحصى عليه اخطاءه ويحاسبه عليها بما يستحق، فليست الكلمات ولا الاعمال وإن صغرت إلا موضوعة فى ميزان الإنسان بين يدى الله تعالى، فرب كلمة يتحدث بها الإنسان لايلقى لها بالا تهوى به فى جهنم، ورب إشارة من يد أو خطوة فى طريق تورط صاحبها وتورده موارد لاك.

ب – وأن فى قصة اليهود عندما زعموا أن الله فقير وهم اغنياء وانه سبحانه يحرم عليهم الربا ويعطيهم إياه، فى هذا الموقف منهم من التحريف والبهتان والبطلان ما يدل على حقيقة ما تضمره نفوسهم من إثم، وما يعطى لغيرهم درسا عظيما عندما يهم بنطق كلمة من الباطل أو الكذب، فضلا عن أن يمارس عملا باطلا.

جـ – وأن الله تعالى عندما يعذب أحدا من خلقه بالنار، فإن ذلك العذاب هو الجزاء العادل لما قدم من إثم وجرم وعصيان جاء فى قوله أو عمله، وذلك يؤكد الحقيقة القرآنية: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

د – وأن طريق الدعوة إلى الله لابد أن يكون فيه بعض الكاذبين الذين لايهابون الكلمة

التى تغضب الله تعالى، وأن هؤلاء ظواهر إنسانية تعبر عن الضعف الإنسانى، وبالتالى فإن على الدعاة أن يستوعبوهم، وأن يمضوا فى طريق الدعوة إلى الله لايثنيهم عن المضى ضعف إنسانى مهما بلغ فى حجمه أو مداه، فحساب ذلك عند الله ليس للدعاة أن يحاسبوا عليه، أو ييأسوا من أصحابه.

٣ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: **«الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ...»** إلى قوله تعالى: **«جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير»** ما يلى:

أ - أن بعض المدعوين إلى الله قد يتعللون فى رفضهم الدعوة ورفضهم الانضمام إلى موكب الحق بمختلف الأسباب التى تصرفهم عن ذلك - كما فعلت يهود - وأن هؤلاء الرافضين المتعللين يكونون دائما على الباطل، وليس لديهم منطق يقبله العقل السليم ولا الإيمان الصحيح.

ب - وأن الدعاة والحركيين وكل من يعمل من أجل الإسلام مهما كانوا على الحق، ومهما حشدوا من أجل إحقاق الحق من بينات ودلائل فإنهم قد يواجهون - على الرغم من ذلك كله - بمن يتحداهم بل يعرضهم للأذى والمحنة التى قد تصل إلى حد القتل، لأن تلك سنة الله فى الدعوة إلى الحق والعاملين فيها، فماينبغى أن ينزعج لذلك الدعاة فضلا عن أن يتراجعوا عن عملهم أو يخافوا المضى فيه.

جـ - وليس للدعاة إلى الله عندما يواجَهون بهؤلاء المعاندين الجاحدين أن ييأسوا أو يحزنوا أو يحملوا أنفسهم من اللوم والمؤاخذة فوق ما يطيقون، فقد سبقهم فى طريق الدعوة إلى الله وكان قدوة لهم من خاطبه ربه فى مواقف مماثلة بقوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ⑥ ﴾ [الكهف: ٦]. وبقوله جل علاه: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ ﴾ [الشعراء: ٣].

تلك معالم بارزة لعمل الدعاة إلى الله تبدو فى هذه الآيات الكريمة.

٢٥- الآيتان: الخامسة والثمانون بعد المائة والسادسة والثمانون بعدها حقيقة الموت، وحقيقة البلاء للمؤمنين

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾ [آل عمران: ١٨٥، ١٨٦].

- فى هاتين الآيتين الكريمتين تقرير لحقيقتين كبيرتين للإنسان هما:

* أن الموت نهاية للحياة الإنسانية وبعده يكون يوم القيامة فالحساب فالجزاء، والفائز فى هذا اليوم من زحزح عن النار وادخل الجنة.

* وأن المؤمنين لابد أن يبتلوا فى أموالهم وأنفسهم، وأن يسمعوا من أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين أذى كثيرا، وأن الصبر على ذلك من عزم الأمور.

- وقد أخبرت الآيتان الكريمتان عن حقيقة الموت خبرا خاليا من التأكيد، وعن الجزاء يوم القيامة بأسلوب الشرط والجزاء، وأخبرت عن ابتلاء المؤمنين إخبارا مؤكدا، وعبرت عن صبرهم على البلاء بأسلوب الشرط والجزاء، مما سنوضحه فيما يلى والله المستعان:

١ - حقيقة الدنيا أنها فانية، وأن المكلفين فيها إلى موت أكيد، سواء أطالت بهم مدة الحياة أم قصرت: «كل نفس ذائقة الموت» ومن أجل أن هذه الحياة منتهية لا محالة بالنسبة للناس والمخلوقات جميعا، فإن الأولى بالعقلاء أن يؤمنوا بالله ويتبعوا ما جاء به الرسول ﷺ، حتى لاتنتهى بهم الحياة وهم على الكفر، فيخسروا الآخرة، وهى دار البقاء، وهى بكل تأكيد خير للإنسان من الحياة الدنيا.

٢ - وتقرر حقيقة الجزاء عند الله تعالى، وهى أن كل إنسان يوفى أجره يوم القيامة إن خيرا فخير وإن شرا فشر، أى أن من يؤمن بالله تعالى، ويتبع ما جاء به الرسول ﷺ، فإن إيمانه هذا يزحزحه عن النار ويدخله الله الجنة، وذلك هو الفوز الحقيقى: «وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز» إن مجرد الزحزحة عن النار فوز عظيم.

٣ – وفى الآيات بيان لحقيقة الدنيا وأنها متاع الغرور، وذلك أن حياة الناس التى يمارسونها فى الدنيا، ويتمتعون فيها باللذات الحسية، كالطعام والشراب، أو المعنوية كالجاه والمنصب هى – على كل حال وعلى كل مستوى – متاع الإنسان الغافل المغرور، لأن صاحبها دائما مغرور بها مخدوع فيها، لأنها تشغله دائما بتحقيق لذاتها ودفع آلامها – فهو دائما فى تعب فيها من أجل هذا وذاك.

* والأبرار من الناس يجعلون حياتهم لخير دنياهم وأخراهم ونفع أنفسهم وسواهم، ويتمتعون فيها بما أحل الله، والأشرار يعبون من لذات دنياهم ناسين أخراهم، وأولئك هم المغرورون بهذا المتاع: «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور».

٤ – وتقرر الآيات الكريمة سنة الله تعالى فى خلقه: أن يبتلى المؤمنين ليضاعف أجر الصابرين على البلاء، وهذا البلاء كما جاء فى هذه الآية أنواع:

بلاء فى المال، وبلاء فى النفس، وبلاء فى إلصاق التهم بالمؤمنين.

* أما البلاء فى المال فله شقّان:

أحدهما: بلاء أو ابتلاء فى بذل ما أوجب الله، مع أن المال محبوب، والإنسان مفطور على حبه.

والآخر: بلاء بضياع المال بجائحة أو نحوها.

* وأما البلاء فى النفس، فله أنواع ثلاثة:

أحدها: بلاء فى بذل النفس والتضحية بها فيما أوجبه الله كالموت فى الجهاد فى سبيل الله ونحوه.

والثانى: بلاء بموت من يحب الإنسان من والد وولد وأهل وعشيرة.

والثالث: بلاء للنفس بالتكاليف الشرعية وهو أهم وأعم من الأولين، وذلك بالقيام بكل ما أمر الله به واجتناب كل ما نهى عنه، وذلك كثير يشمل صلاح الدين والدنيا.

* وإنما كان هذا البلاء من سنن الله فى المؤمنين، وأخبرهم به قبل أن يحدث ليوطنوا أنفسهم عليه، فإذا جاء صبروا فأُجروا.

* ومن المعانى الجيدة فى الصبر على البلاء ألا يتبرم به المسلم ولا يسخط، وألا يبطر عندما ينجو من مصيبة أو محنة، وهذا وذاك من تربية المؤمنين بالخير والشر.

* وأما البلاء فى إلصاق التهم بالمؤمنين فهو مشاهد محسوس فى كل حين:

- فعلى عهد رسول الله ﷺ كان ابتلاء له وللمؤمنين بما أشاعه اليهود والمشركون من تهم وافتراءات معروفة ليست مقصورة على أنه شاعر أو يكتتب أساطير الأولين، وإنما تجاوزت ذلك إلى ما هو أسوأ وأدخل فى الباطل والوهم.

- وعلى امتداد تاريخ الإسلام والمسلمين، نجد اليهود والنصارى والذين أشركوا، لا همّ لهم إلا تشويه الإسلام، وتلطيخ سمعة المسلمين ورميهم بكل تهمة وكل شر، ووصفهم بالرجعية والتخلف والبداوة و .... إلخ «ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا...».

- وفى هذا العصر الذى نعيشه، يمارس اليهود والصليبيون والذين أشركوا حملات تشويه لاتقف عند حد المؤمنين بل تتعداهم إلى الإيمان نفسه وإلى المبدأ والمنهج والنظام الإسلامى كله، يمالئهم فى ذلك فساق المسلمين ممن يحبون أن تشيع الفواحش وأن تنهار الأخلاق الإسلامية، ويشاركهم فى هذه الحملات جهلة المسلمين وغافلوهم، وأولئك الذين ينتفعون من أعداء الإسلام.

* كل هؤلاء الأعداء يتحالفون ويتكاتفون ضد الإسلام والمسلمين، ويحولون بين المسلمين وبين الرد على هذه المفتريات بما يملكون من وسائل الإعلام، مما يزيد المسلمين إحساسا بعظم الابتلاء، ومما يجعل لهم عند الله عظيم الأجر بإذنه تعالى.

* كل هذه الأنواع من الابتلاء سنة ماضية فى المؤمنين إلى يوم القيامة، وهم مطالبون إزاء هذا الابتلاء بصفات معينة لمواجهة هذا الابتلاء، أهمها ما نذكره فيما يلى:

- الصبر على البلاء حين يقع، صبر لاجزع فيه ولا يأس معه..

- والتقوى: بمعنى الاستعداد لاتقاء هذا الابتلاء قبل وقوعه ومكافحته عند وقوعه..

- واحتساب الأجر والمثوبة عند الله على هذا الصبر على البلاء «وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور».

- المواقف التربوية العامة فى هاتين الآيتين الكريمتين كثيرة، نذكر منها ما يلى:

١ - أن حياة الإنسان إلى فناء وموت، وأن العاقل الراشد من استطاع أن يملأ هذه الحياة بما يرضى الله تعالى من قول وعمل، وأن الغافل هو الذى تغيب عنه هذه الحقيقة.

٢ – وأن الناس مجزيون بأعمالهم يوم القيامة وموفون أجورهم، فلينظر كل عامل فيما عمل، وليتوقع الأجر الذى يلائم عمله بين يدى الله تعالى.

٣ – وأن الفائز المفلح من الناس هو من استطاع بأعماله الصالحة أن يُزحزح عن النار، فيدخله الله الجنة بفضله ورحمته، ومن أجل ذلك وجبت المبادرة إلى الطاعات، والابتعاد عن المعاصى وعن كل ما يغضب الله تبارك وتعالى.

٤ – وأن التعلق الشديد بمتاع الحياة الدنيا مع نسيان الحياة الآخرة، والغفلة عن حقيقة الدنيا وأنها مزرعة للآخرة، كل ذلك مما يجعل الإنسان مغرورا سادرا ذاهلا عن حقائق الأشياء.

٥ – وأن الابتلاء للمؤمنين من سنة الله المقررة ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت: ٢]. وأن هذا الابتلاء أنواع على نحو ما أوضحنا، وأن أكثره ألما ما كان وما يكون من ترديد التهم الباطلة والشبهات الزائفة ضد الإسلام والمسلمين، وهى تهم تكرر توجيهها للإسلام والمسلمين، ومن هذه التهم ما نسوقه فيما يلى:

أ – اتهام القرآن الكريم – وهو دستور المسلمين – بأنه محلى إقليمى، وبأنه جاء لأهل زمن معين، واتهامه – أخيرا – بأنه مضطرب بفقد وحدة الموضوع – !!! والزعم بأنه ليس من عند الله تعالى، وإنما هو أساطير الأولين اكتتبها محمد ﷺ!!!

ب – واتهام الشريعة الإسلامية بالقصور وعدم القدرة على مواجهة المتغيرات، وخداع المسلمين بأن يستبدلوا بالشريعة القوانين الوضعية، طلبا للمعاصرة.

جـ – ورفض فكرة أن الإسلام هو الحل لمشكلات الحياة الإنسانية، وادعاء أنهم أقدر على حل هذه المشكلات، مع أنهم كلما حاولوا التدخل فى حل إحدى المشكلات كالفقر والجهل والمرض وسوء الخلق زادوها تعقيدا وتفاقما.

د – واتهام الإسلام بأنه دين ملىء بالغيبيات والظلاميات والمجاهيل، مع أن القرآن الكريم بيان لكل شىء وتفصيل له، ويهدى للتى هى أقوم من سبل العيش فى حياة الإنسان.

هـ – واتهام المسلمين بالتطرف والتعصب إذا ما دافعوا عن الحق ودعوا إليه، وحاولوا نقل الناس إليه.

و – والإصرار على عزل المسلمين عن الحياة السياسية، وحرمانهم من حقوقهم

الإنسانية، لأنهم مسلمون يعملون لتمكين دين الله فى الأرض!!

ز – وحشد القوى العالمية – هيئة الأمم وصناديق النقد والنظام العالمى الجديد بقيادة أمريكا، والصهيونية والصليبية الجديدة – لضرب الحركات الإسلامية فى كل مكان، وكل ذلك ابتلاء للمؤمنين.

٦ – وأن مواجهة هذه الأنواع من الابتلاء إنما تكون – كما أوضحنا – بالصبر والتقوى واحتساب الأجر عند الله والمضى فى طريق الحق مهما كانت التضحيات.

– المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يلى:

١ – يتعلم الدعاة والحركيون والعاملون من أجل تمكين دين الله في الارض من هاتين الآيتين أن يجدوا ويجتهدوا ويبذلوا فى العمل أقصى ما يستطيعون قبل أن يفوت الأوان ويأتى الموت الذى لابد لكل نفس أن تذوقه، مع ضرورة أن يستيقنوا من الحقائق التالية:

أ – أن الدعوة إلى الله والعمل من أجل تمكين دين الله فى الأرض شرف يوليه الله لمن اصطفى من عباده، فمن أولاه الله هذا الشرف فإن عليه أن يكون أهلا له، وأن يجاهد فى سبيل الله حتى يأتيه أجله محتسبا عند الله كل ما يلقى فى سبيله.

ب – وأن المدعوين إلى الله عليهم أن يبادروا فى الاستجابة قبل أن يفوت الأوان، فما ينبغى أن يغفل عن هذه الحقيقة أحد من الدعاة أو المدعوين، وإنما عليهم أن يجدّوا، وأن يفروا إلى الله بطاعته وهجر معصيته، من أجل أن يوفّوا حسابهم وجزاءهم عند الله تعالى.

٢ – وعلى الدعاة والحركيين أن يفقهوا الناس بأن كل أنواع الخير التى أمر الله بها وكل أنواع الشر التى نهى الله عنها هى التى تزحزح الناس عن النار فيدخلهم الله الجنة، ابتداء من إماطة الأذى عن الطريق وانتهاء بالاستشهاد فى سبيل الله، وأذكّر الدعاة فى هذا المجال بعدد من الأحاديث النبوية الشريفة وهى:

– روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم الكلمة لايرى بها بأسا، يهوى بها سبعين خريفا فى النار».

– وروى النسائي بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من صام يوما فى سبيل الله زحزح الله وجهه عن النار بذلك اليوم سبعين خريفا».

– وروى احمد والترمذى والحاكم باسانيدهم عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «كل معروف صدقة، وإن من المعروف ان تلقى اخاك ووجهك إليه منبسط، وان تصب من دلوك فى إناء جارك».

– وروى مسلم بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لاتحقرن من المعروف شيئا ولو ان تلقى اخاك بوجه طلق».

٥ – وليحذر الدعاة إلى الله – من اولئك الذين يرزقهم الله التوفيق فى العمل أو الجاه أو المال أو السلطان – أن يغتروا بهذه الاعراض الزائلة؛ فما الحياة الدنيا فى جوهرها إلا متاع الغرور.

* وعليهم ان يكونوا ابعد الناس عن الاغترار بالحياة الدنيا.

* وعليهم ان يؤكدوا للناس ان ما يصيب الإنسان من منحة أو محنة فإنما يجب ان يقابَل بالشكر على هذا وذاك.

٦ – ويتعلم الدعاة من قوله تعالى: «لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ..» الآية حقائق هامة عن الابتلاء اهمها ما يلى:

أ – انه لا دعوة إلى الله بغير ابتلاء فى المال والنفس والسمعة؛ لانه سنة الله فى أصحاب الدعوات من الانبياء والرسل وكل داعية إلى الله.

ب – وان الابتلاء له صلة بالإنسان نفسه وأهله وولده وماله وأرحامه وإخوانه المسلمين، وجاهه وامنه وحريته وسائر حقوقه.

جـ – وان هذا الابتلاء ينضج الإيمان ويقوى العزم ويعطى الفرصة لإرضاء الله تبارك وتعالى.

د – وان البلاء يجب ان يواجَه بالصبر والتقوى، وان من التقوى الاخذ بالاسباب، ومن الاخذ بالاسباب توقى الابتلاء ما كان ذلك ممكنا، وليس من التقوى تمنى المحنة أو البلاء.

هـ – وان الصبر والتقوى – بشروطهما وآدابهما – هما عزم الامور أو من عزم الامور، أى معزوماتها التى قضى الله تعالى ان تكون إذا كان صبر وتقوى.

٢٦- الآيات من السابعة والثمانين بعد المائة إلى التاسعة والثمانين بعدها
ميثاق الله تعالى مع من آتاهم الكتاب

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) ﴾ [آل عمران: ١٨٧ - ١٨٩].

- تتحدث الآية الاولى عن الميثاق الذى اخذه الله على كل من آتاهم الكتاب كاليهود والنصارى والمسلمين، وقد اخذ عليهم الميثاق عن طريق أنبيائهم ورسلهم عليهم الصلاة والسلام، إذ بينوا لهم وقدموا الادلة والبراهين فالزموهم الحجة، ومضمون هذا الميثاق:

- ان يبينوا للناس ما فى الكتاب الذى جاءهم من عند الله..

- وان يهدوهم بذلك إلى الحق والخير..

- والا يكتموا من هذا الميثاق شيئا.

* ولكن الذين أوتوا الكتاب لم يستجيبوا اكثرهم وإنما استجاب منهم القليل وان الذين لم يستجيبوا اشتروا بعدم الاستجابة ثمنا قليلا فسكتوا.

* والآية الثانية تفضح صفات سيئة فى اهل الكتاب وفى غيرهم ممن اتصف بهذه الصفات وهى:

- انهم يفرحون بما أتوا اى بما قاموا به من عمل وإن كان سيئا كما فعل اليهود عندما سألهم النبى ﷺ عن شيء فكتموه، واخبروه بغيره غشا وتدليسا، واحبوا ان يحمدوا على امر لم يفعلوه، وهو إجابتهم عما سألهم عنه.

- وتخبر الآيات الكريمة عن الميثاق الذى اخذه الله على الذين آتاهم الكتاب، وتوضح ان كثيرا منهم لم يفوا بهذا الميثاق، وتنهى عن ان ينخدع المسلمون فى الذين يفرحون بما أتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا، كما تنهى عن اعتبارهم ناجين من عذاب الله.

وتقرر الآيات ان الله تعالى يملك السموات والأرض وانه على كل شيء قدير.

وسوف نوضح هذا فيما يلى، والله ولى التوفيق:

١ – يريد الله تعالى من المؤمنين ومن الناس عموما أن يتذكروا إذ أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب بلسان أنبيائهم.

* والذين أوتوا الكتاب هم الذين نزلت عليهم كتب سماوية من اليهود والنصارى والمسلمين أصحاب التوراة والإنجيل والقرآن الكريم.

ويرى بعض العلماء أن الآية خاصة باليهود الذين نزلت عليهم التوراة، ولكن ذلك تضييق لمفهوم النص الكريم، ولا مرجع له فى الآية، ولا مقتضى له: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب...» .

٢ – ومضمون الميثاق أن الله تعالى ألزم المؤمنين الذين أوتوا الكتاب أن يبينوه ولايكتموه قال قتادة: «مَثَلُ علم لايقال به، كمثل كنز لاينفق منه، ومثل حكمة لاتخرج كمثل صنم قائم لايأكل ولا يشرب».

* وفى الحديث الشريف: روى ابن حبان فى صحيحه بسنده عن ابن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من كتم علما عن أهله، ألجم يوم القيامة لجاما من نار».

وقال محمد بن كعب: «لايحل لعالم أن يسكت على علمه، ولا لجاهل أن يسكت على جهله».

* وقال أبو هريرة رضى الله عنه: لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشىء، ثم تلا: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه...».

٣ – وإخبار عن نبذهم للكتاب فى قوله تعالى: «فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون» أى جعلوا أمر الله لهم بالتبيين وعدم الكتمان وراء ظهورهم بعدم استجابتهم.

* وقد كان موقف اليهود من ذلك الأمر على النحو التالى:

– نبذوا هذا الأمر إهمالا وعنادا، وكان لهم من وراء ذلك أهداف منها: خوف الحكام أو الطمع فيما عندهم، أو إرضاء الأغنياء الذين لا يحتملون التكاليف، أو إرضاء العامة الذين يجرون وراء شهواتهم، أو الجدل والمراء بين علماء الدين فيهم، أو الجهل بالكتاب.

وهذه الصفات ليست خاصة باليهود وإنما هى واردة على كل أصحاب الكتب، وهذا هو معنى: «واشتروا به ثمنا قليلا».

* ولليهود مع التوراة مواقف أوضحتها بعض آيات القرآن الكريم مثل:

– عدم استفادتهم من التوراة: ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۝ ﴾ [الجمعة: ٥] فهو علم بلا عمل.

– وأنهم يحرفونها عن مواضعها: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۝ ﴾ [المائدة: ١٣].

– وأنهم لايعلمون منها إلا امانىّ وتشبيهات يتشبهونها: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ۝ ﴾ [البقرة: ٧٨].

٤ – وفى الآية نهي للمسلمين عن أن ينخدعوا فى أهل الكتاب من اليهود والمنافقين أولئك الذين يأتون العمل الذى لاينبغى ويفرحون به، ثم يتوقعون من الناس أن يصفوهم بالسداد والاستقامة، فما ينبغى حسبانهم كذلك وما ينبغى حسبانهم ناجين من عذاب الله.

٥ – وإخبار بأن الله تعالى له ملك السموات والأرض وأنه سبحانه على كل شيء قدير، ليحاسب ويجازى كل من خالف عن أمره.

– المواقف التربوية العامة فى الآيات كثيرة، نذكر منها ما يلى:

١ – أن من آتاه الله الكتاب أى القرآن الكريم أو العلم النافع، فإن من واجبه أن يعلم الناس ما علمه الله وأن يبينه لهم دون كتمان.

وهذا هو الفقه الصحيح فى قضية التعلم والتعليم، وقد قال على ابن أبى طالب رضى الله عنه: «ما أخذ الله على الجاهلين أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا» وذلك هو منطق الإسلام فى العلم والتعلم.

* والمسلمون قد آتاهم الله القرآن الكريم: الكتاب الخاتم التام الكامل، وأوجب عليهم أن يعلموه لغيرهم من الناس وأن يذكروا به المسلمين.

٢ – وليحذر المسلمون نبذ هذا الميثاق الذى أخذه الله عليهم كما فعلت يهود؛ إذ تركوا الكتاب وكتموه فى مقابل ثمن قليل من مال أو جاه أو مداهنة، لأن الآية نعت عليهم هذا الخلق الردئ: **«واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون»**.

٣ – ويتعلم المسلمون من الآيات أن تبيين الكتاب على نوعين:

أ – تبيين لغير المسلمين: أى دعوتهم إلى الدخول فى الإسلام بشرح الكتاب لهم شرحا يلائم عقولهم والعصر الذى يعيشون فيه، ويدخل فى هذا الشرح رد الشبهات

عنه ودفع المفتريات دونه.

ب - وتبيين للمسلمين: أى إرشادهم وهدايتهم وترشيد أقوالهم وأعمالهم ونقلهم من الضلال إلى الهدى ومن الضياع والحيرة والتخبط إلى الالتزام والانتماء بل الاعتزاز بالانتماء إلى هذا الكتاب الكريم.

* ومن المعروف أن هذين النوعين من التبيين واجبان على كل مسلم قادر على التبيين، والذي أوجب ذلك هذه الآية وآيات أخرى كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وقد شرحناها آنفا.

٤ - ويتعلم المسلمون من الآية الكريمة: «لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم» ما يلى:

أ - أنه لايجوز لأحد من المسلمين أن يفرح بما أتى من عمل، أو يرضى عن عمله ويرى أنه أحسن فيفرح بطرا وغرورا، وإنما عليه أن ينظر إلى عمله على أنه أقل مما يجب عليه، ويحاول ما وسعه أن يحسن عمله، وأن يقصد به وجه الله، وأنه فى مقابل نعم الله عليه، واستجابة منه لأمر ربه.

ب - وأنه ليس لأحد من المسلمين أن يرغب فى أن يُحمد بما لايفعل لأن تلك صفات المنافقين والمغرورين، وهى صفات من اتصف بها أغضب الله ونال العذاب الأليم.

جـ - ولا بأس أن يُحمد الإنسان على عمل خير قام به، وإنما البأس فى أن يرغب الإنسان فى هذه المحمدة أو يسعى إليها، إذ الأصل أن يفعل المسلم الخير احتسابا لوجه الله تعالى، فذلك هو الإخلاص.

د - ويحذر الله تعالى رسوله والمؤمنين أن يعتبروا من اتصف بهذه الصفات ناجيا من عذاب الله، أو قادرا على الهروب منه، لأن الله تعالى له ملك السموات والأرض وهو على كل شيء قدير.

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة والحركيون من الآية الأولى: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب...» الآية ما يلى:

أ – أن الدعوة إلى الله وتبليغ الناس شرعه واجب أخذ الله عليه الميثاق من كل من آتاه الكتاب، وليست الدعوة إلى الله عملا تطوعيا، كما يقول بذلك بعض الناس، وذلك الوجوب لقوله تعالى: ﴿لتبيننه﴾. وقد اجتمع على هذا الفعل الآمر من أدوات التوكيد ما يلى:

– لام التوكيد فى أول الفعل: ﴿لتبيننه﴾ وهى تدخل على القسم، فالتقدير: استحلفهم ليبيننه...

– ونون التوكيدا المشددّة: ﴿لتبيننّه﴾...

– وأخذ الله الميثاق منهم نوع من التوكيد كذلك...

– والنهى عن الكتمان توكيد لمعنى التبيين.

ب – وأن ترك الدعوة والبلاغ نبذ وطرح لامر لله وميثاقه، وانه لايقدم على هذا إلا عاص لله تعالى يستحق عقابه، وأن من نبذ هذا الأمر فقد اشترى به ثمنا قليلا من متاع الدنيا وبئس ما يفعل، إذ يعرض نفسه لعذاب الله.

جـ – وأن الجد فى الدعوة والتبليغ والتشمير فى الحركة، والعمل الدائب من أجل هذا الدين هو المطلب الملائم لما أخذ الله من ميثاق على الذين آتاهم الكتاب.

د – وأن بيان الحق للناس واجب شرعى، وأن السكوت عن بيانه نكوص عن العهد والميثاق وتراجع من الدعاة عن صميم عملهم، بل إساءة إلى الحق وإلى الناس وإلى الدعوة والدعاة.

٢ – ويتعلمون من نفس الآية الكريمة أن المضى فى طريق الدعوة والحق قد تقوم دونه عوائق ومعوقات، وأن أوضح هذه المعوقات ما يلى:

أ – أن يشترى الدعاة بالدعوة ثمنا قليلا من متاع الحياة الدنيا يكون نكالا عليهم يوم القيامة.

ب – أو أن يشتروا بالدعوة عافية مما قد يلحق بهم من ظلم أو عدوان، إن هم مضوا فى طريق دعوتهم.

جـ – أو أن يشتروا بالدعوة رضا السلطان والقرب منه وموافقته على كثير مما يريد من توقف للدعوة والدعاة فى مقابلٍ مّا، مهما بدا هذا المقابل خالبا لبعض قصار النظر،

وذلك أن تحـول بعض الدعـاة إلى أبواق للحكام كـارثة تعـوق العـمل الدعـوى والحركى وتعود به إلى الوراء عشرات الخطوات، فضلا عما يتركه ذلك فى نفوس الدعاة والمدعوين من غُصص وآلام.

٣ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: **«لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب...»** الآيتان إلى قوله تعالى: **«والله على كل شىء قدير»** ما يلى:

أ – أن بعض الناس يفرحون بما أتوا من أعمال شريرة ضد الدعوة والدعاة تنم عن خبث وتستهدف التلبيس والتدليس، ظانين أنهم بذلك قد عوقوا العمل من أجل التمكين لدين الله فى الأرض، يتعلم الدعاة أن مثل هؤلاء الناس أشرار يجب أن يحذروهم، وأن يبصروا المدعوين من خبيث نواياهم.

ب – وأن هؤلاء الأشرار المضللين يبلغ بهم الخبل إلى حد أن يرغبوا فى أن يحمدوا من أهل البر والتقوى!!!

جـ – ولايظن أحد أن هؤلاء الأشرار فى مأمن من عذاب الله، أو أنهم يفوتونه سبحانه وتعالى، وكيف يفوتونه وله ملك السموات والأرض وهو على كل شىء قدير؟

٢٧ - الآيات من التسعين بعد المائة إلى الخامسة والتسعين بعدها

صفات أولى الألباب وجزاؤهم عند الله تعالى

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) ﴾

[آل عمران: ١٩٠ - ١٩٥]

- تتحدث هذه الآيات الكريمة عن صفات أولى الالباب من المؤمنين وهى فى إجمال كما يلى:

* ذكر الله قياما وقعود وعلى جنوبهم، اى فى كل الاحوال..

* والتفكر فى خلق السموات والأرض والتعبير عن هذا التفكر بالثناء على الله..

* ودعاء الله تعالى وطلب الوقاية منه من عذاب النار..

* ويقينهم بأن الخزى يلقاه أهل النار ممن عصوا ربهم..

* وإقرارهم بالاستجابة لنداء الرسول ﷺ..

* وطلبهم من الله تعالى مغفرة الذنوب وتكفير السيئات وأن يكونوا مع الابرار..

* وثناؤهم على الله بأنه لايخلف ما وعد. تلك جملة صفات الابرار، كما تتحدث الآيات الكريمة عن جزاء الابرار عند الله وهو تكفير سيئاتهم وإدخالهم الجنة.

- وقد اشتملت الآيات على عدد من الاخبار، ودعاء وتقرير لعدد من الحقائق على النحو الذى سنبينه فيما يلى:

١ - قوله تعالى: «إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب» يحوى دلائل على قدرة الله.

* ومن احسن ما قال المفسرون في هذه الآية الكريمة ما قاله الرازى: «اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والارواح من الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق فى معرفة الحق، فلما طال الكلام فى تقرير الاحكام، والجواب عن شبهات المبطلين، عاد إلى إنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال فذكر هذه الآية»[١].

* وفى هذه الآية الكريمة ثلاثة أنواع من الدلائل على قدرة الله تعالى وتنوير القلب بالإيمان بعد التفكر فى هذه الدلائل وهى:

- خلق السموات، وخلق الأرض، واختلاف الليل والنهار طولا وقصرا.

وهى كلها دلائل تبهر، والعجائب فيها اكثر، وانتقال القلب منها إلى عظمة الله وكبريائه اشد. وفى كل ذلك آيات لاولى الالباب اى الذين يستعملون عقولهم فى تأمل الدلائل.

* وقال القرطبى: روى عن عائشة رضى الله عنها انها قالت: لما نزلت هذه الآية على النبى ﷺ قام يصلي، فأتاه بلال يؤذنه بالصلاة فرآه يبكى، فقال: يارسول الله اتبكى وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا بلال أفلا أكون عبدا شكورا، ولقد أنزلت علىّ الليلة آية: «إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب»، ثم قال: ويل لمن قرأها ثم لم يتفكر فيها».

٢ - وصفات أولى الألباب - كما نفهم من هذه الآيات وكما أشرنا إليها آنفا - هى - على نحو من التفصيل - ما يلى:

الصفة الأولى: أنهم يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، وهى ثلاث هيئات للإنسان لايخلو منها فى غالب أمره وكل احواله، روى الإمام مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل احيانه»، وذاكر الله تعالى مثاب بإذن الله تعالى.

والصفة الثانية: أنهم يتفكرون فى خلق السموات والأرض، وذلك أن الذكر لايتم على وجهه إلا مع تفكر فى عجائب السموات والأرض وما فيهما...

وأصناف العبودية لله تعالى - كما قال العلماء - ثلاث:

---

(١) فخر الدين الرازى: التفسير الكبير: ٩ / ١٩٠ مرجع سابق.

- التصديق بالقلب ، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح.

فقوله تعالى: «يذكرون الله» إشارة إلى عبودية اللسان.

وقوله جل شانه: «قياما وقعودا وعلى جنوبهم» إشارة إلى عبودية الجوارح.

وقوله جل وعلا: «ويتفكرون في خلق السموات والأرض» إشارة إلى عبودية القلب والروح والفكر، والإنسان ليس إلا هذا المجموع.

فإذا تفكروا في خلق السموات والأرض قالوا: «ربنا ما خلقت هذا باطلا».

والصفة الثالثة: أنهم ينزهون الله تعالى ويثنون عليه قائلين «سبحانك»، وذلك التنزيه والثناء تمهيد للدعاء وهو من أدب الدعاء.

وقد دعوا الله تعالى أن يقيهم عذاب النار، فهم معترفون - على الرغم من صلاحهم - أن لهم أعمالا قد يدخلون من أجلها النار.

والصفة الرابعة: أنهم يقرون معرفتهم بأن من أدخله الله النار فقد أخزاه، أى أهانه أو أخجله، ومن ظلم نفسه بمعصية الله فليس له نصير ينصره من دون الله.

والصفة الخامسة: أنهم يقرون بأنهم عندما استمعوا إلى المنادى للإيمان وهو محمد ﷺ، أو القرآن الكريم، آمنوا كما أمروا وأطاعوا المنادى فيما جاءهم به من خير وهدى.

والصفة السادسة: أنهم يدعون الله ويطلبون منه عدة مطالب هى:

- غفران الذنوب التي تقدمت وهى ذنوب يعملها الإنسان.

- وتكفير السيئات التى يجهل الإنسان كونها معصية وذنبا.

- وأن تكون وفاتهم مع الأبرار، أى يموتون على ما مات عليه الأبرار.

- وأن يعطيهم الله ما وعدهم على ألسنة رسله عليهم السلام، وقد وعد المؤمنين المتقين بالثواب وأوعد العصاة بالعقاب.

- ويقينهم بأن حصولهم على الثواب ليس فى مقابل أعمالهم الصالحة وإنما استحقاقهم نتيجة لوعد الله إياهم به.

٣ - وفى الآيات أن الله قد استجاب لهم فيما طلبوا وأفاء عليهم من نعمه؛ لأنهم عرفوا الله بالدلائل والتفكر فى مخلوقاته ، وواظبوا على الذكر، والتفكر فى مخلوقات الله تعالى

مر أهده، واشتغلوا بدعائه والطلب منه.

* ومن استجمع هذه الاعمال كان جديرا بأن يستجيب الله له.

* وقد استجاب الله لهم بما يلى:

- اخبرهم بأنه سبحانه لا يضيع دعاءهم ولا أعمالهم، الذكر منهم والأنثى فى ذلك سواء، ومن أثابه الله غفر ذنوبه.

- واخبرهم بأنه سبحانه سوف يدخلهم جناته التى تجرى من تحتها الأنهار وهم أصناف:

* منهم الذين هاجروا بدينهم إلى غير بلادهم وأوطانهم،

* والذين أخرجوا من ديارهم ظلما بسبب دينهم،

* والذين أوذوا فى سبيل الله،

* والذين قاتلوا فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا،

* والذين قتلوا فى سبيل الله أى الشهداء،

- واخبرهم سبحانه بأنه سيكفر عنهم سيئاتهم أى لايعاقبهم عليها.

- واخبرهم بأنه سيعطيهم كل ذلك ثوابا من عند الله، وأنه سبحانه على الدوام عنده حسن الثواب.

- المواقف التربوية العامة فى الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من الآية الأولى ما يلى:

أ - أن الله تعالى خلق السموات والأرض وجعل اختلاف الليل والنهار لحكمة بالغة، ولنفع الإنسان فى دنياه ومعاشه، فقد أودع فى السموات والأرض أسباب العيش والرزق، وفى اختلاف الليل والنهار النوم والسعى والزرع والمرعى... إلى آخره مما يحتاجه الإنسان.

ب - وأن المؤمنين المتقين أصحاب العقول الناضجة والقلوب الواعية هم الذين يستدلون بهذه المخلوقات على قدرة الخالق، بل على واسع قدرته، ويجعلون من هذه الدلائل أسبابًا لقوة إيمانهم وزيادة يقينهم.

٢ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ﴾ مايلى:

أ – أن ذكر الله تعالى يجب أن يكون فى كل حين وعلى كل حال،

ب – وأن التفكر فى خلق السموات والأرض يقوى الإيمان ويعززه،

جـ – وأن تنزيه الله تعالى عن كل ما لايليق بجلاله واجب، وأنه لم يخلق شيئا باطلا أو عبثا، وإنما خلقه لحكمة بالغة.

٣ – ويتعلمون من الدعوات التى وجهها المؤمنون أولوا الألباب إلى الله تعالى، ما يلى:

أ – أن أخوف ما يخافه المؤمن هو عذاب النار، وأن من أدخله الله النار فقد أخزاه، وأن أحداً لايستطيع أن ينقذه منها،

ب – وأن صاحب اللب الذكى كلما استمع إلى مناد ينادى للحق وجب عليه أن يتبعه، وإلا أضرّ بنفسه فى الدنيا والآخرة.

جـ – وأن أصحاب العقول من المؤمنين يجب أن يظلوا ذاكرين لله يدعونه ويطلبون منه ويتضرعون إليه وأنهم إذا سألوا الله ودعوه سألوه أحسن ما عنده وأحسن ما ينفعهم: «وتوفنا مع الأبرار».

٤ – ويتعلمون من قوله تعالى: «فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى...» الآية ما يلى:

أ – أن استجابة الله تعالى لدعاء عباده لها شروط وآداب لابد منها.

ب – وأن رحمة الله تتسع لأصناف عديدة من عباده كالمهاجرين من أوطانهم بسبب دينهم والمبعدين من بلادهم، والذين يؤذون فى سبيل الله والمقاتلين فى سبيله والشهداء.

جـ – وأن جنة الله – وثوابه – إنما هى من فضل الله وتفضله وليست نتيجة لعمل عامل من المؤمنين.

د – وأن الله تعالى عنده الثواب الحسن والجزاء الأوفى لمن آمن به واتقاه، وحقق شروط استجابة الله تعالى للدعاء – كما أوضحنا ذلك آنفا –.

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى الآيات كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية من الآيتين الأوليين ما يلى:

أ - وجوب التدبر فى خلق الله تعالى وملكوته، لان ذلك من شأنه شحذ العقول وجلاء القلوب وقوة العزائم، وكل ذلك مما يجعل للداعية قبولا عند الناس، لذكاء عقله وصفاء قلبه، ومن تقبله الناس تقبلوا ما يدعوهم إليه.

ولايساعد الداعية على أن يكون مقبولا عند الناس مثل إقباله على الطاعات والتفكر والتدبر فى خلق الله.

ب - وأن ذكر الله على كل حال وفي كل حين هو الزاد الذى يتزود به الدعاة والعاملون من أجل الإسلام، وأن هذا الذكر يجب ان يشفع بالتفكر والتدبر وتنزيه الله تعالى عن كل ما لايليق به.

٢ - ويتعلمون من قوله تعالى: «فقنا عذاب النار ...» إلى قوله تعالى: «... إنك لاتخلف الميعاد» ما يلى:

أ - أن الدعاء هو مخ العبادة، وأن الإنسان مهما أجاد فما ينبغى أن يعتمد على عمله وإنما الاعتماد على فضل الله حين يدعوه، وقديما قال أسلافنا: «من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وقوع الزلل».

فدعاء الله فى السراء والضراء هو الخلق الذى يجب أن يتحلى به الدعاة إلى الله.

ب - وأن يعلّموا المدعوين أن يلجأوا إلى الدعاء فى كل حين، مع توفير شروط الدعاء، حتى يستجيب الله لدعائهم.

٣ - ويتعلم الدعاة من قوله تعالى: «فاستجاب لهم ربهم...» الآية ما يلى:

أ - أن الله تعالى لايضيع عنده عمل عامل من ذكر او انثى، خيرا كان هذا العمل او شرا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ب - وأن كل من أصيب فى سبيل الله بشىء سوف يجزيه الله أحسن الجزاء. وأن هؤلاء المجزّيين خير الجزاء أصناف منهم المهاجر بدينه الشريد من أجله، ومن أوذى

في سبيل الله ومن قاتل ومن استشهد، على نحو ما أوضحنا آنفا.

جـ- وان الله سبحانه وتعالى عنده حسن الثواب لأنه سبحانه الجواد المحسن، وقد روى عن جعفر الصادق أنه قال: «من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا، انجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد، وقرأ هذه الآية. قال: لأن الله حكى عنهم أنهم قالوا خمس مرات: ربنا، ثم أخبر أنه استجاب لهم».

٢٨- الآيات من السادسة والتسعين بعد المائة

إلى التاسعة والتسعين بعدها

مقابلة بين جزاء الكافرين وجزاء المتقين وجزاء مؤمنى أهل الكتاب

﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾

[آل عمران: ١٩٦ - ١٩٩].

– تقرر الآيات الكريمة أن الكفار مهما كان لهم من إمكانات مادية، وحرية حركة، وأموال وعروض، فإن ذلك ما ينبغى أن يُغَرَّ به أحد، لأن الحق هو أن لهم فى الدنيا متاعاً قليلاً ثم مأواهم جهنم.

* لكن المتقين لهم عند الله تعالى جنات تجرى من تحتها الأنهار، تكريما من الله، لهم لأنهم أبرار، والله يدخر الخير للأبرار.

* والمؤمنون من أهل الكتاب الذين لم يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا لهم عند الله أجرهم.

– وقد اشتملت الآيات على نهى وتحذير، وتقرير لعدد من الحقائق جاءت فى صيغة أخبار، وخبر مؤكد عن جزاء الله تعالى لمؤمنى أهل الكتاب الذين لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا، مما سنوضحه فيما يلى، والله ولى التوفيق.

١ – «لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد» تقرر هاتان الآيتان الكريمتان عددا من الحقائق نشير إلى بعضها فيما يلى:

أ – لايجوز أن يغتر المؤمنون بما ينعم به الذين كفروا فى الحياة الدنيا من أموال وعروض، لايجوز هذا الاغترار فى عهد الرسول ﷺ، ولا فى أى عصر من العصور.

ب – وأن ما فى أيدى الكفار من إمكانات، إنما هو من المتاع القليل فى الدنيا، غير أن

العبرة بالآخرة، والكفار ليس لهم في الآخرة إلا جهنم وبئس المهاد.

٢ - «لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله، وما عند الله خير للأبرار» حيث تقرر هذه الآية الكريمة الحقائق التالية:

أ - جزاء الذين آمنوا واتقوا عند الله هو الجنة التي تجرى من تحتها الانهار، مع الخلود فيها، والخلود حياة بلا موت.

ب - وأن ما ينعم الله به عليهم إنما هو ثواب من عند الله وتكريم، وليس مقابلا لاعمالهم.

جـ - وأن الله تعالى يدخر للابرار الخير كل الخير.

٣ - «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب».
هذه الآية الكريمة تقرر عددا من الحقائق، من اهمها ما يلي:

أ - أن المؤمنين من أهل الكتاب الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر حالهم كحال الذين اتقوا.

والمؤمنون من أهل الكتاب هم - كما قال المفسرون -:

- النجاشي الذي مات وصلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب،

- أو عبد الله بن سلام وأصحابه.

- أو جماعة: بلغت عدتهم أربعين من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه السلام فدخلوا في الإسلام،

- أو مؤمنوا أهل الكتاب عامة.

ب - وأن الله تعالى وصفهم بصفات توضح من هم، وتلك الصفات هي:

- الإيمان بالله،

- والإيمان بما أنزل على محمد ﷺ،

- والإيمان بما أنزل على الانبياء الذين كانوا قبل محمد ﷺ،

- والخشوع لله تعالى،

- وأنهم لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا.

وكل تلك الصفات فى الآية الكريمة السالفة.

جـ - وجزاؤهم عند الله أن لهم أجرا، وكل أجر عند الله عظيم، والله سبحانه عليم بهم وبأعمالهم.

- المواقف التربوية العامة فى الآيات كثيرة، نذكر منها ما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من الآية الأولى، ما يلى:

أ - أن أحدا من الناس لايجوز أن يغره ما يتقلب الكفار فيه من أمن ورخاء، ومال وجاه، لأن ذلك متاع فى الحياة الدنيا. ومن المقرر فى النصوص الإسلامية أن متاع الدنيا قليل وأنه زائل وخادع عن المتاع الحقيقى فى الآخرة.

ب - وأن هؤلاء الكفار لهم مقر ومأوى عند الله، وهو جهنم، وهم خالدون فيها، وهى بئس المهاد.

جـ - وأن ذلك الجزاء منطبق على كل كافر، وإن كانت الآية الكريمة - كما قال العلماء - قد نزلت فى كفار قريش، إذ كانوا يضربون فى الأرض يتجرون ويكسبون، على حين لايستطيع المسلمون شيئا من ذلك، لقلة عددهم ووقوف المشركين لهم بالمرصاد.

٢ - ويتعلمون من الآية الكريمة الثانية، ما يلى:

أ - أن مأوى المؤمنين الذين اتقوا ربهم، ورجوه وخافوه، أحسن مأوى، إذ هو الجنة التى تجرى من تحتها الأنهار.

ب - وأن مأوى المؤمنين أعد لكى يخلد فيه المؤمنون وهو الجنة ونعيمها، وأن هذه الجنة وما فيها جزاء مادى للمؤمنين.

جـ - وأن هناك جزاء معنويا بالإضافة إلى الجزاء المادى هو: الكرامة الزائدة على هذا الفضل، بتكريم الله تعالى إياهم ورضاه عنهم ورضاهم عنه سبحانه وتعالى.

٣ - ويتعلم المسلمون من الآية الأخيرة من هذه الآيات الكريمة ما يلى:

أ - أن أهل الكتاب منهم المؤمنون الذين آمنوا بالله وبما أنزل على محمد ﷺ، وبما أنزل على أنبيائهم، وخشعوا لله، ولم يشتروا بآياته ثمنا قليلا، كما فعل غيرهم.

ب - وأن جزاء هؤلاء كجزاء المؤمنين بشرط أن تتوفر فيهم هذه الصفات التى ذكرناها

آنفا وهى خمسة كما تدل على ذلك الآية الكريمة، هؤلاء لهم أجرهم عند ربهم.

جـ - وأن أجر مؤمنى أهل الكتاب عند الله أجر يليق بهم، ولاينتقص فيه من عملهم وجزائهم شيء، فالله سبحانه وتعالى سريع الحساب.

* وأما غير أولئك من أهل الكتاب - وهم الذين كذبوا محمداً ﷺ، وكتموا ما عندهم مما يؤيد صدق محمد ﷺ وصدق رسالته، وكذبوا عليه وكادوا له، وحاربوه، وألبّوا عليه الأعداء، ومثل هؤلاء أهل الكتاب المعاصرين لنا الذين يكيدون للإسلام والمسلمين ويؤلبون عليهم ويحاربون باسم الصليبية حينا وباسم الصهيونية حينا، وباسم النظام العالمى الجديد حينا، هؤلاء قد أفاضت السورة الكريمة كلها - على نحو ما رأينا - فى صفاتهم وأعمالهم، وتحدثت عن جزائهم، وكشفت خبيث نواياهم.

- المواقف التربوية في مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من الآية الأولى من هذه الآيات ما يلى:

أ - أنه لايجوز لأحد من العاملين من أجل تمكين دين الله فى الأرض أن يخُدع بما يرى عليه الأعداء من قوة وسلطان وغنى وجاه، كما هو - مثلا - شأن الصهيونية والصليبية الجديدة والنظام العالمى الجديد، فإن ذلك كله متاع الحياة الدنيا، والدنيا دول، وصدق الله العظيم: ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ب - وأن المضى فى طريق الدعوة إلى الله والتمكين لدين الله في الأرض ما ينبغى أن يتوقف، لأن العدو أقوى وأكثر عَددا وعُددا، وذلك لأن المتغيرات كلها بيد الله، وموكب الدعوة يجب أن يستمر وقد يقطع الموكب طريقه فى عقود من الزمان، وقد يطوى له الله تعالى الزمان وييسر المكان ويدنى النصر ويحقق الأمل، والله سبحانه وتعالى هو القائل: ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

٢ - ويتعلمون من الآية الثانية من هذه الآيات ما يلى:

أ - أن جزاء الذين آمنوا واتقوا هو أحسن الجزاء، وهو عند الله جنات تجرى من تحتها الأنهار، مع خلود فى هذا النعيم العظيم.

ب – وليس ببعيد بل هو – فى عرف المؤمنين المتوكلين قريب – أن ينصر الله المؤمنين الذين اتقوا، على أعدائهم فى الدنيا، فإن البشارات بذلك كثيرة في كتاب الله تعالى، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126) ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47) ﴾ [الروم: ٤٧].

جـ – وأن ما عند الله خير وابقى للذين آمنوا وعلي ربهم يتوكلون، قال الله تعالى: ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36) ﴾ [الشورى: ٣٦].

وقال جل شانه: «وما عند الله خير للأبرار» في هذه الآية الكريمة التى نشرحها.

٣ – ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: «وإن من أهل لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم ....» الآية ما يلى:

أ – ان أهل الكتاب من يهود ونصارى – أو صهاينة وصليبيين الآن – وإن بيّتوا للمسلمين كل حقد وشر، إلا أنه ليس من المستبعد ان يؤمن بعضهم بالله وبما أنزل على محمد ﷺ، وقد حدث ذلك بالفعل، فإن عددا منهم اليوم قد دخلوا فى الإسلام وأخلصوا دينهم لله، وما نقول ذلك إلا بما علمنا وشاهدنا، ولا نزكى على الله أحدا.

ب – وان مؤمنى أهل الكتاب حديثا – الآن – كمؤمنى أهل الكتاب قديما، يجب أن يؤمنوا بالله وبما أنزل على محمد ﷺ، وبما أنزل إليهم إن كان ما أنزل إليهم على صفته التى أنزله الله عليها، ويجب أن يخشعوا لله ويؤثروا ما عنده على ما فى أيدى الناس والحكام، من جاه وسلطان وعَرَض، ومال وقوة، فلا يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا كما فعل أسلافهم.

جـ – وأن يقترب الدعاة من أهل الكتاب لايهابونهم ولايتحيزون ضدهم، وأن يدعوهم إلى الحق، لانهم أمة الدعوة، والمسلمون أمة الإجابة، أما عداؤهم لمجرد أنهم من أهل الكتاب فليس ذلك من خلق الإسلام ولا أدبه فى التعامل مع الناس.

* وإذا كان المشركون والوثنيون من أمة الدعوة، أفلا يكون أهل الكتاب من هذه الأمة أمة الدعوة؟

* وأمة الدعوة: أى البشرية كلها التى يجب أن تُوجه إليها الدعوة إلى الله تعالى.

٢٩- الآية الأخيرة من السورة الكريمة وهى الآية المائتان

أدب المؤمنين مع أنفسهم ومع غيرهم من الناس

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾

[آل عمران ٢٠٠].

- تنادى هذه الآية على الذين آمنوا طالبة منهم ممارسة صفات فاضلة يتميز بها المؤمنون عن سواهم وهى:

- الصبر على الطاعات، والصبر عن الشهوات، والصبر فى مواجهة الأعداء.

- والمصابرة وهى تحمل المشاق والمكاره فى سبيل الله.

- والمرابطة فى سبيل الله لدفع عدوه المتربص.

- وتقوى الله تعالى طمعا فى الحصول على الفلاح.

- وقد جاءت الآية الكريمة مصدرة بأسلوب النداء، وتضمنت أوامر أربعة تسهم كلها فى إحداث الأمن الدنيوى، والأخروى للمجتمع المسلم، وتوصيله إلى الفلاح والفوز، على نحو ما سنوضح فيما يلى:

١ - فى التعليق على هذه الآية الكريمة قال الفخر الرازى: «واعلم أن الله تعالى ذكر فى هذه السورة أنواعا كثيرة من علوم الأصول والفروع:

أما الأصول ففيما يتعلق بتقرير التوحيد والعدل والنبوة والمعاد.

وأما الفروع ففيما يتعلق بالتكاليف والأحكام نحو الحج والجهاد وغيرهما.

* لما ذكر هذه الأصول والفروع ختم السورة بهذه الآية الكريمة المشتملة على جميع الآداب، وذلك أن أحوال الإنسان قسمان:

- منها ما يتعلق به وحده،

- ومنها ما يكون مشتركا بينه وبين غيره،

* أما القسم الأول فلابد فيه من الصبر.

* وأما القسم الثانى فلابد فيه من المصابرة.

أ - «اصبروا» يدخل تحتها أنواع أربعة من الصبر، وهى:

الأول: الصبر على مشقة النظر والاستدلال فى معرفة التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وعلى مشقة استنباط الجواب عن شبهات المخالفين،

والثانى: الصبر على مشقة أداء الواجبات والمندوبات،

والثالث: الصبر على مشقة الاحتراز عن المنهيات،

والرابع: الصبر على شدائد الدنيا وآفاتها من الفقر والقحط والخوف.

ب - «وصابروا» والمصابرة هى تحمل المكاره الواقعة بينه وبين الغير، ويدخل فيه تحمل الاخلاق الردية من أهل البيت والجيران والاقارب، ويدخل فيه ترك الانتقام ممن أساء إليك، ويدخل فيه الإيثار، ويدخل فيه العفو عمن ظلمك، ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويدخل فيه الجهاد، ويدخل فيه المصابرة مع المبطلين، وحل شكوكهم والجواب عن شبههم، والاحتيال في إزالة تلك الأباطيل عن قلوبهم.

* فثبت أن قوله: «اصبروا» تناول كل ما تعلق به وحده، وصابروا تناول كل ما كان مشتركا بينه وبين غيره»[1].

جـ - «ورابطوا» أى اربطوا خيولكم فى الثغور فى مواجهة الأعداء الذين يتربصون بالإسلام الدوائر.

* ويمكن أن يكون معنى المرابطة: انتظار الصلاة إلى الصلاة فى المساجد. ولكل من المعنيين نصوص إسلامية تساند كلا منهما.

- فالمرابطة بمعنى ربط الخيل فى الثغور، يفهم من قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ... (٦٠) ﴾ [الأنفال: ٦٠].

- والمرابطة بمعنى انتظار الصلاة إلى الصلاة، يؤيدها ما رواه الترمذى والنسائى ومسلم ومالك بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى

---

(١) فخر الدين الرازى: التفسير الكبير: ٩ / ١٢٦ مرجع سابق.

المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط».

* وقال الحسن: «اصبروا على دينكم ولا تتركوه بسبب الفقر والجوع، وصابروا على عدوكم، ولا تفشلوا بسبب وقوع الهزيمة يوم أحد».

* وقال الأصمّ: «كما كثرت تكاليف الله فى هذه السورة أمرهم بالصبر عليها، ولما كثر ترغيب الله تعالى فى الجهاد فى هذه السورة أمرهم بمصابرة الأعداء».

د – «واتقوا الله لعلكم تفلحون» أى لتكونوا على رجاء من الفلاح.

– المواقف التربوية العامة فى هذه الآية الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يلى:

أ – أن المؤمنين مطالبون فى حياتهم بهذه الصفات الأربعة: الصبر، والمصابرة، والرباط، وتقوى الله تعالى، وأن الاتصاف بهذه الصفات يؤدى إلى الفلاح.

ب – وأن الصبر والمصابرة تربية للنفس على معالى الأخلاق ومكارمها سواء أكان صبرا مع النفس أم مصابرة مع الغير، وأن الإنسان بغير صبر ومصابرة قلما يصلح دينه ودنياه، وهو بفقدهما مخالف لما طلبه الله تعالى منه، بوصفه مؤمنا نودى عليه من قبل الله تعالى بتحقيق تلك المطالب.

جـ – وأن الجهاد في سبيل الله وإن كان إعدادا للقوة الموازية لقوة العدو أو المتفوقة عليها، إلا أن المرابطة فى سبيل الله مطلب رئيس فى الجهاد فى سبيل الله تعالى.

د – وأن تقوى الله مطلب جوهرى من المؤمن، ومعناها أن يقى الإنسان نفسه من غضب الله تعالى وسخطه، وعقوبته، ولايمكن ذلك إلا بمعرفة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

هـ – وأن الفلاح مطلب أسمى من بين المطالب كلها إذ هو الفوز بالسعادة عند الله تعالى، ومن سعادة الإنسان عند الله أن يلتزم بمنهج الله فى التعامل مع الدنيا، ليحقق بهذا المنهج سعادة الدنيا والآخرة.

– المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآية الكريمة كثيرة نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

أ – لايستقيم أمر الدعوة و الحركة دون صبر، صبر على الطاعات وصبر عن المعاصى، وصبر على مشاق الدنيا ومتاعبها، وهى متاعب كثيرة تحدثنا عنها بتوسع فى كتابنا: فقه

الدعوة إلى الله تعالى[1].

ب – كما لايستقيم أمر الدعوة والحركة الإسلامية دون مصابرة وتحمل لاخطاء الآخرين.

جـ – ولايستطيع موكب الدعوة إلى الله أن يمضى فى طريقه دون أن يكون جهاد ورباط فى سبيل الله بكل ما تحمله كلمة المرابطة من معنى.

د – وتقوى الله هى خير الزاد فى الطريق إلى الله ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) ﴾ [البقرة: ١٩٧].

هـ – واستهداف الفلاح فى الدنيا والآخرة مطلب دعوى حركى لابد منه من أجل التمكين لدين الله فى الأرض، والآية الكريمة توجه إلى هذا الهدف، بل تجعله هدفا للتقوى، والله تعالى أعلم بما يريد.

---

(١) وانظر لنا: فقه الدعوة الفردية، والمرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله، وفقه المسئولية فى الإسلام، وفقه الأخوة فى الإسلام.

خاتمة الكتاب

الحمد لله الذى بفضله تتم الصالحات، وأرجو الله أن يكون هذا العمل صالحا تم بفضله تعالى، وادخر لى عنده أجره.

وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى سائر رسل الله الكرام، وعلى آل النبى وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين.

ولعلى بهذه الحلقة الثالثة: «التربية الإسلامية فى سورة آل عمران» من سلسلة التربية فى القرآن الكريم أكون قد أسهمت فى توضيح مفهوم التربية الإسلامية، من خلال سور القرآن الكريم التى شرحت والتى بلغت بهذه السورة ثلاثا حتى الآن، بعد: سورة المائدة، وسورة النور.

وأدعو الله تبارك وتعالى أن يوفقنى إلى توضيح معالم التربية الإسلامية من خلال سور قرآنية أخرى عدتها أربع سور، وهى: سورة الأنفال وسورة الأحزاب، وسورة النساء، وسورة التوبة، وعند ذلك أبلغ بعون الله ما أردت من خدمة علمية متواضعة للدعاة إلى الله والعاملين من أجل تمكين دين الله فى الأرض، وسائر المسلمين.

وقد تكون بعد ذلك انطلاقة - إذا مدّ الله فى العمر وكتب التوفيق - إلى سور أخرى من القرآن الكريم، والقرآن الكريم كله هداية، والهداية تربية، بل هدف التربية.

والله تعالى يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

على عبد الحليم محمود،

ثبت موضوعات الكتاب

قائمة بأعمال المؤلف المنشورة

أولا: في الفكر الإسلامي وقضاياه:

١ – مع العقيدة والحركة والمنهج –	نشر دار الوفاء بمصر.
٢ – الغزو الفكري والمجتمع الإسلامي –	دار المنار بمصر.
٣ – الغزو الصليبي والعالم الإسلامي –	دار التوزيع والنشر الإسلامية.
٤ – المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي –	دار المنار بمصر.
٥ – التراجع الحضاري في العالم الإسلامي وطرق التغلب عليه –	دار الوفاء بمصر.
٦ – التعريف بسنة الرسول ﷺ –	دار التوزيع والنشر الإسلامية .
٧ – نحو منهج بحوث إسلامي –	دار الوفاء بمصر.
٨ – السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب –	دار عكاظ بالسعودية.

ثانيا: في التربية الإسلامية:

٩ – تربية الناشئ المسلم –	دار الوفاء بمصر.
١٠ – فقه الأخوة في الإسلام –	دار التوزيع والنشر الإسلامية.
١١ – منهج التربية عند الإخوان المسلمين –	دار الوفاء بمصر.
١٢ – وسائل التربية عند الإخوان المسلمين –	دار الوفاء بمصر.

ثالثا: في فقه الدعوة الإسلامية:

١٣ – فقه الدعوة إلى الله –	دار الوفاء بمصر.
١٤ – فقه الدعوة الفردية –	دار الوفاء بمصر.
١٥ – المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله –	دار الوفاء بمصر.
١٦ – التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة –	دار الوفاء بمصر.
١٧ – عالمية الدعوة الإسلامية –	دار الوفاء بمصر.
١٨ – فقه المسئولية في الإسلام –	دار التوزيع والنشر الإسلامية.

رابعا: في التربية في القرآن الكريم:

١٩ – التربية الإسلامية في سورة المائدة –	دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٠ – التربية الإسلامية فى سورة النور – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢١ – التربية الإسلامية في سورة آل عمران – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

خامسا: فى مفردات التربية الإسلامية:

٢٢ – التربية الروحية – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٣ – التربية الخلقية – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

سادسا: فى فقه الإصلاح والتجديد عن الإمام حسن البنا:

٢٤ – فهم اصول الإسلام – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٥ – ركن الإخلاص في مجال العمل الإسلامى – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٦ – ركن العمل او منهج الإصلاح الإسلامى للفرد والمجتمع – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٧ – ركن الجهاد او الركن الذى لا تحيا الدعوة إلا به – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٨ – ركن التضحية او بذل المال والنفس وكل شيء فى سبيل الغاية – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

سابعاً: فى الأدب الإسلامى:

٢٩ – مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى ادبه – دار عكاظ بالسعودية.

٣٠ – جمال الدين الافغانى والاتجاهات الإسلامية فى ادبه – دار عكاظ بالسعودية.

ثامنا: فى الدراسات الأدبية:

٣١ – القصة العربية فى العصر الجاهلى – دار المعارف بمصر.

٣٢ – النصوص الأدبية تحليلها ونقدها – دار عكاظ بالسعودية.

وهناك كتب معدة للنشر منها:

١ – ركن الطاعة، وركن التجرد وركن الثبات وركن الاخوة وركن الثقة.

٢ – التربية العقلية، والتربية الجسمية والتربية الدينية والتربية الاجتماعية، والتربية السياسية والتربية الاقتصادية، والتربية الجمالية والتربية الجهادية.

٣ – التربية الإسلامية في سورة الانفال وسورة الاحزاب وسورة النساء وسورة التوبة.